تصدير

تعتز كلية الآداب بجامعة الموصل ، وهيئة تحرير المجلة ، باصدار العدد الثالث والعشرين من مجلتها «آداب الرافدين» .

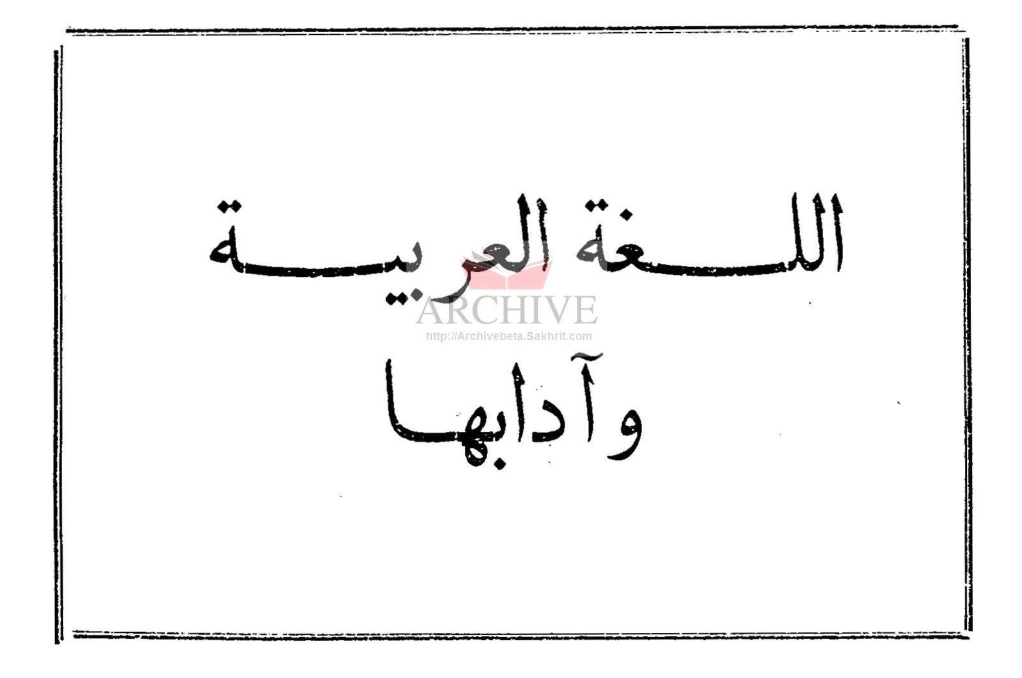
وهذا هو العدد الثاني الذي يصدر في ظروف لم تشهد لها البشرية نظيراً ، في حصار جائر غير مسبوق تجاوز السنة ونصف السنة . ولا ريب ان طبع هذا العدد ، علاوة على طبع صنوه ، يمثل صلابة الارادة العلمية ، وقوة شكيمة المعرفة ،وتحدي المثل العليا لجبروت الظلام الذي يريد ان يخيم علينا.

ويزيد اعتزاز كلية الآداب ، وهيئة تحرير المجلة ، هو ان صدور هذا العدد يأتي في غمرة احتفالات جامعة الموصل بيوبيلها الفضي،بعد ان قضَّت من عمرها خمسة وعشرين عاماً من البذل والعطاء ، استطاعت خلال تلك الفترة تأسيس اصول وتقاليد علمية لتصبح واحدة من افضل الجامعات .

أننا نأمل في أن تواصل المجلة مسيرتها العلمية،وان تحافظ على مستواها الذي عرفه قراؤها عنها ، وعلى حسن ظن الباحثين الافاضل المساهمين فيها . ومما لاشك فيه ان ديمومة المجلة ، والمحافظة على التواصل بينها وبين المعنيين من القراء والباحثين يستدعي العمل الدؤوب على تطويرها ، والاستفادة من الآراء والمقترحات المقدمة اليها .

وفقنا الله جميعاً لما فيه خدمة هذه الامة العريقة .

هيئة التحرير



اللغة العربية وآدابها



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقوّمات النصر في القرآن الكريم

الدكتور

كاصد ياسر الزيدي

الاستاذ بقسم اللغة العربية في كلية الاداب

جامعة الموصل

ليس القتال في القرآن غاية في حد ذاته ، بل هو وسيلة لتحقيق مُثُله وغاياته كما انه لا يخضع للاعتبارات البشرية الذاتية في اختياره ، وإنما يصدر عن اعتبارات عامة تحقق للعقيدة والأمة أهدافها التي دعا الله سبحانه اليها . ولهذا عبر عنه القرآن في مواضيع كثيرة (١) بلفظة (الجهاد) ، تلك اللفظة التي استمدت دلالتها المقدسة الرائعة ، من أهداف القتال الذي مارسه المسلمون، في ظل الإسلام ودعوة القرآن . واتخذت ذلك المفهوم الذي كان له صداه وتأثيره النفسي والعملي في وجود المسلمين على مر العصور ، وإن كان في دلالته أعم .

فالقتال في القرآن ، إنما شُرِع ليحمي المثل والقيم والعقيدة التي جاء بها الإسلام ، وأمر المسلمين أن يستمسكوا بها فكراً وسلوكاً ، وليس هو وسيلة عدوان وقهر بغير حق ، أو بلا مسوّغ عدل ، كما هي الحال في القتال الذي

---

(١) مثل : البقرة : ٢١٨ ، وآل عمران ١٤٢ ، والأنفال ٧٢ ، ٧٤ و٧٥ .

ينشب في كثير من الأحيان لدى الأمم او الأفراد ، الأمر الذي انتهى به إلى النصر عند الالتزام بالمقومات .

وإذا اردنا الحديث عن مقومات القتال المؤدية إلى النصر في القرآن ، فلا بد أن نتناولها من جانبيها ، وهما :

الجانب الذهني التصوري ، وهو المتعلق بالمفاهيم المؤدية إلى تحقيق النصر .
والجانب العملي وهو المتعلق بالواقع والتطبيق ، من أجل إحراز النصر .

أو بعبارة أخرى : إن للقتال في القرآن صورة ذهنية مفهومية ، حملتها الجماعة الاسلامية ، التي آمنت بالدين الجديد والكتاب المجيد . وصورة أخرى مادية عملية راعتها تلك الجماعة في سلوكها وتطبيقها القتالي ، أو كان يجب أن تراعيها .

وتلتئم الصورتان معاً لتكونا الصورة العامة الشاملة للقتال في القرآن ؛ إذ لكل منهما دوره الفعال في التحميس له وتحريض المقاتلين عليه وإحراز النصر ، ومن ثم تحقيق الأهداف والقيم التي شرع من أجلها جهاد الأعداء . تلك القيم والأهداف التي بذلوا من أجلها النفس والمال ، وفارقوا لتحقيقها الأهل والولد .

المبحث الأول : الصورة الذهنية التصورية او (المفهومية) لمقومات النصر :

وهي الصورة التي تقوم عليها (خصائص) القتال في القرآن ، والمفاهيم المتعلقة به . وهي المفاهيم التي حملها المسلمون في أذهانهم وتمثلوها في فكرهم، فصارت جزءاً من عقيدتهم ووجودهم ، قبل أن يخوضوا معارك تحرير أنفسهم من ربقة الضلال والشرك والظلم ، وتحرير الإنسان من ظلم الإنسان في الشرق والغرب . وأهم هذه الخصائص :

١ – ان هذا القتال الذي كُتب على المؤمنين ليس تعسفاً على أحد ، أو قهراً للبشرية ، بل هو فعل يستهدف الخير ويرمي إلى نشر العدل والحق ، وحماية العقيدة السمحة المنزلة من السماء ، وحفظ كيان الأمة من التشتت والصيرورة طعمة للأجنبي الذي يتربص بها الدوائر . ولذلك فإن هذا القتال بعيد عن التعصب المقيت ، وعن ثارات من لم يهتدوا بالإسلام بعدُ ، ونحوهما مما أماته الإسلام . فهو على هذا بخلاف قتال أولئك ، الذي قد ينشب بين فريق وفريق لأتفه الأسباب ، ويدور على وفق أعراف ما قبل الإسلام وحميتها ومعتقداتها ، التي ليس لها مثل تلك الأهداف التي خطها الكتاب المبين .

ولقد فرق القرآن في غير موضع بين القتالين : قتال المسلمين ، وقتال المشركين ، المبني على هذين المفهومين المتضادين ، فقال في أحد المواضع : (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) (١) .

و (الطاغوت) : (فاعول) مشتق من الطغيان وهو تجاوز الحد . وقد قيل في دلالته القرآنية أقوال يجمع بينها كلها تجاوز الحد إلى غير الحق . فقد قيل : (الطاغوت) : الشيطان ، وقيل : الكاهن ، والساحر ، والمارد من الجن أو الإنس ، والصارف عن طريق الخير ، وقيل : الأصنام (٢) .

والحق أن (الطاغوت) اسم شامل يضم كل هذه الأشياء التي يجمع بينها عنصر الطغيان وتجاوز الحق إلى الباطل . ولذلك قال الراغب (٣) (ت نحو ٤٢٥هـ) :

---

(١) البقرة : ٧٦ .
(٢) الراغب : مفردات الفاظ القرآن ص ٣١٤ (طغى) ، والطوسي : التبيان في تفسير القرآن ٣١٢/٢ .
(٣) مفردات الفاظ القرآن : نفس المكان .

«والطاغوت : عبارة عن كل متعد ، وكل معبود من دون الله» .

ومن هذا المنطلق السامي في مفهوم القتال ، وضع القرآن قاعدة تتعلق به ، وهي مقاتلة من يقاتل المسلمين من اعدائهم ، دون الاعتداء الذي يعني : «مجاوزة ما حدّه الله لهم ، مما فيه صلاح العباد» (١) . وهذا قائم على دلالته اللغوية ، إذ أصله في اللغة مجاوزة الحد ، فيقال : عدا فلان :إذا تجاوز حدّه في الإسراع (٢) . وعلى هذا قال تعالى :

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (٣)

وقد قيل في دلالة هذا التركيب الفعلي ، الذي جرى بأسلوب النهي أقوال : منها : (لا تعتدوا) بابتداء القتال ، او بمقاتلة من لا يستحق القتال ، ولم يُرد قتالكم . ومنها : (لا تعتدوا) بمقاتلة النساء والشيوخ والصبيان (٤) او من أعطيتموه الأمان ، وقيل : (لا تعتدوا) بالقتال على غير الدين (٥) ...

ويمكن أن تنضوي هذه الوجوه كلها تحت مفهوم (عدم الاعتداء) ، فيكون مفهومه أعم وأشمل من تقييده بواحد منها ، مع عدم الدليل على ان ذلك الواحد هو المراد . والقرآن – كما هو المروي عن النبي (ص) : «ذو وجوه محتملة ، فاحملوه على أحسن وجوهه» (٦) . وأحسن الوجوه في مثل هذه الحال حمله على العموم ، لأن المعنى يكون به أغنى وأتم ، ما دام اللفظ محتملا

---

(١) التبيان ١٤٣/٢ .
(٢) التبيان ١٤٤/٢ .
(٣) البقرة : ١٩٠ .
(٤) الزمخشري : الكشاف ٢٦٠/١ .
(٥) التبيان ١٤٣/٢ .
(٦) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١٦٣/٢ .

لكل ما ينضوي تحت ذلك المعنى العام من مفرداته التي قيلت ، ويصدق عليها جميعاً .

وقال تعالى في موضع آخر :

(لا ينهكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبرّوهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون) (١) .

٢ ـ إن تحقق الأهداف السامية التي شُرع من أجلها القتال ، لا يتم بغير تحقق النصر ، وإن هذا النصر ـ كما يصوره القرآن ـ مستمد من عند الله ، فهو الذي يمنحه عباده المؤمنين إذا عزموا عليه ، وبذلوا النفس والمال ، قال تعالى : «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» (٢) ، وقال :

(وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) (٣) .

وفي تكرار لفظتي (عزيز) و (حكيم) في الآيتين إشعار بأن مانح هذا النصر ، عزيز لا يضام ولا يقهر ، وأنه حكيم يضع الشيء في موضعه ، فجاء نصره خاصاً بالمؤمنين الصادقين في بذلهم ، الملتزمين بما أمروا به من مسببات النصر ، دون غيرهم من الناس . ذلك ان النصر بما أنه في المفهوم القرآني (في سبيل الله) ، فإن بينه وبين من شُرع القتال في سبيله ـ وهو الله سبحانه ـ ، تلازماً كتلازم المسبّب بالسبب ، والمؤثر بالمؤثِّر ..

وفي استعمال أداة الحصر (إلا) في الآيتين الكريمتين ، مايشعر بأن النصر لا يتحقق إلا بقدرة الخالق سبحانه ومشيئته . ولا يتعارض هذا المفهوم بطبيعة

---

(١) الممتحنة : ٨٠-٨١ .
(٢) آل عمران : ١٢٦ .
(٣) الأنفال : ١٠

الحال ، مع إعداد أسباب النصر وأدواته من مقاتلين ، وتدريب ، وعُدد ، وأسلحة ، ومناورة . بل إن النصر لا يتحقق — كما يصوره القرآن — ، إلا بعد أن تستبين هذه النية في قلوب المؤمنين المقاتلين ، وتتجلى مظاهرها عليهم في مرحلتي الإعداد للقتال ، والممارسة الفعلية له في ساحة النزال .

فليست رمية الرامي منه ، حين يرمي عدوه متمثلا هذه المفاهيم والقيم في ذهنه ومشاعره ، بل هي رمية سدّده الله فيها ، فأناله من عدوه ما أراد . ولهذا خاطب الله نبيه المصطفى القائد محمداً (ص) وجماعة المؤمنين حين ثبتوا أمام كثرة المشركين فهزموهم ، بقوله :

(فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) [1] .

بل ان الآية لتدل على ان الرامي — في الحقيقة — والقاتل للأعداء هو الله وليس النبي (ص) والمؤمنين . قال الزمخشري [2] (ت ٥٣٧هـ) :

«يعني ان التي رميتها ، لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر . ولكنها كانت رمية الله ، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم . فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن صورتها وجدت منه . ونفاها عنه ؛ لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعْلُ الله عز وجل. فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول صلى الله عليه وسلم أصلاً» .

فالعلاقة في هذا النفي والإثبات ، إنما هي علاقة المسبب بالسبب ، من حيث انه سبحانه هو السبب في ذلك الرمي ، بالتثبيت والتسديد واللطف ، ولهذا قال الطوسي ، وقد لفته إسناد القتل إلى الله سبحانه ونفيه عن النبي (ص) وأصحابه :

---

(١) الأنفال : ١٧ .
(٢) الكشاف ٩/٢ .

«نفى الله أن يكون المؤمنون قتلوا المشركين يوم بدر ؛ فقال : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) ، وإنما نفى القتل عمن هو فعله على الحقيقة ، ونسبه إلى نفسه ، وليس بفعل له ؛ من حيث كانت افعاله تعالى كالسبب لهذا الفعل ، والمؤدي اليه ، من إقداره إياهم ومعونته لهم وتشجيع قلوبهم فيه ، والقاء الرعب في قلوب أعدائهم المشركين ، حتى خذلوا وقتلوا على شركهم عقاباً لهم . وقوله : (وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى) : مثل الأول في أنه نفي الرمي عن النبي صلى الله عليه وآله ، وان كان هو الرامي . وأضافه إلى نفسه من حيث كان بلطفه وإقداره» (١) .

٣ ــ إن الثواب الإلهي يتحقق للمقاتلين بمجرد القتال ، لا بشرط القتل . فإذا بقوا على قيد الحياة فهم مأجورون بقتالهم ، وإذا نالوا الشهادة بالقتل ، فهي مرتبة أخرى من الثواب ، أسمى من تلك التي تنال بالقتال من غير شهادة ، إذ تقع في نطاق الأجر العظيم الذي وعد الله به المؤمنين المقاتلين ، فقال تعالى : (ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغْلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) (٢) .

فبين القرآن أن ثواب المقاتل يتحقق بمجرد قتاله ، فينال أجراً عظيماً ؛ إذ أن القتال في سبيل الله ، كما ذكر المفسرون : «أعظم الجهاد وعليه أعظم الأجر» (٣) .

والأجر ، على ثلاث درجات : أعلى وأوسط وأدنى ، فالله سبحانه يؤاجر على القتال في سبيله بالأجر الأعظم ، الأعلى ، ومن هنا وصفه بأنه أجر عظيم (٤) . كما أنه يجعل للشهداء المنزلة الكبرى من هذا الأجر العظيم الذي كتبه للمقاتلين .

---

(١) التبيان ٩٣/٢ .
(٢) النساء : ٧٤
(٣) التبيان ٢٥٧/٣
(٤) التبيان ٢٥٨/٣ .

م/٢/م.أ.ر

٤ ـ إن النصر الذي يطمح اليه المؤمنون من القتال ، والذي وعدهم به ربهم ، إنما هو نصر متبادل بينهم وبينه ، فليس هو من طرف واحد ، بل هو مشروط بالتناصر بينهما ، وقائم على ذلك . فلا يحرز المؤمن نصر ربه له في ساحات الجهاد ـ على ما يقرره القرآن ـ إلا بنصرة ذلك المؤمن له . وليس لله في الواقع حاجة بهذا النصر دون شك ؛ لأنه الغني ، والناس هم الفقراء ، كما ورد ذلك في سورة فاطر [١] ، الا ان في النصر وهو الظفر على الأعداء [٢] إحقاقاً للحق وخيراً للمؤمن نفسه ، وللجماعة المؤمنة كلها ، بل للإنسانية ؛ لأنه نصر للقيم الرفيعة والعقيدة الصحيحة التي ينبغي أن تسود فيها .

ولقد ضمن القرآن للمقاتلين النصر بشرط أن ينصروا ربهم بقوله :

(ياءيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) [٣] .

فعبّر عن ذلك بأسلوب الشرط ، كما هو واضح ، وأراد بنصرتهم ربهم : الاستقامة على دينه ، والعمل على رفعته ، ومجاهدة عدوه ، ودفعه بكل ما أوتوا من قوة وقدرة . فهذا كله من مصاديق دلالة نصرهم ربهم الله وصوره .

إلا ان الذي يفهم من كلام هارون بن موسى (ت أوائل ق ٢هـ) ، تحديده ذلك بتوحيد الله ، فقد قال : «يعني ان يعينوا الله ورسوله حتى يوحد» [٤]. غير ان التوحيد في الواقع في كلامه غاية لا وسيلة ، وإنما الوسيلة أعم من ذلك ؛ لأنّ إعانة الله ورسوله ـ على حد تعبيره ـ أعم من أن تتحدد بشيء دون شيء من أعمال الجهاد ونصرة الدين والحق . ولهذا قال الراغب [٥] :

---

(١) الآية ١٥ .
(٢) هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص ٢٥٠
(٣) محمد : ١٨
(٤) الوجوه والنظائر في القران الكريم ص٢٥١ .
(٥) مفردات الفاظ القرآن ص٥١٦ (نصر) .

«نصرة الله للعبد ظاهرة ، ونصرة العبد لله هي نصرته لعباده ، والقيام بحفظ حدوده ، ورعاية عهوده ، واعتناق أحكامه ، واجتناب نهيه» .

٥ ــ إن هذا النصر الذي يطمح اليه المؤمنون من القتال مضمون ، فهو لا يتخلف أبداً ما دام المؤمنون قد حققوا أسبابه ومستلزماته الذهنية والعملية ، ذلك انه ليس نصر الانسان الضعيف الذي قد لا يغني نصره شيئاً ، بل هو نصر الإله القادر القوي العزيز الذي (ليس كمثله شيء) (١) كما وصف سبحانه نفسه .

فإذا نصر سبحانه من يشاء من عباده ، فلا غالب ألبتة لمن نصر ، ولذلك قال : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) (٢) ، فأفادت هذا النفي المطلق (لا) النافية للجنس في قوله : (فلا غالب لكم) ؛ إذ هي تنفي أن يكون أحد غالباً للمؤمنين ، إن اراد الله نصرهم وغلبتهم .

وعند هذا المفهوم والاعتبار تسقط جميع الحسابات الذهنية التصورية ، والمادية العملية ، التي لا تعي هذه الحقيقة ، وتؤمن بها إيماناً مطلقاً .

وإذا كان النصر خاضعاً لمشيئة الله ، ومرهوناً بقدرته كما دل النص المذكور آنفاً ، فإن الخذلان يكون كذلك ؛ إذ لا ناصر للمؤمنين على الحقيقة ، ان لم ينصرهم الله . وقد دل على ذلك الاستفهام الذي يراد به النفي ، ويُشعر مع ذلك بالتوبيخ في قوله بعد ذلك في سياق الآية نفسها :

(وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) (٣) ؟ !

بل إن القرآن يبيّن ان الله سبحانه قد جعل هذا النصر الذي للمؤمنين حقاً عليه ، يفتح به لهم على أعدائهم ، فقال :

---

(١) الشورى : ١١ .
(٢) و(٣) آل عمران : ١٦٠ .

(ولقد ارسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) (١) .

على أن النصر قد يكون بوسائل أخرى غير الغلبة في القتال ، كالنصر بالحجة (٢) وإلزام الخصم بالحق ، والثبات على المعتقد ، وتكاثر معتنقيه ، فإن ذلك من مصاديق النصر أيضاً . إذ أن الجانب المادي ليس هو الحسم الدائم للموقف القتالي، بل هناك الى جانبه الجانب المعنوي ولهذا يعد الشهيد منتصراً ، مع أنه منقطع عن الدنيا حساً ، وذلك لأن مبدأه الذي استشهد من اجله كتب له النصر على العدو الذي اراد ان يجعله يستغذي ويستسلم ففوّت عليه الشهيد ذلك بشهادته . فهذا في الواقع نصر ، بل إنه من أعظم النصر . ولهذا فإن آية الشهادة تؤكد هذه الحقيقة إذ تقول : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله) (٣) . ومنه قوله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحيوة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (٤) ، دال على هذا النصر الذي هو على ضربين : «نصر بالحجة ونصر بالغلبة» (٥) .

٦ ــ وهو نصر غير محدود بحدود العدد ، بل هو مستمر لاينقطع مدده عن المؤمنين المجاهدين ؛ إذ هم يستمدونه من ربهم كلما احتاجوا اليه : لإعزاز دينهم ، وبالشروط التي شرطها ربهم عليهم ، لتحقيق هذا النصر وإحرازه والتي أشرنا اليها آنفاً ، وهي نصرته بالمفهوم الذي بيناه أيضاً .ولذلك نجد القرآن يذكر المؤمنين بتعدّد هذا النصر الإلهي وكثرته قائلاً :

---

(١) الروم : ٤٧ .
(٢) التبيان ٨٥/٩ .
(٣) آل عمران : ١٧٠ .
(٤) غافر : ٥١ .
(٥) التبيان ٨٥/٩ .

(لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) (١) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإنّ القرآن لم يجعل الكثرة العددية سبباً في نَصْر ، ولا القلّة سبباً في خيبة وخذلان، بل ألغى هذا المفهوم الذي كان سائداً في التصوّر البشري من أساسه ، وأقام النصر على خصائص ومقوّمات تتجاوز الأطر الشكلية المتمثلة بمجرد وفرة العدد وكفايته ، الى المضامين الذهنية والفكرية ، والبواعث النفسية والوجدانية ، التي غدت في ظل القرآن وقيمه ومفاهيمه ، الفاعل الحثيث في إحراز النصر بين فئتين متكافئتين أو متباينتين في العدد .

وبذلك صار المؤمن يحمل في ذهنه ، ويتمثل في مشاعره هذه الحقيقة الجديدة ، التي استمدها من القرآن ، وهي أن الاعداء لو كانوا أكثر نفراً، فإن ذلك لن يغنيهم شيئاً إن أراد الله أن يذيقهم الهزيمة، ويذيق المؤمنين النصر . وهو ما تبيّنه في تهديد الكافرين بقوله تعالى :

(ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأنّ الله مع المؤمنين) (٢) .

وأجرى القرآن هذه الحقيقة على ألسنة مؤمنين من الأمم السالفة ، حين واجهوا جيشاً يفوقهم عدداً ، فقالوا بروح الواثق بالنصر مع قلة العدد :

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) (٣) .

وذلك جواب منهم لمن قال من ضعفاء المقاتلين :

(لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) .

إذ بنى هؤلاء الخائفون الموقف القتالي على تصوّر مادي صرف ، هو كثرة العدو وقلّتهم ، وبناه أولئك على موقف معنوي صِرْف هو ثبات

(١) التوبة : ٢٦
(٢) الأنفال : ١٩ .
(٣) البقرة : ٢٤٩ .

المقاتلين وعزمهم على أن يهزموا عدوّهم ، متوكلين في قتالهم له على ربهم. وهذا المفهوم الذي جاء به القرآن على خلاف ما كان يتصوره العرب قبل الإسلام ، بل غيرهم أيضاً : إذ كانت الكثرة تعني عندهم القوة والعزة ، حتى قال شاعرهم مخاطباً قوماً كُثْراً في عددهم ، كان يراهم أعزاء بهذه الكثرة :

ولستَ بالأكثرِ منهم حصىً ... وإنما العزّة للكاثر (١)

بل إن كثرة المؤمنين أنفسهم في المفهوم الذي جاء به القرآن ، لا تغني عنهم شيئاً ، إن لم يلتزموا بتلك المفاهيم التي أراد لهم الالتزام بها ، وهي أن الكثرة العددية ليست هي المعيار الذي يُحرز به النصر ، بل وراءها ما أكبر منها وأعظم . فليس لهم إذن أن يغتروا بتفوقهم العددي على عدوهم وليس لهم أن يلبسهم الزهو بذلك ، بل لابد من النصر الإلهي والتسديد الرباني ، والبعد عن الاغترار بالماديات وحدها .

وقد تمثل ذلك واضحاً في معركة حنين ، التي بلغ فيها عدد المسلمين اثني عشر ألف مقاتل ، فيما هو مشهور من الروايات (٢) . فلما أعجبتهم هذه الكثرة ، وظنوها السبب المحتّم في نصر سيحرزونه على أعدائهم : كان في هذا التصور إخلالاً بما كان عليهم أن يتصوروه من عدم الاعتداد بالقوة العددية وحدها . فكان ما كان من ترك الأكثرين منهم لأرض المعركة بحيث لم يثبت فيها مع النبي (ص) إلا نفر من الصحابة ، ولكن الله سبحانه رفد هؤلاء الجند الثابتين في الأرض بجند متزلين من السماء ، بملائكة مردفين فكتب لهم بذلك النصر ، فكان تحققه بهذا العدد القليل من المقاتلين من الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام .

---

(١) أبو زيد : النوادر ص ٢٢٠ ، ١ وابن هشام مغني اللبيب ٥٧٢/٢ الشاهد ٨٢٣ . :
(٢) تنظر سيرة ابن هشام ٨٩٢/٣ ، والمسعودي : التنبيه والإشراف ص٢٣٤ .

وقد عبّر القرآن عن ذلك كله بهذا الإيجاز الرائع :

(لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) (١) .

ثم عاد القرآن بعد ذلك ليحدد في أول عهد المسلمين بالإسلام عدد المقاتلين الذين ينبغي أن يثبتوا للأعداء ، والعدد الذي يقابلهم منهم . فجرى ذلك على مرحلتين بحسب أوضاع المسلمين في بدء الدعوة وعددهم إذ ذاك ، ثم ماحدث بعد ذلك من تطوّر وتغير في أوضاعهم ، وما تحملوه من جهد ومشقة من أجل إعزاز الدين وحماية العقيدة . وهاتان المرحلتان هما :

(أ) أن يثبت الواحد من المؤمنين للعشرة من المشركين ، وهي نسبة تشعر — بدون أدنى ريب — بالفارق الكبير جداً بين معنويات المؤمنين ومعنويات المشركين . وقد علل القرآن احراز النصر — مع هذا الفارق البالغ بين العددين — بالفارق الكبير بين ذهنيات ومفاهيم كل من المؤمنين والمشركين ، فوصم الاخيرين بعدم الوعي والادراك لماهية هذا القتال الدائر بين الفريقين وغاياته الخيرّة السامية ، فقال : (ياءيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون) (٢) .

وقد فقه المسلمون هذه الحقيقة في أذهانهم ، واستقرت بعد ذلك في نفوسهم ، وصارت من ثمّ منهجاً عملياً في قتالهم ، فلم يبالوا بعدد الاعداء

(١) التوبة : ٢٦ — ٢٨ .
(٢) الأنفال : ٦٥ .

مثلما لم يبالوا بعدتهم ، فثبتوا لذلك في معركة (مؤتة) ، التي جرت بينهم وبين الروم ، من أجل إحراز النصر المؤزر عليهم ، مع أن جيش الروم كما في سيرة ابن هشام (١) . (ت ١٨٨هـ) وغيرها (٢) ، بلغ فئة ألف مقاتل ، انضم اليه من لخم وجذام والقين وبهراء وغيرها ، مئة ألف أخرى . مما جعل المسلمين يفكرون في أمرهم لمواجهة هذا العدد الهائل من العدو ، إذ لـــم يزيدوا على ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكنهم كانوا تحت إمرة قادة شجعان، وفي مقدمتهم البطل الشاعر الكبير عبدالله بن رواحة الذي لم ينكل لمرأى هذه الجحافل الغاشمة ، ولا لما أصاب قائدين استشهدا في المعركة قبله ، بل حمل الراية واقتحم نحو الأعداء مكبراً مرتجزاً ، حتى استشهد ، فاختاروا بعده خالد بن الوليد لحمل الراية ، «فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه ، حتى انصرف بالناس» (٣) . فكانت من أشق معارك المسلمين . او قُل : معارك الأمة العربية المسلمة ضد الخطر الأجنبي وجوره وتحكمه وكفره .

(ب) أن يثبت الواحد للاثنين ، وهذه هي المرحلة الثانية ، وذلك بعد أن زالت الضرورة بثبات الواحد للعشرة ، وبعد أن قاتل المسلمون فترة طويلة بهذه النسبة ، فأراد الله سبحانه التخفيف عنهم ،فجعل الواحد يثبت للاثنين . وهذا يعني ثبات المسلمين للجيش الذي يبلغ ضعف عددهم ، وهو ما يحتاج إلى شجاعة أيضاً . قال تعالى :

(الئن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابـرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم الف يغلبوا الفين بإذن الله والله مع الصابرين) (٤).

---

(١) ٨٣١/٣
(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٢٣٠ .
(٣) سيرة ابن هشام ٨٣٣/٣ – ٨٣٤ ، والمسعودي : التنبيه والاشراف ص٢٣١ .
(٤) الأنفال : ٦٦ .

فيلحظ من هذا النص الكريم ، ان المقاتلين من المسلمين في حالة ضعفهم يثبتون لمن هو ضعفهم عدداً . وفي قوله تعالى في آخر الآية : (والله مع الصابرين) ، إيحاء لهم بضرورة التحلي بالصبر في مثل هذا الموقف ، إذ يكون عون الله وتأييده ونصره معهم جزاء على صبرهم في سبيله .

٧ ـ وقد يكون النصر سجالا بين المؤمنين وأعدائهم ، وليس له صفة الثبات المطلق دائماً ، إذ هو مرهون بموقف المقاتلين من حيث الاعتبار الذهني التصوري لحالهم وحال أعدائهم ، من مثل كونهم على الحق ، وأولئك على الباطل ، وكون الله ناصرهم وحدهم ، ولا ناصر لعدوهم . فضلاً عن عدم اعتبار العدد في القتال ، كما أسلفنا بيانه .

فهذا الموقف الذهني التصوري ، ثم يلتحم به الموقف المادي العملي ، وهو البذل ، والقتال ، والثبات ، واتخاذ الخطط السليمة ، والانقياد لأوامر القيادة ، وما إلى ذلك مما يتعلق بالعمل الميداني الفعلي . فإن أخل المقاتلون بواحد أو اكثر من هذه الشروط ، فليس لهم بعد ذلك رجاء في النصر الإلهي الذي وعد به المؤمنون الصادقون ، لأن هذا النصر مشروط بنصرهم لربهم سبحانه ، على الوجه الذي سبق بيانه . وهو نصر لا يتجزأ ؛ لأنه ينبغي أن يكون من لدنهم متكامل الصفات في المواقف القتالية . ولذلك فإنهم بعد أن ذاقوا النصر في فاتحة المعارك : بدر ، فقتلوا سبعين من المشركين وأسروا سبعين ، ذاقوا النصر أيضاً في اول معركة أحد ، وهي المعركة التي أعد المشركون لها عدّتها ليثأروا لقتلاهم في بدر ، وأكثرهم من صناديد قريش ورؤسائها . ففر امامهم المشركون لا يلوون على شيء في بادىء الأمر .

إلا ان هذا الانتصار ما لبث أن غدا انكساراً ، وذلك حين أخل عدد من المقاتلين بأهم ما ينبغي الالتزام به في المعارك ، وهو تنفيذ الخطة التي وضعتها

القيادة بدقة واحكام ، والانقياد لأمر تلك القيادة في دور المقاتلين أفراداً وجماعات . فهذا من الناحية القتالية مقرر ولا يُختلف فيه . فكيف إذا كان راسم الخطة نبياً مرسلاً يوحى اليه ؟ لا شك انها ستكون محكمة لا يطرقها الخلل ، ولا يتناولها الارتجال ، والاجتهاد المتعجل الخاطىء . ولاشك أن الحرص على تنفيذها يكون اشد وأعظم .

وخلاصة هذه الخطة التي وضعها النبي محمد (ص) ، ان المشركين حين قصدوا المدينة لقتال المسلمين ثأراً لقتلاهم في بدر ، وعرف النبي (ص) الجهة التي سيقبلون منها ، بعد دراسة لجغرافية المنطقة ، كما تقتضيها فنون الحرب ومتطلباته ، استعد الجيش الإسلامي لهم فيها . ثم بحثوا في الثغرات والمداخل التي يمكن أن ينفذ العدو منها اليهم ، فوجدوا انها من جهة جبل أُحد ، وهو جبل على مقربة من المدينة ، متطامن — ما يزال قائماً إلى اليوم — . ورأوا أن يفسدوا على المشركين خطتهم لو أرادوا أن ينفذوا إلى خطوط المسلمين الخلفية من جهة الجبل ، فوضعوا مجموعة من الرماة عليه ليحموا ظهورهم بهم .

وقد احتمل النبي (ص) بفهمه المسدد من لدنّ ربه ، وبفطنته البالغة وقيادته الواعية ، ان هؤلاء الرماة قد يتركون مواقعهم إذا رأوا نصر إخوانهم المقاتلين على المشركين ، او غلبة المشركين عليهم . وفي كلتا الحالتين يحدث اضرار كبير بإخوانهم لانكشاف ظهورهم لأعدائهم ، كما اشرنا آنفاً ، وصيرورتهم هدفاً لهم من جهتين . ولهذا أمرهم النبي القائد(ص) الا يتخلوا عن مواقعهم على الجبل ، مهما كانت النتيجة، قائلا لهم : «انضحوا بالنبل عنا لا يأتوننا من ورائنا ، ولا تبرحوا ، غُلبْنا أو نصرنا» (١) .

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ١/١٧٦ .

إلا ان فريقاً من هؤلاء الرماة ذُهلوا عن خطورة احتفاظهم بمواقعهم في جميع الأحوال ، حين رأوا جيش المشركين يفر أمام جيش المسلمين ، بعد أن سقط من المشركين قتلى ، وأثخن آخرون بالجراح . فنسي الرماة في نشوة هذا النصر المبين أمر القائد ، وفرطوا فيه ؛ إذ تركوا مواقعهم الحصينة ونزلوا من الجبل يجمعون الغنائم مع الجامعين ، ظناً منهم ان كل شيء قد انتهى ، وان لا صولة ، بعد هذا الانكسار ، للمشركين ، ولم يُجدهم نهي الآخرين – الذين ثبتوا على الجبل – لهم نفعاً ، ولا تذكيرهم بأمر الرسول (ص) ردعاً .

وقيل أيضاً في سبب ترك الرماة المركز طلباً للغنيمة . انهم قالوا : نخشى أن يقول رسول الله (ص) : من أخذ شيئاً فهو له ، وان لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر ، فقال النبي (ص) : ظننتم أنا نغلّ ولا نقسم لكم ؟ ! فأنزل الله [1] سبحانه : (وما كان لنبي أن يغلّ ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة) [2] ، ومعنى يغلّ : يخون [3] ، فنفى عنه الخيانة ، وهي التي لاتليق بمنزلته وعصمته ، ولذلك قال (ص) (لا إغلال ولا إسلال) [4] .

ومهما يكن من أمر فإن ترك الرماة مواقعهم على الجبل ، هيأ الفرصة للمشركين في الهجوم عليهم من الخلف – كما توقع الرسول (ص) تماماً – . وكانوا قد اعدوا لهذا الموقف عدته في حال انكسارهم ، وذلك بأن جعلوا في الجانب الآخر من الجبل فرساناً متأهبين للقتال . ولذلك كان اقتحامهم مفاجأة للمسلمين ، إذ كانوا آمنين من هذا الاتجاه لمرابطة الرماة في المنفذ منه

(١) الواحدي : أسباب النزول ص٧٣ .
(٢) آل عمران : ١٦١ .
(٣) مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٧٦ (غل) .
(٤) المصدر نفسه : المكان نفسه .

اليهم . وشجع هذا الاقتحام فلول المنهزمين من المشركين ، فتماسكوا وعادوا إلى ارض المعركة ثانية ، مما اوقع المسلمين بين نارين ، فكان ما كان من شج جبهة الرسول (ص) ، وكسر رباعيته (١) ، واستشهاد عدد من المسلمين .

فقد أدى ذلك إلى ما هو أضر من مجرد الجراح ، إذ انهزم كثير من المسلمين ، واستشهد فريق منهم ، وثبت مع النبي (ص) عدد من اصحابه فيهم حمزة عليه السلام ، ثم ما لبث ان استشهد كذلك .

وحين انجلت المعركة وعرف المسلمون ما أصابهم ، انبروا يتساءلون ، أو قل انبرى يتساءل كثير منهم قائلين : من اين أتانا هذا الذي أصابنا ؟ . فبين لهم القرآن بصريح العبارة ان ذلك كان من عند أنفسهم ، لتركهم مراكزهم التي امروا بملازمتها على كل حال ، ولعدم التزامهم بأمر القائد (ص) ، وذلك قوله تعالى :

(اوَ لمّا اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثيلها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير) (٢) .

ولما كان هؤلاء المؤمنون قد أحسّوا بخطئهم ، وندموا على ما فرط منهم وصمموا على ألا يعودوا لمثل هذا الخطأ الجسيم والتصرف الفردي الذي قلب ميزان المعركة ، فجعله مرجوحاً بعد ان كان — للمسلمين — راجحاً ، تجاوز عنهم ربهم ، وغفر لهم ما فرط منهم ، فقال :

(ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلّهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم) (٣) .

---

(١) أسباب النزول ص٧٣ .
(٢) آل عمران : ١٦٥ .
(٣) آل عمران : ١٥٥ .

ثم يعمد القرآن بعد هذه التسرية النفسية ، وإزالة الشعور بالخطأ الجسيم ، بشحذ هممهم لئلا يظنوا ان هزيمتهم في هذه المعركة ، معركة أحد ، نهائية، فيقعد بهم الانكسار النفسي عن القتال ، او تستحيل خسارتهم المادية – وهي هنا في الأغلب بشرية – إلى خسارة نفسية ، فيقول :

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (١) .

وعبارة (إن كنتم مؤمنين) بشرطيتها ، لها تأثيرها النفسي في استجاشة ضمائرهم وتحريك إحساساتهم وسط تلك المحنة ، وهي انهم مؤمنون لا ينبغي ان يصيبهم الخور والوهن عن العمل من اجل الدين ، والاستعداد من جديد لملاقاة المشركين كلما هموا بقتال .

٨ – ومما غرسه القرآن في اذهان المؤمنين ، ان القتال وان كان مكروهاً لديهم ؛ لما فيه من المشقة والابتعاد عن الأهل والولد والديار ، إلا أن لهم فيه الخير كل الخير ؛ لما فيه من إحقاق الحق ، ورد الباطل ، ودفع الشر وهو أمر تخفى عاقبته عليهم ، ولكنها لا تخفى على الله الذي يعلم الغيب وحده يقول تعالى في بيان هذه الحقيقة الثابتة :

(كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون) (٢) .

فهذا مما يتعلق بالصورة الذهنية المفهومية لمقومات النصر في القرآن .

---

(١) آل عمران : ١٣٩ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

المبحث الثاني :

الصورة المادية العملية للمقومات :

تتعلق هذه الصورة بمقومات القتال المادية في القرآن ، وهي والصورة الذهنية وجهان لعملة واحدة ، اذ لا يمكن قطع احدهما دون قطع الآخر . فأحدهما مكمل لما يقابله . فالصورة الأولى تتعلق بالمفاهيم ، وهذه تتعلق بالتطبيق ـ تلك تتعلق بالمُثُل ، وهذه تتعلق بالعمل . وهذا يفسر لنا التلازم العضوي ـ الذي وصفنا آنفاً ـ بينهما .

واهم مقومات النصر المادية التي تحدث عنها القرآن هي :

١ ـ اعداد القوة : وهي هنا حسية مادية ، عبر عنها القرآن بقوله تعالى : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) [١] . فالقوة هنا قد تكون عدة للسلاح الذي اهم مادته (الحديد) ، والذي بيّن القرآن قيمته القتالية ، فضلاً عن فوائده الأخرى اليومية ، بقوله :

(وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) [٢] .

فبيّن بعبارة (فيه بأس شديد) ، ما يصنع منه للقتال ، من سيوف ، ورماح ، ودروع ، ومجنّات ، وخوذ،وما اليها من آلات الحرب واسلحته في القديم . ويصدق عليه بدون شك كل ما يصنع منه للقتال في هذا العصر وما يليه من عصور ، كالبنادق ، والمدافع ، والدبابات ، والطائرات ، والصواريخ وما اليها . فهذه ايضاً من مصاديق مفهوم (القوة) في الآية التي ذكرت فيها هذه اللفظة دالة على الإعداد لمجابهة الأعداء . وتنكير اللفظة يوحي بهذا العموم الذي تضمنته .

---

(١) الأنفال : ٦٠ .
(٢) الحديد : ٢٥ .

على ان من مصاديق (القوة) : المقاتلين المدربين المهيئين للنزال ، إذ هـم يمثلون القوة البشرية ، وهي القوة الفاعلة التي تحيل فلز الحديد إلى سلاح ثم تستخدمه في ردع الأعداء . ولهذا قالوا في معنى قوله تعالى :

(لو ان لي بكم قوة) (١) ، أي : «ما أتقوى به من الجند ، وما أتقوى به من المال» (٢) . وجعلوا فيه قوله تعالى : (قالوا نحن اولوا قوة واولوا بأس شديد) (٣) .

ويلاحظ ان في قوله تعالى في الآية التي ذكرناهـا سالفاً : (ما استطعتم) ، اشارة وتوجيهاً إلى اعداد اقصى ما يستطاع من هذه القوة . وان في تنكير (قوة) إيحاء بذلك ايضاً ، اذ يفيد التنكير في بلاغة القرآن ، وفي الكلام ، في جملة ما يفيد ، الإعمام والتكثير . فالقوة اذن كما قال الزمخشري (٤) :

«كل ما يُتقوى به في الحرب من عُدَدها» .

٢ ــ ومن مصاديق (القوة) ودلالتها في الآية الكريمة ، كل ما يحمل المقاتلين إلى ساحة المعركة ويعيدهم منها ، ويمكنهم من الكر على اعدائهم ، والمناورة ، وما إلى ذلك مما يتعلق بالتحرك ، والانتقال السريع والتغيير ، وهي في وقت نزول القرآن : (الخيل) ، وكذلك في اوقات تلت ذلك الوقت . فهي مكملة للقوة التي امروا ان يعدوا ما استطاعوا منها ، ولذلك عطفها عليها ، فقال : (ومن رباط الخيل) .

وظاهر النص يقتضي ان الخيل شيء آخر غير القوة ، بدليل التعاطف بينهما ؛ اذ لا يعطف الشيء على نفسه ، لأنه يقتضي التغاير بين المتعاطفين ، الا ان وراء ذلك شيئاً آخر غير هذا الظاهر ، اذ يصح في البيان العربي

(١) هود : ٨٠ .
(٢) مفردات ألفاظ القرآن ص ٤٣٤ (قوى)
(٣) النمل : ٣٣ .
(٤) الكشاف : ٢١/٢ .

عطف الشيء على ما هو أعم منه توكيداً له، او تشريفاً لمكانته ، وبياناً لقيمته ؛ من بين مفردات العموم الأخرى وذلك بأن يكون من عطف الخاص على العام، وهو اسلوب في القرآن معروف (١) ، وله نظائر ، كالذي في قوله تعالى : (قل من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال فإن الله عدوّ للكافرين) (٢) .

فعطف جبريل وميكال على الملائكة مع انهما منهم . ومثله قوله : (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) (٣) . وحكى ابو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) عن شيخه ابي جعفر بن الزبير انه كان يقول : ان هذا الضرب من العطف «يسمى (التجريد) ، كأنه جرد من الجملة ، وافرد بالذكر تفضيلاً» (٤) .

ولذلك نجد من المفسرين من عد (الخيل) من مصاديق القوة ايضاً، وانه عطف «رباط الخيل» على القوة : «تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به على الأعداء» (٥) . ومعلوم ان العرب تخص الخيل من بين ما يحمل الانسان، بالعناية والاعتزاز ، حتى ان الرسول (ص) ذكرها في غير حديث بما يدل على ذلك ، كقوله : «الخيل معقود بنواصيها الخير» (٦) ، وقوله : «ظهورها حرز وبطونها كنز» (٧) ، وقد فسر الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) (بطونها كنز) في الحديث الاخير بأنه «إنما اراد عليه الصلاة والسلام ، ان اصحابها ينتجونها من الأفلاء ، ما تنمى به اموالهم ، وتحسن معه احوالهم ، ثم بين ان مراده (ص) بظهورها حرز : «انها منجاة من المعاطب ، وملجأ عند المهارب» (٨) .

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٧١/٢ .
(٢) البقرة : ٩٧ .
(٣) و(٤) الاتقان ٧١/٢ .
(٥) الكشاف ٢١/٢ .
(٦) الرضي : المجازات النبوية الحديث ٢٩ ص٥٢ .
(٧) و(٨) المجازات النبوية ، الحديث ٤ ص١٩ .

وقد حدد النبي (ص) في حديث آخر الهدف من الإغارة بالخيل ، في قوله : (قلدوا الخيل ولا تقلدوها الأوتار) ، اذ المراد — اذا حمل الأوتار على الاستعارة : « النهي عن طلب اوتار الجاهلية على الخيل ، بشن الغارات وشب النائرات . ومعنى لا تقلدوها : اي : لا تجعلوها كانها قد قلدت درك الوتر فتقلدته ، وضمنت اخذ الثأر فتضمنته . .....

فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : قلدوا الخيل طلب اعداء الدين ،والدفاع عن المسلمين ، ولا تقلدوها طلب اوتار الجاهلية ، ودخول مصارع الحمية» (١).

وبذلك حولت مهمة الخيل ، بعد ظهور الإسلام من حال إلى حال ، فغدت وسيلة لحماية دين الله ونشره ، بعد ان كانت وسيلة لثارات الجاهلين والاستعداء فيها .

وتشعرنا (ما) وفعل الاستطاعة في قوله تعالى في الآية : (ما استطعتم) ، بوجوب بذل الجهد في الاعداد للمعركة ، ولذا قال الطبري (٢) (ت ٣١٠هـ) : «ما أطقتم ان تعدوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم من السلاح والخيل» .

وحين نبحث عن دلالة (القوة) في الآية ، نجد الروايات طائفتين : احداهما تخصصها بشيء معين ، والأخرى تُعمّمها بما يتجاوز ذلك التخصيص ، إلى ما هو اشمل واعم . فأما الاولى ، فتقول ان (القوة : الرمي) ، روي ذلك عن النبي (ص) بعدة اسناد ، وبعدة عبارات ، فبعضها يقول : (الا ان الرمي هو القوة ، الا ان الرمي هو القوة) ، وبعضها يقول (الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي) ثلاثاً (٣) .

---

(١) المجازات النبوية ، الحديث ٢٠٣ ص ٢٥٧ .
(٢) جامع البيان ٣١/١٣ .
(٣) جامع البيان ٣١/١٢ — ٣٣ .

وثمة رواية عن السدي تقول : ان القوة : السلاح [١] . واما الثانية . وهي التي تذهب إلى العموم فنجدها في رواية عن مجاهد بن جبر (ت ١٠٣هـ) ، فقد روي انه لقي رجلا ومعه (جُوالق) [٢] ، فقال هذا من القوة ، وكان اذ ذاك يتجهز للغزو [٣] . اي ان مجاهداً جعل الجُوالق من مصاديق ما يُعتد به من القوة في مواجهة العدو» . وهذا الوجه هو الذي اختاره الطبري . على وفق قاعدته ومنهجه في الأخذ بالعموم عند اختلاف وجهات النظر ، ما دام الدليل على التخصيص معدوماً ، لئلا يكون تخصيصاً من غير مخصص . وهو الوجه الذي نختاره ايضاً ، ويعضده تنكير (القوة) ، اذ من معاني التنكير وفوائده الدلالة على العموم [٤] .قال الطبري بعد عرضه الأقوال التي ذكرناها آنفاً :

«والصواب من القول في ذلك ان يقال : ان الله امر المؤمنين باعداد الجهاد وآلة الحرب ، وما يتقوّون به على جهاد عدوّه وعدوهم من المشركين ، من السلاح والرمي وغير ذلك ، ورباط الخيل . ولا وجه لأن يقال عنى بـ(القوة) معنىً دون معنىً من معاني (القوة). وقد عمّ الله الأمر بها» [٥] . أو بعبارة أخرى : كيف تخصص (القوة) بشيء معين ولفظها في النص الكريم عام ؟! على أن التخصيص الذي ذهب إليه السدّي في البعد كتخصيص عكرمة الخيل

---

(١) جامع البيان ٣٤/١٣ .
(٢) الجوالق : كيس توضع فيه الأغذية وغيرها . وهو المسمى (الشوال) في بعض الأقطار تحريفاً للكلمة الفصيحة .
(٣) جامع البيان ٣٤/١٣ .
(٤) ينظر : ابن الزملكاني : التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن ص٥٣ ، وقد ضرب له مثلا قوله تعالى : (سلام عليكم) ، وبين أنه يشعر «بعموم التحية واطلاقها» لتنكيره .
(٥) الطبري : جامع البيان ٣٧/١٣ .

في الآية بالإناث (١) ، إذ لامعنى له ولا مخصِّص . وأما الرواية عن النبي (ص) في التخصيص بالرمي ، فقد طرح عنا الطبري مؤونة الإشكال ، حين بيّن أن سندها واهن (٢) ، وهذا يعني عدم الأخذ بها أو الركون الى صحتها.

وفسّر الطبري (تُرهبون) في الآية بـ (تُخزون) (٣) ،معتمداً على روايات عن عبدالله ابن عباس (رض) ، وأورد بيت الطفيل الغنوي شاهداً على ذلك وهو قوله :

ويلُ امِّ حيٍّ دفعتم في نحورهم   بني كلاب غداة الرعبِ والرهبِ

وهو في هذا على رأي أبي عبيدة (٤) (ت ٢١٠هـ) ، إذ كان يفسر الرهب بهذا التفسير ، ويحتج له ببيت الغنوي المذكور .

غير أنا لانرى (الرهب) هنا بمعنى (الخزي) ، بل نراه بمعنى (الخوف) فيكون معنى (ترهبون) : تخيفون ، ويعضد هذا الاختيار السياق ، إذ أن الحديث في الآية عن إعداد مايستطاع من السلاح ، وهو مايليق به الإخافة ، اكثر مما يليق به الاخزاء ، واللغة تساعد على هذا التأويل ، قال الراغب : «الرهبة والرهب : مخافة مع تحرز واضطراب» واحتج له بقوله تعالى : «لأنتم أشد رهبة» وقوله : «رغباً ورهباً» ، وقوله : «ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم» . وقال في تفسير : «وإياي فارهبون» : فخافون(٥) .

وذهب المفسرون في تأويل (الآخرين) من قوله تعالى في الآية نفسها : (وآخرين من دونهم) على أقوال ، فرأى مجاهد أنهم بنو قريظة ، ورأى السدّي أنهم أهل فارس ، وذهب بعضهم الى أنهم الجنّ !! . وأعمّ ابن

---

(١) جامع البيان ٣٤/١٣ .
(٢) جامع البيان ٣٧/١٣ .
(٣) جامع البيان ٣٤/١٣-٣٥ .
(٤) مجاز القرآن ٢٤٩/١ .
(٥) مفردات الفاظ القرآن ص٢٠٩ (رهب) .

زيد — وهو تابعي — المعنى ، فرأى أنهم «كل عدوّ للمسلمين» (١) . وهو الأولى ؛ إذ لادليل في اللفظ ولا في الاثر عن النبي (ص) ، يؤيد ماذهب إليه الذين خصصوه بواحد مما ذكروا . ولذلك حمله الطبري (١) على العموم أيضاً ، بأن جعله شاملاً لكل عدوّ للمسلمين ، سواء أكان من اليهود أم من غيرهم ، على وفق منهجه في الأخذ بعموم اللفظ عند عدم القرينة على تخصيصه بشيء معلوم محدد .

فيتبيّن لنا مما مرّ، أن آية اعداد القوة للقتال قد ختمت بما يعلل وجوب هذا الإعداد ، وقد تضمّن التعليل هدفين مهمين :

أحدهما : تخويف العدو الظاهر العداوة لمنعه من العدوان .

والآخر : تخويف أعداء آخرين ، غير مكشوفي العداوة ، ولا مجاهرين بها ، لايعلمهم المسلمون لأنهم يظهرون لهم المودّة ويستميلونهم بالتزلف إليهم ، مع أنهم يضمرون لهم البغض . ولما كان اليهود في بداية نشوء دولة المدينة المنورة غير مجاهرين بالعداء ؛ وإن كانوا في حقيقتهم أعداءاً ، فإن إعداد القوة على هذا النحو الذي أمر القرآن به ، مثبّط لهم عن كل عدوان يهتمون به . وهذا ماحدث فعلاً في عصر صدر الاسلام . إذ بقي اليهود يحيكون الدسائس ويأتمرون على المسلمين ، ويكاتبون المشركين في مكة سراً ويمالئون المنافقين ، ولا يستطيعون المجاهرة بالعداوة . ثم إنكشف أمرهم بكل وضوح في معركة الخندق ، وهي معركة الأحزاب . فكان لابد من إجلائهم بعد خيانتهم ونقضهم للعهد الذي بينهم وبين المسلمين ،وتنفيذ حكم الله العادل فيهم .

(١) جامع البيان ١٣/٣٨ .

ثم كان ماكان من وقوف بلاد فارس وبلاد الروم في وجه الدعوة الاسلامية حتى جاء أمر الله وهم كارهون . فهذا كله من مصاديق قوله تعالى : (ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم) .

وها نحن اليوم في العراق ، نرى مصداق هذا الإعداد للقوة ، كيف استطاع ردع عدوّنا الصهيوني الغادر اللئيم ، عن أن تمتد يده بعدوان على قطرنا أو قطر آخر من التي كان ينوي الاعتداء عليها ، بل اجتياحها ، ومنها الأردن .

من الاعداد المادي العملي للقتال ، بناء الحواجز المانعة للعدو :

رسم القرآن صورة حسيّة رائعة فريدة لوسيلة من وسائل ردع العدو ، ومنعه من التغلغل في غير أرضه ، أو العدوان على من لاقدرة له على ردعه ، وهو بناء حاجز صناعي ملتحم مع حاجز طبيعي (جانبي جبل) . ويبدو أنه من أعجب الحواجز المتعلقة بالحرب قديماً وحديثاً ، إذ هو مع الدوافع الانسانية الصرف اليه ، يدل على ضرب من الابتكار واستعمال الفكر والتدبير في وضع حد نهائي لعدوان متكرر . إنها صورة التحم فيها قدرة الانسان .

التي وهبها الله له – على الابتكار ، وقدرة الخالق الواهب على الخلق فقد التحم عنصرا (الطبيعة الصناعية ، وهو السدّ) ، (الطبيعة الطبيعية ، وهما جانبا الجبل) ، ليكونا أضخم مانع قتالي عرفته البشرية ، كما يجلّيه وصف القرآن الدقيق له ، وما حفظ التاريخ من أخباره . فقد ذكرت المصادر أن طوله مئة فرسخ (١) ، وارتفاعه مئتا ذراع ، وأنه من حديد ، وعرضه نحو خمسين ذراعاً (٢) .

---

(١) الكشاف ٢٧١/٢ .
(٢) الطوسي : التبيان ٩٤/٧ .

ومهما بولغ في ذلك ، فهو على أية حال تعبير عن ضخامته . ويشعرنا بهذه الحقيقة ، النتيجة التي أدى اليها هذا الحاجز القتالي العجيب : إذ أنبئ تسلط قوم ذوي طبيعة عدوانية ، ذكر القرآن أنهم «يأجوج ومأجوج» ، وأنهم كانوا يفسدون في الأرض قتلاً ونهباً ، حتى ضجّ منهم الخلق . فلما وصل (ذو القرنين) الملك السّياح المؤمن الى منطقة ، وصفها القرآن بأنها (مطلع الشمس) ، ورآها بعض المفسّرين في أقصى الشرق[1] . وجد من ورائها قوماً ضعافاً متخلفين وصفهم بأنهم : (لايكادون يفقهون قولاً) [2] . فعرضوا عليه أن يبني لهم (سدّاً) ،على أن يمنحوه إزاء ذلك مالاً :(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدّاً) .

غير أن الملك الإنساني أبى المال ، الذي منحه الله منه الكثير . وقال لهم: (مامكنّي فيه ربي خير) . ثم طلب منهم بدلاً من ذلك أن يمدّوه بـ(قوة) لبناء السدّ الذي أرادوه ، إلا أنه لم يبن بناءه (سدّاً) ، بل سعى الى جعله (ردماً) وهو أضخم وأفخم من السدّ ، بأن قال لهم: (فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً) ، فالردم — كما يذكر اللغويون — أكبر من السدّ . قال الزمخشري [3] : «ردماً حاجزاً حصيناً موثقاً ،والردم أكبر من السد» . وقال ابن‌منظور [4] : «قيل : الردم أكثر [5] من السد ؛ لأن الردم ماجعل بعضه على بعض» .

---

(١) في ظلال القرآن ١٦/١٢ .
(٢) الكهف : ٩٣ .
(٣) الكشاف ٢٧١/٢ .
(٤) لسان العرب ٢٧/٢ (ردم) .
(٥) كذا في الأصل ، والمعنى يقتضي أن تكون : (أكبر) ، كما في نص الزمخشري مثلا .

وقد ذكروا أن أساس الردم ، كان من الصخر والنحاس المذاب ، والبناء من الحديد والنحاس المذاب . والذي ذكره القرآن ، أن ذا القرنين جعل ذلك المانع الذي بين الجبلين ركاماً من قطع الحديد ،حتى سدّ به مابين الجبلين من فسحة : الى أعلاها : ليساوي الركام الحديدي بقمتي الجبلين . ثم أمر العمال المختصين بالنفخ في الحطب والفحم الذي أحاط الحديد به . حتى إذا حمي وصار جمراً ، صبّ عليه النحاس المذاب ، فاختلط به والتصق بعضه ببعض ، فغدا كتلة صلبة قوية : (حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرغ عليه قطراً) .

وهذا الذي عمله ذو القرنين ، بهدي كان من الله سبحانه ، وهو سبق للعلم البشري الحديث بقرون لايعلم عددها إلا الله (١) .

وبذلك التحم الحاجزان : الطبيعي وهو الجبل ، والصناعي وهو الردم ليكونا حاجزاً حصيناً منع أولئك الهمج من الوصول الى القوم الضعفاء المتخلفين وذلك أنهم حاولوا ارتقاءه فلم يقدروا لعلوه ، وحاولوا ثقبه فعجزوا ؛ لسمكه وصلابته ، وبذلك عاش أصحاب السدّ في سلام وأمن ، وتركهم ذو القرنين الفاتح لأمم الكفر ، والمنافح عن الشعوب المستضعفة ، حامداً ربه على ماوفقه اليه من الخير ، مبيناً لهم أن ذلك من فضل ربه ، لأنه هو الموفق له على صنعه ، وأنه سيكون يوم القيامة هباء منثوراً ، مع مايصيب عناصر الطبيعة وغيرها من دمار : (قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً وكان وعد ربي حقاً (٢) .

(١) في ظلال القرآن ١٤/١٦ .
(٢) الكهف : ٩٨ .

– المصادر والمراجع –

١ – القرآن الكريم .

٢ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي مطابع الشعب – القاهرة – بدون تاريخ .

٣ – الانصاري : أبو زيد ، النوادر في اللغة ، تعليق سعيد الشرتوني ، دار الكتاب العربي – بيروت ، بلا تاريخ .

٤ – الراغب : أبو القاسم الحسين بن محمد : مفردات الفاظ القرآن ، تحقيق نديم مرعشلي ، بيروت ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

٥ – الرضيّ : الشريف محمد بن الحسين : المجازات النبوية ، تحقيق الدكتور طه الزيني ، مؤسسة الحلبي – القاهرة ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م.

٦ – الزركشي : بدر الدين محمد بن عبدالله : البرهان في علوم القرآن ، بتحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط١ ، دار احياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٥٧ .

٧ – الزمخشري : جارالله محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق التنزيل ، مطبعة البابي الحلبي – القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .

٨ – ابن الزملكاني : التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، تحقيق د.أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي ، مطبعة العاني ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م .

٩ – سيّد قطب : في ظلال القرآن ، ط٣ ، دار احياء التراث العربي – بيروت بلا تاريخ .

١٠ – السيوطي : جلال الدين ، الاتقان في علوم القرآن ، ط٣ ، مطبعة البابي ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م

١١ ـ الصاوي المالكي : حاشية على تفسير الجلالين ، راجعها عبدالعزيز سيد الأهل ـ مصر ١٣٨١هـ

١٢ ـ الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان في تأويل آي القرآن ، وبتحقيق محمود محمد شاكر وأخيه ، دار المعارف ـ مصر .

١٣ ـ الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن : التبيان في تفسير القرآن ، المطبعة العلمية ـ النجف الأشرف ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .

١٤ ـ أبو عبيدة : معمر بن المثنى : مجاز القرآن : بتحقيق محمد فؤاد سزكين : ط٢ ، دار الفكر ـ القاهرة ١٩٧٠م .

١٥ ـ المسعودي : علي بن الحسين : التنبيه والإشراف ، دار التراث ـ بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

١٦ ـ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، صورة عن طبعة بولاق : بدون تأريخ .

١٧ ـ هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن ، بتحقيق الدكتور حاتم الضامن ، وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

١٨ ـ ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ـ القاهرة ، بلا تاريخ .

١٩ ـ ابن هشام الحميري : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، تحقيق محيي الدين ، مطبعة المدني ـ القاهرة ١٩٧١م .

٢٠ ـ الواحدي : أبو الحسن علي بن أحمد ، أسباب النزول ، ط٢ ، مطبعة البابي ـ مصر ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

تجربة شاذل في

«قابيل»

أ. د. سالم الحمداني

كلية الاداب / جامعة الموصل

في أحدى قصائد مجموعته الشعرية «ثم مات الليل» ورد «قابيل» رمزاً لتجربة شاذل طاقة .

جاء رمز قابيل محوراً رئيساً تقوم عليه تجربة الشاعر وتركز على اسمه كل صوره الشعرية التي كانت عماد هذه القصيدة المتميزة ، لانها عبرت عن تجربة شخصية عاش الشاعر احداثها في مدينته المجروحة (الموصل) وصور فيها كل ما انطوت عليه تلك المأساة المروعة من مشاهد تجرح الانسانية ، وتذبحها وتستعين بقيمها .

كانت الاحداث التي تلت انتهاء ثورة الشواف في مدينة الموصل عام ١٩٥٩ مروعة وتزامنت تلك الاحداث مع ريادة جيل من الشعراء للشعر الحديث كان في طليعتهم السياب ونازك والبياتي وشاذل وحازم سعيد ، ونفر غير قليل من هذا الجيل الذي قامت على ريادته اقوى معركة شعرية عرفها العراق وقتئذ .

وكان العراق في تلك الفترة مسرحاً للاحداث الجسام وميداناً للتحولات الاجتماعية والسياسية والفكرية .

ولكن المجزرة التي قام بها الشيوعيون في الموصل اثر انتهاء ثورة الشواف المعروفة في عام ١٩٥٩ وقد الهبت مشاعر الشعراء واوقدت عواطفهم وعمقت في نفوسهم تجاربهم الصادقة .

وكان (شاذل طاقة) واحداً من ابرز الشعراء الذين ارتبطت تجاربهم باحداث تلك المجزرة الرهيبة . ولكن كيف عبر عنها وكيف رفد بها تجربته الشخصية الصادقة .

اذا كانت التجربة الشعرية هي الصورة النفسية التي يصورها الشاعر بما ينم عن شعوره واحساسه او انها افضاء بذات النفس بالحقيقة كما هي في خاطره وتفكيره .. او انها ما جسدت معاناة حقيقية للشاعر او انها شعور قوي بجوهر الشيء ونفاذه إلى صميمه .

فانها لابد ان تنبع من ذات الشاعر وتصدر من داخل نفسه وترفض ان تعبر عن التجربة من خارج النفس .

واذا كانت التجربة على هذا القدر من الفهم والادراك فإن الاحداث الرهيبة التي عاشها الشاعر مع ابناء شعبه قد التحمت بتجربة القصيدة السياسية التي عكستها صورقابيل في (الدملماجة)

لقد اكد النقاد على ان تنبع القصيدة الغنائية من التجربة الداخلية للشاعر وان الصدق في هذه التجربة هو ضمانة الجودة الفنية في القصيدة .

وفي ظل هذا الفهم عبر شعراؤنا عن تجاربهم الصادقة .

ان اهم ما يميز تجربة شاعر من تجربة شاعر اخر هو الصدق . وعنوان الصدق في التجربة الشعرية هو كل من قوة الانفعال وعمق الشعور واهتزاز العاطفة وبذلك يعلو شاعر على شاعر وتسمو قصيدة على قصيدة .

° ° ° °

يرى كثير من النقاد ان الصورة في الشعر يجب ان ترتبط بموقف من الحياة وتنقل مشهداً من هذه الحياة ويجب على الصورة كذلك ان تنقل انفعال الشاعر بمشاهد الحياة واحداثها لا ان تنقل الاحداث نفسها .

وبهذا وذاك تستطيع الصورة ان تلخص تجربة الشاعر بعمق وحيوية . وحين تكون التجربة تعبيراً عن تأثر الشاعر بموقف من الحياة تصبح ظاهرة قوية الصلة بالعديد من جوانب الابداع الفني التي منها الصورة وعندئذ تنفصل شخصية الاديب عن طبيعتها الحياتية الخاصة في عملية التجربة الادبية وتصير جزءً فاعلا في عملية الابداع الفني .

° ° ° °

ان تجربة (شاذل طاقة) في قصيدة «قابيل في الدملماجة» التي وردت ضمن مجموعته «ثم مات الليل» تلتحم التحاماً كاملا بكل ما قدمناه بشأن التجربة الشعرية الصادقة وان ما سبق ان سقناه بشأن التجربة في صدقها وعمقها وتجسيدها لمشاهد حيوية من الحياة لينطبق تمام الانطباق على هذه القصيدة التي صارت في رأينا على الاقل ، معلماً في التجربة الانسانية التي تستمد من حياة شعبنا العراقي في مدينة الموصل المجاهدة كل صورها التي عبرت عن مأساة شعبنا عام ١٩٥٩ .

واذا كانت حياة الاديب الشخصية معيناً لا ينضب ويستمد فيها صاحبها مادة لتجربته الابداعية لانه اقرب الناس اليها ، فقد كانت حياة الشاعر التي

هي جزء من حياة شعبه النبع الثر ، الذي استمد منه شاذل طاقة تجاربه الانسانية الصادقة .

وكانت الهجمة الشعوبية التي اعقبت فشل ثورة الشواف في الموصل والتي لطخت تاريخها الاسود بدماء شهداء تلك الثورة قد الحت على ضمائر الشعراء ان يجعلوا من تجاربهم شواهد ادانة تفضح تلك الزمرة التي راحت تعبث بارواح الشهداء وتمثل باجسادهم وتعلق جثثهم على اعمدة الكهرباء وتسحلهم حيث منطقة (الدملماجة) التي صارت بعداً مكانياً لهذه القصيدة .

° ° ° °

لقد تأثرت القصيدة الحديثة منذ نهاية الاربعينات بحركة الشعر الجديد في اوربا شكلا ومضموناً واتخذت من الرمز وسيلة فنية للتعبير عن هواجس الشاعر وتجاربه الانسانية الصادقة .

وكان جيل الرواد الاوائل ، قد اندفع بلا هوادة نحو القصيدة الغربية الحديثة والانكليزية منها على الخصوص فتأثر بالعديد من الشعراء الكبار الانكليز امثال اليوت وستويل وغيرهما .

ومن انئذ صار الرمز والاسطورة بعضاً من وسائل التعبير عن هموم تجارب شعرائنا ومنذ وقتئذ كان التعبير بالصورة اهم ما يميز هذا الجيل من الشعراء وما يميز شاعر من شاعر ايضاً .

ومن هنا ايضاً كان نسيج قصيدة شاذل «قابيل في الدملماجة» يعتمد على تتابع الصور بما يعكس قدرة هذا الشاعر على استيعاب القفزة التي تمت للقصيدة الغنائية الحديثة . فراح (شاذل) وشعراء كثر من جيله يجسدون خواطرهم ويبنون افكارهم بالصورة الادبية ، ويتأثرون بالعديد من الشعراء الرومانتيكيين والرمزيين في بنائهم لصورهم .

وربما تستطيع معظم الصور التي بنيت بها القصيدة ان تقنعنا بجدارة هذا البناء الفني الذي اقترب إلى حد بعيد من نظرية العلاقات وتراسل الحواس التي نادى بها رامبو ومورياس وغيرهما من اقطاب الرمزية الغربية ، ومن هذه الصور قول (شاذل) في وصف الاثار النفسية التي ترتبت على تقطيع اجساد الشهداء وسحلهم وقتلهم والتمثيل بهم :

الريح تئن بلا مطر
والبوم تحوم مذعورة
واخي قابيل يفتش بين الاطمار
عن سر الثورة
عن سكين يغمدها في قلب الصورة
عن حبل ينفع في شنق القمر
واخي قابيل .. يمد إلى (جبل التوبة)
حبلا من دم
ينساح .. يغور إلى قلب التربة

وهكذا راح شاذل يختار مفرداته من ذات الادوات التي استخدمها القتلة في تنفيذ جرائمهم وتجسيد حقدهم ومنها (الحبل والسكين) وما نتج عنهما من دماء وما ارتبط بهما من اثار وشواهد (كالريح والبوم والموت) وغير هذا وذاك .

ان تعبير شاذل عن هذه التجربة لم يتم عبر الخيال او الاسطورة فهي تجربة حقيقية واقعية كانت عينا الشاعر خير مصداق لها .

لكن قدرة الشاعر في استخدام عنصر المخيلة هي التي حققت في صوره قدراً كبيراً من (الفنية) المطلوبة ولان الشاعر لم يجعل من هذه المفردات التي

اشرنا اليها وسيلة يصوغ بها العقل هذه الصورة بل كانت المخيلة هي الوسيلة التي رتبت المفردات ترتيباً خاصاً على حسب تصور الشاعر وعلى قدر ما تهيأ له من عناصر الاثارة وصدق الاحساس

° ° ° °

وعلى الرغم من وضوح العنصر الحسي المستخدم في بناء الصور وهو هنا لا يشكل عيباً على الاطلاق فان الحدث قد فرض على الشاعر الا يتجاوز الواقع لانه قوام القصيدة في هذه التجربة .

والتجارب الواقعية كما هو معروف لا تستغني عن استخدام الشواهد الحسية مادة لبناء صورها والتعبير عن تجاربها . لكن الشاعر الجيد هو الذي يستطيع بما يمتلك من عنصر المخيلة ان يتجاوز عيوب مفردات بنائه ويرتبها ترتيباً يتناسب مع اجواء الحدث ثم يحقق الانسجام بينها وبين العناصر المعنوية في القصيدة كما يحقق في الاثار النفسية المترتبة عنها كل عناصر الاثارة بحيث لاتغدو تلك المفردات احجاراً صماء بل تصبح جزء من البناء الفني ومنسجمة مع العنصر النفسي : وهذا يتضح تمام الوضوح في معظم صور القصيدة والتي منها قوله :

قابيل .. قابيل .. طار الغراب
ومات هابيل ... وجاف التراب
يونس كان ههنا في المساء
من ههنا جروه عبر الهضاب
ومزقوا عينيه .. مصوا الدماء
من قلبه .. حتى استحالوا عواء

فازدحمت على الطريق الذئاب
تنهشه ... خضر الثياب

فقابيل هنا رمز للاثم والقتل والدمار وهابيل رمز للضحية التي استغل الشاعر اسم (يونس) النبي ليضفي عليها قدسية وجلالا .

والاحداث تعكسها الصور الواقعية من (تمزيق العيون) و (مص الدماء) و (نباح الكلاب) و (عواء الذئاب) ونهشها لجثث الشهداء .

وعلى الرغم من واقعية هذه الصورة وحسيتها الا ان العنصر النفسي هو الذي يسيطر على هذه التجربة ، ويجعل منها مقياساً للحكم على فنية الصورة وذلك ان الشاعر لم يهدف في صوره الشعرية هذه ان يقدم نماذج واقعية يستعرض بها احداث مجزرة الموصل بعد انتهاء ثورتهاعام ١٩٥٩ لان تلك الاحداث ارتبطت لدى الشعب العراقي في مدينة الموصل بعملية النضال الوطني والقومي التي قادته هذه المدينة الباسلة ولا تزال الاجيال تتذكرها ، بل ان تاريخ النضال القومي والوطني يحتفظ في سجله الطويل بكل ما حدث في الموصل وعلى الخصوص في منطقة (الدملماجة) المشهورة .

فشاذل هنا لم يقصد الاحداث نفسها بل اراد ان يؤكد على القيم المعنوية والروحية التي ثار من اجلها الابطال وبسببها استشهدوا ليكونوا نماذج حيّة لكل الذين يرفضون المذلة والظلم والاستبداد .

وشاذل حين يستعرض العديد مما وقع في (الدملماجة) كان يدرك تمام الادراك ان شعبنا في الموصل كان يعرف كله تفاصيل تلك المجزرة وبالدقة التي كان يعرفها هو لكن شاذل شاعر وهو يختلف عن غيره من الشعراء في اكثر من شيء : في نوع الاحساس بما حدث وفي عمق النظرة في ما حدث، وفي شمولية ما حدث بل في الحكم على ما حدث وما سيحدث دائماً في ثورة

الانسان على العبودية والاستبداد والتسلط. فالصور الحسية التي ذكرها شاذل والتي هي الواقع بعينه هي التي تستفز مشاعر الناس وتذكرهم بصور البطولات والتضحية لكن هذه الصور بالنسبة لتجربة الشاعر كانت تمتزج بالعنصر النفسي وبالنظرة الشمولية الخاصة التي يحملها ازاء الاشياء بل هي تعكس شعوره القومي بجوهر الثورة . وهذا هو قوام ما نعنيه بصدق التجربة لديه .

وعلى الرغم من التكرار الواضح في صور التجربة الشاذلية هذه ؛ الا ان القارىء لا يشعر باية سيطرة مملة لهذا التكرار وذلك لما وجدناه في قدرة الشاعر في اختيار الدروب الفنية التي سارت فيها صوره ، فتكرار قابيل وهابيل والتراب والغراب والقبر ، لم يضعف من عنصر الاثارة على الاطلاق ومن ذلك قوله :

قابيل .. يا قابيل .. مات الندم
ولن يعود الغراب
يوماً يشق التراب
ويحفر القبر .. ويلقي حجاب
على ظلام العدم

ومما يلحظه القارىء في فكر التجربة الشعرية وموقف الشاعر منها ، ان الشاعر شأنه كشأن بعض شعراء جيله ومنهم السياب لم تسيطر عليه روح التشاؤم على الرغم من انه ينتمي إلى جيل الشعراء الرومانتيكيين الذين استسلموا في الغالب للظروف القاهرة التي حالت بينهم وبين امانيهم واحلامهم .

فعلى الرغم مما نلحظه من إلم حسي وتمزق نفسي الا اننا نحس بوثبة تفاؤلية واضحة كتلك التي اتضحت في اخر قصيدة (انشودة المطر) للسياب والتي عبر عنها بقوله :

في عالم الغد الفتي واهب الحياة
مطر .. مطر .. مطر
سيعشب العراق بالمطر
وقد تحقق للسياب ما تمناه ، فانجلت الغيوم التي كانت تظلل العراق وقت ان نظم قصيدته العملاقة تلك .
وعلى غرار هذا يقول شاذل :
ووقفت على قبري
امتاح في الاعماق المطموره
في قلب البئر المهجوره
رؤيا الفجر
فانزاح عن العين الثره
وشل درن
وتحوطها غصن
عطشان الجذر إلى قلب الصوره
في افق عربي الفجر
ان هذا التصور للامل والتفاؤل شبيه بذلك الذي عبر عنه السياب بالصورة السالفة التي انتهت بقوله
سيعشب العراق بالمطر

• • • •

ومن الظواهر التي تتضح في البناء الفني لقصيدة «قابيل في الدملماجة» ظاهرة التكرار التي هي مفتاح للفكرة المتسلطة على الشاعر .

والتكرار الناجح لا يجيىء في القصيدة عفوياً بل يتعمده الشاعر تعمداً ليضيء به اعماق الفكرة التي تستحوذ على القصيدة .

ولذلك يرتبط التكرار بقوة الانفعال وعمق الشعور اللذين يتسلطان على الشاعر فيلجآنه اليه .

في قصيدة(قابيل) لشاذل طاقة اكثر من شيء يتكرر غير ان اكثر مايتكرر كلمة «قابيل» التي تتمحور التجربة عليها والتي تعكس الدلالة الفكرية في القصيدة وهي ترتبط في تجربة الشاعر بالقتل والموت والدم والندم بل انها تمتاح من قصة قابيل مع اخيه هابيل التي ورد في القرآن الكريم بعض صورها:

قابيل ياقابيل .. مات الندم

قابيل ياقابيل .. طار الغراب

وتجيء لفظة (هابيل) في القصيدة مرتبطة بالموت والاغتيال والقدر والغدر:

من غالك ياهابيل .. اخوك ام القدر

هابيل مات

هابيل مات

ولكي يؤكد الشاعر على بشاعة مالجأ اليه القتلة في تمزيقهم اجساد الشهداء وتقطيعهم لجثثهم ومحاولتهم ابادة جنسهم البشري لجأ الى تصوير ذلك بتكرار عبارة (الافتات) وذلك بقوله :

هابيل مات

هابيل مات

لم يبق منه .. من دم الانسان

من لحمه الخجلان

الافتات

الافتات

ويجيء تكرار (من) الاستفهامية اكثر من اي تكرار آخر . وقد ورد في صور (شاذل) بشكل بارع ، اذ ارتبط بكل مفردات الجريمة التي مارستها الشعوبية في مدينة الموصل عام ١٩٥٩ وما آلت اليه من اعمال بشعة وتصرفات تتنافى مع ابسط المبادىء الانسانية المعروفة ان تكرار (من) الاستفهامية وبالطريقة التي استخدمها الشاعر يؤكد استيعاب شاذل لمفردات تجربته الصادقة ويؤكد معها عمق هذه التجربة وبعدها الانساني كما يعكس مصداقية الشاعر وعنفوان عاطفته وعمق شعوره وحرصه على ان يتفاعل مع الحدث تفاعلاً يخلو من الغلو ، ولا يلجأ الى ملكته الخيالية الا بالقدر الذي يستطيع به ان يوصل الى كل جمهور القراء الصورة الواقعية الحقيقية لما حدث فعلاً وبطريقة تتوافر معها لدن الشاعر الامكانات الفنية والاسلوبية التي ترتفع بالصورة الفنية الى مستواها المطلوب .

يقول (شاذل) في تصوير اعمال الشعوبيين بعد فشل ثورة الشواف وفي القصيدة نفسها :

من شك الخنجر في صدري
من دق هنا مسماراً في قلبي
من اغرق يونس في البحر
من خضب اعراق الصخر
من لف على ساقي حبلاً ابتر
من احرق في قاع البئر
مسكاً اذفر
من رش على جرحي ملحاً احمر
من اشعل في قلبي صبحاً انور
من غالك ياهابيل .. اخوك ام القدر

لقد تكررت (من) الاستفهامية في هذا المقطع فقط تسع مرات وارتبطت بكل صور الجريمة البشعة التي نفذها الشعوبيون في شهداء الموصل عام ١٩٥٩. ارتبطت بكل وسائل التعذيب والقتل والتدمير من حرق وقتل وسحل وتعليق وتعذيب واغراق .

ان مفردات التجربة الشاذلية هنا : حقيقية واقعية ومرئية حسية ولكنها لم تبن بناء مادياً ينفصل عن نفس الشاعر وشعوره واحساسه بل انها تضوأت بكل ماحملته نفس شاذل من عواطف انسانية صادقة ومشاعر بشرية عميقة . وساعد على نمو هذا العنصر النفسي عناصر الموسيقى الداخلية في تآلف الحروف والعبارات والصور في اتساق تام مع موضوع القصيدة وماتم لها من وقع ، اثارته الموسيقى الخارجية بفضل القافية التي تحققت بسكون الراء حيناً وبكسرها حيناً آخر .

ان تأثير العنصر النفسي الذي اثاره الانسجام بين الموسيقى الداخلية والموسيقى الخارجية كان واحداً من اقوى الوسائل التي اوصلت تأثير تجربة الشاعر الى المتلقي وذلك بفضل حركة كسر الياء وسكونها . وهذا دليل على فهم الشاعر لما تحتاجه ابعاد تجربته الابداعية من وسائل فنية تستطيع بها التأثير في المتلقي .

ولقد وفق الشاعر في رفد هذا التكرار بالمفردات الملائمة والعبارات التي تنسجم مع الحدث ووفق كذلك في طريقة البناء الفني لصوره التي توافر فيها عنصر المتانة والوضوح في آن واحد .

وربما يبتعد في بناء صوره عن الابهام والغموض مراعاة لذوق وفهم الجمهور العادي الذي يهمه امر هذه القصيدة .

لكن هذا الوضوح لم يؤثر في تحقق المتانة التي يستوجبها تصوير الحدث تصويراً تتوافر فيها الشروط الفنية المطلوبة .

ان التكرار المقصود الذي يضييء الأعماق البعيدة في تجربة الشاعر وفتح ماانغلق منها على المتلقي ضروري في التعبير عن التجربة وبنائها .

هذا فضلاً عن تكرار الحرف (عن) وتكرار (واو العطف) الذي هدف الشاعر من ورائه التأكيد على الفكرة الملحة على الصورة التي يريد ايصالها الى المتلقي .

الريح تئن بلا مطر
والبوم تحوم مذعوره
....
ويطير غراب
ويئز سحاب
ويئز سحاب



وتموت البذرة ، يقتلها سم احمر

ان تكرار واو العطف وهي كثيرة في القصيدة لم تأت عفوية بل جاءت لتؤكد على مافي نفس الشاعر من تصور خاص لاحداث (الدملماجة) .
ومثلها تكرار (عن) كقوله :

عن سكين يغمدها في قلب الصورة
عن حبل .. ينفع في شنق القمر

ان ماحدث لشهداء مجزرة الموصل من قتل وسحل وتمزيق شيء يعرفه كل الذين واكبوا الثورة او سمعوا احداثها . لكن موقف الشاعر من ذلك يختلف عن موقف الآخرين كما ذكرنا ــ ولذلك جاء تكرار الحروف مبنياً

على فهمه الخاص وموقفه الشخصي من تلك الصور وعلى نظرته العميقة الى المباديء التي تتصل بها.

ومن هنا تكون للتكرار دلالاته المعنوية والفنية التي تتصل بالتجربة الشعرية في هذه القصيدة .

ان صدق الاحساس في تجربة القصيدة هو الشيء الذي يمتاز به شاعر من شاعر ولا يتبين هذا الصدق بالقياسات الحسية التي تقاس به الاشياء المنظورة المادية ، لان الشعور الصادق لايقوم الا على صدق احساس الشاعر .

وعلامة ذلك في رأينا هو احساس المتلقي بما احس به المبدع وبمعنى آخر ان التجربة الشعرية لايجب ان يقتصر تأثيرها على المبدع حسب بل يتجاوز ذلك الى المتلقي . ولذلك ترفض معظم المذاهب الادبية ان تبتعد القصيدة عن المتلقي ابتعاداً شديداً فتنتهي الى الابهام والغموض وهذا لايعني رفض الرمز الذي يوحي . ولقد سبق ان احتج على (ملارميه) زعيم المذهب الرمزي ، العديد من اقطاب المذهب نفسه ومنهم موريابس واضع أسسه .

ان تجربة شاذل طاقة في قصيدة (قابيل في الدملماجة) تجربة شخصية تستمد مادتها من احداث اعقاب ثورة الشواف ، وما نتج عنها من حوادث مروعة .

ولسنا نعني بالتجربة الشخصية ان الشاعر استمد احداثها من ذات نفسه وحسب فشاذل كان واحداً من ملايين العراقيين الذين اكتووا بنار تلك الاحداث ولكنه كان شاعراً ينتمي الى جيل من الشعراء ، افرطوا في حساسيتهم ازاء كل الاشياء .

واحساسه المفرط بالذي حدث بعد الثورة لم يقتصر على شخصه وحسب بل تجاوزه الى غيره من الذين قرأوا هذه القصيدة بالذات ،وتأثروا بها وكان

لديهم من الاحساس في ماقرأوا مايجعلنا نحكم على صدق احساس الشاعر وصدق موقفه .

وسر تأثير القصيدة في رأينا ان صاحبها حقق فيها شيئين مهمين رئيسين : مراعاة الجمهور وقدرته على فهم التجربة والاحساس بها ، وتوافر اكبر قدر من الامكانات الفنية التي لم تقف مراعاة الجمهور حائلاً بينها وبينه . وربما كان رمزها الخفيف الذي اختاره الشاعر لها هو الذي حقق لها قدراً كبيراً من جمال الأسلوب .

فتجربة شاذل في احساسه الصادق ونفاذ شعوره لم تقتصر على شخصه وحسب بل قد تمت بشكل من الاشكال لمعظم الذين قرأوا القصيدة وتأثروا بها .

والصور التي بنيت بها هذه التجربة لم يستعص فهمها على معظم الذين قرأوها وتلذذوا بقراءتها وفهموا مضمونها واعجبوا بما فيها من لفتات فنية سواء بما يتصل بالمفردة والعبارة المؤدية او بما تنتهي اليه الصورة المؤثرة على رغم ما ورد فيها من تكرار — كما بينا —

وسر ذلك في رأينا ما توفر في القصيدة من صدق الاحساس في التجربة اولا وفي امكانات فنية جمعت بين البساطة والمتانة ثانياً .

ويكفي ان نحيل القاريء الكريم إلى اي مقطع من مقاطع القصيدة ليطلع على ما فيها من سمات جمالية تتصل بالمفردات المختارة والعبارات المؤدية والصور الضليلة كما تتصل تلك السمات بالاساليب التي تخيرها الشاعر في التعبير عن تجربته .

من ذلك قوله في احدى مقاطع القصيدة :

وتولى آذار ...
لم تسق ترابي امطار
وانشقت اعماق الحجر
وتفجر تيار
فبعثت امزق اسطوره
نسجتها اوهام الفجر
واسائل نفسي المقبوره
عن ذاتي .. عن سر الصوره

اما ما يتصل بالمضمون فيكفي ان الشاعر في قصيدته هذه كان دقيقاً في رصده لحركة الثورة وحركة المجتمع . بل يكفي ان تعبيره عن هذا المضمون يشكل موقفاً وطنياً وقومياً فضلا عما في هذا الموقف من بعد انساني عميق .



الاصوات اللغوية عند المبرد

الدكتور حازم طه
استاذ مساعد
كلية الاداب – جامعة الموصل

للعرب جهود موفقة في ابتكار علوم النحو والصرف والدراسات الصوتية ، جهود نذكرها مع الإعجاب والإجلال . نعجب بهم لأنهم احاطوا باللغة العربية إحاطة شاملة ولأنهم استوعبوا شواردها والنادر منها ، فنراهم يجمعون في الموضع الواحد ما يمكن ان تستنتج منه قاعدة ، ويجمعون ما خرج عن هذه القاعدة ويحكمون عليه بالشذوذ والندور . ونعجب بهم لأنهم تعمقوا في البحث وادركوا العلل والأسباب وحسن تهديهم إلى القياس ، ونجلهم لأمانتهم وحرصهم على ان يصلوا إلى الحقائق وخوفهم من ان يقولوا في اللغة بغير علم كأنما هي دين لا يجوز فيه التهاون والتسامح ، بل يجب ان يفرغ المرء جهده ليصل إلى الحق ، ولا يجوز ان يثق المرء بأول خاطر او يسكن إلى الراحة والدعة .

إن ابتكار العلوم يقتضي اموراً لابد من وجودها ليمكن الإبتكار اولها : عقل مبتكر منطقي يبحث عن العلل والأسباب ويقيس الأمور بأمثالها .

ثانيها : حب للبحث والاستقصاء والابتكار وإيثار له على جميع حظوظ الدنيا وما فيها من متع وزخارف .

ثالثها : إيمان بجدوى هذه البحوث بانها تهدف إلى غرض معين وتوصل إلى فائدة مطلوبة .

رابعها : بيئة تقدر العلم والعلماء وتبحث عن مبتكرات القرائح وثمرات القرائح وترى فيها غذاء عقلياً لا تقل حاجتها اليه عند حاجتها إلى غذاء الأجسام وما من ريب في ان البيئة الإسلامية في البصرة والكوفة في عهد وضع النحو والصرف ودراسة الأصوات اللغوية كانت تستكمل هذه العناصر (١) .

واما العقول المبتكرة الخصبة التي كانت تعلل وتقيس لتهتدي إلى المجهول العقلي ، فقد وجد منها في هذا العصر عدد ليس بالقليل ، ومن هؤلاء الخليل ابن احمد الفراهيدي الذي كان عقله آية في البحث والإبتكار والتعليل والقياس . لقد بلغ الغاية القصوى في معرفة قوانين العربية قوانين مفرداتها ومركباتها . وقد كان تلميذه سيبويه ممن رزق ملكة التأليف والتنظيم فأخذ علم الخليل ونظمه واخرج الكتاب في النحو ، فطارت شهرته في الآفاق ثم وضع الخليل كتاباً في اللغة سماه كتاب العين وهو الأصل لكل المعاجم التي ألفت بعده .

فاللغة العربية إذاً تدين بفضل كبير للخليل بن احمد الفراهيدي الذي أوتي حظاً عظيماً من الثقافة اعانته قبل ان يؤلف معجمه على ان يفقه اللغة حق الفقه من حيث اخواتها وان يرتب معجمه على هذا الأساس .

وما من ريب في ان المبرد (ت ٢٨٥هـ) (٢) الذي اتى بعد الخليل بن احمد

---

(١) مجلة الازهر ، المجلد ٢٤ / ص ٥٨ .

(٢) لم يدرك المبرد الخليل ، وما ذكر في العقد الفريد ١١٦/٢ من أن محمد بن يزيد النحوي قال أتيت الخليل فوجدته جالساً على طنفة صغيرة فوسع لي ، وكرهت أن أضيق عليه فانقبضت فأخذ بعضدي وقربني الى نفسه وقال : إنه لا يضيق سم الخياط بمتحابين ، ولاتسع الدنيا متباغضين» تحريف . وهذا الحديث انما كان بين الخليل وتلميذه ابي محمد اليزيدي المتوفى سنة ٢٠٢ كما ذكر في خزانة الأدب ٤٢٦/٤ .

(ت ١٧٥هـ) بنحو قرن وعشر سنوات إذا تحدث في هذا المجال فإننا نتوقع منه جديداً يضاف إلى جهد الخليل بن احمد بحيث لا يمكن لدارس اللغة وتطورها ان يغض النظر عن جهود المبرد .

ونكتفي هنا بأمثلة من المقتضب عن مخارج الحروف وصفاتها ولهجات العربية ، واخرى من الكامل يعالج العيوب التي تصيب النطق .... وكل اولئك ذخيرة مهمة في فرع من فروع علم اللغة ونعني به الصوتيات ذلك الفرع الذي نال عناية فائقة من لدن الدارسين في العصر الحديث في ضوء ما تطور اليه علم صوتيات اللغة مطبقاً على علم اللغة .

ولعلنا نوفق في ترتيب البحث على النحو الآتي :

١ ـ مخارج الحروف
٢ ـ صفات الحروف
٣ ـ اللهجات العربية
٤ ـ عيوب النطق

(١) مخارج الحروف

لا نزاع في أن دراسة اللغة من حيث مخارج الحروف وصفاتها في العصر الحديث قد اتسع نطاقها ، وغزرت مادتها ، وتبوأت مكاناً رفيعاً في عالم اللغة .

وقد ذكرنا آنفاً ان الخليل بن احمد كان له الفضل الأكبر ، والنصيب الأوفر في استحداث هذا العلم . وما من ريب في انه مجهود ضخم رائع قدمه الخليل وكان بحق آية من عبقريته النادرة فالخليل بن احمد إذاً كان مورداً ولم ينقطع المورد بعده ، بل كان تلميذه سيبويه قد اقتفى اثره فأتم هذا التلميذ ما بدأ به استاذه من تقسيم الأصوات ، وعدل في طبيعة هذا التقسيم

واساسه فلم يقمه على اساس مخارج الحروف وحدها ، بل اضاف اليه اساساً آخر مهماً هو صفاتها) (١) . ويرى بعض المحدثين (٢) ان سيبويه لم يكن مبتكراً . بل اورد في آخر كتابه المشهور آراء الخليل في اصوات اللغة في دقة وامانة . ولا دليل على ذلك إذ لم يشر سيبويه إلى ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى لماذا نستبعد ان يكون سيبويه قد طور ما بدأ به الخليل .

وإذا تقصينا الكتب النحوية والصرفية التي الفت بعد كتاب سيبويه وأمعنا التفكير فيها وجدنا المبرد وابن جني والزمخشري وابن يعيش وغيرهم قد عنوا أيّما عناية بهذا العلم .

فالمبرد في مؤلفه «المقتضب» كان له جهد طيب في دراسة مخارج الحروف وصفاتها . وظاهر من طريقة عرضه لمخارج الحروف وصفاتها قد اتخذ سيبويه صاحب الكتاب قدوة له فجرى على خطته وسار على منهجه وان كان قد خالفه بعض المخالفة في تقديم بعض الحروف على بعض كما سنرى .

قال المبرد :

«مخارج الحلق .

للحلق ثلاثة مخارج :

(فمن اقصى الحلق مخرج الهمزة ، وهي ابعد الحروف ويليها في البعد مخرج الهاء والألف .

والمخرج الثاني من الحلق مخرج : الحاء والعين .

والمخرج الثالث الذي هو ادنى حروف الحلق إلى الغم مما يلي الحلق مخرج: الخاء والغين) (٣)

---

(١) الزيدي : فقه اللغة العربية ص٤١٣ .
(٢) انيس : الأصوات اللغوية ص١٠٥ .
(٣) المبرد : المقتضب ١٩٢/١

فالمبرد في هذا التقسيم قد حذا حذو سيبويه في تقسيمه لمخارج حروف الحلق الا المخرج الثالث اذ قدم المبرد الخاء على الغين على حين اورد سيبويه الغين على الخاء

قال سيبويه :

(فالحلق منها ثلاثة فأقصاها مخرجاً الهمزة والهاء والألف

ومن وسط الحلق مخرج العين والحاء وأدناها مخرجاً من الفم الغين والخاء) (١)

قال مؤلف كتاب الأصوات اللغوية (٢) (وقد اشار ابن الجزري في كتابه «النشر» إلى هذا الخلاف الوهمي بقوله «فنص مكي على ان الغين قبل الخاء، وهو ظاهر كلام سيبويه وغيره ، ونص شريح على ان الحاء قبل، وهو ظاهر كلام المهدوي . ومن الغريب ان «شريح» الذي قدم الحاء على العين عكس القضية ، فقدم الغين على الخاء ، وكذلك فعل مكي فقدم الخاء على الغين» .

ويبدو ان هؤلاء المتأخرين حين نطقوا بكل من الصوتين لاختبارهما احسوا فرقاً بينهما ، ولكنهم لم يفطنوا إلى ان هذا الفرق مقصور على ان احد الصوتين مجهور . والآخر مهموس ، اي ان الوترين الصوتيين في الحنجرة يهتزان مع احدهما ، وهو المجهور. ويسكنان او يصمتان مع الآخر ، وهو المهموس ، فلا فرق بين العين والحاء في المخرج . وإنما الفرق في ان العين مجهورة والحاء مهموسة ، وكذلك الشأن في الغين والخاء

وقد فصل ابن خروف في هذا الخلاف الوهمي بكلمته التي رواها صاحب كتاب النشر ، ونصها : قال ابن خروف : ان سيبويه لم يقصد ترتيباً فيما هو من مخرج واحد .

---

(١) سيبويه : الكتاب /٤٣٣ .
(٢) أنيس : الأصوات اللغوية ص١١٣ .

وهذا حق تبرهن عليه التجارب الحديثة ، ولسنا نجد في كلام سيبويه ما يؤخذ عليه بصدد اصوات الحلق . وما اشار اليه ابن الجزري من ان الخلاف وهمي اجدى وخليق بالقبول

(ثم اول مخارج الفم مما يلي الحلق مخرج القاف) (١)

في هذا المقام يجدر بنا ان ننبه على شيء جدير بالإنتباه . وخلاصة ذلك ما ورد عن بعضهم إلى انه ينبغي ان ترد الكاف قبل الخاء والغين لا بعدهما ، واعتذر لذكر العلماء العرب القاف قبل الخاء والغين بأحد امرين :

الأول : لعل علماء العربية اخطأوا في تقدير الموضع الدقيق لنطق القاف ، وهذا احتمال يراه بعض الدارسين المحدثين

الثاني : وهو ما تشير الدلائل إلى رجحانه ، هو ان العرب ربما كانوا يتكلمون عن قاف تختلف عن قافنا الحاضرة . فليس من البعيد انهم يقصدون بالقاف ذلك الصوت الذي يمكن تسميته «الكاف» او ما يشبه الكاف او لفظ الكاف في لهجتنا العامية في العراق نحو كال في قال وهي بهذا الوصف تكون حقاً بعد الخاء والغين (٢)

والحق هو اني لا ارى افضل من إعتماد رأي مؤلف كتاب الدراسات اللهجية والصوتية في الرد إذ يقول (٣) : ارى ان نسبة الخطأ اليهم في تعيين القاف . او القول بأنهم وصفوا القاف من لهجات غير ما شهر فيما بعد من الفصيح ، اقرب من القول باختلاف الصوت ،لانه لا يتصور ان يجمع العرب في الفصيح اليوم على صوت القاف المألوف ، مع اختلافهم في نطقه في العاميات ويكون هذا الذي اجمعوا عليه مخالفاً لما اخذوه من اسلافهم مع

---

(١) المبرد : المقتضب ١٩٢/١ .
(٢) محمد بشر . علم اللغة العام — الاصوات ص١١٠ .
(٣) النعيمي . الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣٦ .

وجود الصوت الذي يدعي انه صوت القاف القديم في مناطق واسعة من العالم العربي كالعراق والجزيرة والخليج مما يدل على انه اثر من آثار اللهجات القديمة . هذا فضلا عن قراء القرآن الذين اخذوا القراءة عمن قبلهم حفظاً وتلقيناً في كل بلاد الإسلام يلفظونها قافاً بهذا الصوت المعروف في الفصيح مع انهم اذا تكلموا بلهجاتهم قد يلفظونها بصوت آخر يختلف في هذا البلد عن ذاك .

ويدعم هذا الرأي بما ورد عند بعض المحدثين (١) اللهجات التي القاف فيها حرف مهموس .

وهذه اللهجات تقسم إلى ثلاثة اقسام :

اولها ينطق اصحابه القاف قافاً . وثانيها همزة ، وثالثها إما كافاً مفخمة او قافاً عادية .

ويجب ان لا يغرب عن البال (٢) اننا لا نقبل القول بتغير الصوت بين القديم والحديث، وانما الذي يجعلنا نميل إلى هذا او نرد قوة الدليل او ضعفه فالضاد مثلاً تغير نطقه عما كان عند العرب قديماً ، وذلك اننا لا نجده واحداً في نطق العربية الفصحى اليوم، فمنهم من يجعله ظاء كما في العراق،ومنهم من يجعله دالا كما في مصر ، ويفعلون ذلك في لهجاتهم العامية ايضاً بخلاف القاف التي اجمعوا على نطق واحد لها في الفصيح واختلفوا في نطقها في لهجاتهم . (٣)

(ويتلو ذلك مخرج الكاف) (٤)

يتكون هذا الصوت برفع اقصى اللسان تجاه اقصى الحنك الأعلى (او

(١) كانتينو . دروس في علم الأصوات العربية ص١٠٨ .
(٢) النعيمي : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣٠٦ .
(٣) المبرد . المقتضب ١٩٢/١ .
(٤) النعيمي . الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣٠٦ .

الحنك اللين) والتصاقه به مع ارتفاع اقصى الحنك الاعلى نفسه ليسد مجرى الهواء من الأنف ثم يضغط الهواء لمدة من الزمن ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فيحدث إنفجار ولا يتذبذب الوتران الصوتيان حال النطق به .

(وبعدها مخرج الشين ويليها مخرج الجيم) (١)

يلحظ ان المبرد لم يذكر الياء مع اصوات مخارج الفم . بل اكتفى بذكر الشين والجيم على حين ان سيبويه جعل الياء من هذه الأصوات فقال : (ومن وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء) (٢) .

ويلحظ ايضاً انه لم يضع (الياء) في موضع آخر من الجهاز الصوتي وهنا لا نجد الا احتمالين .

احدهما : انه تركها سهواً

والآخر : انها سقطت بالنسخ وهذا اقرب فيما يبدو لنا

(ويعارضها الضاد ومخرجها من الشدق ، فبعض الناس تجري له في الأيمن وبعضهم تجري له في الأيسر) (٣)

قال مؤلف كتاب دروس في علم الأصوات العربية (قد وصف النحاة العرب النطق بالضاد وصفاً حسناً نوعاً ما) (٤)

حتم علينا ان نقول ان الضاد قد خرج من الألسن العربية المعاصرة واضمحل منها ، فتحول إلى ظاء عند قوم وإلى دال مفخمة عند آخرين . او انه انفجاري (٥) انما هو مبني على نطق بعض العرب اليوم لا جميعهم (٦) .

---

(١) المبرد ، المقتضب ١٩٢/١ .
(٢) سيبويه ؛ الكتاب ٤٣٣/٢
(٣) المبرد : المقتضب ١٩٣/١ .
(٤) كانتينو : دروس في علم الأصوات العربية ص٨٥ .
(٥) السعران : علم اللغة ص١٦٩ .
(٦) النعيمي : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣٠٨ .

وهو لا يوافق نطق العرب يوم وصفت الحروف .

(وتخرج اللام من حروف اللسان ، معارضاً لأصول الثنايا والرباعيات وهو الحرف المشارك لأكثر الحروف) (١)

يجدر بنا ان نلفت النظر إلى ان اللام نوعان ، ولنشرح هذا بشيء من البسط. اللام نوعان مرققة ومفخمة . على ان الأصل في اللام الترقيق وقد علله مكي بن ابي طالب بعدم جواز (٢) تفخيم كل لام ، وعدم جواز ترقيق كل لام . ثم بين ان «الأعم هو الأصل ، والتفخيم داخل فيها» او بعبارة اخرى ان الأكثر والأغلب على اللام ترقيقها ، ولذلك فهو الأصل (٣) ، ومن ثم يكون التفخيم صفة حادثة فيها بعد الترقيق .

وقد اشترط القراء لتفخيمها شروطاً هي :

١ — ان يليها صوت مطبق ، صاد او ضاد او طاء او ظاء فتفخم عندئذ وقد وضح ذلك مكي بقوله : «ليعمل اللسان عملاً واحداً في التفخيم» (٤) وذلك مثل : «لطيف» و «لظى» و «الصوت»

٢ — وتفخم ايضاً اذا كانت اللام في لفظ الجلالة (الله) و كان ماقبله مفتوحاً او مضموماً . كقوله تعالى (وان الله ربي وربكم) (٥) ، وقوله تعالى (ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجراً عظيما) (٦) ، وقوله تعالى (الله وليّ الذين آمنوا) (٧) فكأن الأصل في لام لفظ الجلالة التفخيم ، فهي مفخّمة ابداً للتعظيم ولا تزال مفخمة الا ان يأتي قبلها كسرة فترقق للكسرة

(١) المبرد : المقتضب ١٩٣/١ .
(٢) ابن ابي طالب . الكشف ٢١٨/١ .
(٣) الزبيدي . فقه اللغة العربية ص٤٦٥ .
(٤) ابن ابي طالب . الكشف ٢١٩/١
(٥) سورة مريم آية ٣٦
(٦) سورة الفتح آية ١٠ .
(٧) سورة البقرة آية ٢٥٧

كما في قوله تعالى (باسم الله مجريها ومرساها) (١)، وهذا لا اختلاف فيه بين القراء (٢)

٣ – واذا كانت اللام نفسها مفتوحة مثل «يصلى» و «المطلقات» و «لعباً» وقد علل مكي تفخيمها هنا بقوله «لأن الفتحة مؤاخية للتفخيم . ولأنها من الألف ، ولأن الفتحة مستعلية في المخرج كحروف الإستعلاء : لأنها من الألف (٣) . فإذا انكسرت او انضمت او سُكنت رققت ، كما في «ومن يظلم» و «يَصلون» و «فظلتم» . ومخرج اللامين المفخمة والمرققة بعامة واحد ، وانما الفرق بينهما فارق الرنين ، اذ يختلف وضع اللسان مع كل منهما . ففي المفخمة يرتفع اقصى اللسان نحو الحنك اللين ، وهو اقصى الحنك . فيكون له رنين شبيه برنين الصوائت الخلفية مثل الف (قال) (٤) ويتخذ اللسان اذ ذاك شكلاً مقعراً (٥) ، اما اللام المرققة فيرتفع وسط اللسان تجاه الحنك الصلب ، وهو وسط الحنك . فيكون له رنين شبيه برنين الصوائت الأمامية مثال ياء (في) (٦) ، وفي هذه الحال لا يتخذ اللسان الشكل المقعر الذي اتخذه عند النطق باللام المفخمة ، كما ان الهواء مع المفخمة يخرج من جانبي اللسان ، على حين يخرج مع المرققة من جانب واحد . فالفرق بين اللامين المفخمة والمرققة (٧) : كالفرق بين الضاد والدال ، وبين الطاء والتاء . فالصوت الأول من كل واحد من هاتين ، مطبق مستعمل ، والثاني من كل منهما منخفض غير مطبق . إلا ان العرب لم يرمزوا للام المرققة برمز كما

(١) سورة هود آية ٤١ .
(٢) ابن ابي طالب . الكشف ٢٢٠/١
(٣) المصدر نفسه
(٤) السعران . علم اللغة ص١٨٦ .
(٥) الزيدي . فقه اللغة العربية ص٤٦٦
(٦) المصدر نفسه ص١٨٦ .
(٧) انيس . الأصوات اللغوية ص٦٦ وانظر الزيدي . فقه اللغة العربية ص٤٦٦ .

رمزوا لهذه الأصوات الأربعة وانما يدرك ذلك عن طريق السماع فحسب ، ولذلك تعد اللام في الرسم وعلم الأصوات صوتاً واحداً ، ويتجلى لنا الفرق بين اللامين إذا استمعنا إلى قراء القرآن المجيدين .

(واقرب المخارج منه مخرج النون المتحركة) (١)

وصف بعض المحدثين النون بقوله (٢) يوقف الهواء في الفم وقفاً تاماً يعتمد طرف اللسان على اصول الثنايا العليا ، يخفض الحنك اللين وبهذا يتمكن الهواء الخارج من الرئتين بسبب الضغط من ان ينفذ عن طريق الأنف ، يتذبذب الوتران الصوتيان اثناء نطق الصوت وقد احتفظت العربية العظمى بهذه النون (٣) وتكاد تخلو هذه النون من التغييرات المطلقة الا ان المقيدة التي تطرأ عليها مهمة : من إدغام وإبدال وإظهار .... وقد عنيت كتب القراءات القرآنية أيما عناية بالنون فأفردت لها فصولا درست فيها احكامها واحوالها (٤) . ومن اراد دراسة احكام النون فليرجع إلى تلك الكتب .

(واما النون الساكنة فمخرجها من الخياشيم ، نحو منك وعنك ، وتعتبر ذلك بأنك لو امسكت بأنفك عند لفظك بها لوجدتها مختلّة) (٥)

نحاول في شيء من البسط ان نشرح قوله النون الساكنة .

هي النون التي تسمع خفية من غير ادغام او اظهار ، ووصفها بالساكنة لأنها حينئذ لا تكون متحركة البتة ويكون خفاؤها إذا جاءت متبوعة بحرف من خمسة عشر حرفاً (٦) . وهذه الحروف هي : القاف والكاف والجيم

(١) المبرد . المقتضب ١٩٣/١
(٢) السعران . علم اللغة ص١٨٥ .
(٣) كانتينو . دروس في علم الإصوات العربية ص٦٠ .
(٤) الزيدي . فقه اللغة العربية ص٤٦٨
(٥) المبرد . المقتضب ١٩٣/١ .
(٦) أنيس . الأصوات اللغوية ص٧٢

والشين والصاد والضاد والسين والزاي والطاء والظاء والدال والتاء والذال والثاء والفاء . سواء ورد الخفاء في كلمة واحدة نحو «ينقاد» او في كلمتين متتاليتين نحو «من قال» وحينئذ (تصير مجرد غنة في الخيشوم لا علاج على الفم في النطق بها) (١) .

ويظهر الفرق اشد ما يظهر بين الصوتين في قولنا «عاد ، ومن قال» فبعد ان تفتح الشفتين بالميم في الأولى يتصل طرف اللسان باللثة فويق الثنايا او باصول الثنايا ويخرج الهواء بغنة من الأنف بعد ان ينخفض الحنك اللين ليقفل طريق الفم امامه (٢) ، اما في الثانية فإن اللسان لا يمس اللثة او اصول الثنايا بعد إنفتاح الشفتين بالميم بل يبقى طرفه «مستلقياً في الفم وكأنه يستعد لنطق القاف وينخفض الحنك اللين ليخرج الهواء بغنة من الأنف ، واستعداد اللسان لنطق الحرف الذي ، يليه النون يمكن ملاحظته بوضوح بأن تتنوع الحروف في التجربة كأن يستعمل بعدها الجيم ، والذال والفاء في مثل من جاء ، من ذاك ، من فاز (٣) .

فالصوت في النونين وإن كان واحداً في الأصل إلا أن خفاء هذه النون وتحول اللسان عند موضعه في الضغط على اصول الثنايا او اللثة ، جعل العلماء يذكرون نونين ويشيرون الى مخرجين (٤) .

(فاذا ارتفعت عند مخرج النون نحوث اللام فالراء بينهما على انها الى النون اقرب ، واللام تتصل بها بالإنحراف الذي فيها) (٥) .

الراء صوت مكرر ، لأن إلتقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا

---

(١) كانتينو . دروس في علم الأصوات العربية ص ٦١

(٢) السعران . علم اللغة ص١٨٥ .

(٣) النعيمي . الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣١١

(٤) المصدر نفسه ص٣١١

(٥) المبرد ، المقتضب ١٩٣/١

العليا يتكرر في النطق بها ، كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقاً ليناً يسيراً مرتين أو ثلاثاً لتتكون الراء العربية (1) . والراء كاللام في أن كلاً منهما من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ، وأن كلاً منهما مجهور ، فلتكون الراء يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى مخرجة وهو طرف اللسان ملتقياً بحافة الحنك الأعلى فيضيق هناك مجرى الهواء ، والصفة المميزة للراء هي تكرر طرق اللسان للحنك عند النطق بها .

والراء نوعان : مرققة ومفخمة ،وعلى الرغم من اختلاف القراء في ترقيقها وتفخيمها يمكن أن نستخلص من تلك الآراء ضوابط عامة يكاد يجمع عليها القراء .

١ – تفخم الراء المفتوحة إذا سبقها كسرة أو ياء مدّ نحو : رزقكم ، صبروا . ولكنها ترقق في مثل قوله تعالى (لم يكن الله ليغفر لهم) (٢) وقوله تعالى (فقد خسر خسراناً مبيناً) (٣) وقوله تعالى (وإن كانت لكبيرة) (٤)

٢ – ترقق الراء المكسورة مطلقاً مثل : رزق ، رجس .

٣ – تفخم الراء الساكنة إذا سبقها فتح مثل «يرجعون» .

٤ – وأما الساكنة التي لم يسبقها كسر فترقق مثل فرعون،إلا اذا وليها صوت استعلاء مثل «قرطاس» .

والفرق بين الراء المرققة والمفخمة ، إن الراء المفخمة تعد من الناحية الصوتية أحد أصوات الإطباق *. ولكن الرسم العربي لم يرمز لها برمز خاص يتغير

(١) أنيس . الأصوات اللغوية ص ٦٦
(٢) سورة النساء آية ١٦٨ .
(٣) سورة النساء آية ١١٩
(٤) سورة البقرة آية ١٤٣ .

بتغيره معنى الكلمة . ولهذا تعد كلا الفرعين صوتاً واحداً (١) .

(ومن طرف اللسان وأصول الثنايا مصعداً إلى الحنك مخرج الطاء والتاء والدال) (٢)

يدلنا مؤلف كتاب الدراسات اللهجية والصوتية على مااهتدى اليه . فقال (٣) قد ذكر المحدثون أن الدال هو النظير المجهور للتاء وأن الطاء يتكون كما يتكون التاء إلا أنه يخالفه في الإطباق فالثلاثة مخرجها واحد .

(ومن طرف اللسان وملتقى حروف الثنايا حروف الصفير وهي حروف تنسل انسلالاً وهي السين والصاد والزاي) (٤) .

هذه الحروف الثلاثة اطلق عليها بعض المحدثين ، الأحرف الأسنانية (٥) وبين الصاد والزاي والسين من الشبه مابين الطاء والدال والتاء فهي من مخرج واحد والزاي فيها هو النظير المجهور للسين ،أما الصاد فلا يختلف عن السين إلا في كونه طرفاً مطلقاً والسين ليس فيها إطباق (٦) (وما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا مخرج الظاء والثاء والذال) (٧)

هذه الأحرف يشترك في تكوينها الأسنان واللثة مع طرف اللسان ، وقد اطلق عليها المحدثون اسم حروف مابين الأسنان (٨)ولا فرق بين الذال والثاء سوى أن الذال مجهور والثاء مهموس،أما الظاء فهو مجهور كالذال إلا أنه مختلف

(١) انيس . الأصوات اللغوية ص٦٥
(٢) المبرد . المقتضب ١٩٣/١
(٣) النعيمي . الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٢٠٩ وانظر علم اللغة العام للسعران ص٦٨ .
(٤) المبرد . المقتضب ١٩٣/١ .
(٥) كانتينو . دروس في علم الأصوات العربية ص٠ ٣
(٦) انيس الأصوات اللغوية ص٧٧
(٧) المبرد . المقتضب ١٩٣/١
(٨) كانتينو . دروس في علم الأصوات العربية ص٣٠

عنه في الإطباق والظاء من حروف الإطباق بخلاف الذال (١) . فالثلاثة إذاً من مخرج واحد كما ذكره المبرد .

(ومن الشفة السفلى ، وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء(٢) هذا الصوت الوحيد الذي وصفه بعض المحدثين بأنه شفوي أسناني (٣) وهو صوت رخو مهموس يتكون بأن يندفع الهواء ماراً بالحنجرة دون أن يتذبذب معه الوتران الصوتيان ثم يتخذ الهواء مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت وهو بين الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا . ويضيق المجرى عند مخرج الصوت . فتسمع نوعاً عالياً من الخفيف هو الذي يميز الفاء بالرخاوة . وليس في العربية نظير مجهور (٤) للفاء ، لأنها موجودة في اللغات الأوربية .

(ومن الشفة مخرج الواو والباء والميم) (٥) .

إذا نحن تتبعنا آراء اللغويين المحدثين وجدناهم مختلفين في هذه الحروف الثلاثة ، فعند بعضهم شفوية (٦) . وعند بعضهم الباء والميم شفويا (٧) والواو شفوي حنكي قصيبي (٨)، وعلى رأي بعضهم أن وصف ، الواو بأنه شفوي ليس خطأ لأن الشفتين لهما دخل كبير في نطقه . ولكن الوصف الدقيق له أن يقال إنه من اقصى الحنك لأن اللسان يقترن من هذا الموضع عند النطق بالواو (٩) .

---

(١) انيس . الأصوات اللغوية ، وانظر الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني؛ ص٣٠٠
(٢) المبرد . المقتضب ١٩٣/١
(٣) الزيدي . فقه اللغة العربية ص٤٥٨
(٤) انيس . الأصوات اللغوية ص٤٦
(٥) المبرد . المقتضب ١٩٣/١
(٦) كانتينو . دروس في علم الأصوات العربية ص٣٠
(٧) السعران . علم اللغة ص١٦٧
(٨) المصدر نفسه ١٩٨
(٩) كمال بشر : علم اللغة العام (الأصوات) ص٨٩ .

وقد فصل القول مؤلف كتاب الدراسات اللهجية بقوله : [١] إن العلماء العرب قد شغلهم وضع الشفتين في النطق بالواو عند تحسس موضع اللسان مع الحنك ، ولعل الذي أعان على إغفالهم دور اقصى الحنك واللسان أن حركة الشفتين واضحة جداً وأن اللسان لايقترب بصورة واضحة من الحنك.

(٢) صفات الحروف

عني المبرد إيّما عناية بصفات الحروف تدل على كثير من التقصي . وها نحن أو لاء نورد ماورد من صفات الحروف في كتاب المقتضب.

الحروف المهموسة والمجهورة :

المهموسة هي عشرة أحرف : (الهاء والحاء والخاء والكاف والصاد والفاء والسين والشين والتاء والثاء) [٢]. وتعلم أنها مهموسة بأنك تردد الحرف في اللسان بنفسه ، أو بحرف اللين الذي معه ، فلا يمنع النفس . ولو رمت ذلك في المجهورة لوجدته ممتنعاً.

فالمبرد لم يذكر الحروف المجهورة، ولا من ريب في أنه اعتمد على بصر القاريء فإنه يستشفها في غير إجهاد او معاناة ، لأنها لغة قوم عرفوا بصفاء القريحة ، وثقوب الذهن ، تكفيهم الإشارة الدالة والإيماءة الموحية في كثير من المواطن ، والحروف المجهورة هي: الهمزة والألف والعين والغين والقاف والجيم والياء والضاد واللام والنون والراء والطاء والدال والزاي والظاء والذال والباء والميم والواو .

ومما يجدر ذكره أن مصطلح المهموس والمجهور وإن كان بلفظ واحد عند القدامى والمحدثين إلا أن معناه مختلف في الدراسة الحديثة . فالمجهور[٣]

---

(١) النعيمي . الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣١٠ .

(٢) المبرد . المقتضب ١٩٥/١ .

(٣) كانتينو . دروس في علم الأصوات العربية ص٢٥ ، وينظر الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣١٣ .

هو الحرف الذي يتحرك الوتران الصوتيان عند النطق به ، والمهموس ، هو الحرف الذي لا يحرك الوترين الصوتيين في خروجه) (١) . وعلماء اللغة العربية العرب لم يكونوا يعرفون دور هذين الوترين في صفة الحروف فلذا لم يشيروا اليهما، وقد حاول بعضهم بناء على عدم المعرفة ان يرفض استعمال مصطلح الجهر والهمس الوارد عن العلماء العرب بالمعنى الجديد . فذكر كانتينو (٢) «إن الجواب على هذا الإعتراض يسير اذ انه يمكن التفطن إلى المقابلة بين المجهورة والمهموسة تفطناً دقيقاً جداً بدون معرفة سببها الحقيقي .

الرخوة والشديدة :

يقول المبرد (٣) : الرخوة : هي التي يجري النفس فيها من غير تردد كالسين والشين والزاي والصاد والضاد . وكل ما وجدت فيه ما ذكرت لك .

الشديدة (٤) : على خلافها وذاك انك اذا لفظت بها لم يتسع مخرج النفس معها نحو الهمزة والقاف والكاف والتاء .

وإن نحن نظرنا نظرة عجلى إلى شروح الشدة والرخوة عند علماء اللغة المحدثين وجدناهم قد اوضحوا توضيحاً مفيداً . قالوا (إن الناطق يحس مع الشديد بانحباس مؤقت لدى المخرج بسبب التقاء عضوين التقاء محكماً فإذا انفصلا فجأة سمع صوت انفجاري هو الذي نسميه بالشديد . اما في حالة الرخاوة فعلى الرغم من التقاء العضوين ايضاً يكون الإلتقاء غير محكم . بل بينهما ممر ضيق يسمح بتسرب الهواء) (٥) فمدار الفرق بين الشدة والرخاوة اذاً هو إلتقاء العضوين إن كان التقاء العضوين التقاءً محكماً فهو الشدة ، وإن كان التقاء العضوين غير محكم فهو الرخاوة .

---

(١) النعيمي . الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣١٣ .
(٢) كانتينو دروس في علم الأصوات العربية ص٣٤ .
(٣) المبرد . المقتضب ١/١٩٥ .
(٤) المصدر نفسه ١/١٩٥
(٥) انيس . الأصوات اللغوية ص١٢٦ .

الحروف المستعلية :

قال المبرد [1] هذا باب ما تقلب فيه السين صاداً وتركها على لفظها أجود . وذلك لأنها الأصل ، وانما تقلب للتقريب مما بعدها فإذا لقيها حرف من الحروف المستعلية قلبت معه ليكون تناولهما من وجه واحد .

والحروف المستعلية : الصاد والضاد والطاء والظاء والخاء والغين والقاف .

وإنما قيل مستعلية ، لأنها حروف استعلت إلى الحنك الأعلى ، وهي الحروف التي تمنع الإمالة . الا ترى انك تقول : عابد وجابر وسالم ، ولا تقول قاسم ولا صاعد . ولا خازم (يقسم : صعيد ، خيزم) وهذا بيّن في باب الإمالة .

فإذا كانت السين مع حرف من هذه الحروف في كلمة جاز قلبها صاداً ، وكلما قرب منها كان اوجب .

ويجوز القلب على التراخي بينهما وكلما تراخى فترك القلب اجود وذلك قولك : سطر وصطر ، وسقر وصقر ، وسلخت وصلخت ، ومساليخ ومصاليخ .

فإن كان حرف من هذه الحروف قبل السين لم يجز قلبها ، نحو : قست وقسوت ، وطست فاعلم ، لأنهم إنما قلبوها وهذه الحروف بعدها ، لئلا يكونوا في انحدار ثم يرتفعوا . يريد ان السين قلبت صاداً لتلائم الطاء في الإطباق في قولهم صطر بدلا من سطر .

وإذا كانت قبلها فإنما ينحدر اليه انحداراً ، ووجب ذلك في السين ، لأنها والصاد من مخرج ، وهما مهموستان جميعاً ، وكلاهما من حروف الصفير ولم تكن الزاي ههنا ، لأنها ليست بمستعلية .

---

(١) المبرد . المقتضب ١/٢٢٥ و ٢٢٦

ولا تبدل الصاد من الزاي مع هذه الحروف ، لأن الزاي مجهورة ، والصاد مهموسة فهي مخالفة لها .

ولتوضيح ما ذكره المبرد نقول :

فالمستعلية (١) سبعة اصوات ، اربعة منها اصوات الإطباق (ص ض ظ ط) وثلاثة ليست مطبقية وهي (ح غ ق) وعلى هذا ، فالإطباق في اللغة العربية من الاستعلاء الذي هو رفع اقصى اللسان نحو ما يليه من الحنك فهذه الأصوات السبعة تتسم جميعاً في ان اللسان يرتفع عند النطق بها نحو الحنك الأعلى وهو في حالة النطق بالأصوات الثلاثة الأخيرة يرتفع بجزئه الخلفي نحو اللهاة عند النطق بالقاف ، ونحو الحلق عند النطق بالخاء والعين . اما المنخفضة في ماعدا هذه الاصوات السبعة .

حروف القلقلة

إن (٢) من الحروف حروفاً محصورة في مواضعها فتسمع عند الوقوف على الحرف منها نبرة تتبعه وهي حروف القلقلة .

فمنها القاف والكاف ، الا انها — يريد الكاف — دون القاف ، لأن حصر القاف اشد ، وإنما تظهر هذه النبرة في الوقف . فإن وصلت لم يكن ، لأنك اخرجت اللسان عنها إلى صوت آخر ، فحلت بينه وبين الاستقرار وهذه القلقلة بعضها اشد حصراً من بعض كما ذكرت لك في القاف والكاف .

حروف القلقلة خمسة اصوات وهي (ب ، ج ، د ، ط ، ق) يجمعها قولك (قطب جد) .

وسميت بحروف القلقلة ، لأنك لا تستطيع ان تقف عليها الا بصوت ، وذلك بسبب شدة الحصر والضغط في نطقها ، كما في «الحق ، اذهب ، اخلط ،

(١) الزيدي . فقه اللغة العربية ص٤٥٢

(٢) المبرد . المقتضب ١٩٦/١ .

اخرج» (وهناك تفسيرات اخرى لتسميتها بهذا الاسم . منها انها من قلقلة، بمعنى حركة) (١) ، والقلقلة لدى علماء التجويد ضربان : صغرى وكبرى .

حروف الصفير

يرى المبرد ان حروف الصفير هي (٢) (السين والزاي والصاد) .

لقد آثر الدكتور (٣) ابراهيم انيس تسمية هذه الحروف بالأصوات الأساس ، على الرغم من ان كتب القراءات تسميها اصوات الصفير .

ثم اخذ يعلل ذلك بقوله : لأن مجرى هذه الأصوات يضيق جداً عند مخرجها فتحدث عند النطق بها صفيراً عالياً لا يشركها في نسبة علو هذا الصفير غيرها من الأصوات ، ولكن المحدثين من علماء الأصوات اللغوية يجمعون كل الأصوات التي تحدث في نطقها ذلك الحفيف او الصفير عاليا كان او منخفضاً في صعيد واحد ، فالأصوات التي يسمع لها صفير واضح في رأي المحدثين هي : (ث ، ذ ، ز ، س ، ش ، ص ، ظ ، ف) .

على ان هذه الأصوات تختلف في نسبة وضوح صفيرها ، واعلاها صفيراً هي (السين والزاي والصاد) مما يمكن ان يبرر تسميتها في كتب القدماء بأصوات الصفير . واذا ادركنا ان هذا الصفير ليس الا نتيجة ضيق المجرى عند مخرج الصوت ، عرفنا ان المجرى عند مخرج (الثاء والذال والزاي والسين والشين والصاد والظاء والفاء) تختلف نسبة ضيقة تبعاً لعلو الصفير مع كل منها . فعلى قدر ضيق المجرى عند المخرج يكون علو الصفير ووضوحه وأضيق ما يكون مجرى الهواء عند النطق بالسين والزاي والصاد ، فهذا كله تؤثر تسمية السين والزاي والصاد بالأصوات الأساسية . دون البحث الآن في

(١) الزبيدي . فقه اللغة العربية ص٤٤٧ .
(٢) المبرد . المقتضب ١٩٣/١ .
(٣) انيس . الأصوات اللغوية ص٧٤ .

سر هذه التسمية القديمة ، وإنما ينظر اليها على انها مجرد تسمية لأصوات ذات صفة واحدة ومخرج واحد .

هذا الرأي له نصيب من الوجاهة والرجاحة مادام معززاً بالشرح والتفصيل . وإن نحن تدبرنا قوله الصفير ليس الا نتيجة ضيق المجرى عند مخرج الصوت عرفنا ان المجرى عند المخرج (التاء والذال والزاي والسين والشين والصاد والظاء والفاء) تختلف نسبة ضيقة تبعاً لعلو الصفير مع كل منها . فعلى قدر ضيق المجرى عند المخرج يكون علو الصفير ووضوحه واضيق ما يكون مجرى الهواء عند النطق بالسين والزاي والصاد ادركنا رجاحة رأيه .

الحرف المنحرف :

عرّفه بعضهم ، فقال : هو خاصية اللام لأن اللسان ينحرف عند النطق بهذا الحرف ويجري الصوت من جانبي اللسان (١) .

هذا اللام يدغم اذا كان للمعرفة في ثلاثة عشر حرفاً ، لا يجوز في اللام الا الإدغام .

فمنها احد عشر حرفاً تجاور اللام ، وحرفان يتصلان بها . وإنما كان ذلك لازماً في لام المعرفة لعلتين .

احداهما : كثرة لام المعرفة ، وانه لا يعرى منكور منها اذا اردت تعريفه . والأخرى : ان هذه اللام لازم لها السكون ، فليست بمنزلة ما يتحرك في بعض المواضع .

فإن كانت اللام غير لام المعرفة جاز ادغامها في جميع ذلك . وكان في بعض احسن منه في بعض .

(١) كانتينو . دروس في علم الأصوات العربية ص٣٠ .

فهذه الحروف منها احد عشر حرفاً مجاورة للام وهي : الراء والنون والطاء واختاها الدال والتاء والظاء ، واختاها : الذال والثاء والزاي ، واختاها : الصاد والسين .

والحرفان اللذان يبعدان عن مخرجها ويتصلان بها في التفشّي الذي فيهما : الشين والصاد .

فأما الشين فتخرج من وسط اللسان من مخرج الميم والياء ، ثم تتفشّى حتى تتصل بمخرج اللام .

فلام المعرفة مدغمة في هذه الحروف لا يجوز الا ذلك لكثرتّها ولزومها نحو : التمر والرسول والطرفاء والنمر . فكل هذه الحروف في هذا سواء .

فإن كان اللام لغير المعرفة ، جاز الإدغام والإظهار . والإدغام في بعض احسن منه في بعض .

إذا قلت : هل رأيت زيداً ، وجعل راشد ، جاز ان تسكّن فتقول : (جعرّ اشد) ، كما تسكن في المثلين . والإدغام ههنا احسن إذا كان الأول ساكناً ، فإن كان متحركاً اعتدل البيان والإدغام .

فإن قلت : هل طرقك ؟ او هل دفعك ؟ او هل تم لك ؟ فالإدغام حسن ، والبيان حسن ، وهو عندي احسن لتراخي المخرجين .

وقرأ ابو عمرو (بتُّوثرون) فأدغم اللام في التاء وقرأ (هثّوبَ الكفارُ) يريد (هل ثوّب الكفار) (1) فادغم في الثاء .

والإدغام في الضاد والشين ابعد لما ذكرت لك من تراخي مخارجهما . وهو جائز ، وهو في النون قبيح ، نحو (هنّرى ، هنّحنُ) إذا اردت : هل نرى ، وهل نحن. وذلك لأن النون تدغم في خمسة احرف ليس منهن

---

(١) المبرد . المقتضب ٢١٣/١ . ٢١٤ .
(٢) سورة المطففين آية ٣٦ .

شيىء يدغم فيها ، واللام احد تلك الحروف . فاستوحشوا من إدغامها فيها ، إذ كانت النون لا يدغم فيها غيرها . وهو جائز على قبحه وإنما جاز لقرب المخرجين .

فإن كانت الحروف غير هذه فتباعدت عن مخرجها لم يجز الإدغام ، نحو قولك الكرم ، القوم ، العين ، الهادي . وكذلك حروف الشفة وما اتصل بها . نحو الفرج والمثل والبأس والوعد . فهذا سبيل اللام .

(٣) اللهجات العربية

اللهجة في الإصطلاح اللغوي الحديث : مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع افراد هذه البيئة [١] وتنتمي بيئة اللهجة إلى بيئة اوسع واشمل منها تضم عدة لهجات ، ومن مجموع هذه اللهجات كلها يتكون ما يطلق عليه في الإصطلاح الحديث اسم اللغة .

فالعلاقة بين اللهجة واللغة اذاً علاقة الخاص بالعام . فاللغة تشمل عدة لهجات تميز بعضها عن بعض بصفات معينة . ولكل لغة سمات وصفات تميزها عن غيرها من اللغات ايضاً [٢] .... ومصطلح اللهجة في العربية مصطلح حديث لأن اللغويين القدامى من اهل العربية يسمونها لغة فيقولون مثلا

لغة قريش ، ولغة هوازن ، ولغة طي . وهذا مبني على المروي عن العرب الفصحاء في التسمية [٣] . واذا اتضح المراد باللهجات فلنورد ما ورد عند المبرد من تلك اللهجات .

---

(١) انيس اللهجات العربية ص١١ وينظر الزيدي . فقه اللغة العربية ص٢٠٥
(٢) الزيدي . فقه اللغة العربية ص٢٠٥ .
(٣) الزيدي . فقه اللغة العربية ص٢٠٥ .

١ — كشكشة تميم

قال المبرد [١] : إن بني عمرو بن تميم إذا ذكرت كاف المؤنث فوقفت عليها ابدلت منها شيئاً لقرب الشين من الكاف في المخرج وانها مهموسة مثلها فأرادوا البيان في الوقف لأن في الشين تفشّياً . فيقولون للمرأة : جعل ، الله لك البركة في دارش ، ويحك مالكش . والتي يدرجونها يدعونها كافاً ، والتي يقفون عليها يبدلونها شيناً ، كما ورد في المثال الثاني . ومن الجدير بالذكر ان الدكتور ابراهيم انيس [٢] يرى «ان ما خيّل للقدماء انه«شين» ليس شيناً خالصة كتلك التي نعهدها ، بل هي صوت الكاف المتطورة الى صوت، وسط الحنك الذي ينطق به كما ينطق الصوت الأول في الكلمة الانكليزية . « chicken » وهو ال (ch) . وهذا الصوت قد يخيل إلى السامعين انه مكون من صوتين ، الا انه في الواقع يكون من صوت واحد . كما دلت التجارب الحديثة في علم الأصوات وهو ما يسميه المحدثون من علماء الأصوات، وامثاله « Affnicative » ويتكون هذا الصوت من عنصرين . اولهما : ينتمي إلى الأصوات الشديدة وهو ما يشبه التاء وثانيهما : إلى الأصوات الرخوة، وهو ما يشبه الشين [٣]، ويرى ان الكشكشة لا بد انها مقيدة بكاف مكسورة ، لأن الكسرة في كاف المؤنثة هي السبب الأساس — في ما يرى — في هذا القلب كما ان قصرها على حالة الوقف ليس له ما يبرره في رأيه من الناحية الصوتية . اذ العلة في قلب القاف إلى هذا الصوت المزدوج في علم الصوت الحديث ، هو ان صوت اقصى الحنك قد وليه صوت لين امامي وهو الكسرة فكان ان حدث نتيجة ذلك اجتذاب صوت اللين هذا ، صوت

---

(١) المبرد . رغبة الأمل ٥/٢٠٦ .
(٢) اللهجات العربية ص٨٨ وينظر ، الزبيدي : فقه اللغة العربية ص٢٢١ .
(٣) المصدر نفسه ص٨٨ ، المصدر نفسه ص٢٢١ .

الحنك إلى الأمام قليلاً . فانقلب الكاف إلى نظائره من اصوات وسط الحنك (١) كالشين (٢) ، فصار ينطبق بهذه الصورة .

٢ ـ كسكسة بكر

اما بكر فتختلف في الكسكسة .

فقوم منهم يبدلون الكاف سيناً كما يفعل التميميون في الشين ، وهم اقلهم، وقوم يُبيِّنون حركة كاف المؤنث في الوقف بالسين فيزيدونها بعدها، فيقولون أعطيتكسْ (٣)

٣ ـ الوكم

ذهب السيوطي إلى ان الوكم في لغة ربيعة ، وهم قوم من كلب (٤) يقولون : عليكم وبكم . حيث كان قبل الكاف ياء او كسرة . والأصل عليكُم وبكُم .

والمبرد لم يقف على هذه الظاهرة ولهذا خطأها فقال (٥) : « وناس من بكر بن وائل يجرون الكاف مجرى الهاء . اذ كانت مهموسة مثلها وكانت علامة اضمار كالهاء ، وذلك غلط منهم فاحش لأنها لم تشبهها في الخفاء الذي من اجله جاز ذلك في الهاء .

وإنما ينبغي ان يجري الحرف مجرى غيره اذا اشبهه في علته . فيقولون : مررت بكم ، وينشدون هذا البيت

وإن قال مولاهم على جُلِّ حادثٍ ... من الدهر ردوا فضل احلامكم ردوا (٦)

---

(١) ابراهيم انيس : اللهجات العربية ص٨٩ زينظر الزيدي : فقه اللغة العربية ص٢٢٢
(٢) ابراهيم انيس : الأصوات اللغوية ص٧٦ وينظر الزيدي : فقه اللغة العربية ص٢٢٢
(٣) المبرد : رغبة الأمل ٥/٢٠٦
(٤) السيوطي : المزهر ١/٢٢٢
(٥) المبرد . المقتضب ١/٢٦٩ ، ٢٧٠
(٦) هذا البيت للحطيئة من قصيدة مطلعها .
ألا طرقتنا بعدما هجروا هند ... وقد سرن خمساً واتلأب بنا نجد

٤ ــ الغمغمة

يعزى هذا اللقب إلى قضاعة . والغمغمة ان تسمع الصوت ولا يتبيّن لك تقطيع الحروف .

وقيل : صوت الثيران عند الذعر ، وصوت الأبطال في الوغى عند القتال (١) . قال امرؤ القيس (٢)

وظل لثيران الصّريم غمائم يداعها بالسمهريّ المقلّب

٥ ــ الطمطمانية

يعزى هذا اللقب إلى طيء والأزد ، وإلى قبائل حمير في جنوب الجزيرة العربية . وهو أعبارة عن إبدال لام التعريف «ميما» .

فيقال (طاب أمهواء وصفا امجو) في طاب الهواء وصفا الجو ثم هي ان يكون الكلام مشبهاً لكلام العجم .

والأعجم الذي لا يفصح ، اي في لسانه عجمة . ومنه قول الشاعر :

تبري لـه حول النّعام كأنها حزق يمانية لأعجم طمطم (٣)

٦ ــ الغنة

ان يشرب الحرف صوت الخيشوم (٤) .

وقيل : صوت فيه ترخيم نحو الخياشيم تكون من نفس الأنف (٥) .

وقيل : ان يجري الكلام في اللهاة ، وهي اقل من الخنّة .

---

(١) المبرد . رغبة الأمل من كتاب الكامل ٢٠١/٥ .

(٢) من قصيدة له مطلعها .

خليلي مرا بي على ام جندب نقضي نباتات الفؤاد المعذب

(٣) هذا البيت لعنترة من قصيدة مطلعها :

هل تبلغني دارها شدنية لعنت بمحروم الشراب مصرم

(٤) رغبة الأمل من كتاب الكامل ٢٠٢/٥

(٥) حاشية رغبة الأمل ٢٠٢/٥ .

اما المحدثون فقد تحدثوا عن الغنة في ضوء الدراسات اللغوية القديمة والحديثة . قال مؤلف فقه اللغة العربية (١) «وتحدث هذه الغنة بأن يتخذ الهواء مجراه من طريقين : هما الفراغ الأنفي والفم،وهو ما اصطلح المحدثون من علماء الأصوات على تسميته بال (Nazalisation) ويمكن أن يسمى بالصوت «الأنفي» (٢) بصيغة حديثة منحوته . فالغنة (٣) إذاً في الحقيقة والتجويد التقليدي شاهد بذلك، الا نغمة خيشومية محدودة وترنم يقع بإغلاق الفم فيبدو أن النون في هذا الحال كانت تبدل تقريباً في نفس الوقت فيصير مخرجها مخرج الحر الذي بعدها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن النحاة اختلفوا في مسألة الاحتفاظ بالغنة في حالة إدغام النون في الراء واللام والواو والياء،فيذهب بعضهم ــ وهو مايبدو جارياً به العمل في التجويد ــ إلى أن إدغام النون في اللام والراء إدغام تام أي بغير غنة بخلاف إدغامها في الواو والياء والميم والنون فهو إدغام غير تام إذ يحتفظ فيه بالغنة ، أي بعبارة أخرى أن النون إذا أدغمت في الواو والياء نتج عن ذلك واو خيشومية أو ياء خيشومية .

ــ الخنة : ضرب من الغنة ، كأن الكلام يرجع الى الخياشيم (٤) .

(٤) عيوب النطق

مامن ريب في أن جهاز النطق في الأداء له أثره في النطق ، إن كان هذا الجهاز سليماً من الآفات كان النطق بالحروف صحيحاً ، وان كان مصاباً بآفة من الآفات كان النطق ببعض الحروف غير صحيح .

ونورد ماورد عن المبرد من عيوب النطق في مؤلفه الكامل .

(١) الزخدي . فقه اللغة العربية ص٤٦٨ .
(٢) انيس : الأصوات اللغوية ص٧١ .
(٣) كانتينو . دروس في علم الأصوات العربية ص٦١ .
(٤) حاشية رغبة الأمل ٢٠٢/٤ .

١ ـ الفأفأة :

مصدر فأفأ الرجل : إذا عرته حبسةُ في لسانه وغلبت عليه الفاء . أي التردد في الفاء (١) .

٢ ـ التمتمة

التردد في التاء (٢)

وقيل : رد الكلام الى التاء والميم أو أن تسبق كلمته الى حنكه الأعلى فهو تمتام (٣)

وعن الليث ـ التمتمة في الكلام أن لايبين اللسان يخطيء موضع الحرف فيرجع اللفظ كأنه (التاء والميم) وإن لم يكن بيناً (٤) .

٣ ـ العقلة

التواء اللسان عند إرادة الكلام . يقال في لسانه عقلة : إذا تعقّل عليه الكلام (٥)

٤ ـ الحبسة

تعذر الكلام عند إرادته .يقال:قد احتبس لسانه وتحبس . إذا توقف (٦)

٥ ـ اللفف

إدخال حرف في حرف

وعن الأصمعي . الألف الثقيل اللسان ، وقال غيره : هو العيي البطيء الذي إذا تكلم ملأ لسانه فمه (٧) .

---

(١) رغبةالأمل من كتاب الكامل ٢٠١/٥
(٢) رغبة الأمل ٢٠١/٥ .
(٣) ابن منظور . لسان العرب ٧١/١٢ .
(٤) المصدر نفسه ٧١/١٢
(٥) رغبة الأمل ٢٠١/٥
(٦) المصدر نفسه ٢٠١/٥ .
(٧) المصدر نفسه ٢٠١/٥ .

٦ ـ الرّتة

تمنع أول الكلام ، فاذا جاء منه شيء اتصل (١)

قال ابن الأعرابي : رَتْرَتَ الرجل إذا تمتع في التاء وغيرها وهي عجلة في الكلام ، وقلّة أناة

وقيل : هي أن يقلب اللام ياء

وقال ابو عمرو : ردّة قبيحة في اللسان من العيب (٢)

٧ ـ اللكنة

أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية

يقال فلان يرتضخُ لكنة رومية أو حبشية أو ما كانت من لغات العجم وعن ابن سيدة . الألكن ، الذي لايقيم العربية من عجمة في لسانه (٣)

٨ ـ اللثغة :

أن يعدل بحرف الى حرف

وقال غير المبرد : أن تجعل الراء غيناً أو لاماً ، والصاد فاء أو السين ثاء (٤) وتجدر الإشارة إلى أن الجاحظ وهو من المعاصرين للمبرد قد التفت الى عيوب النطق ومن ذلك (اللثغة) فبيّن أنها في أربعة أحرف هي (٥) القاف والسين ، واللام ، والراء . فالسين تصبح ثاء . فيقولان بثْرة بدلاً من بشره والقاف تصبح طاء . فيقول صاحبها : طلتُ بدلاً من قلْت . واللام لغتها نوعان ، قلب اللام ياء عند بعضهم .

---

(١) المبرد . رغبة الأمل من كتاب الكامل ٢٢١/٥ .
(٢) ابن منظور . لسان العرب ٣٣/٢
(٣) رغبة الامل من كتاب الكامل ٢٠٢/٥ . وينظر لسان العرب ٣٩٠/١٢ .
(٤) رغبة الامل من كتاب الكامل ٢٠٢/٥
(٥) الجاحظ . البيان والتبيين ٣٤٠/١ . وينظر الزبيدي . فقه اللغة العربية ص٤١٦ .

فيقال : اعتبيتُ بدلاً من اعتللت . وقلبها كافاً ، كقول عمر الهلالي مكعكعة في هذا ؟ يريد : ماالعلة في هذا ؟

وأما اللثغة التي تقع في الراء فان عددها يضعف على عدد لثغة اللام : لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف .

فمنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : غمي ، فيجعل الراء ياء .

ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عمغ ، فيجعل الراء غيناً .

ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عمذ ، فيجعل الراء ذالاً .

ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عمظ ، فيجعل الراء ظاءً .

وبعد ، فهذا البحث يُفصح عن عناية المبرد بالأصوات اللغوية ، ولسنا ندّعي أننا اشرفنا على الغاية فيما ألمعنا اليه في هذا البحث . وحسبنا أن أثبتنا أن المبرد كان احد اولئك الذين كان لهم جهد واسع في دراسة الأصوات اللغوية ،

المصادر والمراجع

١ — الأصوات اللغوية ، الدكتور ابراهيم أنيس ، الطبعة الخامسة ١٩٧٥م

٢ — البيان والتبيين للجاحظ . تحقيق وشرح عبدالسلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والنشر . القاهرة ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م .

٣ — خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي . تحقيق وشرح عبدالسلام هارون الطبعة الأولى — القاهرة ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م

٤ — دروس في علم أصوات العربية ، جان كانتينو ، نقله الى العربية صالح القرماوي نشر مركز الدراسات والبحوث بتونس ١٩٦٦م

٥ — الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، الدكتور حسام سعيد النعيمي دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠م .

٦ — ديوان الحطيئة ، تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين ، الطبعة الأولى، القاهرة مطبعة المدني ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م .

٧ — ديوان عنترة . شرح وتحقيق محمد سعيد مولوي . المكتب الاسلامي ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م .

٨ — ديوان امريء القيس . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ١٩٦٩

٩ — رغبة الامل من كتاب الكامل . محمد بن يزيد المبرد . شرح سيّد ابن علي المرصفي — ١٣٤٧هـ — ١٩٢٨م . مطبعة النهضة بمصر .

١٠ — سر صناعة الإعراب . (الجزء الأول) ابن جني ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ ١٩٥٤م .

١١ — شرح المفصل ، موفق الدين بن يعيش ، عالم الكتب .

١٢ ــ العقد الفريد لابن عبد ربه . تحقيق محمد سعيد العريان .الطبعة الثانية مطبعة الإستقامة بالقاهرة ١٣٧٢هـ ــ ١٩٥٣م .

١٣ ــ علم اللغة : الدكتور محمود السعران ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م

١٤ ــ علم اللغة العام (الأصوات) الدكتور كمال بشر ، دار المعارف بمصر ١٩٧٥م .

١٥ ــ العين (الجزء الأول) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠م.

١٦ ــ فقه اللغة العربية ، الدكتور كاصد ياسر الزيدي ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م مطبعة دار الكتب بالموصل

١٧ ــ الكتاب ، سيبويه ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٨ ــ الكشف عن وجوه القراءات وعللها . مكي بن ابي طالب . تحقيق محي الدين رمضان الطبعة الثانية . مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠١هـ. ١٩٨١م .

١٩ ــ لسان العرب ، ابن منظور . دار صادر بيروت .

٢٠ ــ المزهر في علوم اللغة . السيوطي ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ، شرح وتحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل .

٢١ ــ المقتضب ، محمد بن يزيد المبرد ، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر .

٢٢ ــ الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ، الطبعة الثانية ، منشورات دار الشرق .

علاقة المقدمة بالمتن في كتاب اخبار ابي تمام للصولي

د. عمر محمد الطالب
جامعة الموصل – كلية الآداب

تأليف الكتاب

قد لا يكفي اعتماد سنة وفاة مؤلفين ما مقياساً لتحديد اسبقية تأليف احدهما عن الآخر ، سيما اذا تعلق الامر بمؤلفين ينتميان لعصر واحد ، واشكالية واحدة . فالصولي توفي سنة (٣٣٥) او ما يقارب من هذه السنة (١) . والآمدي توفي سنة (٣٧٠هـ) . لكن هل تكفي مدة خمس وثلاثين سنة من الفرق لترجيح اسبقية «اخبار ابي تمام» للصولي على «الموازنة» للآمدي ؟

الواقع ان هذا المقياس قد يخدعنا احياناً ما لم نتقص الحقيقة من خلال تناوب المؤلفين معاً ونتتبع نصوصهما بتبصر وتدبر وعناية ، خاصة حينما نعلم ان فكرة جمع شعر الطائيين والموازنة بينهما قد راودت الآمدي منذ سنة (٣١٧) كما يذكر في كتابه :

(١) يذكر ابن النديم ان الصولي توفي سنة ٣٣٦هـ ، الفهرست ص ١٥٠ ، وكذلك الشأن بالنسبة للمرزباني في «معجم الشعراء» ص ٤٣١ .

«... انني نظرت في شعر ابي تمام والبحتري في سنة سبع عشرة وثلثمائة ، واخترت جيدهما وتلقطت محاسنهما ، ثم تصفحت شعريهما بعد ذلك على مر الاوقات (١) . افلا يمكن ان يكون الآمدي قد شرع في تأليف «الموازنة» بعد سنوات قلائل تلت هذه السنة ، اي حوالي سنة (٣٢٠هـ) او مايقربها والصولي لا زال على قيد الحياة ؟

وحتى لا نستبق النتائج ، ينبغي في البداية ان نضع المسألة في اطارها الصحيح. فلقد جرت العادة عند النقاد القدامى والمحدثين ان يقدموا الحديث عن الصولي ثم يتبعونه بالآمدي اعتباراً لسنة الوفاة. وقلما انصرفوا بجهودهم إلى بحث اي المؤلفين اسبق : «اخبار ابي تمام» ام «الموازنة» (٢) .

حين نتتبع آراء القدامى الذين ترجموا للصولي والآمدي لا نعثر على رأي صريح يمدنا بسنة تأليف «اخبار ابي تمام» او «الموازنة» وانما يكتفون بذكر تآليف كل ناقد على حده ، وسنة وفاته ، وبعض اخباره . وفي غياب ذلك يكون على الباحث ان يتتبع ترتيب هذه المؤلفات عسى ان يكون في الترتيب ما يفي بالغاية . لكن هذا الترتيب — في معظمه مضطرب — ويختلف من عالم لآخر . فابن النديم مثلا لايذكر كتاب «اخبار ابي تمام» الا بعد ذكر مؤلفات الصولي التالية : كتاب الاوراق في اخبار الخلفاء والشعراء — اخبار ابن هرمة ومختار شعره — اخبار السيد الحميري ومختار شعره — اخبار احمد بن يوسف ومختار شعره — اخبار سديف ومختار شعره — كتاب الوزراء — كتاب العبادة — كتاب ادب الكاتب — كتاب الانواع — كتاب سؤال وجواب رمضان لابي النجم — كتاب رمضان — كتاب الشامل في علم القرآن — كتاب مناقب علي بن الفرات ثم يأتي ذكر كتاب

(١) الآمدي : الموازنة ، ج ١ ص ٥٥ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٥٠ — ١٥١

اخبار ابي تمام (١) مما يحمل على الاعتقاد انه الفه في اخريات ايامه التي عرفت بالمحنة والجفاء كما يفهم من قول الصولي في رسالته إلى مزاحم بن فاتك : « ثم ارتني عين الرأي بقية في نفسك منه ، لم يطلعها لي لسانك ، اما كراهة منك لتعبي او اشفاقاً من الزيادة في شغلي، مع ما يتقسمني من جور الزمان ، وجفاء السلطان ، وتغير الاخوان » . (٢).

وفي حديث ابن النديم عن الآمدي ومؤلفاته ، يأتي ذكر كتاب «الموازنة» في الرتبة الرابعة ، اي مباشرة بعد كتاب «المختلف والمؤتلف في اسماء الشعراء» وكتاب «معاني شعر البحتري» وكتاب «نثر المنظوم» (٣)

والمرزباني خير من يمدنا بتآليف الصولي وتصنيفها الصحيح باعتباره احد تلامذته ، لكن كان همه ان يذكر لمن ترجم لهم بعض شعرهم ، لذلك لم يتعرض لذكر استاذه الصولي الا من هذه الناحية (٤) .

وإذا كان ابن النديم قد رتب كتاب «اخبار ابي تمام» في مؤخرة مؤلفات الصولي ، فإن ياقوت الحموي «ذكره مباشرة بعد» اخبار ابن هرمة اي في المرتبة الثانية» (٥) . وحين يترجم للآمدي فإن ترتيبه وتصنيفه لكتاب «الموازنة» يكاد يتفق وترتيب ابن النديم ، اي ان «الموازنة» يأتي بعد كتاب «المختلف والمؤتلف» ، وكتاب «نثر المنظوم» . لكن سنة التأليف تظل — مع ذلك — غامضة .

وقد حاول بعض المحدثين ممن شغلتهم القضية ملامسة الحقيقة من بعض جوانبها ، فالاستاذ احمد امين في تقديمه لكتاب «اخبار ابي تمام» دأب على

---

(١) ابن النديم الفهرست ص ١٥٠ ١٥١
(٢) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٥ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٥٥ .
(٤) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٤٣١ وما بعدها .
(٥) ياقوت الحموي : معجم الادباء ، ج ١٩ ص ١١١ .

ذكر كتاب «الموازنة» للآمدي قبل «اخبار ....» الصولي ، مما يحمل على الاعتقاد ان «الموازنة» اسبق تأليفاً . يقول : «فألف الآمدي كتاب الموازنة بين ابي تمام والبحتري يتعصب فيه للبحتري من وراء حجاب ، والف الصولي هذا الكتاب (ويعني اخبار ابي تمام) يتعصب فيه لابي تمام (١) .

وقد يبلغ هذا الاعتقاد ذروته حين نرى ان الاستاذ احمد امين ينص في قول آخر على ان «اخبار ابي تمام» جاء ليهذب من سطوة الانتصار للبحتري التي بسطها كتاب «الموازنة» يقول : «وقد مضى زمان كنا لا نسمع فيه الا نغمة الانتصار للبحتري من الآمدي. فكان في هذا الكتاب الذي بين ايدينا الآن ما يعدل هذه النغمة ، ويلطف هذه الحدة ، فتتجاوب النغمتان وتتعادل الكفتان ، ويكون امام القاضي العادل اقوال الخصوم والمؤيدين تامة في غير نقص» (٢) . لكننا حين ننعم النظر في قوله هذا سنجد ان الامر لا يتعلق بعصر المؤلفين ذاتهما ، بل بعصر احمد امين وجيله ، اذ طلع عليهم — كما يبدو — كتاب «الموازنة» قبل ان يظهر كتاب «اخبار ابي تمام» . ومع ذلك لا نعثر في هذه المقدمة ولا في مقدمة الناشرين ما يشير إلى سنة تأليف كتاب الصولي

اما الدكتور : محمد مندور فيأتي برأي اقرب إلى الدقة وان لم يكن قد اتى على تحديد سنة تأليف الكتابين ، فقد أعتمد اسلوب الناقدين ومنهجهما في التأليف ، وادرك من خلال ذلك ان كتاب الصولي اسبق تأليفاً من كتاب الآمدي :

« والذي لا شك فيه ان الآمدي لم يكتب كتابه ايام عنف الخصومة بين انصار ابي تمام والبحتري ، وذلك لأن ابا تمام توفي سنة ٢٣١ﻫ ، والبحتري

---

(١) من مقدمة احمد امين لكتاب «اخبار ابي تمام » للصولي ، ص : أأأﻫ .
(٢) من مقدمة احمد امين لكتاب «اخبار ابي تمام» للصولي ، ص : ي أ

توفي سنة ٢٨٤هـ والمعركة قد احتدمت فيما يظهر بعد موتهما مباشرة حتى بلغت اقصاها اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع ... فالصولي هو الذي يجب ان يتهم بالتعصب لابي تمام ... واما الآمدي فقد جاء بعد ان كان الزمن قد هدأ من حدة الخصومة .وكان الادباء قد اخذوا في الامتثال حول رجل آخر هو المتنبي . جاء الآمدي إذن بعد تراخي الزمن» (١) .

وهذا الرأي مفيد لأن اثر اللحظة في الكتابة والابداع واضح ، ولا نستطيع التخلص منه ، اذ مهما حاول الناقد او المبدع ان يتحرر من تأثير لحظة الكتابة الا ووجد خيوطاً خفية تجذبه اليه بوعي او بدونه . وكذلك كان شأن الصولي . فأسلوبه في هذا الكتاب يتسم بحرارة اللحظة وحدة الاشكالية التي يعالجها . مما يؤكد — فعلا — ان الكتاب الف في بداية عهد الصراع حول مذهب الطائيين خلافاً لكتاب «الموازنة» الذي يبدو اسلوب صاحبه اكثر رصانة وهدوءاً ، واوضح منهجاً .

وقد تفيدنا ملاحظة الدكتور «محمود الربداوي» في كتابه «الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام» لدعم الرأي السابق يقول صاحب الكتاب «ويعتبر تأليف الموازنة هذا تتويجاً للحركة النقدية التي نشأت حول ابي تمام والبحتري»(٢) ولا شك في ان ما نفهمه من كلمة «تتويجاً» حين ترد في سياق مثل هذا هو انها خاتمة المطاف ونهاية الشيء ، ومعنى هذا ان كتاب «الموازنة» جاء ليختتم ذلك الصراع النقدي حول مذهب الطائيين .

وإذا كنا لا نخالف اصحاب هذا الرأي في النتيجة التي انتهوا اليها ، فإننا نرى ان ايسر طريق لذلك ينبغي ان يتوخى من خلال تتبع فقرات الكتابين معاً واذ ذاك سنجد ان «الموازنة» تمدنا بنصين هامين ، احدهما مباشر والثاني

(١) د. محمد مناور : النقد المنهجي عند العرب ، ص ١٠٣ .
(٢) د. محمود الربداوي : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، ص ١٦٨ .

غير مباشر ، لا يدعان مجالا للشك ان «اخبار ابي تمام» اسبق في التأليف من «الموازنة» . ونبدأ بالنص غير المباشر ، الذي لا نشك في ان الآمدي يشير فيه إلى الصولي يقول : «وبعد : فلم لا تصدق نفسك ايها المدعي ، وتعرفنا من أين طرأ عليك العلم بالشعر ؟ أمن اجل ان عندك خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء ؟ وانك ربما قلت ذلك وتصفحته او حفظت القصيدة والخمسين منه ؟ فإن كان ذلك هو الذي قوى ظنك ، ومكن ثقتك بمعرفتك فلم لا تدعي المعرفة بثياب بدنك ورحل بيتك ونفقتك ؟ فانك إنما تستعمل ذلك وتستمع به ، ولا تخلو من ملابسته ، كما لا تخلو مني كثير من الاوقات من ملابسة الشعر ودراسته ، حتى اذا رمت تصريف دينار بدراهم او تصريف دراهم بدنانير او ابتياع ثوب او شيء من الآلة لم تثق بفهمك ولا علمك حتى ترجع إلى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك ، ولم لما خفت الغبينة في مالك فأذعنت وسلمت واقررت بقلة المعرفة لم تخش الغبينة والوكس في عقلك فتسلم العلم بالشعر إلى اهله ؟ فإن الضرر في غبن العقل اعظم من الضرر في غبن المال» (١) .

تفيدنا فقرات النص في الكشف عن الشخص الذي يشير اليه الآمدي . فالمعروف ان الذي اشتهر بهذه الخزانة التي تضم عدداً هائلا من الكتب في تلك الفترة هو الصولي ، حتى صارت خزانته تلك محط اهتمام الناس وفيها يقول ابو سعيد العقيلي .

إنما الصولي شيخ ... أعلم الناس خزانه
إن سألناه بعلم ... نبتغي عنه الابانه
قال يا غلمان هاتوا ... رزمة العلم فلانه

(١) الآمدي : الموازنة ، ج ١ ص ٤١٦ .

والمعروف ايضاً ان صوت ورأي الصولي يبدو خافتاً في كتابه «اخبار ابي تمام» فهو دائم الرجوع إلى آراء شيوخه والعلماء السابقين عنه والمعاصرين له يستمد منهم الآراء حول شعر واخبار ابي تمام ، كذلك يكثر عنده فعل الاخبار ومرادفاته : (اخبرني – حدثني – سمعت – روى ... الخ) بحيث تذكرنا طريقته بطريقة ابن سلام في كتابه «طبقات فحول الشعراء» ، وبالتالي لا نعثر للصولي الا على فقرات قليلة تعد من صميم رأيه . ولعل هذا ما كان الآمدي يشير اليه بقوله «لم تثق بفهمك ولا علمك حتى ترجع إلى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك» .

وإذا كان النص غير المباشر – يحمل اكثر من تأويل ، فإن النص المباشر الذي يصرح فيه الآمدي باسم الصولي لا يدع اي مجال للشك في ان المعني هو ابو بكر محمد بن يحيى الصولي . ففي معرض حديثه عن اخطاء ابي تمام يورد له قوله :

دار أجلُّ الهوى من لم ألِمَّ بها   في الركب الا وعيني من منائحها

ويعلق عليه بقوله : «وهذا لفظ محال عن وجهه : لأن «إلا» ههنا تحقيق وايجاب ، فكيف يجوز ان تكون عينه من منائحها إذا لم يلْم بها ؟ وإنما وجه الكلام ان يقول : «دار اجل الهوى عن ان الم بها الا وعيني من منائحها ، او اجل الهوى عن ان الم بها وليس عيني من منائحها» وقد كنت اظن ان ابا تمام على هذا نظم الشعر ، وان غلطا وقع في نقل البيت ، حتى رجعت إلى النسخة العتيقة التي لم تقع في يد «الصولي» واضرابه ، فوجدت البيت في غير نسخة مثبتاً على هذا الخطأ » (١) .

فهل بعد هذا النص الصريح والتصريح باسم الصولي من امر آخر يمكن ان يرشدنا إلى اي المؤلفين اسبق ؟ وإذن يمكن التسليم – انطلاقاً من هذا –

(١) الآمدي : الموازنة ، ج ١ ص ٢١٥ – ٢١٦ .

ان الصولي والآمدي وإن كانا متعاصرين . وان مؤلفيهما عالجا اشكالية واحدة ، الا ان السبق في تأليف «اخبار ابي تمام» ظاهر لا غموض فيه . وإن كان من المتعذر حالياً ضبط سنة التأليف بشكل دقيق .

لكن السؤال المطروح هو : هل سيتمكن الصولي من تأسيس خطاب نقدي متميز يسهم في قضية الصراع حول ابي تمام منهجاً واصطلاحاً ؟ .

علاقة المقدمة بالمتن :

قد يكون عنوان الكتاب مؤشراً على الغرض الاساس والشغل الحقيقي الذي كان يشغل بال الصولي ، وهو إيراد وذكر مجموعة من الاخبار المتصلة بأبي تمام ، مما يجعل الكتاب مندرجاً ضمن كتب السير والاخبار كما يرى د. إحسان عباس : «والحق ان كتاب الصولي (ويعني اخبار ابي تمام) — رغم موقفه الدفاعي — يعد في كتب السيرة» (١) . غير ان احتواءه على بعض الملاحظات والمواقف النقدية خاصة في مقدمته جعلت دارسين وآخرين يصنفونه ضمن كتب النقد ، كما يرى ذلك عبدالرؤوف ابو السعد : «والكتاب يستمد اهميته في تاريخ النقد من مقدمته التي تشكل ظاهرة متمردة ورافضة لمذهب الطبع وعمود الشعر» (٢) . ولا غرابة في هذا التأرجح في تصنيف الكتاب ، تارة ضمن كتب السير والتراجم . وتارة اخرى ضمن كتب النقد . فمعظم كتب التراث العربي القديم جاءت متنوعة الاصول ، متعددة المشارب والافكار : فقد كان الكتاب القديم يضم بين دفتيه عدداً من الالوان المعرفية ، فتجد النحو إلى جانب البلاغة والنقد والاخبار والمنطق ... الخ . إنها خاصية من خصائص الكتابة في القديم وقد تعد مزية في رأي البعض لأنها تدل على

---

(١) احسان عباس : تاريخ النقد الادبي ، ص ١٥١ ، وينظر كذلك كتاب د. محمد مندور النقد المنهجي عند العرب ص ٩٣ .

(٢) د. عبدالرؤوف ابو السعد : مفهوم الشعر في ضوء نظريات الفكر العربي ص ٢٣٣ .

«موسوعية المثقف»القديم ، كما انها قد تعد عيباً لانها لم تسمح بتمايز الخطابات وتحديد قوانينها . ولكنها — على اية حال — حقيقة لا مناص للافلات منها، ولا فكاك من شروطها ومعطياتها ونتائجها . لكن ما ينبغي ان يبحث فيه هو: كيف تخدم السير والاخبار الخطاب النقدي ، وإلى اي حد تسهم في تشكله وتبلوره ؟ سؤال عريض وكبير ويمكننا ان نختزل الجواب عنه في ان الاخبار والسير في بعض الكتب النقدية تصير مهيمنا ، تمتص النقد وتجعله مبعثراً لا يظهر الا لماماً ومن ثم نفهم لماذا يتشكل الخطاب النقدي القديم امامي رسائل او مقدمات او فقرات موزعة هنا وهناك .

ويهمنا ان نعمد إلى مقدمة الصولي «لأخبار ابي تمام» لنبحث علاقتها بقية المتن . فالمقدمة — كما هو معروف — عبارة عن رسالة من الصولي إلى «مزاحم بن فاتك» افتتح بها كتابه ، وذكر فيها اسباب التأليف ، ولم يتورع من ذكر السبب الحقيقي وهو رغبته في الدفاع عن شاعره المفضل والانتصار له (١) . فقد نظر الصولي في موقف الناس من ابي تمام فوجدهم قسمين : آ— قسم معه ، وهم العارفون بالشعر معرفة حقيقية وهم فئتان : الاولى تعطيه حقه وموضعه في الشعر ، والثانية تبالغ فتجعله نسيج وحده وسابقاً لا مساوي له .

ب— قسم عليه : وهم المدعون المقلدون الذين لا دليل ولا حجة لهم . ولذلك انتدب الصولي نفسه ليقف موقفاً عادلا ، لا يذهب فيه مذهب المغالين . ولا ينحدر فيه إلى ادعاء المدعين . لكن الحقيقة التي يدركها كل متتبع لنصوص وفقرات كتابه يدرك انه لم يكن — بحق — الناقد العادل .

لقد حدد الصولي في مقدمة كتابه الاسباب التي دفعت خصوم ابي تمام

(١) ينظر «اخبار ابي تمام» للصولي ، ص ٤ — ٥ .

لمعاداته ويحددها في الفتهم للأشعار القديمة وسهولتها عليهم ورواية الأئمة لها في مقابل انعدام رواة للشعر المحدث . كما تضمنت المقدمة بعض الملاحظات النقدية افرزت لنا بعض المقاييس التي يعتمدها الصولي في التفضيل (١) فضلا عن مناقشته لبعض الابيات الشعرية لابي تمام عابها بعض العلماء عليه، ومحاولة من الصولي لابراز روح العالم الذي لا يدعي ما يدعيه من سماهم « «بالمتحلين» بالادب» (٢) . اقر في مقدمته ما للقدماء من فضل على المحدثين ولكنه — كعادته — لا يأتي على ذلك الا ليمهد لغرضه الاساس وهو الانتصار للشعر المحدث ورائده ابي تمام : وستكون لنا وقفة عند هذه الملاحظات والمواقف النقدية في مكان نبحث فيه «ملامح الخطاب النقدي» .

بعد المقدمة ينتقل الصولي إلى فصل عنوانه بما يلي : «ما جاء في تفضيل ابي تمام » ، وهو — إن صح القول — فصل اقرب إلى طبيعة المقدمة منه إلى بقية المتن الاخباري ؛ فقد عمد فيه الصولي إلى إثبات نص حسن لابي تمام وتعليق بعض الكتاب والادباء والشعراء عليه . غير ان اللافت للنظر في هذا الفصل هو ما يمكن تسميته «باستغلال الصولي لسماحة البحتري ووفائه لاستاذه ابي تمام» حيث يكرر نصوصاً على لسان البحتري يشهد بها على فضل ابي تمام واستاذيته . يقول الصولي : «حدثني سوّار بن ابي شراعة قال ، حدثني البحتري قال : كان اول امري في الشعر ، ونباهتي فيه ، اني صرت إلى ابي تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعري ، وكان يجلس فلا يبقى شاعراً الا قصده وعرض عليه شعره ، فلما سمع شعري اقبل علي وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا قال : انت اشعر من انشدني ، فكيف حالك ؟ فشكوت خلّة ، فكتب لي إلى اهل معرة النعمان ، وشهد لي بالحذق ، وقال : امتدحهم ،

(١) ينظر «اخبار ابي تمام» للصولي : ص ١٢ و٢٥ .
(٢) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٦ .

فصرت اليهم فاكرموني بكتابه ووظفوا لي اربعة آلاف درهم ، فكانت اول ما اصبته » (١) . وفي نفس المعنى يورد خبراً آخر في جمع ضم البحتري وعبدالله بن الحسين بن سعد ومحمد بن يزيد النحوي حيث دار الحديث بينهم عن معنى تعاوره البحتري وابو تمام وحكم للبحتري فيه بأنه أشعر من ابـي تمام ، فكان رد البحتري عن هذا التفضيل والتقديم : «كلا والله ذاك الرئيس الاستاذ ، والله ما اكلت الخبز الا به » (٢) . بهذا الاسلوب وهذه الطريقــة يحاول الصولي ان يوقع قارءه في فخ التعصب لابي تمام وليس يخفى على كل باحث انه اسلوب لا يصمد في وجه طرق البحث العلمي الرصين الذي يتحرى حقيقة النصوص وسياقاتها .

وينتقل الصولي بعد ذلك إلى فصل خاص عن اخبار ابي تمام مع كـل ممدوح من ممدوحيه (احمد بن ابي داؤد ، خالد بن يزيد الشيباني ، الحسن بن رجاء ، الحسن بن وهب وابن الزيات ، آل طاهر بن الحسين ، ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري ، احمد بن المعتصم) . ومعظم هذه الاخبار ينصرف الحديث فيها للقاء الشاعر بممدوحه وانشاده اياه ، وبعض الحوارات التي جرت بينهما او بين ابـي تمام وبعض حضور المجلس . وكان الصولي فـي كل هذه اللقاءات — حريصاً على ذكر ما يرفع من شأن ابي تمام ويعلو من قدره . ولعل أكمل صورة لذلك ما جاء على لسان ممدوحه الحسن بن رجاء الذي انشد بحضرته قصيدته التي يقول فيها :

كفـى وغـاك فإنني لك قـالـي ليست هوادي عـزمتي بتوالي

فلما بلغ بيتـه :

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٦٦ .
(٢) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٦٧ . وينظر لنفس المعنى الصفحات : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

عادت له أيامه مُسْوَدّة   حتى توهم انهن ليالي

قال له الحسن بن رجاء «والله لا تسودُ عليك بعد اليوم» (١) . وقد بلغ اعجاب الحسن بن رجاء قمته لما أتى ابو تمام على بيتيه :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالي
وتنظري خبب الركاب ينُصُّها   مُحيي القريض إلى مميت المال

إذا اقسم الممدوح اليمين الا يتم ابو تمام قصيدته الا وهو قائم ، فقام ابو تمام لقيام ممدوحه واكمل القصيدة حتى اذا جاء على نهايتها تعانقا معاً وجلسا . إذن فصور من هذا القبيل يستفاد منها في خطابات اخرى غير الخطاب النقدي لكن ما يمكن عده من صميم القول النقدي ما جاء في هذا الفصل من التفاتة هامة من الصولي إلى علاقة الدين بالشعر ، اذ ردّ على بعض العلماء الذين يتخذون هذه القضية سلاحاً يشهرونه في وجه ابي تمام لتجريحه والحط من قيمته ، واعتبر ان الدين بمعزل عن الشعر يقول : «وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه ، وجعلوا ذلك سبباً للطعن على شعره ، وتقبيح حسنه ، وما ظننت ان كفرا ينقص من شعر ، ولا ان ايماناً يزيد فيه» (٢) .

ويتبع الصولي هذا الفصل الخاص بالاخبار بفصلين صغيرين يمتد اولهما من الصفحة«٢٣٤»إلى الصفحة«٢٤٣»والثاني من الصفحة «٢٤٤» إلى الصفحة «٢٤٨» . وهما فصلان يبدو ان الصولي يحاول من خلالهما ان يظهر بمظهر الناقد العادل الذي يأتي على ذكر عيوب شاعره كإتيانه على ذكر محاسنه . والحق ان الصولي ابعد ما يكون عن النهوض بهذه المسؤولية . فالفصل الاول الذي خصصه لأخبار ابي تمام مع مخلد بن بكار الموصلي ، وركز فيه على اشعار يهجو فيها هذا الأخير ابا تمام هجاء ينال من اصله ونسبه ، لم يعترف

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ١٦٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .

الصولي لمخلد هذا باصالته وجدته في هذا اللون من الهجاء ، وإنما جعله مسبوقاً اليه وبذلك ينزلق الصولي من ذكر عيوب صاحبه إلى ذكر عيوب خصم صاحبه (1) .

وفي الفصل الثاني اكتفى بذكر بعض ما روي من عيوب ابي تمام ، غير اننا إذا تتبعنا هذه المرويات نجد الصولي قد انتقاها انتقاء لا يذهب إلى تجريح ابي تمام . ذلك ان العبارات التي ورد فيها ذكر هذه العيوب كثيراً ما تكون مسبوقة بالاستحسان حتى لتغدو تلك العيوب باهتة خافتة امام الحسنات . وعموماً فهذان الفصلان القصيران لا يعدوان ان يكونا بمثابة «حبة رمل في بحر» . فما اصغر حجمهما بالمقارنة مع الحجم الذي خصص لذكر محاسن ابي تمام ، وما اكثر التباس وغموض عباراتهما في مقابل وضوح عبارات الفصول الخاصة بالمحاسن . وسرعان ما ينتقل الصولي إلى فصل لاحق عاد فيه إلى تمجيد صاحبه ابي تمام مركزاً هذه المرة على ما لابي تمام من روايات يرددها في المجالس ، ومعظم هذه الروايات من قبيل مأثور الكلام الذي يلذ سماعه ويجمل ترديده . والظاهر ان الصولي لم يكن يهدف إلى رصد هذه الخصلة ، وإنما كان يريد ان يعقد بما لصاحبه من المام ودراية ودربة بما عرف بالمذهب الكلامي وذلك من خلال العبارات والفقرات التي رواها من هذا اللون . ويؤكد محمد مندور هذه الحقيقة بقوله : «والواقع ان ابا تمام لم يكن غريباً عن مباحث المتكلمين ومناهجهم في التفكير . ولدينا في كتاب «اخبار ابي تمام» للصولي فصل هام بعنوان «ما رواه ابو تمام» يثبت ذلك . وهو فصل اقرب إلى التفكير الفلسفي الذي يعتمد على العبارة اكثر من اعتماده على الفكرة في ذاتها . وابو تمام هو الذي ينقل هذه الاقوال مما يدل على حرصه على امثالها.. وهذه كلها اقوال تدل على المهارة في التعبير واللعب على الافكار اكثر من

(1) الصولي : اخبار ابي تمام . من ص ٢٣٤ إلى ص ٢٤٣ .

دلالتها على أصالة الفكر وقدرة على الخلق او إصابة الحق أو الخرص عليه ، وهي قريبة باقوال المتكلمين وفلاسفة المنطق الشكلي» (١) .

ويردف الصولي هذا الفصل بفصل آخر عن صفة ابي تمام واخباره مع اهله . وليس في هذا الفصل مما يمس الجانب الادبي الصرف ما يستحق الوقوف عنده فقد اكتفى الصولي بذكر صفات ابي تمام وسماته وقسماته وما جاء لأخ له يقال له سهم وابن يقال له تمام من شعر يتأرجح بين الرداءة والتوسط . ثم ينتهي الكتاب بفصل يتدارك فيه الصولي بعض اخبار ابي تمام سماه «اخبار لابي تمام متفرقة» وهو فصل كما يرى مصطفى الشكعة : «تحايل منهجي إن لم يكن مقبولا موضوعاً فهو طريف شكلا» (٢) .

من خلال ما تقدم يتبين ان الموقف النقدي الذي حاول الصولي ان يؤسس له قد امتصته الأخبار ولم تبق منه الا ارهاصات قليلة تضمنتها المقدمة . ومن ثم يصح القول ان المقدمة جاءت منفصلة من حيث الطرح عن بقية متن الكتاب. فالمتن إخباري صرف في حين ان المقدمة وان اعترتها بعض سمات الخطاب الاخباري تكشف عن موقف نقدي يسعى إلى التشكل لكنه في عمومه ظاهر التعصب والانتصار المعلن لابي تمام وابعد ما يكون عن روح الناقد الموضوعي مما يحول دون ارتقائه إلى مستوى الطرح الناضج لقضية القديم والمحدث التي كانت بمثابة الفكرة / المحور . وهذا ان دل على شيء ، فإنما يدل على ان «اخبار ابي تمام»لا يرقى ليكون اول بيان في الحداثة كما ادعى ذلك «ادونيس»(٣). لانه لا يقدم ولا يناقش الخصائص الفنية للحداثة الشعرية كما يمثلها ابو تمام ، في وقت سنجد ان كتاب «الموازنة»الذي يعد بياناً لاتجاه عمود الشعر يقدم ويناقش كثيراً من خصائص الحداثة الشعرية لكأنه اعلم بهذا الاتجاه من اصحابه.

---

(١) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب . ص ٦٦ — ٦٧ .
(٢) د. مصطفى الشكعة : مناهج التأليف عند العرب . ص ٢٦٤ .
(٣) ينظر كتاب «الثابت والمتحول» ج ١ «تأصيل الاصول» ، ص ١٧٨ .

بل ان مما يقلص حظوظ «اخبار ابي تمام» كي يكون اول بيان للحداثة كونه كتاباً في الاخبار اكثر منه كتاباً في النقد، بالرغم من مقدمته التي تبدو فيها بعض ملامح الخطاب النقدي، لكنها ملامح تعتريها سلبيات عديدة.

ملامح الخطاب النقدي في «مقدمة» اخبار ابي تمام.

إذا كانت العملية الابداعية جد معقدة باعتبار ان المبدع متعامل مع عالم رحب وواسع، فإن العملية النقدية اكثر تعقيداً باعتبار ان الناقد يتعامل مع عالم مغلق من الرموز محاولا فهمه وتفسيره وتقريبه، باحثاً عن دلالة وعن معنى. فإذا كان المبدع يسائل العالم ويقدم رؤية معينة، فإن الناقد يسائل الصياغة الاشارية والرمزية لذلك العالم وحتى يكتسب العمل النقدي مشروعيته فلا يكفي صدوره عن ذوق الناقد وانطباعه الخاص، بل لا بد له من منهج ينتظمه ومصطلح يغذيه. فليست العملية النقدية عملية انطباعية وإنما هي عملية تحتاج – كما اسلفنا – إلى منهج ومصطلح ان لم يكونا علميين دقيقين، فإلى روح الموضوعية ينبغي ان يكونا اقرب.

لقد وجد الصولي نفسه امام ظاهرة ابداعية جديدة او قول شعري جديد هو الشعر المحدث والسؤال الذي ينبغي طرحه هو: كيف بحث الصولي في اسس قبول هذا القول الشعري الجديد؟ وبم وكيف برّر هذا القبول؟

سبق ان تقدم ان كتاب الصولي جاء في وقت اختلفت فيه آراء الناس بصدد شعر ابي تمام وانقسامهم فئتين: فئة معه وهم قسمان قسم «يوفيه حقه ويعطيه موضعه من الرتبة»(١) وقسم يبالغ في مدحه ويفرط في الثناء عليه فيجعله نسيج وحده وسابقاً لا مساوي له» (٢).

(١) الصولي: اخبار ابي تمام، ص ٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤.

والفئة الثانية ضده ترذل شعره وتعيبه وتجعله مقلداً او مدعياً . فهذا الموقف غير العادل ، وان كان يقدم لنا الشروط الموضوعية لتأليف هذه الرسالة / المقدمة وهذا المتن . فإنه من جهة اخرى يكشف لنا عما آل اليه الذوق العربي من تصدع واختلاف بصدد قول شعري جديد هو الشعر المحدث ، وبالتالي يصير حافزاً لتشكيل وتبين خطاب نقدي . غير ان الصولي يصرح — منذ البداية — بانحيازه إلى ابي تمام : «وأذكر جميع ما قيل فيه وان كان قصدي تبيين فضله ، والرد على من جهل الحق فيه» (١) . وبذلك يُغيّب اهم عنصر من مكونات العملية النقدية والمتمثل في تحكيم الموضوعية ، وسيكون لتغييب هذا العنصر اثر بالغ في اضطراب منهج الصولي النقدي — ان سلمنا له بوجوده . وتتجلى ملامح هذا الاضطراب في : آ— سطحية اسس المفاضلة النقدية . ب — فساد الذوق النقدي واضطرابه . جـ — غياب تحديد خصائص القول الشعري الجديد (الحداثة الشعرية) وما رافق ذلك من ضحالة المصطلح النقدي .

آ — سطحية اسس المفاضلة : ان يفاضل الناقد بين شاعرين ويقدم احدهما على الآخر ظاهرة صحية في الخطاب النقدي. غير ان هذا التفضيل والتقديم ينبغي ان يقوم على اسس موضوعية . وقديماً فاضل النقاد وعلماء الشعر بين الشعراء وقدموا بعضهم واخروا البعض الآخر . وقد برروا لمواقفهم بتبريرات مختلفة فابن سلام الجمحي مثلا فاضل بين الشعراء وصنفهم وقدم بعضهم واخر البعض الآخر بناء على مبادىء محددة منها الفحولة ، وتقارب كل اصحاب طبقة في اشعارهم ، ومبدأ الكم . وهي المبادىء التي شكلت مفهوم الطبقة عنده. وابن قتيبة وإن لم يخضع الشعراء الذين ترجم لهم لترتيب

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٥ .

معين ،لم يخف في مقدمته ثورته على المقياس الزمني اساساً للتفضيل والتقديم يقول : «ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل على الفريقين واعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه» (١) . فابن قتيبة يحاول ان يحكم ما يمكن ان نصطلح عليه بالمقياس الفني القائم على الاهتمام بالشعر من حيث جودته ورداءته ، وهو مقياس ناضج وإن لم تتبلور فاعلية ممارسته في متن كتابه . والنتيجة التي ينتهي اليها كل باحث هي غياب الناقد الذي بنى تفضيله وتقديمه للشعراء على اسس موضوعية صرف ، ولم يشذ الصولي نفسه عن هذه القاعدة . ففي مقدمة فقرات تكشف عن عدم تبنيه لمقاييس موضوعية مضبوطة في التفضيل والتقديم . من ذلك ما ذكره اثناء حديثه عن تأليفه لأخبار الفرزدق حيث قال : «وإنما بدأت بالفرزدق لشرفه ، وقوة اسر كلامه ، وكثرة معانيه ، وجميل مذهبه ؛ فإنه كان مائلا في دولة بني أمية إلى بني هاشم ، مجاهر بفضلهم وتقديمهم» (٢) . فالشرف ، وقوة اسر الكلام ، وكثرة المعاني ، وجميل المذهب مقاييس فضفاضة وعائمة لا يمكن حصر معانيها ودلالتها ، ومن ثم تفقد قيمها النقدية لأنها لا تستند إلى قوانين ضابطة .فالشرف قد يكون شرف النسب ،وهذا المعنى لايخدم الخطاب النقدي ، بل الذي يخدمه هو ارتباط مقولة الشرف «بالمعنى» إذ ذاك يأخذ التعبير دلالته وقيمته النقدية المتعارف عليها عند النقاد ، وتكون نظرية عمود الشعر مرجعيتها . أما تعبير «قوة أسر كلامه» فلا غرو أنه يعني به حسن السبك وصحته ومتانته ، ولكن هذا التعبير لم يرق إلى درجة التعبير الاصطلاحي الذي إذا ذكر دل على معنى محدد تواضع عليه النقاد .

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠ .
(٢) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ١٢ .

وتصادفنا في المقدمة أيضاً فقرة أخرى تكشف عن اضطراب أسس التفضيل وذلك في قوله تبريره اختيار ابن الرومي : «وإنما جئت بابن الرومي لانه ممن رأيت وشاهدت ، وهو أقرب المتحسنين عهداً ، وآخرهم موتاً »(١) . فمقياس اختيار ابن الرومي والمجيء به حسب هذا النص هو المشاهدة وتأخر الوفاة ، والسؤال هو متى كان هذان العنصران أساساً لتفضيل الشعراء أو تأخيرهم ، أو لم يحمل ابن قتيبة على علماء عصره ممن كانت نظرتهم كنظرة الصولي ورد عليهم بقوله الشهير ،«ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره» (٢) . فالصولي . إذن – لم يطور المقاييس النقدية في التفضيل والتقديم، ولم يستطع ان يؤسسها تأسيساً موضوعياً ، بل الأكثر من ذلك أنه كان انتكاسة لبعض القيم النقدية التي كانت في طريق التأسيس الموضوعي .

ب– أما عن فساد الذوق النقدي واضطرابه فتتجلى مظاهره في :

١ – مقارنة الرديء بالرديء : ففي تعليق الصولي على من عابوا قول ابي تمام : مازال يهذي بالمواهب دائباً   حتى ظننا أنه محموم .

قال : فكيف لم يسقطوا أبا نواس بقوله في العباس:

جـدت بالامـوال حتـى   قيـل ماهـذا صحيـح

والمحموم أحسن حالاً من المجنون (٣) . والحق أن كلا المعنيين باطل وفاسد لأنه بالغ الافراط في تشبيه الجود والعطاء حتى لينقلب المدح إلى عكسه وهو تشبيه مذموم في طريقة العرب فقد عده أبو هلال العسكري من رديء المبالغة ، قال : ومن رديء المبالغة قول ابي تمام :

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٢٥ .
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠ .
(٣) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٣٢ .

مازال يهذي بالمكارم والعلا   حتى ظننا أنه محموم

أراد أن يبالغ في ذكر الممدوح باللهج بذكر الجود ، فقال : «مازال يهذي فجاء بلفظ مذموم ، والجيد في معناه قول الآخر : (عبيد الله العنبري) :

ماكان يعطي مثلها في مثله   إلا كريم الخيم أو مجنون

فقسم قسمين : ممدوحاً ومذموماً ليخرج الممدوح من المذموم الى الممدوح المحمود(١) ،وأما عبدالقاهر الجرجاني فقد عده مظهراً من مظاهر فساد ذوق ابي تمام يقول ، ولم يحتشم أنه قال :

مازال يهذي بالمكارم والعلا   حتى ظننا أنه محموم

فجعله يهذي وجعل عليه الحمى وظن أنه اذا حصل له المبالغات في إثبات المكارم له وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره حتى لايصدر عنه غيرها ،فلا خير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافي (٢) . في عدم القدرة على تحسس الوظيفة الجمالية لبعض الاستعمالات الشعرية كدلالة الماء في بيت ابي تمام :

لاتسقني ماء الملام فإنني   صب قد استعذبت ماء بكائي

فقد اكتفى بمقارنته بقول ذي الرمة

أن ترسمت من خرقاء منزلة   ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وقوله أيضاً :

أداراً بحزوى هيجت للعين عبرة   فما الهوى يرفضّ أو يترقرق(٣)

وانتهى إلى حكمه فما يكون أن استعار ابو تمام من هذا كله حرفاً

---

(١) ابو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، ص ٣٨٠ .

(٢) عبدالقاهر الجرجاني : اسرار البلاغة ، ص ٢٢٠ .

(٣) ومن الابيات التي أدرجها الصولي ايضاً في مقارنته هذه ، قول الشاعر عبدالصمد بن غيلان :
(اي ماء لماء وجهك يبقى   بعد ذل الهوى وذل السؤال) ، وكذا قول ابي العتاهية :
(ظبي عليه من الملاحة حلة   ماء الشباب يجول في وجناته) ، وكذا قول احمد بن ابراهيم
(احتف ماء الشباب يرعد في خد   يه لولا اديمه قطرا) . اخبار أبي تمام ص : ٣٤ — ٣٥.

فجاء به في صدر بيته ، لما قال في آخره : «فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي» قال في اوله : «لا تسقني ماء الملام» ؟ وقد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوي معناه» (١) . وعلل لهذا الحكم بآيات من القرآن الكريم، ناسياً الوظيفة الجمالية التي يزخر بها هذا البيت والتي تستمد شاعريتها من الاستعارة الحسنة في قوله «ماء الملام» وهو ما سيلتفت اليه صاحب «الموازنة» حيث اعتبر البيت من حسنات الشاعر «ابي تمام» ورد على من عابوه بل ويبدو في رده ايضاً انه يشير كذلك إلى المقارنة التي عقدها الصولي بين قول ابي تمام وبين بيت ذي الرمة الاول ، فقال : «وقد احتج محتج لابي تمام في هذا (ويعني بيت ابي تمام : لا تسقني ماء الملام ... البيت) بقول ذي الرمة

ادارا بحزوى هيجت للعين عبرة فماء الهوى يرفضّ او يترقرق

... وهذا لا يشبه ماء الملام ؟ لأن ماء الملام استعارة ، وماء الهوى ليس باستعاره» (٢) .

جـ- إن «ناقداً» كالصولي الذي يعد اكبر المدافعين عن مذهب ابي تمام والمتنصرين له ، كان حرياً به ان يقدم بين يدي قارئه خصائص مذهب شاعره المفضل . لكن المقدمة خلت من اية إشارة لذلك ، باستثناء ماجاء على لسانه في اثناء تجريحه لعائبي ابي تمام حيث يقول : «ومنزلة عائب ابي تمام - وهو رأس في الشعر مبتدىء لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه حتى قيل : مذهب الطائي ، وكل حاذق بعده ينسب اليه ويقضي أثره - منزلة حقيرة يصان عن ذكرها الذم ويرتفع عنها الوهْدُ» (٣) . فما هي خصائص ومقومات هذا المذهب الشعري ، وكيف عرضها الصولي ودافع عنها بمنظور

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٣٥-٣٦ .
(٢) الآمدي : الموازنة ، ج ١ ص ٢٧٨ .
(٣) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٣٢ .

الناقد ؟ اشياء لا نجدها في مقدمة الكتاب ولا في متنه . وهذا ما يزيد تأكيداً ان الصولي كان بعيداً عن ان يكون «ناقد النص» ما عدا موقفه من قضيـة السرقات الأدبية التي وان كان يهدف من ورائها دفع التهمة عن شاعره ، الا انه استطاع — مع ذلك — ان يقدم تصوراً ناضجاً للقضية على انها ليست شيئاً مذموماً ، بل ويفهم من قوله الذي يلخص موقفه من القضية : «وليس احد من الشعراء — اعزك الله — يعمل المعاني ويخترعها ويتكيء على نفسه فيها اكثر من ابي تمام ، ومتى اخذ معنى زاد عليه ، ووشحه ببديعه ، وتمم معناه فكان احق به، وكذلك الحكم في الاخذ عند العلماء بالشعر» (١) . انها قضية مرتبطة بما هو بلاغي اكثر من ارتباطها بما هو نقدي ، وهذا شيء وارد في الدرس الادبي عند العرب ؛ فقد جرت العادة عند بعض البلاغيين أن يجعلوا قضية السرقات الأدبية آخر مبحث من مباحثهم البلاغية (٢) .

فالقضية اذن — عند الصولي مرتبطة اساساً بالمعاني من حيث هي مخترعة (يعمل المعاني ويخترعها) او من حيث هي مولدة(ومتى اخذ معنى زاد عليه ، ووشحه ببديعه) والمخترع من الشعر كما يقدمه لنا ابن رشيق هو «ما لم يسبق اليه قائله ولا عمل احد من الشعراء قبله نظيره او ما يقرب منه» (٣) . وقد كان شعر ابي تمام حافلا بالمخترع . اما التوليد فهو «ان يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، او يزيد فيه زيادة ؛ فلذلك سمي التوليد ، وليـس بالاختراع لما فيه من اقتداء بغيره ، ولا يقال له ايضاً «سرقة» إذ كان ليس آخذاً على وجهه» (٤) .

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٥٣ .
(٢) ينظر بهذا الصدد كتاب «الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة » لمحمد بن علي بن محمد الجرجاني (١٢٩) ، وكتاب «الايضاح في علوم البلاغة» للقزويني ٧٣٩ (٨)
(٣) ان رشيق : العمدة ج ١ ص ٢٦٢ .
(٤) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ٢٦٣ .

ولعل هذا المنظور الذي يقدمه الصولي للقضية هو الذي جعل المصطلح النقدي الذي يخدمها يتسم — من جهة ، بالتهذيب ؛ ذلك ان مصطلح السرقة يتضاءل في استعمال الصولي امام مصطلح «الأخذ» باعتبار ان «دلالة المصطلح الثاني اقل صرامة» (١) . كما ان هذا المنظور جعل المصطلح النقدي يتسم — من جهة اخرى — بالوضوح والانسجام وهذا ما يستخلص من قول الصولي في نصه السابق : «احق به» اذ ان هذا التعبير يرقى إلى مستوى المصطلح النقدي بالطريقة التي يقدمها به حازم القرطاجني بقوله : «فإن زاد المتأخر على المتقدم زيادة في المعنى مع تحسين اللفظ فقد استحق المعنى عليه» (٢). وجعل الاستحقاق مرتبة من مراتب الشعراء : «فمراتب الشعراء فيما يلمون به من المعاني اذن اربعة : اختراع واستحقاق وشركة وسرقة» (٣) .

وتمدنا المقدمة كذلك بمصطلحات أخرى متعلقة بقضية السرقات الادبية او الاخذ ، اهمها مصطلح الالمام والنقل . وهما مصطلحان وإن كان يصعب تحديد دلالتهما الا اننا حين نقابل بين استعمال الصولي لهما والتحديد الذي يقدمه ابن رشيق نجد بينهما تطابقاً كبيراً . فالصولي يوظف مصطلح النقل في تعليقه على بيتي ابي تمام :

وركب كأطراف الاسنة عرسوا ... على مثلها والليل داج غياهبه
لأمر عليهم ان تتم صدوره ... وليس عليهم ان تتم عواقبه (٤)

ويقول : «وكأن هذين البيتين نقلا من قول «ابن ابي» انشدناه احمد بن يحيى :

---

(١) وهذا ما يراه الدكتور أمجد الطرابلسي بخصوص مصطلح «الاخذ» في كتابه «النقد الشعري عند العرب حتى القرن الخامس الهجري» ص ١٩٢ .
(٢) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص ١٩٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .
(٤) ورد البيتان في أخبار ابي تمام للصولي ص ٥٣ — ٥٨ . وفي شرح الخطيب التبريزي لديوان ابي تمام ج ١ ص ٢٢٢ (.... على مثلها والليل تسطو غياهبه)

غـلام وغى تقحمهـــا فـأبـلى فخـــان بـلاءه دهـــر خؤون
وكـان عـلى الفتى الاقدام فيهـا وليـس عليه ما جنت المنون» (١)

فاذا كان ابن رشيق يحدد نقل المعنى او ما يسمى بالاختلاس بأنه تحويل المعنى من نسيب إلى مديح (٢) . فإننا حين نتدبر بيتي «ابن ابي» وبيتي ابي تمام سنجد ان الاخير اختلس او نقل المعنى من غرض إلى غرض آخر . فبيتا «ابن ابي» فيهما نوع من الرثاء والتفجع لحال الفتى المقدام الذي جنت عليه المنون وبذلك فالغرض الذي يمكن ان يندرجا تحته — ان صح التصنيف — هو غرض الرثاء ، في حين ينصرف بيتا ابي تمام إلى التمجيد والمدح ومن ثم فهما بيتان في المديح . بمعنى ان ابا تمام اختلس معنى «ابن ابي» او نقله . والملاحظ ان بعض النقاد العرب لم يكونوا ينظرون إلى هذه العملية نظرة قدح وازدراء ، وإنما اعتبرها سبيلا فنياً لا خفاء الأخذ ، وانها لا تتأتى الا لحذاق صنعة الكلام او لمن سماه ابو هلال العسكري : «المبرز والكامل المقدم» (٣) وقد ادرجها احد النقاد المحدثين ضمن مبحث خاص سماه «الاخذ الفني» (٤)

اما مصطلح «الالمام» فقد ورد ذكره في مقدمة الصولي في اثناء رده على عائبي بيت ابي تمام :

ما زال يهـذي بالمـواهب دائبـا حتى ظننا انـــه محمـــوم

حيث تساءل : «... ولم لم يعيبوا قول الآخر :

بطـل تنـاذره الكمـاة كـأنـه ممـا يدل عـلى الفوارس احمـق

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٥٣ .
(٢) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ٢٨٢ .
(٣) ابو هلال العسكري . كتاب الصناعتين ، ص ٢٠٤ . وينظر كذلك راي الحاتمي في «حلية المحاضرة» نقلا عن تاريخ النقد الادبي عند العرب » لاحسان عباس ، ص ٢٦١ .
(٤) د. بدوي طبانة : السرقات الادبية ، ص ١٨١ وما بعدها .

فصير افراطه في شجاعته كفعل الاحمق الذي لا يميز . وقـد قال عبيدالله العنبري تبل ، فألم بهذا المعنى الا انه قسمه :

ما كـان يعطـى مثلها في مثلـه   الا كريم الخيم او مجنون» (١)

فحين نغوص في معنى البيت الذي الم فيه الشاعر الثاني بمعنى بيت الشاعر الاول ، سنجدهما معاً متساويين في تصوير الافراط في الشجاعة والعطاء حتى يقارب حالة غير طبيعية ، ولكن اللفظ غير مساو فالحمق غير الجنون (٢). وعلاقة من هذا النوع يتساوى فيها المعنيان دون اللفظ هي ما يطلق عليها مصطلح النظر والملاحظة او الالمام (٣) .

من خلال ماتقدم يتبين أن الصولي كان مهتما بالشاعر واخباره أكثر من اهتمامه بالقول الشعري.ولم تنفعه ثقافته كشاعر وعالم بالشعـر وكاتب بليغ وراوية حافظ للمعاني الكثيرة ومطلع بتبصر ونضج عما أسماه اخذ الشعراء وسرقاتهم ، وهي الصفات التي كان يتطلبها الصولي في ناقد الشعر . لم تنفعه هذه الثقافة في تأسيس خطاب نقدي يمكن بواسطته ان يحدد سمات وخصوصيات القول الشعري الجديد او يبرر اسس قبوله . وحتى اذا حاول مقاربة النص والاشتغال عليه ، جاء ذوقه فاسداً ومنهجه مضطرباً . وتلك امور باعدت بينه وبين ان يكون ناقد النص ، وجعلته إلى صف الاخباريين اقرب منه إلى صف النقاد .

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٣٣ .

(٢) ينظر في دلالة الجنون والحمق وصفات كل معنى في كتاب «فقه اللغة» لابي منصور الثعالبي ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٣) ينظر «العمدة» لابن رشيق ج ١ ص ٢٨٢ ،

فهرست المصادر والمراجع

- ابو بكر الصولي ناقداً ، صبحي ناصر حسين ، دار الجاحظ ، بغداد ، ١٩٧٥ .
- اتجاهات النقد الادبي في القرن الرابع للهجرة ، احمد مطلوب ، وكالة المطبوعات ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٣ .
- اخبار ابي تمام ، ابو بكر الصولي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، بلا .
- اسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، دار المعرفة، بيروت ، ١٩٨٢ .
- الاشارات والتشبيهات في علم البلاغة ، محمد بن علي بن محمد الجرجاني ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، بلا .
- الايضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، منشورات دار الكتاب ، لبنان ط٥ ، ١٩٨٠ .
- تاريخ النقد الادبي عند العرب ، احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت، ط٣ ، ١٩٨١ .
- الثابت والمتحول ، ادونيس ، دار العودة ، بيروت ، ط٢ ،١٩٧٩ .
- الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام تاريخها وتطورها واثرها في النقد العربي ، محمود الربداوي ، دار الفكر ، مصر ، بلا .
- ديوان ابي تمام ، شرح الخطيب التبريزي ، دار المعارف ، مصر ط٣ ، ١٩٥١ .
- السرقات الادبية ، دراسة في ابتكار الاعمال الادبية وتقليدها ، بدوي طبانة ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٤ .
- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الثقافة ، بيروت ، بلا ،

- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، جابر عصفور ، دار التنوير ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣ .
- العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، دار الجيل ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨١ .
- فقه اللغة ، ابو منصور الثعالبي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ١٩٨١ .
- الفهرست ، ابن النديم ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٤ .
- كتاب الصناعتين ، ابو هلال العسكري ، م عيسى البابلي الحلبي ، مصر ، بلا .
- معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، دار المستشرق ، بيروت ، بلا .
- معجم الشعراء ، المرزباني ، مكتبة النوري ، دمشق ، بلا .
- مفهوم الشعر عند العرب كما يصوره كتاب الموازنة للآمدي ، عبدالقادر القط ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٢ .
- مناهج التأليف عند العلماء العرب ، مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٢ .
- مناهج البلغاء ، حازم القرطاجني
- الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، الآمدي ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٩٧٢ .
- النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور ، دار النهضة ، مصر ، بلا

نظرية النحو العربي في كتاب سيبويه واسهامها في علم اللغة العام

الدكتور
محمد كاظم البكاء
كلية العلوم الإسلامية – جامعة بغداد

وجدت المناهج الحديثة سبيلها إلى حقول المعرفة المختلفة ، وقد ادرك الباحثون ان في التراث العربي الاسلامي مساقط الضوء التي نتبصر بها ما بلغته الدراسات الحديثة ، وثمة اتجاهان لمعرفة موقع التراث من الحضارة الانسانية واسهامه فيها :

اولهما : ان نجري الموازنة بين المسائل والافكار التي يقع فيها التوارد بين ما في التراث وما لدى الاوربيين وغيرهم من المحدثين وبذلك نجعل ما لدى المحدثين معياراً للتقدم والتطور ... وفي تقديري ان هذا الاتجاه في البحث ينطوي على خطورة علمية تنأى عن الموضوعية ، لانا نعرب لهم ابتداء عن الاعتراف بتقدمهم وتفوقهم ، حَسْبُ ان ذلك صحيح في ميادين المعرفة التطبيقية ولكن لا يطرد ذلك في العلوم النظرية عامة والعلوم اللغوية خاصة ...

ان اجراء هذه الموازنات الجزئية والتماس الاشباه والنظائر بين ما في تراثنا العربي الاسلامي وما لدى المحدثين من الغربيين وغيرهم ينتهي بنا في سياق المقولة البلاغية التي تقر أنّ وجه الشبه في المشبه به اوضح واتم إلى ان الذي بلغه الاوربيون يعد غاية البحث وتمامه .

اما الاتجاه الثاني في التعرف على موقع تراثنا العربي الاسلامي من الحضارة الانسانية هو ان نعرف خصائص المعرفة في هذا التراث ومزاياها التي تفرد بها وقد صدق اثرها الواضح او انا نحتمله في تطوير المعرفة الانسانية لنعلن عندئذ ان في تراثنا مزايا لم تبلغها الدراسات لدى الغربيين او غيرهم وبذلك نقلب طرفي الموازنة والمشابهة ليكون ما في التراث العربي الاسلامي هو معيار الموازنة ووجه المشابهة فنحفظ لتراثنا استقلاله وتميزه .

وقد اخترت الاتجاه الثاني ولم اكلف النفس جهداً كما يفعله اكثر الباحثين في عقد المشابهة واجراء الموازنة بين ما في تراثنا العربي الاسلامي من الدراسات اللغوية وما لدى الاوربيين وغيرهم . والسؤال الاهم هو ما الذي بلغه الاوربيون في دراسة علم اللغة لنجعلهم اساساً للموازنة والمشابهة ؟

ان الذي عليه البحث في تاريخ الدور اللغوي وتطوره يؤكد ان الدراسة اللغوية في اوربا ما زالت في البدء وان تاريخها يبدأ من القرن التاسع عشر قال دي سوسير رائد علم اللغة الحديث في اوربا :

«ان علم اللغة الصحيح الذي يضع الدراسات المقارنة في موضعها المناسب تعود جذوره إلى دراسة اللغات الرومانسية (الفرنسية ، والايطالية ، والاسبانية ، والبرتغالية ، والرومانية) واللغات الجرمانية ، ويعود تاريخ دراسة اللغات الرومانسية التي بدأها (دياز) بكتابه (قواعد اللغات الرومانسية) إلى الاعوام ١٨٣٦ — ١٨٣٨ ، وقد ساعدت هذه الدراسات على اقتراب علم اللغة

من هدفه الحقيقي المنشود» ([1]) . كما ان البحث في تاريخ علم اللغة في اوربا يؤكد ان مناهج اللغة التي قامت في الغرب حديثاً ما زالت تسترشد بمناهج العلوم الحديثة فتأثرت بها تأثراً واضحاً يدل على ذلك ما وجدناه عند (تشومسكي) مثلا وقد اعتمد المنطق الرياضي . وقد كشف (جان بياجيه) النقاب عن تأثر دي سوسير نفسه — وهو الاب الحقيقي للدراسات الحديثة المعاصرة — بعلم الاقتصاد قائلا : «تأثر سوسير في جزء من الهامه بالاقتصاد الذي كان في عصره» ([2]) ثم ان (ليفي شتراوس) احد شيوخ البنيويين المعاصرين هو عالم اجتماعي وهذا يعني ان الدراسات اللغوية الحديثة في اوربا قد تأثرت بمناهج العلوم التطبيقية والتجريبية ([3]).ويرى الدكتور علي عبدالواحد وافي ان تأثر سوسير نفسه بالعلوم الاجتماعية قد جنبه الصواب ، فهو يقول :

«وقد بالغ جماعة من العلماء في تقدير هذه الاثار حتى كادوا ينكرون ان لغير الظواهر الاجتماعية اثراً في شؤون اللغة ، ومن اشهر افراد هذه الطائفة العلامة السويسري فرديناند دوسوسور ومذهبهم هذا يجانب جادة القصد من بعض الوجوه ... فقد رأينا ان قسطاً غير يسير من ظواهر اللغة ترجع اسبابه إلى عوامل جغرافية ، وقسماً كبيراً منها ترجع اسبابه إلى عوامل جسمية فيزيولوجية او نفسية فردية» ([4]) .

وما زال علم اللغة الحديث في اوربا يحث الخطى في البحث عن سبيله حتى النصف الثاني من القرن الحالي الذي شهد ظهور كتاب (توم تشومسكي) بعنوان (التراكيب النحوية) عام ١٩٥٧م وفيه ثورة على المنهج والمفاهيم التي سادت

---

(١) دي سوسير : علم اللغة العام ، ٢٢ .
(٢) جان بياجيه : البنيوية – ترجمة عارف وبشير– ٦٤ ، ٦٥ .
(٣) اديث كيرزويل : عصر البنيوية – ترجمة جابر عصفور– ١٧ .
(٤) د· علي عبدالواحد وافي : علم اللغة ، ٢٤٢ ، ٢٤٣

النصف الاول من هذا القرن (١) ويتعقبه آخرون ، قال «اديث كيرزويل» في كتابه (عصر البنيوية) .

«لقد انتهى عصر (البنيوية) في باريس تقريباً ، ولكن الفرضيات البنيوية مازالت تتخلل الفكر الفرنسي وتسهم في صياغة (مابعد البنيوية) »(٢) .

فمن الذي اسهم في ارساء البحث اللغوي ودراسة علم اللغة العام ، وهل يصح ان ننسب ذلك الى الاوربيين ودي سوسير نفسه المتوفى عام ١٩١٢م يقول: «مازالت المسائل الجوهرية لعلم اللغة العام تنتظر حلاً» (٣) ان في علماء الغرب حاجة الى ان يبدأوا من حيث انتهى علماء النحو العربي ، وقد تنبه على هذه الحقيقة بعض الاوربيين ومنهم المستشرق الفرنسي «جيرار تروبو» الذي يرى ان النظام العربي النحوي يحتل محلاً بارزاً بين النظم النحوية الكبرى في العالم من اجل موقعه بين النظام اليوناني في الغرب ، والنظام الهندي في الشرق ، وان من الطبيعي ان يتنبه المستشرقون عليه ليدرسوا نشأته وتطوره (٤) وعندما نلفت الانظار الى نظرية النحو العربي تشرئب الاعناق الى القرن الثاني الهجري لنقرأ كتاب سيبويه اقدم وثائق ذلك العصر التي وصلت الينا وهو يمثل خلاصة الفكر النحوي لاوائل النحاة ، قالت الدكتورة خديجة الحديثي :

«ولقد تكلمنا على منهج الكتاب ومادته لنبين عقلية سيبويه التنظيمية اولاً ، ولنوضح ماوصلت اليه الدراسات النحوية ومنهج التأليف فيها وابوابها ومادتها من اكتمال ونضج على ايدي هؤلاء النحاة البصريين ...» (٥) .

---

(١) انظر : نايف خرما ، اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ١١٣ .
(٢) اديث كيرزويل : عصر البنيوية –ترجمة جابر عصفور – ، ١٣
(٣) دي سوسير : علم اللغة العام ٢٣ .
(٤) جيرار تروبو : نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ، ١٢٥ .
انظر د. خديجة الحديثي : المدارس النحوية ، ٤٠ .
(٥) د. خديجة الحديثي : المدارس النحوية ، ١٠٨ .

وقد وجد الباحث ان الكلام عن كتاب سيبويه انصرف كثيراً الى نظام اللغة ومبانيه ومصطلحاته. وكان ذلك محور البحث ايضاً لدى الباحثين الذين دافعوا عن اصالة النحو العربي ومنهج المستشرق «ليتمان» فذكر اقسام الكلمة ووازنها بما في الفلسفة اليونانية من مباني المفرد وانتهى الى انها اصطلاحات عربية ماترجمت ولا نقلت (١) وكذلك كان صنيع المستشرق الفرنسي «جيرار تروبو» وهو يحصي مافي كتاب سيبويه من المباني والمصطلحات والمفاهيم التي تتصل بدراسة نظام اللغة في الكتاب ... والحق ان ثمة جانباً مهماً في دراسة كتاب سيبويه تكشف عن اصالة النحو العربي وتضع الكتاب في موضعه المتقدم من البحث اللغوي فذلك هو منهج الكتاب الذي تتضح اهميته في علم اللغة العام واسهامه في رفد الدراسات اللغوية ؛ وقد تنبه على هذا الجانب المستشرق الانكليزي (كارتر) الذي كان لي حظوة مراسلته وانا ادرس «منهج كتاب سيبويه» في مرحلة الدكتوراه فكتب الي يشجعني على الكتابة عن منهج الكتاب الذي يعظم في نظرهم وارشدني الى بحثه «عشرون درهماً في كتاب سيبويه» ومن يتدبر هذا البحث القيم ينته الى ماانتهى اليه صاحبه اذ يقول :

«يجب ان نزيد انطباعنا وضوحاً بان (الكتاب) اعظم عمل من حيث الترابط المنطقي والتناسق» (٢) .

---

(١) محاضرات (ليتمان) نقلا عن المدارس النحوية للدكتورة خديجة الحديثي ، ٤١ .

(2) G. Carter, "Twenty Dirhams" In Ketab Of Sibawaih, BSOAS 35 (1972), 495 – 496.

انظر : المورد ، المجلد ١٦ ، العدد الاول ١٩٨٧م ، ١٢٠ .

(عشرون درهماً في كتاب سيبويه ، ترجمة وتعليق الدكتورين عبداللطيف الجميلي وحاتم الضامن) .

ما منهج سيبويه في دراسة اللغة ؟

سلك سيبويه في دراسة اللغة طريقة التحليل والتركيب معاً ، لانه استطاع ان يكشف لنا عن الوحدات والعلاقات الاساسية اي انواع الكلم والمعاني النحوية كما استطاع ان يكشف عن النظام النحوي للغة ولا يتم ذلك الا بطريقة البحث التي تتسم بالتحليل والتركيب ، جاء في (منطق اللغة) : «هذه الطريقة التي سنسعى في تطويرها في هذه المقالة تجمع بين التركيب والتحليل معاً ، فهي تكشف لنا عن الوحدات والعلاقات الاساسية بتحليل تركيب اللغة في اجزائه ، وتبني لنا انظمة مكونة من افكار ومبادىء ومقاييس علميـــة دقيقة» (١) وقد تمثل لنا «فندريس» هذه الطريقة في دراسة اللغة وهو يصدر عن مقولة (نحن نفكر بجمل) فاوضح ان الفعل العقلي الذي تمثله الجملة يقع في عمليتين هما تحليل الجمل إلى العناصر التي تمثل المعاني المفردة ثم عملية تأليفها ، وقد اشار الاقدمون إلى طريقة سيبويه في التحليل والتركيب فقال الصفار في باب المسند والمسند اليه : ان قلت : «ما الذي اراد في هذا الباب وما ثمرته ؟ قلت : لما حصر (الكلم المجردات) في الاسم والفعل والحرف حصر (المركبات) هنا في المسند والمسند اليه» (٢) وقد تنبه بعض المستشرقين على منهج سيبويه في جانبه التحليلي فقد اقرت المستشرقة (موزل) في اطروحتها «المصطلح النحوي عند سيبويه» ان «تقسيمات سيبويه لاقسام الكلام من حيث انتسابها إلى باب الاسم . مشابهة لطريقة التصنيف عند اتباع منهج التحليل إلى المؤلفات المباشرة» (٣) وقد اغرى منهج سيبويه المستشرق الانكليزي (كارتر)

---

(١) د. ياسين خليل : منطق اللغة ، ٥ ، ٦ .
(٢) الصفار : شرح كتاب سيبويه (مخطوط) ، ٢٤ .
(3) U.Mosul: Die Sytaktische Termidnlogic Bei Sibawaih PM 13.

لعقد اطروحته التي تقدم بها إلى جامعة اكسفورد عام ١٩٦٨ على « مبادىء التحليل النحوي عند سيبويه» (١) .

وما الخصائص المنهجية في دراسة النحو العربي لدى سيبويه ؟

في منهج الكتاب خصائص عادت على دراسة اللغة العربية والكشف عن قواعدها بنتائج منهجية وعلمية تسهم في تصنيف ابواب النحو العربي تصنيفاً منطقياً سليماً على غير ما نجده عند النحاة المتأخرين (٢) ... ولكن الذي يعنينا الان تلك الخصائص المنهجية التي يفاد منها في دراسة علم اللغة العام والبحث عن المشترك في دراسة اللغات :

اولا — الكشف عن المستويات النوعية للغة :

قال سيبويه :

«هذا باب الاستقامة من الكلام والاحالة : فمنه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب» (٣) .

وقد عني سيبويه بهذا الاتجاه من التقويم النحوي فشاعت في الكتاب مصطلحات التقويم النحوي نحو قوله : (جيد) و (قبيح ضعيف) و (ردىء) و (خبيث) وعلى هذا نجد كلامه على تحديد مستوى الاسلوب من جودة او قبح او كثرة او قلة يساوي دلالة على صحة الاسلوب من حيث مراعاته لقواعد اللغة ، وهذا يعني ان هناك اسلوبين لدراسة الاساليب اللغوية .

الاول : المستوى الصوابي (خطأ او صواب) وهو المستوى الفني الذي يعبر عن صحة الاسلوب واستقامته حيث ينأى عن الخطأ في ضوء قواعد اللغة .

(1) G. Carter: Sibawaihi's Principles of Grammatical Analysis.

انظر : د. نهاد الموسى ، نظرية النحو العربي ، ٣١ .

(٢) د. محمد كاظم البكاء : منهج كتاب سيبويه ، ٥٠٢ .

(٣) سيبويه : الكتاب ١/٢٥ ٢٦ هـ ، ١/٨ب .

الثاني: المستوى البلاغي (حسن أو قبيح) وهو المستوى الذي يعبر عن تفاعل الاساليب التي استقامت صحيحة متوخياً بها بلاغة التعبير الادبي (١) .

وهذا التحليل النوعي لمستويات اللغة لم ينتبه اليه علماء اللغة الغربيون فيما وقفت عليه ، وانما الذي وجدته في (كتاب علم اللغة العام) لدى سوسير ان ثمة فرقاً بين اللغة وهي مجموعة من الاصوات والصورة الكتابية للغة ، ويفهم من دراسة الموضوع المذكور ان الصورة الكتابية للغة هي التي تمثل (اللغة الادبية) اذ يقول «ومما يزيد من هذه الاهمية التي لاتستحقها الكتابة هي اللغة الادبية التي كتبت بها المعاجم وكتب النحو ، ويتعلم الاطفال في المدارس من الكتب عن طريقها» (٢). وقد اراد ههنا بالصورة الادبية المستوى المستقر الثابت الذي يحفظ للغة رسمها وقواعدها ، اذن فالتحليل اللغوي لمستويات اللغة لديهم يقع في نوعين : هما المستوى الثابت المستقر الذي تمثله الصورة الكتابية للغة والآخر هو المستوى المتطور للغة الذي تمثله اللغة الصوت (٣) ، وهذا يعني انهم لم يدق النظر لديهم على ماوجدناه في منهج الكتاب ليفرقوا بين (المستوى الصوابي) و (المستوى البلاغي) فهما لديهم وجه واحد للصورة الكتابية للغة ، وهذا يؤدي بالضرورة الى انكار التفاوت الواسع بين اللغة التي كتبت بها مسرحيات شكسبير وما يكتبه الاطفال في كراريسهم فهما معاً يمثلان اللغة في ثبات قواعدها واستقرار اساليبها . والخطر الاشد في ذلك انهم يسعون الى تحرير علم اللغة من الكلمة المكتوبة (٤) وهذه الخطورة تكمن في عدم اليقين من القدرة على دراسة النظام اللغوي مادامت اللغة الصوت في تطور مستمر .

---

(١) د. محمد كاظم البكاء : منهج كتاب سيبويه ، ٢٣٥ ، وما بعده .
(٢) دي سوسير : علم اللغة العام (ترجمة الدكتور يوئيل) ، ٤٤ .
(٣) دي سوسير : علم اللغة العام ، ٤٦ .
(٤) المصدر السابق ، ٥١ .

ثانياً – الكشف عن المستويات التحليلية للغة :

تنبه صاحب الكتاب من قبل الى المستويات التحليلية للغة وهي :

– الاصوات : اي مايقع موضوعاً لعلم الاصوات (Phonetics) وعلم وظائف الاصوات (Phonology) .

– بناء الكلمة وبناء الجملة : اي مايقع موضوعاً لعلم النحو والصرف او علم الصيغ والنظم .

– المعاني : وهو الذي يقع موضوعاً لعلم الدلالة او علم دراسة المعنى[1] قال الدكتور محمود حجازي في (علم اللغة العربية) : «اطلق علماء اللغة على دراسة بنية اللغة من جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية في التراث العربي اسمين اثنين هما علم النحو وعلم العربية ... ويضم النحو بهذا المعنى مجموعة من الدراسات التي تصنف في علم اللغة الحديث في اطار الاصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة ... لم يضع سيبويه مصطلحات تميز في وضوح قطاعات الاصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة ، فكل هذا يدخل عنده في مجال واحد هو مجال النحو» (٢) .

ثالثاً – الكشف عن العلاقات التركيبية والمباني التحليلية للغة :

اوضح سيبويه ان تركيب الجملة في العربية يقع في ثلاثة اقسام رئيسة :

– اسناد الفعل وعمله في الاسماء والمصادر ، وما يعمل عمله .

– اسناد الاسم واحوال اجرائه على ما قبله .

---

(١) د. محمد احمد ابو الفرج : مقدمة لدراسة فقه اللغة ، ١٢٢ ، ١٢٣ .
د. عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية ، ١٢٧–١٦٩.

(٢) د. محمود حجازي : علم اللغة العربية ، ٦٠ .

ـ الاسناد الذي يعتمد الاداة ويجرى مجري الفصل وما كان بمنزلته ؛ وهو نوع من الاسناد لم نألفه في كتب النحاة المتأخرين وقد ضم هذا النوع ابواب الحروف الخمسة وكم والنداء والنفي بلا والاستثناء (١) .

ثم صنف كل نوع من الاسناد في اساليب بلحاظ التركيب اللغوي ونوع العمل فيه،فكان للعربية على ما انتهيت اليه في دراسة منهجه اربعة عشر اسلوباً تتسع بفروعها لجميع انواع التركيب اللغوي للجملة في العربية وهو في هذا الاتجاه التركيبي الافقي يستقري المباني التحليلية وانواع الكلم ولنأخذ (المصادر) مثالا على ذلك فقد بدأ يشركها في دراسة الاسماء حيث يتكلم على تعدي الفعل فأنت تقول : درست الكتاب ، وتقول درست دراسةً ثم اصبح الكلام عليها جزءاً يستقل به البحث في مقابل الاسماء في اسلوب ما ينتصب بالفعل المضمر نحو: سقياً ورعياً يعالجها على سمت قولك في الاسم الذي ينتصب بالفعل المضمر نحو قولهم : الناس مجزيون باعمالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر ، واخيراً صار الكلام على المصادر من دون غيرها في اسلوب يستقل بها فلا تشركها الاسماء وذلك الاسلوب هو ما ينتصب من المصادر بالفعل بعد تمام الكلام نحو قولك : قتلته صبراً (٢) وهذا الترتيب الدقيق في دراسة المباني التحليلية وهو يتابع التركيب اللغوي للاساليب انموذج واضح لاعتماد سيبويه طريقة التركيب والتحليل معاً هيأ لصاحب الكتاب جادة الصواب في دراسة اللغة من القرن الثاني الهجري وفي دراسة الغربيين اليوم نجد انصار (المدرسة الوصفية التشكيلية) يبدأون تحليلهم من الصوت مروراً بالنظام الصوفي فالنحوي وصولا الى المعاني،وهو تحليل شكلي يستبعد المعاني من التحليل اللغوي ثم يوجه(تشوفسكي)الانظار الى دراسة المعنى واصبحت له

---

(١) د. محمد كاظم البكاء : منهج كتاب سيبويه ، ١٦ .
(٢) المصدر السابق ، ١٦٩ .

مدرسة لغوية توصلت الى مجموعة من القواعد في التحليل اللغوي سموها (القواعد التحويلية) ولكن الذي حصل ان اعتمدوا المعاني النحوية في التحليل اللغوي فقولك : (الاولاد يلعبون الكرة) يحلل الى : اسم مذكر جمع ، وفعل مضارع لجمع الغائب ، واسم مفرد[1] واخيراً يكتشف (فلسور) ان العلاقات التي ينبغي ان تعتمد في التحليل اللغوي هي علاقات معنوية لانحوية ، فان كان ذلك ماتوصلوا اليه ووقفوا عنده فهم لايزالون على الخطأ في منهجهم فليست العلاقات المعنوية بمستقلة عن العلاقات النحوية فهي معان تمثل قصد المتكلم ويعبر عنها بالعلاقات النحوية فهي معاني الكلام نفسها ، فالحال النحوي يعبر عن جواب قولك : كيف فعلته ؟ وانما النصب فيه لانه وقع فيه الامر قال سيبويه: «هذا باب ماينتصب من المصادر لانه حال وقع فيه الامر فانتصب لانه موضوع فيه الامر وذلك قولك : قتلته صبراً» [2] وهكذا يساوي المعنى النحوي معاني الكلام .

رابعاً — البحث عن المشترك بين اللغات :

من يتدبر قراءة كتاب سيبويه وهو يدرس نظرية النحو العربي يجد انه يعنى كثيراً بالحقائق الموضوعية والقوانين العامة التي تمثل قدراً مشتركاً بين اللغات فهو يبحث مثلاً عن العلاقة بين صحة التركيب اللغوي ومسألة الصدق والكذب والاستقامة والاحالة فهو يقول: «واما المحال فأن تنقض اول كلامك بآخره فتقول : اتيتك غداً وسآتيك أمس»[3] ومن الطريف ان بحث « بيرلنج » عن العلاقة بين النحو والمعنى ووقف عند التركيب نفسه في اللغة الانكليزية «ذهب غداً» : « He went tomorrow » [4] ، ومن مسائل

(١) د. نايف خرما : اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ٢٠٣-٣٠٦ .
(٢) سيبويه ، الكتاب ، ١/٣٧٠هـ .
(٣) سيبويه : الكتاب ١/٢٥هـ ، ١/٨ب .
(4) Burling Man's Many Voices P. 56–57.
انظر : د. نهاد الموسى : نظرية النحو العربي ، ١٠٢ ، ١٠٣ .

سيبويه التي تعبر عن اهتمامه بالقوانين العامة ماتنبه عليه الدكتور عبدالسلام المسدي في مواضع من كتابه (التفكير اللساني في الحضارة العربية) منها : « والذي يعنينا من كل استقراءآت سيبويه في هذا المضمار ونحن على مسار تحديد الطاقة الاستيعابية في اللغة هو استنباطه لقانون التناسب العكسي بين طاقة التصريح في الكلام وعلم السامع بمضمون الرسالة الدلالية » (١) وامثلة ذلك في الكتاب كثيرة نجدها في ابواب الاشتغال نحو قوله تعالى : « والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات» (٢) فقد ترك ماعمل فيه الاول استغناء عنه لعلم المتلقي بمضمونه (٣) ، ولعل اغلب المباحث التي تتصل بباب « هذا باب مايكون في اللفظ من الاعراض » (٤) وصور التصرف باللغة من التقديم والتأخير والذكر والحذف وغيره يعدّ امثلة لاتساع مباحث سيبويه لما يقع الاشتراك فيه بين اللغات التي تخضع لقوانين علمه تجيز للمتكلم التصرف في اطارها .

ان في علماء الغرب حاجة الى ان يفيدوا من منهج الكتاب ليوفروا على انفسهم هذه الجهود المتكاثرة وتأسيس المدارس اللغوية المختلفة فيبدأون من حيث انتهى النحو العربي في دراسة علم اللغة العام الذي يعنى بالقدر المتشرك بين اللغات ولكن الذي يؤسف عليه اني لم اجد الا قليلاً من الباحثين العرب انفسهم ممن لايتورع في الطعن على منهج « الكتاب » الذي يمثل خلاصة الفكر النحوي لاوائل النحاة ، ومن اشهر الذين دافعوا عن سلامة منهجه الاستاذة الفاضلة الدكتورة خديجة الحديثي التي عنيت بدراسته(٥) واستاذي

(١) د. عبدالسلام المسدي : التفكير اللساني في الحضارة العربية ٣٣٢ ؛ ٣٣٣ .
(٢) السورة ٣٣ ، الآية ٣٥ .
(٣) سيبويه : الكتاب ٧٤/١ ، ٣٧/١ب .
(٤) المصدر السابق ٢٤/١ ، ٢٥ ، ٨/١ب
(٥) د. خديجة الحديثي ، سيبويه حياته وكتابه ، ٩١ .
= = ، المدارس النحوية ، ١٠٤-١٠٨ .

الفاضل الدكتور محمد ضاري حمادي الذي كان له فضل الاشراف علـى الباحث في دراسة (منهج كتاب سيبويه) عند التحضير لرسالة الدكتوراه التي انتهيت فيها الى سلامة منهج الكتاب وبناء ابوابه في ترتيب منطقي سليم(*) ، لقد طعن الباحثون على الكتاب واتهموه بالأضطراب في ترتيب الابواب في حين اعلن المستشرق الانكليزي (كارتر) استاذ اللغة العربية في قسم الساميات في جامعة سدني : « والآن ينبغي ان يكون قد اتضح ان سيبويه كان مفكراً نظاميا ومرتبطاً منطقياً اكثر بكثير مما اقر به ناقدوه حتى الآن» (١) وهكذا ينبغي ان يجد كتاب سيبويه سبيله الى علم اللغة العام بايضاح منهجه والاعلان عن خصائص نظرية النحو العربي فيه،قال عبدالرحمن الحاج صالح: «ويمكن ان نقول بهذا الصدد ان المناهج الحديثة في تحليل اللغات وان كانت قد بلغت شأناً كبيراً لاعتمادها للكثير من الحقائق العلمية الا انها قد تقل قيمة عن المناهج التي وضعها الخليل وسيبويه» (٢) . نفع الله الجميع بعلمهم واغنى الحضارة الانسانية بثمرات جهودهم.

(*) تهيأ الباحث—والحمد لله تحقيق كتاب سيبويه في هدى منهجه الذي انتهيت اليه مفيداً من نسخ خطية لم تعتمد سابقاً وقد اكملت الجزء الاول منه والله اسأل تمام الموفقية .

(1) G. Carter: Twenty Dirhams In Kitab Of Sibawaih, Bsons 35 (1972), P, 405–496.

وانظر : المورد ، المجلد ١٦ العدد الاول ١٩٨٧ ، ١٢٧ .
(عشرون درهماً في كتاب سيبويه) ترجمة وتعليق الدكتورين عبداللطيف الجميلي وحاتم الضامن

(٢) مدخل الى علم اللسان الحديث ، ٤٣-٤٤ .

ألفاظ النصر والتمكين في القرآن الكريم
– دراسة دلالية –

الدكتور
عبدالوهاب محمدعلي العدواني
وعماد عبد يحيى
كلية الآداب – جامعة الموصل

إنّ النصر الذي وعد الله المؤمنين به ليس سهلا ، بيد أنّه يتحقق للذين يستحقونه بإخلاصهم لعقيدتهم وثباتهم عليها وجهادهم في سبيلها . فثمرة هذا الجهاد الطويل كما بيّن القرآن نصر من الله وفتح قريب (١) ، وتمكين في الأرض واستخلاف لمن ثبت على البأساء والضرّاء (٢) ، ويقابل هذا خذلان وانتكاس لأهل الباطل في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

وقد تضافرت الفاظ عديدة في القرآن الكريم لتدل على أنّ النصر والتمكين للمؤمنين في الحياة الدنيا مترتبان على ما يبذله المؤمنون في سبيل عقيدتهم ، وهذا الأمر يجعلنا نعد هذه الألفاظ مستعملة للدلالة على الثواب الدنيوي في

* فصل مستل من رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة الموصل ١٤٠٧ – ١٩٨٧م
(١) تنظر : الصف – ١٣ .
(٢) تنظر : النور – ٥٥ .

جانب من جوانبه . ويأتي جذر : (ن ، ص ، ر) في مقدمة المواد اللغوية في هذه المجموعة من الألفاظ .

ولهذا الجذر في اللغة دلالات حسية تلقى ظلالها على الاستعمال القرآني ، ومن ذلك : نَصر المَطرُ أو الغَيْثُ الأرض : سقاها وغاثها ؛ وَنُصِرَتِ الأرضُ : إذا مُطِرَت [١] . وسُمِّيَ المطر نَصراً ، كما سُمِّيَ: فَتْحاً ؛ وقيل : ومدت الوادي النواصر : وهي المسايل التي تأتي بالماء من بعيد [٢] . والنّصر أيضاً : الرزق [٣] ، أو العطاء [٤] . وحكي أنّ سائلا وقف على قوم ، فقال : انصروني ، نصركم الله ، يريد : اعطوني ، أعطاكم الله [٥]. وهو مستعار من نصر الأرض [٦] . والنصر : التأييد [٧] والعون [٨] .

ومما لاشك فيه أنّ العلاقة واضحة بين المعنى الحسي والدلالة المعنوية للنصر ، وقد أدرك العربي عمق هذه العلاقة لأنه يعرف أهمية الغيث في حياته الصحراوية الظامئة الصعبة .

والنصر — كما بيّن القرآن الكريم — يكون دنيوياً وأخروياً ؛ فقد قال الله — سبحانه وتعالى — :(مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ ينصرَهُ اللهُ في الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السماء،ثُمَّ لْيَقْطَعْ، فَلْيَنْظُرْ هل يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ) [٩]، ويكون النصر في الدنيا بإعلاء كلمة الله وإظهار دينه ،

---

(١) الأفعال : ٢٦٣ // الصحاح :٨٢٩/٢ // المفردات : ٤٩٥ .
(٢) أساس البلاغة : ٦٣٥ ، وينظر : القاموس المحيط : ١٤٨/٢ .
(٣) الأفعال : ٢٦٣ .
(٤) الصحاح : ٨٢٩/٢ .
(٥) أساس البلاغة : ٦٣٥ .
(٦) المفردات : ٤٩٥ .
(٧) الأفعال : ٢٦٣ .
(٨) المفردات : ٤٩٥ // القاموس المحيط : ١٤٨/٢ .
(٩) الحج — ١٥ .

ويكون في الآخرة بإعلاء الدرجة والمنزلة في الجنة (١) ، قال — تعالى — : (إنا لَنَنْصُرُ رُسُلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويَوْمَ يقومُ الأشهادُ (٢)، والنصر في الدنيا قد يكون بالحجة وبأخذ الظالمين (٣) ، ولهذا اللفظ في القرآن الكريم أربعة وجوه (٤) :

الأول : النصر بمعنى : المنع ، قال — تعالى — : (ولا يُؤخذُ منها عَدْلٌ ولا هُمْ يُنْصَرونَ) (٥)،ويعني : ولا هُم يمنعون من العذاب ، ويقابل ذلك إثبات النصرة للمؤمنين ، وهي النجاة من العذاب كما مر بنا في عرضنا المبسوط لألفاظ النجاة (٦) .

الثاني : النصر بمعنى : العون ،ومن ذلك قوله — تعالى —: (يا أيّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم) (٧) فنصرة العبد لله «هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده واعتناق احكامه واجتناب (مناهيه) (٨) ، ويترتب على هذا الجهد من العبد نصر الله وهو عونه لعبده ، وكذلك قوله : (ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) (٩).وذهب أبو هلال العسكري إلى أنّ هناك فرقاً بين النصرة والإعانة ،وذلك «أنّ النصرة لا تكون إلا على المنازع المغالب والخصم المناوىء المشاغب ، والإعانة تكون على ذلك وعلى غيره ، يقول : أعانه على من غالبه ، ونازعه ، ونصر عليه ، واعانه على فقره : إذا

---

(١) ينظر : التفسير الكبير : ١٥/٢٣–١٦ .
(٢) المؤمن — ٥١ .
(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٧٦/٢٧// الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٢/١٥ .
(٤) الأشباه والنظائر : ٢٣٩–٢٤١ .
(٥) البقرة — ٤٨ .
(٦) تنظر : الص ٣١٥ .
(٧) محمد — ٧ .
(٨) المفردات : ٤٩٥ .
(٩) الحج — ٤٠ .

اعطاه ما يعينه ، وأعانه على الأحمال ، ولا يقال : نصره على ذلك ، فالإعانة عامة والنصرة خاصة» (١) .

وهذا الفرق الدلالي ليس مُطرداً ، فقد ورد النصر بمعنى : طلب العطاء ، ولكن يمكن القول : إنّ القرآن خصص دلالة النصر في استعماله بأن تكون على الخصم ، وهذا التخصيص يجعل اللفظ منصرفاً إلى عون الله للعبد وتقويته على الجهاد (٢) ، ومما لا شك فيه أنّ النصر — هنا — غير مقيد بالغلبة الظاهرة «لأن المغلوب إذا كان مستحقاً للثواب فهو المنصور والغالب إذا كان من اهل العقاب ، فهو مخذول غير منصور» (٣) ،«والغلبة على المؤمن لا تخرجه عن كونه المنصور لأنّه المحمود العاقبة» (٤) .

الوجه الثالث : النصر بمعنى : الظفر ، وذلك قوله : (وما النَّصرُ إلاّ منْ عِنِد اللهِ) (٥) ، وقد خص القرآن النصر بأنه من عند الله لكي يكون توكلهم على الله لا على الملائكة الذين وعدهم الله بإمدادهم بها (٦) .

والوجه الرابع : النصر بمعنى : الانتقام ، وذلك قوله : (ولَوْ شاءَ اللهُ لانتَصرَ منهُمْ) (٧) .

— وقد يعبر القرآن عن النصر «بالروح» كما في قوله :(أولئك كَتَبَ في قُلوبِهِمُ الإيمانَ وأيدهُمْ بروح منهُ) (٨) ، فالروح «ههنا هو : النصر والغلبة والإظهار والدولة»،وقد يعبر عن ذلك بالريح. والروح والريح كلاهما

---

(١) الفروق اللغوية : ١٥٦ .
(٢) ينظر : التفسير الكبير :٤١/٢٣ ، ٤٩/٢٨ .
(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن : ٣٨٩ .
(٤) م.ن : ٢٧٣ ، وينظر : ص٣٣٥ .
(٥) آل عمران — ١٢٦ .
(٦) ينظر : التفسير الكبير : ٢١٦/٨ .
(٧) محمد—٤ .
(٨) المجادلة — ٢٢ .

يرجعان إلى معنى واحد ، وقال — سبحانه — : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكُمْ) (١) أي : دولتكم واستظهاركم» (٢)

وقد عبر القرآن الكريم عن النصر والغنيمة ايضاً بلفظ

— الحسنة : وقد عبر بها عن كل ما يسر من نعمة ، تنالُ الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله ، والسيئة ضدها (٣) ، ومن ذلك قوله : (وإنْ تُصِبهُم حَسَنَةٌ يقولوا هذه من عند الله وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقولوا هذه مِنْ عِنْدِكَ.) (٤) وقوله :

(ما أصابَكَ مِنْ حَسَنة فَمِنَ الله وما اصابك مِنْ سيئة فَمِنْ نفسك) (٥)

فالحسنة هنا تعني : النصر والغنيمة ، يوم بدر ، والسيئة تعني : القتل والهزيمة يوم أحد وهو تفسير اسماعيل بن عبدالرحمن السدي (٦) ومقاتل (٧) والذي يرجح تخصيص دلالة اللفظ هنا بالنصر هو السياق ، لأنه يتحدث عن القتال في سبيل الله (٨).

وقد خص لفظ «الحسنة» بدلالة معينة في كل سياق ورد فيه ، فمن ذلك : الرخاء والخصب (٩) في قوله — تعالى — : (ثُمَّ بدَّلْنا مَكَانَ السيئةِ الحسَنَةَ) (١٠) ، والذكر الطيب والثناء الجميل (١١) في قوله — تعالى — :

---

(١) الأنفال — ٤٦ .
(٢) تلخيص البيان : ٢٤٤ .
(٣) المفردات : ١١٨ .
(٤) النساء : ٧٨ .
(٥) النساء — ٧٩ .
(٦) التصاريف : ١٢٥ .
(٧) الأشباه والنظائر : ١٠٨-١٠٩ .
(٨) تنظر : النساء — ٧١ — ٧٩ .
(٩) تفسير مجاهد : ٢٤٠ //الا شباه والنظائر : ١٠٩-١١٠ .
(١٠) الأعراف — ٩٥ .
(١١) أمالي الزجاجي : ٢ .

(وأتيناهُ في الدُّنْيا حسنةً) (١) ، إلى غير ذلك من الدلالات كالنبوة ولسان الصدق واجتماع الملل على ولايته ، والصلاة عليه ، والأولاد الأبرار على الكبر (٢) .

وقد يستعمل القرآن لفظ :

— الفرقان : للدلالة على النصر أو ماله علاقة التزامية به . الفَرْقُ في اللغة : «يقارب الفَلْق ، لكنّ الفَلْق يُقال اعتباراً بالانشقاق والفَرْق يقال اعتباراً بالانفصال» (٣) . والفَرْق ، مصدر فَرَقت الشعر (٤) . والمِفْـرِقُ والمَفْرَقُ : وسط الرأس ، . وكذلك : مَفْرِقُ الطريق ومَفْرَقَه ، للموضع الذي يتشعب منه طريق آخر (٥). والفَرْقُ أنْ تفرق بين الحق والباطل فَرْقاً وفُرْقاناً (٦) . والفَرَقُ بالتحريك : الخوف ، والفَرَقُ ايضاً تباعد مابين الثنيتين ، ... وفي الخيل: إشراف إحدى الوركين على الأخرى...والفِرْقُ : (٧) الفِلْقُ من الشّيء إذا انفلق ، ومنه قوله — تعالى — : (فانْفَلَقَ فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطّودِ العظيمِ) (٨)

والفرقان : القرآن ، وكل ما فرّق به بين الحق والباطل ، فهو فرقان (٩) .

وأوجه الفرقان في القرآن ثلاثة (١٠) :

(١) النحل — ١٢٢ .
(٢) ينظر : أمالي المرتضى : ١٦٠/١ //زاد المسير : ٥٠٤/٤ .
(٣) المفردات : ٣٧٧ .
(٤) إصلاح المنطق : ٧ ، ٤٥ ، ٢٧٧ .
(٥) الصحاح : ١٥٤١/٤
(٦) إصلاح المنطق : ٤٥ ، ٢٣٧ .
(٧) الصحاح : ١٥٣١/٤-١٥٤٢ .
(٨) الشعراء — ٦٣ .
(٩) الصحاح : ١٥٤١/٤ .
(١٠) ينظر : التصاريف : ١٣٩-١٤٠// منتخب قرة العيون النواظر : ١٨٥ .

الأول : النصر وذلك قوله: (وإذْ آتينا مُوسى الكتابَ والفُرْقان) [١] يعني: النصر ، فرق الله بين الحق والباطل ، فنصر موسى وأهلك عدوه .

الثاني : المخرج ، وذلك قوله: (وبَيِّناتٍ منَ الهُدى والفُرقان) [٢] ، يعني :المخرج في الدين من الشبهة والضلالة .

الثالث : القرآن ، وذلك قوله : (تَبارَكَ الذي نَزَّل الفُرْقانَ) [٣] .

اما قوله — عز وجل — : (يا أيها الذين آمنوا إنْ تتقُوا الله يجعَل لكم فُرقاناً) [٤] فقد اختلف أهل اللغة والتفسير في تحديد دلالته ، فقالوا :

. المخرج ، وهو قول مجاهد .

. النجاة ، وهو قول ابن عباس وعكرمة وابن زيد والسدي .

. الفصل بين الحق والباطل ، وهو قول ابن اسحاق [٥] .

. الفتح والنصر وهو قول الفرّاء [٦] .

. النور والتوفيق على قلوب المؤمنين ، يفرق بين الحق والباطل ، فكان الفرقان كالسكينة والروح في غيره ، وهو قول الراغب [٧] .

. النصر ، لأنّه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله وهو قول الزمخشري [٨] .

---

(١) البقرة — ٥٣ .
(٢) البقرة — ١٨٥ .
(٣) الفرقان — ١ .
(٤) الأنفال — ٢٩ .
(٥) جامع البيان : ١٤٨/٩//الجامع لأحكام القرآن : ٣٩٦/٧.
(٦) معاني القرآن : ٤٠٨/١ ، وينظر الجامع لاحكام القرآن : ٣٩٦/٧ .
(٧) المفردات : ٣٧٨ ، وينظر : إغاثة اللهفان : ١٨٣/٢هـ.
(٨) الكشاف : ١٥٤/٢.

والبادي لنا : أنَّ الفرقان جعل جزاء مترتباً على التقوى كما جعل تكفير السيئات والمغفرة ، ولفظ «فرقان» مطلق يمكن أنْ يحمل على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين والكفار في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك : أنَّ الله يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر في الدنيا ، وبالثواب والمنافع الدائمة في الآخرة (١).

ومن الألفاظ التي اقترنت بالنصر لفظ :

– يؤيد : والتأييد في اللغة ، هو التقويةَ ، يقال: آدَ الرجل يَئيد أَيْداً: اشتدَّ وقَوِيَ . قال العجاج (٢)

مِـنْ أنْ تَبَدَّلْتُ بِآدِي آدا   لَمْ يَكُ يَنْآدُ فأمسى انْـآدا

يعني : بشبابي قوة المشيب .

وقال الأعشى (٣) :

قَطَعْتُ إذا خَبَّ رَيْعَانُهـا   بِعُرْفاء تَنْهَـضُ في آدِهـا

ورجل أيِّد أي : قوي (٤) .

ومن الدلالات الحسية لجذر (أ ، ي ، د) : الإيادُ : وهو تراب يجعل هو الحوض أو الخباء ، يقوّى به ، أو يمنع ماء المطر . قال ذو الرمة يصف الظليم (٥) :

دَعَرْنَاهُ عَنْ بَيْضٍ حِسانٍ بأَجْرَعٍ   حَوَى حَولَـها مِنْ تُربِـهِ بإيادِ

(١) ينظر التفسير الكبير : ١٥/١٥٣–١٥٤ .

(٢) لم أجده في ديوانه الذي حققه عزة حسن
ورود في : اصلاح المنطق : ٩//الصحاح : ٢/٤٤٣

(٣) ديوانه.:.القصيدة : ٨.،.البيت.: ٢٧.،.ص٧١ ، وينظر : إصلاح المنطق : ٩٤.

(٤) الصحاح : ٢/٤٤٣ // أساس البلاغة : ٢٦ .

(٥) ديوان شعر ذي الرمة : تح / كارليل : القصيدة : ١٨ ، البيت : ١٦ ، ص٤١
وينظر : الصحاح : ٢/٤٤٣ ، وفيه : دفعناه .

وسئل عبدالله بن عباس عن قوله — تعالى — : (والله يُؤيدُ بنصره مَنْ يشاءُ) (١) ، فقال : يقوي ، ونبه على أنّ العرب تعرف ذلك واستشهد بقول حسان بن ثابت (٢) :

بِرِجالٍ لَسْتُم أَمْثالَهُم أُيِدُوا جِبْرِيلَ نَصْراً فَنَزَلْ

والتّأييد من الله — عز وجل — يكون بضروب من الالطاف : كإمداد المؤمنين بالملائكة ، أو بأن يخطر ببالهم ما أعدّ لهم من نعيم الجنّة ، فتقوى بذلك أنفسهم ، أو بأن يلقي الخوف في قلوب اعدائهم ، فيكون ذلك سبباً لتمكينهم (٣) .

والملاحظ أنّ هذه المادة قد استعملت في سياق الحديث عن النصر والجهاد في خمس سور مدنية (٤) ، وجاءت بالصيغة الماضية ، لأنها في سياق التذكير بألطاف الله في حوادث معينة ، كقوله — تعالى — : (فأنزَل اللهُ سكينتَهُ عليْه وأيّده بجنود لَمْ تروها) (٥) ، ما عدا قوله — تعالى — : (واللهُ يُؤيّدُ بنصره منْ يشاء) (٦) .

فقد جاءت فيه بصيغة المضارع ، لأن مقصود هذه الآية هو بيان حقيقة ، أنّ النصر والظفر من الله ، ومما لاشك فيه أن بناء الفعل المضارع في العربية

---

(١) آل عمران — ١٣ .
(٢) ديوانه : القصيدة : ١١ ، البيت : ١٢، ص٦٧ ، وينظر : سؤالات نافع بن الأزرق في الإتقان : ١٢٢/١ .
(٣) حقائق التأويل : ٤٧/٥ //متشابه القرآن : ١٤٢/١ ، ١٥٧ ، ١٥٨// البحر المحيط ٣٩٦/٢ .
(٤) تنظر — الأنفال — ٢٦-٦٢ // آل عمران — ١٣ // المجادلة —٢٢ // الصف — ١٤ التوبة — ٤٠ .
(٥) التوبة — ٤٠ .
(٦) آل عمران — ١٣ .

يفيد الحدوث والتجدد والاستمرار (١) مما يشير إلى أنَّ التأييد من الله للمؤمنين ملازم لحالة الجهاد مادامت قائمة .

ويلاحظ — كذلك — أنها جاءت بصيغة « فعّل » . الدالة على الكثرة والقوة الشديدة (٢) .

إنَّ تأييد الله المؤمنين بالنصر كان مسبوقاً بفضل آخر في الدنيا ذلكم هو — الإيواء : فقال — سبحانه — (واذْكروا إذْ أنْتُم قَليل مُسْتَضْعَفونَ في الأرض تَخافونَ أنْ يَتَخَطَّفَكُمُ الناسُ فآواكُمْ وأيدكمْ بنصره) (٣). والمأوى : كل مكان يأوي اليه شيء ليلا أو نهاراً (٤) . وفيه معنى : الجمع والضم (٥) ، فقوله — تعالى — : (فآواكم) يعني : ضمكم إلى المدينة (٦). وذكر مقاتل ويحيى بن سلام وجهاً آخر للفظ ، وهو الانتهاء إلى الشيء (٧) كقوله — تعالى — : (فأووا إلى الكهف) (٨) .

ومما اقترن بالنصر ايضاً مادة :

— ثبت : والثبات في اللغة ضد الزوال ، يقال : يَثْبتُ الشيء ثَباتاً وثبوتاً، وأَثْبَتَهُ غيره وثَبّتَهُ ، بمعنى واحد (٩) ، والمُثْبَتُ هو الذي قد ثقل

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ١٣٣// مهدي المخزومي ، في النحو العربي : ٤١ / ابراهيم السامرائي ، الفعل زمانه وأبنيته : ٢٠٤–٢٠٥// العربية بين أمسها وحاضرها : ١١٠/ الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية : ٣٤٣ // فاضل السامرائي،معاني الأبنية في العربية ٩ .

(٢) المفردات : ٣٠ .

(٣) الأنفال — ٢٦ .

(٤) الصحاح : ٢٢٧٤/٦ .

(٥) م.ن : الصفحة نفسها ، وينظر : المفردات : ٣٤ //الجامع لأحكام القرآن:٣٩٤/٧ .

(٦) الأشباه والنظائر : ٢٨٩ // التصاريف : ٣٣١ .

(٧) م.ن : الصفحة نفسها التصاريف : ٣٣١ .

(٨) الكهف — ١٦ .

(٩) الصحاح : ٢٤٥/١ // المفردات : ٧٨ .

وأثبت فلا يبرح الفراش (١) . ويقال : أثبته السُّقم إذا لم يفارقه (٢) .
والثَّبْتُ والتَّثْبيتُ :هو الفارس الذي لا يُصْرَع ،ولم يزلّ في خصام او قتال ، قال العجاج (٣) :

وَمِـنْ قُرَيْشٍ كُلُّ مَشْبوبٍ أَعَزّْ   مُعاوِدُ الإقدام قد كرَّ وكَرّْ
في الغمرات بَعْدَ ما فرَّ وفَر   ثَبْتٍ إذا ما صيح بالقوم وَقَر

ومن الدلالات الحسية لجذر (ث ، ب ، ت) الثِباتُ وهو سير يُشَدُّ به الرحْلُ والمُثْبَتُ هو الرحل المشدود به (٤) .

ويستشف من هذه الدلالات معنى : القوة ، (٥) وهذا المعنى يلمح في استعمال القرآن الكريم لهذه المادة ؛ ومن ذلك قوله — تعالى — : (إذْ يُغَشّيكُمُ النُّعاسُ أَمَنَةً منه ويُنَزِّلُ عليكم منَ السماءِ ماءً ليطهرَكُمْ به ويُذهبَ عنكمُ رِجْزَ الشيطان وَليربطَ على قلوبكُم ويُثبتَ به الأقدام. إذْ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سأُلقي في قُلوبِ الذينَ كَفروا الرعبَ فاضربوا فوقَ الأعناق ، واضربوا منهم كُلَّ بَنان) (٦) ، وتثبيت الأقدام مترتب على قوة القلوب في جهاد العدو ، ولا يتم ذلك إلا حينما يكون الثبات على الدين (٧) ، وعلى هذا «يكون تثبيت الاقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب » (٨) . وهي على حد قول استاذنا

(١) تهذيب الألفاظ : ١١١ .
(٢) الصحاح : ١/٢٤٥ .
(٣) ديوانه : القصيدة : الأولى ، البيت : ٨٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،ص٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ نفسها ، وينظر : تهذيب الألفاظ :١٧٥ // الصحاح : ١/٢٤٥// أساس البلاغة :٦٩
(٤) القاموس المحيط : ١/١٥٠ .
(٥) المفردات : ٧٨ .
(٦) الأنفال —١١-١٣ .
(٧) ينظر : جامع البيان : ٢/٣٩٦ //زاد المسير : ١/٢٩٩ ، ٤٧٣ .
(٨) الجامع لأحكام القرآن : ٧/٣٧٧ .

محيي الدين توفيق: «كناية عن الصمود في وجه الأعداء والصبر على مقارعتهم والانتصار عليهم» (١) . وفيما يتعلق بسياق النص فقد لمح استاذنا كاصد الزيدي ملمحاً لطيفاً في نعمة الماء المنزل الذي له منفعة مادية متمثلة بتطهير الأجسام . ومنفعة معنوية تتمثل في الربط على القلوب وتثبيت الأقدام، فأشار إلى أنهما «عنصران نفسيان لأنهما يقترنان بالطمأنينة والثقة النفسيتين ، ولاسيما أنَّ المسلمين كانوا في مجال حرب، وهم بأشد الحاجة إلى ما يثبتهم، ويقوي معنوياتهم ، بعد أنْ عدموا الماء لنزولهم في كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام» (٢) .

وأما تثبيت الملائكة للمؤمنين فهو بُشْرَى لهم بالنصر ، أو قتال معهم ، أو حضور بهيئة الرجال يمدونهم بالنصر ، وفي ذلك كله قوة للمسلمين (٣) .

ويلاحظ أيضاً أن لفظ :

— يربط : كان مستعملا في الآيات التي تتحدث عن النصر والجهاد .

ولجذر (ر ، ب ، ط) في اللغة دلالات حسية ، منها :

رَبَطْتُ الشيء أَربطُهُ ، وأَرْبُطُهُ ، : شددته ، والموضع مَرْبَط ومَرْبِطٌ .... ويقال : نعم الربيِّط هذا ، لما يرتبط من الخيل ...والرباط ما تشد به القربة والدابة وغيرهما والجمع رُبُطٌ . قال الأخطل (٤) :

تموتُ طَوراً وتحيا في أَسِرَّتها كما تَقَلَّبُ في الرُّبْطِ المَراويدُ

وفيهم رباط الخيل : حبسها واقتناؤها ، قال الشاعر (٥) :

---

(١) المصطلح اللغوي في القرآن الكريم ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الرابع ، المجلد السابع والثلاثون ، بغداد ١٩٨٦ ، ص١٧ .

(٢) الطبيعة في القرآن الكريم : ٧٧ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير : ١٣٤/١٥ //الجامع لأحكام القرآن : ٣٧٨/٧ .

(٤) ديوانه : القصيدة : ٢٥ ، البيت : ٤١ ، ص ١٥٠، وينظر: الصحاح : ١١٢٧/٣

(٥) أساس البلاغة : ٢١٦ .

فينا رباطُ جياد الخيلِ مُعْلَمَـةً   وفي كُليب رباطُ اللُّؤْمِ والعـارِ

وأعدوا رباط الخيل وهي ما يرتبط منها ، ومن التطور الدلالي للمادة : رابط الجيش : اقام في الثغر ، والأصل ان يربط هؤلاء وهؤلاء خيلهم ، ثم سميت الإقامة في الثغر مرابطة ورباطاً ، والغزاة في مرابطهم ومرابطاتهم ، وهي مواضع المرابطة ، ووقف ماله على المرابطة ، وهي الجماعة التي رابطت (١) . ويلاحظ أنّ هذه الدلالات وجدت بعد الإسلام وتوسع الفتوح ، واستقرار الفاتحين في الثغور .

ومن الدلالات الحسية للمادة — ايضاً — قولهم : ترابط الماء في مكان كذا ، إذا لم يخرج من مجتمعه وركد فيه ، ومنه ماء مترابط ، قال الشاعر يصف سحاباً (٢) :

تَرى الماءَ منهُ مُلْتَقٍ مُتَرابِطٌ   ومُنْجَرِدٌ ضاقت به الأرضُ سائحُ

واستعملت هذه المادة في القرآن الكريم خمس مرات ، وجاءت مقترنة بالقلب ثلاث مرات ، وذلك في قوله — تعالى — : (إنْ كادَتْ لَتُبْدي به لولا أنْ رَبَطنا على قَلبِـها لِتكونَ مِنَ المؤمنين) (٣) . وهذا لطف من الله إذْ ألهمها الصبر كما يربط الشيء المتفلت ليستقر ويطمئن (٤) . وقوله : (ورَبَطنا على قُلوبِهم إذْ قاموا ، فقالوا : رَبُّنا رَبُّ السمواتِ والأرضِ لَنْ ندعوَ مِنْ دونهِ إلهاً لقد قُلنا إذاً شططاً) (٥). والربط هنا «عبارة عن شدة عزم وقوة صبر اعطاها الله لهم ... ولما كان الفزع والخور يشبه بالتناسب

(١) أساس البلاغة : ٢١٦–٢١٧ .
(٢) م.ن : ٢١٧ .
(٣) القصص — ١٠ .
(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٢٤/٢٣٠ .
(٥) الكهف — ١٤ .

الانحلال ، حسن في شدة النفس وقوة التصميم أنْ يشبه الربط» (١) . وقوله (وليربِطَ على قلوبكم،ويُثبِّت به الأقدام) (٢) ، المراد : ان بسبب نزول هذا المطر قويت قلوبهم ، وزال الخوف والفزع عنهم ، ويقال لكل من صبر على امر : ربط قلبه عليه ، كأنه حبس قلبه عن أن يضطرب» (٣) . والقى أستعمال حرف الجر (على) الذي يفيد الاستعلاء ظلّه على دلالة اللفظ (٤).
فكأنَّ المعنى : «أن القلوب أمتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها» (٥) .

وَأمّا قوله – تعالى – : (ياأيُّها الّذينَ آمَنوا اصْبِروا وصَابِروا وَرابطوا) ، (٦) «فمعناه عند الجمهور : رابطوا أعداءكم الخيل ، أي : ارتبطوها ، كما يرتبطها أعداؤكم » (٧) . وكذلك – قوله – تعالى – : (وَأَعدّوا لَهُمْ مااسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوّة وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ) (٨) ؛ وذكر الراغب أن المرابطة ضربان:

١ً: مرابطة في ثغور المسلمين وهي كمرابطة النفس البدن فإنّها كمن أقيم في ثغر وفوّض إليه مراعاته ، فيحتاج أن يراعيه غير مخل به وذلك كالمجاهدة قال – عليه السلام – :(مِنَ الرِّباطِ انتظارُ الصّلاة) (٩) .

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣٩٥/١٠ .
(٢) الأنفال– ١١ .
(٣) التفسير الكبير : ١٣٤/١٥ .
(٤) ينظر : الجنى الداني : ٤٤٤ // مغني اللبيب : ١٤٣/١ .
(٥) التفسير الكبير : ١٣٤/١٥ .
(٦) آل عمران –٢٠٠ .
(٧) جواهر الحسان : ٣٤٤/١ .
(٨) الأنفال – ٦٠ .
(٩) ينظر : الموطأ : الحديث : ٢٣٣ ، ص١٣٧ ، وفيه:«... انتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط» .

٢ً : ومرابطة بمعنى : قوة القلب ، قال — تعالى — : (وَرَبَطْنا على قُلوبِهِمْ) (١) وبنحو هذا قيل : فلان رابط الجأش. (٢)

وقد عبّر القرآن عن الربط بلفظ آخر هو :

— الختم : وذلك في قوله — تعالى — : (فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ) ، (٣) أي : يحفظه ويربطه، (٤) قال مجاهد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لايشق عليك قولهم : إنّه مفتر كذّاب. (٥) وهذا المعنى فيه صلة بالدلالة اللغوية للمادة ،إذ الختم ضد الفتح (٦) . وهو التغطية والاستيثاق من أنْ لايدخله شيء ، (٧) وفي ذلك حفظ للقلب من أي مداخلة تشق عليه .

ومن ألْطاف الله — سبحانه وتعالى — وتأييده للمؤمنين في الدنيا إمدادهم بالملائكة : وقد جاء ذلك في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم :

— (فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلائكَةِ مُرْدِفينَ). (٨)

— (إِذْ تَقولُ لِلْمُؤْمنينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلاف مِنَ الملائكَةِ مُنْزَلينَ . بَلَى إنْ تَصْبِروا وَتَتَّقوا وَيَأْتوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاف

(١) الكهف — ١٤ .
(٢) المفردات : ١٨٦ .
(٣) الشورى — ٢٤ .
(٤) منتخب قرة العيون النواظر : ١٠٥ .
(٥) التفسير الكبير : ١٦٧/٢٧ .
(٦) الصحاح : ١٩٠٨/٥ .
(٧) المصطلح اللغوي في القرآن الكريم ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الرابع ، المجلد السابع والثلاثون ، بغداد ١٩٨٦ ، ص١٣ .
(٨) الأنفال — ٩ .

منَ المَلائكَةِ مُسَوِّمين) (١) ونلحظ أنّ الإمداد بالملائكة مترتب على الصبر والتقوى ، وثمة فرق في دلالة هذه المادة اللغوية، فإذا كانت من : مدّ النهر ، فالفعل لازم بمعنى: زاد أو طما ، أو زخر ، وأمّا الذي يتعدى كقولهم : مَدّهُ نَهْرٌ آخرَ وأمْدَدْتُ الجيشَ بمَدَدٍ فمعناه : كَثَّرَ غيره وقوّاه ووصله، كقول العجاج : (٢)

* ماءُ قَرِيٍّ مَدَّهُ قَرِيُّ *

وأكثر ماجاء الإمداد في المحبوب كما في الآيات السابقة ، والمَدُّ في المكروه ،(٣) كقوله – تعالى – : (كَلاّ سَنَكْتُبُ مايَقولُ ونَمُدُّ لَهُ منَ العَذابِ مَدّاً) (٤) .

والمدّ في القرآن على خمسة أوجه ، (٥) وذكر يحيى بن سلام ستة: (٦) فما كان من الرباعي جاء بمعنى : العطاء، كقوله – تعالى – : (ويُمْدِدْكُمْ بأَمْوالٍ وبَنين) ، (٧) وكالآيات التي جاء فيها ذكر الإمداد بالملائكة . وقد جعَل لها يحيى بن سلام وجهاً آخر ، بمعنى : التقوية . (٨) وما جاء من الثلاثي فيأتي يَمُدُّهم ، بمعنى : يَلِجُهمْ كقوله – تعالى – :

(١) آل عمران –١٢٤–١٢٥ .
(٢) ديوانه : القصيدة : ٢٥ ؛ البيت : ٦١ ، ص٣١٨ ، ١ وينظر : تصحيح الفصيح : ٣١٢/١ هاشم طه شلاش ، معجم الأفعال المتعدية اللازمة ، القسم السابع ،مجلة المورد المجلد الثالث عشر ، العدد الثاني ، بغداد ١٩٨٤ ،ص ٥٧ .
(٣) المفردات :٤٦٥// بصائر ذوي التمييز : ٤٨٩/٤ .
(٤) مريم – ٧٩ .
(٥) ينظر : الأشباه والنظائر :٢١٩–٢٢١ .
(٦) ينظر : التصاريف ـ ٢٧٠–٢٧١ .
(٧) نوح – ١٣ .
(٨) التصاريف : ٢٧٠ .

(وَيَمُدُّهُمْ في طُغْيانِهِمْ) ، (١) أو بمعنى المد الذي لا انقطاع له ، كقوله : (وَظِلٍّ مَمْدود)، (٢) أو البسط كقوله : (أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) ، (٣) أو مدّت يعني : سوّيت كقوله : (وإذا الأرضُ مُدَّتْ) (٤) وإذا كان إمداد المؤمنين بالملائكة بشرى لهم كما أنه يلقي الاطمئنان في قلوبهم. فمن هنا يعدّ:

– الاطمئنان : من ألطاف الله بالمؤمنين في الدنيا فقد قال – سبحانه – (وَما جَعَلَهُ اللهُ إلاّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلوبُكُمْ بِهِ) . (٥) وأصل الاطمئنان من قولهم : أرض مطمئنّة ومتطامنة ، أي : منخفضة . واطمأنّ بالمكان ،ووتّد الله الأرض بالجبال فأطمأنت. (٦) واطمأنّ الرجل اطمئناناً وطمأنينة ، أي : سكن (٧) بعد انزعاج . (٨) وهذا المعنى هو وجه من الأوجه التي وردت في القرآن الكريم لهذه المادة ، فقوله : (ولتطمئن قلوبكم به) يعني : ولتسكن به قلوبكم. (٩)

وللمادة وجهان آخران هما :

– الرضا : كقوله – تعالى – : (فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِه) (١٠) أي رضي به .

---

(١) البقرة :–١٥ .
(٢) الواقعة – ٣٠ .
(٣) الفرقان – ٤٥ .
(٤) الانشقاق – ٣ .
(٥) آل عمران – ١٢٦ .
(٦) أساس البلاغة : ٣٩٦ .
(٧) الصحاح : ٢١٥٨/٦ .
(٨) المفردات : ٣٠٧ .
(٩) الأشباه والنظائر : ١٢٢/١ .
(١٠) الحج –١١ .

ـ والإقامة ، كقوله : (فإذا اطْمَأْنَنْتُمْ) ، (١) يعني فإذا أقمتم(٢)

ومن ألطاف الله بالمؤمنين حينما يصيبهم الفزع أن ينزل عليهم : السكينة ،
والسكينة ،والسكون في اللغة : الاستقرار والثبات بعد تحرك، يقال : سَكَنَ الشيء
سكونا : استقرّ وثبت ، وسكّنه غيره تسكيناً . (٣) والمَسْكِنُ والمَسْكَنُ (٤)
. المنزل والبيت . (٥) والسَّكَنُ : ماسكنت إليه. (٦) قال الله ـ عز وجل ـ
(وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً) (٧) ، والسَّكْنُ أيضاً : النّار (٨) قال الراجز (٩)

* أقامَها بسَكَنٍ وَأَدْهانْ *

أي : ثقّفها بالنار والدهن . وقال: (١٠)

ألجأني الليلُ وريحٌ بلّه إلى سواد إبلٍ وَثُلّه(١١)
وَسَكَنٍ توقَدُ في مِظَلّهْ

وسميت النار بذلك ، لأنّها يسكن بها وهذا مجاز. (١٢)
والسَّكْنُ : أهْلُ الدار ، قال ذو الرمة : (١٣)
فيا أكْرَمَ السَّكْنِ الذين تَحَمّلوا عَنِ الدارِ والمُسْتَخْلَفِ المُتَبَدِّلِ
ومن المجاز قولك : «هي السكينة في الوقارِ». (١٤) وقد فرّق أبو هلال

---

(١) النساء ـ ١٠٣ .
(٢) ينظر : الأشباه والنظائر ، : ١٢٢ـ١٢٣// التصاريف : ٢١٧ـ٢١٨ // كشف السرائر : ١٥٧ .
(٣) الصحاح : ٢١٣٦/٥ .
(٤) إصلاح المنطق : ١٢١ ، ٢٢٠ .
(٥) الصحاح : ٢١٣٦/٥ .
(٦) إصلاح المنطق : ٥٥ // الصحاح : ٢١٣٧/٥ .
(٧) الانعام ـ ١٦
(٨) الصحاح : ٢١٣٦/٥
(٩) إصلاح المنطق: ٥٥ ،وينظر : مقاييس اللغة : ٨٨/٣ ؛ وفيه : قد قومت بسكن وأدهان
(١٠) م.ن : ٥٥ـ٥٦ // الصحاح : ٢١٣٦/٥ ، وفيه : الجأه .
(١١) ينظر : المفردات : ٢٣٧ .
(١٢) ينظر : أساس البلاغة : ٣٠٤ .
(١٣) ديوان شعر ذي الرمة : تح / كارليل : القصيدة : ٦٧ ، البيت : ٢١، ص ٥٠٦ ،
وينظر : الصحاح : ٢١٣٦/٥ ، وفيه : فيا كرم :
(١٤) إصلاح المنطق : ١٨٠ ، وينظر : أساس البلاغة : ٣٠٤ .

العسكري بين السكينة والوقار، فقال: «إنَّ الوقار هو الهدوء وسكون الأطراف وقلّة الحركة في المجلس، ويقع - أيضاً - على مفارقة الطيش عند الغضب مأخوذ من الوقر: وهو الحمل، والسكينة: مفارقة الاضطراب عند الغضب والخوف، وأكثر ماجاء في الخوف ألا ترى إلى قوله - تعالى - : (فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عليه)، (١) وقال: (فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ على رَسوله وَعَلى المُؤْمنينَ) (٢)، ويضاف إلى القلب كما قال - تعالى - : (هُوَ الّذي أَنْزَلَ السّكينَةَ في قلوبِ المُؤمنينَ) (٣) فيكون هيبة وغير هيبة، والوقار لايكون إلاَّ هيبة» (٤).

والمراد بإنزال السكينة في قلوب المؤمنين: «أنّه سكّن قلوبهم وآمنهم من العدو، فمن حيث فعل ذلك كان منزلاً للسكينة في قلوبهم، ليزدادوا إيماناً، ويقووا على الجهاد، ويطلبوا الظفر، ومتى حمل الكلام على ماذكرنا كان الكلام على الحقيقة، لأنَّ الأمر الذي تأولناه عليه من فعله - تعالى» (٥) وأشار برجشتراسر إلى أنَّ الكلمة الآرامية (Skintā) - وهي مصدر في أصلها بمعنى: السكون والنزول في محل - قريبة من لفظ (سكينة) وقد تخصص دلالتها بالسكينة المضافة إلى الله - سبحانه - . (٦)

وورد جذر (س، ك، ن) في القرآن الكريم على أربعة أوجه: (٧)

- القرار، كقوله - تعالى - : (اللهُ الّذي جَعَلَ لَكُمُ اللّيْلَ لِتسْكُنوا فيه)، (٨) يعني: لتستقروا فيه من التعب.

---

(١) التوبة - ٤٠ .
(٢) الفتح - ٢٦ .
(٣) الفتح - ٤ .
(٤) الفروق اللغوية: ١٦٦ .
(٥) متشابه القرآن: ٦٢٠/٢ .
(٦) ينظر: التطور النحوي: ٢٢٥ .
(٧) ينظر: الأشباه والنظائر: ٣١٩-٣٢٠ .
(٨) المؤمن - ٦١ .

– النزول ، كقوله – تعالى – : (وَقُلْنا ياآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ) ، [1] يعني : انزلها أنت وزوجك .

– الأستئناس ، كقوله : (وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفسكمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها) . [2]

– الطمأنينة ، كقوله : (فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) ، [3] يعني : الطمأنينة في قلوبهم . [4]

وورد لفظ السكينة في القرآن ست مرات في أقواله – تعالى – :

– (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)[5]

وقال الرّاغب فيها : «زوال الرعب ... وماذكر أنّه شيء ، كرأس الهرّ فما أراه قولاً صحيحاً» [6] .

– (هُوَ الَّذي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤْمنينَ لِيَزْدادوا إيماناً)[7]

– (فَعَلِمَ مافي قُلُوبهم فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) [8] :

– (فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ على رَسولِهِ وَعَلى المُؤْمنينَ) [9]

– (ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسولِهِ وَعَلى المُؤْمنينَ) [10]

---

(١) البقرة – ٣٥ .
(٢) الروم – ٢١ .
(٣) الفتح – ١٨ .
(٤) ينظر : الأشباه والنظائر : ٣٢٠// كتاب القرطين : ١٣٣/٢ // البحر المحيط : ٢٥/٥، ٤٣ .
(٥) البقرة – ٢٤٨ .
(٦) المفردات – ٢٣٧ .
(٧) الفتح – ٤ .
(٨) الفتح – ١٨ .
(٩) الفتح – ٢ .
(١٠) التوبة – ٢٦ .

ـ (فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وأيدَّهُ بجُنُود لَمْ تَرَوْها) (١) والملاحظ أنّ هذا اللفظ قد استعمل في القرآن في مواضع القلق والاضطراب التي انتابت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين كالذي حدث في يوم الغار ، ويوم حنين ونحوهما ، فأوجبت زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات (٢) وإذا ماتحققّت الطمأنينة والسكينة في نفوس المؤمنين يكونون أقدر على إنجاز المهمات الجهادية فَيَمُنّ الله عليهم بالفتح .

ـ ولفظ الفتح : غزير بدلالاته اللغوية ومتنوع في استعمالاته القرآنية ومن الدلالات الحسية لجذر (ف ، ت ، ح) ، قولهم : ناقة فتوح : للواسعة الأحاليل (٣) .

والفُتوح : واحدها فتح ، وهو أول مطر الوسمي ، لأنه يفتتح الشهر بالمطر . (٤) قال الراجز : (٥)

كَـأنّ تحتي مَخْلَفاً قروحاً يَرْعى غُيوثَ العَهْـد والفُتوحـا

والفِتاح : مخر الأرضي ثم حرثها (٦) . والفَتْحُ : الماء يجري من عين أو غيرها (٧) .

ويلاحظ أنّ هذه الاستعمالات تحمل دلالة الخصب والعطاء ، حتى إنهم قالوا إذا ماظهرت أمارات الخصب : ما أحسن ما افتتح عامنا به (٨) .

والفتح فيه دلالة السعة ـ أيضاً ـ ،فقولهم : باب فُتُحُ أي : واسع مفتوح،

---

(١) التوبة ـ ٤٠ .
(٢) ينظر : بصائر ذوي التمييز : ٣/٢٣٨ ـ ٢٣٩ .
(٣) المنجد : ٢٨٢ .
(٤) م.ن : ٢٨١ ، وينظر : المحيط في اللغة : ٣/٢٧٣ .
(٥) م.ن : الصفحة نفسها .
(٦) المحيط في اللغة : ٣/٢٧٣ .
(٧) الصحاح : ١/٣٨٩ .
(٨) أساس البلاغة : ٤٦٢ .

وقارورة فُتُحُ ، أي : واسعة الرأس (١) .

ويقال : هي الفِتاحة والفِتاحة ، من المفاتحة ، وهي : المحاكمة ،وأنشد ابن السكيت وهو للأسعر الجعفي (٢) :

الا أَبْـلِغْ بني عمرٍو رسولاً . فإنّي عـن فُتاحَتِكُـمْ غَنيُّ

والفتّاح : الحاكم (٣) . والفَتْحُ : أن تحكم بين قوم يختصمون إليك (٤) .

وقال أعرابي لآخر ينازعه : بيني وبينك الفتّاح ، يعني : الحاكم ، وقال الفرّاء: أهل عُمان يسمون القاضي الفتّاح (٥) ، وقال ابن عباس في قوله ــ تعالى ــ : (إنّا فَتَحْنا لكَ فَتْحاً مُبيناً) (٦) : كنت اقرؤها ، ولا أدري ما هي حتى تزوجت بنت مشرح ، فقالت : فتح الله بيني وبينك ، أي: حكم الله بيني وبينك (٧) . وعلى هذا فالفتح هو إزالة الإغلاق والإشكال (٨).

واستعمل القرآن الفتح على أربعة أوجه (٩) :

ــ القضاء : وذلك كقوله ــ تعالى ــ : (ربّنا افتَح بيْنَنا وبَيْنَ قَوْمنا بالحَقِ وأنتَ خيْرُ الفاتحين) (١٠) .

---

(١) الصحاح : ٣٨٩/١ .

(٢) إصلاح المنطق : ١١٢ ، وينظر : الزاهر : ١٨٩/١// مقاييس اللغة : ٤٦٩/٤ //أساس البلاغة : ٤٦٢ // اللسان : مادة فتح وفيه (ألا من مبلغ عمراً رسولا) .

(٣) المنجد : ٢٨١/ الزاهر : ١٨٩/١ // اشتقاق أسماء الله : ٣٢٦ .

(٤) المحيط في اللغة : ٢٧٢/٣ .

(٥) معاني القرآن : ٣٨٥/١ // الزاهر : ٨٩/١ .

(٦) الفتح ــ ١ .

(٧) تأويل مشكل القرآن : ٤٩٢ ــ ٤٩٣ ، وينظر : المبرد ، الفاضل : ١١٣ ، والخبر فيه بغير هذه الصيغة .

(٨) المفردات : ٣٧٠ .

(٩) ينظر : الأشباه والنظائر : ٢٠٤-٣٠٥ // التصاريف : ٢٤٩-٢٥٠ // منتخب قرة العيون النواظر : ١٨٥ ــ ١٨٦ .

(١٠) الأعراف ــ ٨٩ .

– الارسال : كقوله : (ما يَفْتَحِ اللهُ للنّاسِ مِنْ رحمَةٍ فلا مُمْسِكَ لَها) (١) .

– الفتح بعينه : كقوله : (حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها) (٢) .

– النصر : لأنّ الله يفتح به أُمراً مغلقا (٣) ، كقوله : (فَعَسَى اللهُ أَنْ يأتِيَ بالفَتْحِ أو أَمْرٍ مِنْ عنده) (٤)، وقوله: (إنْ تَستفتحوا فقَدْ جَاءكُمُ الفَتْحُ) (٥) ، أي : النصر (٦) .

والملاحظ أنّ لفظ «الفتح» فيه دلالة الفصل بين الشيئين ليظهر ما وراءهما (٧) فالنصر إذا كان بمعنى : الظفر والغلبة ، فالفتح يحمل – فضلا عن هذا – دلالة الفصل بين الحق والباطل وظهور ذلك للبصر والبصيرة، وسياق الآيات يوضح ذلك ، فقد قال – سبحانه وتعالى – : (فَتَرى الذين في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارعون فيهِمْ يَقولون نَخشى أنْ تُصيبنا دائرةٌ فعسى اللهُ أنْ يأتِيَ بالفَتْحِ أو أمْرٍ مِنْ عِنْدِه ، فَيُصبحوا على ما أَسَرّوا في أنْفُسِهِمْ نادمين) (٨) ، فالمنافقون كانوا يشكّون في أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويحدثون أنفسهم قائلين : لا نظنّ أنّه يتم له أمره ، والأظهر ان تصير الدّولة والغلبة لأعدائه .

فوَعد الله – سبحانه – أن يأتي بالفتح لرسوله – صلى الله عليه وسلم – على أعدائه ليُظهر المسلمين بالحق على اعدائهم ، ويقطع دابر اليهود ، فيصبح

(١) فاطر – ٢ .
(٢) الزمر – ٧٣ .
(٣) تأويل مشكل القرآن : ٤٩٢ .
(٤) المائدة – ٥٢ .
(٥) الأنفال –١٩ .
(٦) المنجد : ٢٨٢ .
(٧) الفروق اللغوية : ١٢٣ .
(٨) المائدة – ٥٢ .

المنافقون نادمين على ما حدّثوا به أنفسهم (١) .

ومما يكشف عن الدلالة التي ذكرناها — أيضاً — في سبب النزول ، قوله — تعالى — : (إنْ تَستَفْتحوا فقدْ جاءكمُ الفَتْحُ) (٢) ، فقد روى الحاكم عن عبدالله بن ثعلبة بن صغير أنه قال : كان المستفتح أبا جهل ، فإنّه قال حين التقى القوم : اللّهم أينُنا كان أقطع للرحم ، وأتى بما لا يعرف فأَحْنه : (فأملكه) الغداة . وكان ذلك استفتاحاً ، فأنزل الله: (إنْ تَستَفْتحوا فقَدْ جاءكم الفتح) إلى قوله : (وأنّ اللهَ مع الصابرين) »(٣). والبادي من هذه الرواية أنّ أبا جهل كان لا يعرف الحق من الباطل مكابرة، فاستعمل القرآن لفظ «الفتح» ليدل على معنى الفصل بين الحق والباطل وظهور ذلك للعيان من خلال انتصار المسلمين ، والمعنى : «إنْ تَستَنْصروا لأَهْدى الفئتين وأكرم الحزبين فقد جاءكم النصر» (٤) . مظهراً أهل الحق مركساً أهل الباطل .

وإذا ماتم الفتح فقد تحقق وعد الله الذي وعد به عباده المؤمنين وهو الاستخلاف والتمكين والأمن ، وذلك في قوله — تعالى — : (وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكمْ وعَملوا الصّالحاتِ ليستخْلفَنّهمْ في الأرضِ كَما استَخلفَ الّذينَ منْ قبلهمْ وليمكننّ لهمْ دينهمُ الذي ارْتضى لهم وليبدلنهم منْ بعدِ خوفهمْ أمناً يعبدونَني لايُشْركونَ بي شيئاً ومنْ كفرَ بعدَ ذلكَ فأولئكَ همُ الفاسقونَ) (٥) .

— ولجذر (خ ، ل ، ف) في اللغة دلالات عديدة ، منها : الخَلْفُ : نقيض القدّام .

(١) التفسير الكبير : ١٢/١٦–١٧ .
(٢) الأنفال —١٩ .
(٣) لباب النقول في أسباب النزول : ١٢٧—١٢٨ .
(٤) التفسير الكبير : ١٥/١٤٢ .
(٥) النور —٥٥ .

والخَلْفُ : القرن بعد القرن (١) . ويقال: هذا خَلْفُ سوء لناس لاحقين بناس أكثر منهم ، قال لبيد : (٢)

ذَهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خَلْفٍ كجلدِ الأجربِ

والخَلْفُ : الرَّديُّ من القول ، ويقال في مَثَل : «سكتَ ألْفاً ونطقَ خَلْفاً» للرجل يطيل الصمت فإذا تكلم تكلم بالخطأ (٣) .

والخَلْفُ . الاستقاء ، قال الحطيئة : (٤)

لِزُغْبٍ كأوْلادِ القطا راثَ خلْفُها على عاجزاتِ النَهضِ حُمْرٍ حواصِلُهْ

والمُسْتَخلِف : الذي يحملُ الماء من بعد إلى أهله. (٥)

والخَلْفُ : أقصر أضلاع الجنب ، ومنه قول طرفة بن العبد : (٦)

وطَيٌّ مَحال كالحَنيِّ خُلوفُـــهُ وأجرِنَةٌ لُزَّتْ بدَأْيٍ مُنَضَّدِ

والخَلْفُ الخَلَفُ : ماجاء من بَعْدُ ، يُقال : هو خَلْفُ سوء من أبيه ، وخَلَفُ صدْقٍ من أبيه ... إذا قام مقامه. (٧) والخَلَفُ أيْضاً : مااستخلفته من شيء . (٨) والخِلْفُ واحد الأخلاف ، وهو : موضع يد الحالب من ضرع الناقة. (٩) والخِلْفُ أيضاً : المخاض ، وهي : الحوامل

---

(١) الصحاح : ١٣٥٣/٤-١٣٥٤ .

(٢) شرح ديوانه : القصيدة : ٥ ، البيت ٢ وينظر :إصلاح المنطق ١٣ ، ٦٦ //الصحاح ١٣٥٤/٤ .

(٣) الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب : المثل : ٤١٥ ، ١١٩/٢ ، وينظر إصلاح المنطق : ١٢ ، ٦٦ // الصحاح : ١٣٥٤/٤ .

(٤) ديونه : القصيدة : ١٢ ، البيت : ١٥ ، ص٨٠،وينظر:إصلاح المنطق:١٣ ،٦٦= الصحاح : ١٣٥٤/٤ .

(٥) إصلاح المنطق : ١٣ .

(٦) ديوانه : القصيدة : ٨ ، البيت : ٢٠ ، ص٢٤ ، وينظر : الصحاح : ١٣٥٤/٤ .

(٧) الصحاح : ١٣٥٤/٤ .

(٨) م.ن : الصفحة نفسها .

(٩) كتاب : الفرق ، المورد-مج ١٣ ، العدد الأول ، بغداد ١٩٨٤ ، ص٨٩ .

من النوق الواحدة خَلِفَة (١) والخُلْفُ بالضم : الاسم من الإخلاف ،وهو في المستقبل كالكذب في الماضي (٢) .

والاستخلاف في الآية الخامسة والخمسين من سورة النور : (وَعدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكمْ وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَهُمْ في الأرض)، هو النيابة تشريفا للمستخلف، (٣) ولهذا ذهب المفسرون إلى أنَّ قوله ــ تعالى ــ (ليستخلفنهم) يعني : ليورثنّهم الأرض فيجعلهم ملوكها وساستها ، والقول عام يشمل استخلاف الجمهور ماتحقق فيهم الإيمان والعمل الصالح (٤) ؛ المفسر بقوله : (يعبدونَني لايُشركونَ بي شيئاً) .

ــ واما التمكين فالمَكْنُ في اللغة : بيض الضب ، وقد وردت إشـــارة في شعر أبي الهندي (ت ١٨٠هـ) ، إلى أنّه من طعام العرب ، فقال (٥) :

ومَكْنُ الضباب طَعَامُ العُرَيب ولا تشتهيه نُفوسُ العَجَمْ

قال ذلك مفتخراً على العجم ، وقالوا : وهذه مَكْنَةُ الضبة ومَكِنَةُ الضبة ومَكِناتُها : مقارُّها (٦) . وعلى هذا فالمكن والمكان عند اهل اللغـة : الموضع الحاوي للشيء (٧) .

وتمكين الدين في الآية الخامسة والخمسين من سورة النور استعارة من هذا المعنى . قال الطبري في قوله : (ليمكنن لهم دينهم) : ليوطئنَّ (٨) .

---

(١) م.ن : الصفحة نفسها .
(٢) م.ن : الصفحة نفسها :
(٣) المفردات : ١٥٦ .
(٤) ينظر : جامع البيان : ١٢٢/١٨ // الكشاف : ٧٣/٣ // التفسير الكبير : ٢٤/٢٤ // الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٧/١٢-٣٠٠ // مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ١٥٢/٣ // جواهر الحسان : ١٢٦/٣ // الوجيز في تفسير القرآن على هامش كتاب مراح لبيد : ٨٨/٢ .
(٥) ديوان أبي الهندي وأخباره : القصيدة ٣٣ ، البيت : ٨ ، ص٥٢ ، وينظر : الصحاح : ٢٢٠٥/٦ // أساس البلاغة : ٦٠١ .
(٦) الصحاح : ٢٢٠٦/٦ // أساس البلاغة : ٦٠١ .
(٧) المفردات : ٤٧١ .
(٨) جامع البيان : ١٢٢/١٨ .

وفسر الزمخشري : بالتثبيت (١) ، وقال الرازي : هو أن يؤيدهم بالنصر والإعزاز (٢)، وقال عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي هو التثبيت والتعضيد (٣)، ودلالة التمكين على التوطئة والتثبيت دلالة تضمنية ، ودلالته على التأييد دلالة التزامية. والملاحظ أنّ التمكين متضمن الآلة والمكان الذي يتمكن فيه . وتمكين الله الدين للمؤمنين فيه دلالة على إعطاء ما يصح به الفعل كائناً ماكان من الآلات والعدد والقوى، كما أنّ التمكين فيه دلالة على عدم امتلاك ما حازه (٤) المرء، لأنّ التمكين من الدين يكون على وفق ما أراد الله ــ سبحانه ــ من تنفيذ شريعته ، لا على وفق ما يريده ، الممكّن له في الأرض .

ــ وأمّا الأمن ؛ فمن دلالاته الحسية ؛ قولهم : ناقة أمون : للموثقة الخلق التي أمنت أن تكون ضعيفة (٥) . وفرس أمين القوي (٦) .

والأمن: ضد الخوف،(٧) فإذا زال الخوف واطمأنت النفس كان الأمن (٨) وتلقي أسباب النزول ضوءاً على دلالات هذه الألفاظ ، فقد «أخرج الحاكم والطبراني عن أبي بن كعب قوله : لمّا قدم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لايبيتون إلاّ بالسلاح ، ولا يصبحون إلاّ فيه ، فقالوا : ترون أنّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لانخاف إلاّ الله ، فنزلت : (وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم ... الآية) وعن ... البراء (بن عازب) قال : فينا نزلت هذه الآيـــة

(١) الكشاف : ٧٣/٣ .
(٢) التفسير الكبير : ٢٤/٢٤ .
(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ١٥٢/٣ .
(٤) الفروق اللغوية : ٩٠ ، ١٥٥ .
(٥) الصحاح : ٢٠٧٢/٥ .
(٦) أساس البلاغة : ٢٢ .
(٧) الصحاح : ٢٠٧١/٥ .
(٨) المفردات : ٢٥ ، وينظر : كتاب القرطين : ١٠٧/١ .

ونحن في خوف شديد» (١) .

وعلى هذا فالآية تبيّن «جزاء الطاعة المخلصة ، والإيمان العامل ، في هذه الأرض قبل يوم الحساب» (٢) .

والملاحظ أن ألفاظ : (ليستخلفنهم، وليمكنن ، وليبدلنهم) قد جاء كل منها مؤكداً بالنون ، داخلة عليه اللام. وهذه اللام إنّما جاءت لتحقيق الأمر وإثباته في نفوس المؤمنين وانه كائن لا محالة (٣) .

ومن الألفاظ التي دارت على معنى له علاقة بالاستخلاف لفظ :

ـ أورث : ذلك أنّ الورث هو : الأصل والبقية ، قال الشاعر (٤) :

فَلينْظُر في صُحُفٍ كالرِّبا ط فيهنّ إرثُ كتاب مُحِي

والوراثة والإرث : انتقال قُنْيَة إليك عن غيرك من غير عقد ولا مايجري مجرى العقد ، وسمي بذلك المنتقل عن الميّت ، فيقال للقنية الموروثة ميراث وإرث . (٥) وحقيقة الميراث في الشرع : «هو ماانتقل إلى الإنسان عن ملك الغير بعد موته على وجه الاستحقاق» (٦) .

واستعمل القرآن هذا اللفظ ـ في قوله ـ تعالى ـ : (وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كانوا يُسْتَضْعَفونَ مَشارِقَ الأَرْضِ وَمَغارِبها الّتي بارَكْنا فيها وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنى على بني إسْرائيلَ بما صَبَروا ودَمَّرْنا ماكانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وما كانوا يَعْرِشونَ) (٧) في نزول قوم

(١) لباب المنقول في أسباب النزول : ٢٠٢ .
(٢) في ظلال القرآن : ١١٨/٦ .
(٣) ينظر : المثل السائر : ٥٥/٢–٥٧ .
(٤) المفردات : ٥١٨ .
(٥) المصدر السابق : ٥١٨ .
(٦) تلخيص البيان : ٤٤ .
(٧) الأعراف –١٣٧.

ديار قوم بعدهم بما صبروا ، وجاءت هذه الآية مقابلة لقول موسى: (قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ في الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعمَلونَ) ، (١) فلمّا بين الله – تعالى – إهلاك القوم بالغرق على وجه العقوبة بيّن مافعله بالمؤمنين من الخيرات وهو أنه – تعالى – أَوْرَثَهم أرضهم وديارهم ، فتحقق الوعد بالاستخلاف . (٢) وورد اللفظ– أيضاً – في قوله – عز وجل – : (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوها وكانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَديراً) .(٣) للدلالة على أخذ المؤمنين أموال بني قريظة بعد حربهم وإجلائهم عن المدينة المنورة .

– وإذا كان الله – سبحانه – قد جعل المستضعفين يرثون الأرض فقد منّ عليهم بأنْ جعلهم أئمةً في قوله: (وَنُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الّذين آسْتُضْعِفوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثين) (٤) .
والأَمُّ في اللغة : القصد . يُقال أَمَمْتُهُ أَؤُمُّهُ أَمّاً : إذا قصدت له (٥) .
ومن الدلالات الحسية لهذه المادة ؛ الإمام : لخشبة البناء التي يُسوى عليها البناء ، قال الشاعر (٦) :

وخَلَقْتُهُ حتى إذا تَمَّ واستوى   كَمُخَةِ ساق أو كَمَتْنِ إِمامَ
قَرَنْت بحَقْوَيه ثلاثاً فَلَم يَزِغْ   عَنِ القَصدِ حتى بُصِّرَتْ بدِمام

والإمام : الصقع من الأرض ، والطريق ... والإمام الذي يقتدى به (٧) .

(١) الأعراف – ١٢٩ .
(٢) ينظر : التفسير الكبير : ١٤/٢١٢–٢٢١ .
(٣) الأحزاب – ٢٧ .
(٤) القصص – ٥ .
(٥) إصلاح المنطق : ٦١ .
(٦) الصحاح : ١٨٦٥/٥ ، وينظر : أساس البلاغة : ٢١ .
(٧) م.ن : الصفحة نفسها ، وينظر : المفردات : ٢٤ .

وفي هذا المعنى ورد لفظ «أئمة» في الآية ، قال قتادة : وتجعلهم أئمة ، أي : ولاة أمر (١) . وعن مجاهد : دعاة إلى الخير (٢) . وذهب الزمخشري والرازي إلى : أنهم المقدمون في الدين والدنيا ، واقتران لفظ أئمة بلفظي «الوارثين ونمكّن» يقوى هذه الدلالة ، لأن من لوازم تمكين الله لهم أنْ ينفذ أمرهم ويطلق أيديهم (٣) .

إنّ الوصول إلى الاستخلاف في الأرض والتمكين يتم عن طريق الجهاد ، وقد قال — سبحانه وتعالى — : (يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ ولا يَخافونَ لَومةَ لائِمٍ ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتيه مَنْ يَشاء) (٤) ، وهذه دلالة الفضل ، إذ بيّن — تعالى — أنّ جهادهم على هذا الوجه فضل من الله من حيث يوفق لذلك ، ومن حيث يؤديهم إلى النعم العظيمة من الثواب (٥) .

إنّ الجهاد في الإسلام حياة كاملة ممتدة ، فقد قال — سبحانه — (يا أَيُّها الذينَ آمَنوا اسْتَجيبوا للهِ وللرَّسولِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحْييكُمْ واعلموا أنَّ اللهَ يَحولُ بَيْنَ المَرءِ وقلبِه وأنّه إليه تُحشَرونَ) (٦) .

— ولفظ «يحييكم» له دلالته اللغوية الخاصة عند العرب ، فقد قالوا : اخصب القوم وأحيوا . والحيا ... كثرة الغيث (٧) . ومن دلالات جذر (ح ، ى ، ى) الحياة ضد الموت (٨) . وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ سورة الأنفال بجملتها نزلت في غزوة بدر (٩) ترجح لدينا أنّ هذه الدعوة تختص بالدعاء

(١) جامع البيان : ١٩/٢٠ .
(٢) التفسير الكبير : ٢٢٦/٢٤ .
(٣) ينظر الكشاف : ١٦٥/٣ // التفسير الكبير : ٢٢٦/٢٤ .
(٤) المائدة — ٥٤ .
(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن : ١١٩ ، وينظر : بصائر ذوي التمييز : ١٩٧/٤
(٦) الأنفال — ٢٤ .
(٧) تهذيب الألفاظ : ١٣ ، وينظر : الصحاح : ٢٣٢٤/٦ .
(٨) الصحاح : ٢٣٢٣/٦ .
(٩) ينظر : لباب النقول في أسباب النزول : ١٢٥ وما بعدها .

إلى الجهاد وقتال العدو ، وقد أعلمهم الله — سبحانه — : «أنَّ ذلك يحييهم من حيث كان فيه قهر للمشركين ، وتقليل لعددهم ، وفلّ لحدهم وحسم لأطماعهم» [1] ... ويجري ذلك مجرى قوله — عز وجل — : ﴿ولكُمْ في القِصاص حياة﴾ [2] . إنَّ تعبير القرآن عن الجهاد بلفظ «يحييكم» إنّما هو دلالة على أنَّ الجهاد دعوة إلى عقيدة ، تحيي القلوب والعقول وشريعة ، تحرر الإنسان وتكرمه ، ومنهج للفكر يحقق القوة والعزة والاستعلاء [3] .

إنَّ النصر الذي يحرزه المؤمنون بجهادهم لا تتخلف عنه يد القدرة ، فولاية الله لهم دائمة ، وفي ذلك — يقول — تعالى — : ﴿واللهُ أعْلَمُ بأعْدائكُمْ وكفى بالله وليّاً ، وكفى بالله نَصيراً﴾ [4] .

— والوَلْيُ في اللغة : القُرْبُ والدُّنُو ، يقال : تباعد بعد وَلْيٍ [5] ، وقال ساعدة بن جؤيّة الهذلي [6] :

هَجَرَتْ غَضوبُ وَحُبَّ مَنْ يَتَجَنَّبُ وعَدَتْ عَوادٍ دون وَلْيِكَ تَشْعَبُ

ومن الدلالات الحسية لجذر (و ، ل ، ي) الوَلِيُّ : المطر بعد الوَسْمِيّ سُمِّيَ وَليّاً لأنه يلي الوسمي ، [7] والوسمي : مطر الربيع الأول عند إقبال الشتاء . [8] وعلى هذا «فالولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ماليس منهما ، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد» [9] ،

(١) أمالي المرتضى : ١/٥٢٨—٥٢٩ .
(٢) البقرة — ١٧٩
(٣) ينظر : في ظلال القرآن : ٣/٨٣٣—٨٣٤ .
(٤) النساء — ٤٥ .
(٥) الصحاح : ٦/٢٥٢٨ .
(٦) ديوان الهذليين : ١ : ١٦٧ ، وينظر : الصحاح : ٦/٢٥٢٨ وفيه : وحب من يتجنب
(٧) الصحاح : ٦/٢٥٢٩ // فقه اللغة وسر العربية : ٢٧٧ .
(٨) أدب الكاتب : ٧٦
(٩) المفردات : ٥٣٣ ، وقد ذكرتها كتب الوجوه والنظائر مفصلا ينظر : الأشباه والنظائر : ١٩٥—١٩٨ // التصاريف : ٢٣٥—٢٣٨ .

ولذا صحّ أن تقال الوِلاية والوَلاية في النُّصْرَةِ (١) ، مع ملاحظة دلالة الدنو والقرب فيها .

وقد ترتب على نصرة المؤمن لله ورسوله والمؤمنين الغلبة ، وذلك في قوله تعالى — : (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسولَهُ والّذينَ آمَنوا فإنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبونَ) . (٢) قال الرازي : «قوله : (فإنّ حزب الله هم الغالبون) جملة واقعة موقع خبر المبتدأ ، والعائد غير مذكور لكونه معلوماً ، والتقدير فهو غالب لكونه من جند الله وأنصاره» (٣) .

وجذر (غ ، ل ، ب) في اللغة له دلالات حسية كثيرة ، منها قولهم : «رجل أَغْلَب : بيّن الغَلَب ، إذا غلظت عنقه حتى لا يمكنه أن يلتفت وبذلك سمي الأسد : اغلب» (٤) .

وهضبة غلباء ، وعزّة غلباء ... وحديقة غلباء : ملتفة ، وحدائق غُلْب . واغلولب العشب : بلغ والتف (٥) .

والغَلَبَةُ : القهر والاستيلاء ، قيل : وأصل غَلَبَ : أن تناول وتصيب غلب رقبته (٦) .

ونلحظ من هذه الدلالات الحسية أنّ في الغلبة قوة ناتجة عن الالتفاف والعظم ولهذا استعملها القرآن في مواضع الجهاد ،وتحقيق النصر كقوله — عزوجل — : — (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بإذن اللهِ) (٧) .

---

(١) إصلاح المنطق : ١١١ .
(٢) المائدة : ٥٦ .
(٣) التفسير الكبير : ٣٢/١٢ ، وينظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٢٨٩/١ .
(٤) الاشتقاق : ٢٥/١ ، وينظر : ٣٤٦/٢ // الصحاح : ١٩٥/١ .
(٥) الصحاح : ١٩٥/١ ، وينظر : أساس البلاغة : ٤٥٣ .
(٦) المفردات : ٣٦٣ — ٣٦٤ .
(٧) البقرة — ٢٤٩ .

وقوله : (إنْ يكن منكم عشرون صابرون يَغْلبوا مئتين وإنْ يَكُنْ منكم مئة يَغْلبوا ألفاً منَ الذين كفروا بأنهُم قوم لا يفقهون) (١). كما استعملها في مواضع بيان قدرة الله وهيمنته كقوله — جلّت قدرته — : (قُلْ للذين كفروا ستُغلبونَ وتُحشرون إلى جهَنّم وبئس المهادُ) (٢) ،

وقوله : (واللهُ غالب على أمره ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمونَ) (٣) ،

وقوله : (أفلا يرونَ أنّا نأتي الأرضَ ننقصُها منْ أطرافها أفَهُمُ الغالبون) (٤) .

إنَّ تحقيق الغلبة والانتصار للمؤمنين له منافع في الدنيا ، فقد قال — سبحانه — (قاتلوهُمْ يعذّبْهُمُ اللهُ بأيْديكُمْ ويُخْزِهمْ ويَنْصُرْكمْ عليْهمْ ويَشْفِ صُدورَ قوْمٍ مُؤمنينَ ويُذْهبْ غيْظَ قُلوبهمْ ويتوبُ اللهُ على منْ يَشاءُ واللهُ عليم حكيم) (٥) . وهذه المنافع هي : القتل والأسر والذل والهوان حيث شاهد الكفّار أنفسهم مقهورين في أيدي المؤمنين ويقابل ذلك نصر المؤمنين وشفاء صدورهم ، وإذهاب غيظ قلوبهم . وهذه المنافع «ترجع إلى تسكين الدواعي الناشئة من القوة الغضبية ، وهي التشفي ودرك الثأر وإزالة الغيظ — ولم يذكر — تعالى — فيها وجدان الأموال والفوز والمطاعم والمشارب ، وذلك لأن العرب قوم جبلوا على الحمية والأنفة فرغّبهم في هذه المعاني لكونها لائقة بطباعهم» (٦) .

ومما لاشك فيه أنَّ هذه الصفات قد وُجِّهَتْ في الإسلام وجهة تخدم العقيدة والفكرة . فكانت قوة الغضب والحميّة والأنفة لأجْل الدين وعلوّه .

(١) الأنفال —٦٥ ، وتنظر الآية : ٦٦ .
(٢) آل عمران — ١٢ .
(٣) يوسف — ٢١ .
(٤) الانبياء — ٤٤ .
(٥) التوبة — ١٤—١٥ .
(٦) التفسير الكبير : ٤/١٥ .

— واختيار القرآن للفظ «يشفي» للتعبير عن إدراك الثأر له دلالته : إذ أنّ من الدلالات الحسية لجذر (ش ، ف ، ي) قولهم : شفا البئر وغيرها حَرفُهُ ، ويضرب به المثل في القرب من الهلاك (١). وذكر ابن السكيت أنه يقال للرجل عند موته ، وللقمر عند امّحاقه ، وللشمس عند غروبها : مابقي من فلان إلاّ قليل ، وما بقي إلاّ شفا ، وكذلك مابقي من القمر إلاّ شَفَا ، وما بقي من الشمس إلاّ شفا» (٢) قال العجاج : (٣)

وَمَرْبَإٍ عالٍ لِمَنْ تَشَرَّفا   أَشْرَفْتُهُ قَبْلَ شَفاً أو بِشَفا

ويقال : أشاف على كذا وكذا ، يشيف إشافَة ، وأشفى يُشفي إشفاءً : إذا اشرف عليه ، ويقال : قد شاف الشيء يشوفه شوفاً : إذا جلاه (٤). وحُكي : أشفني عَسَلاً ، أي : اجعله لي شِفاءً ، وقد شفيتُه مما به أشفيه شفاء (٥) .

والملاحظ انّ لهذه المادة دلالة ضدية ، وهي نوع من الانتقال المجازي للتفاؤل فالأصل : القرب من الهلاك، ثم انتقل بها إلى الدلالة على البرء والسلامة. والقرآن الكريم قد استعمل الدلالتين المذكورتين .

فمن الأولى : قوله — تعالى — : (وكُنتم على شَفا حُفْرة منَ النار فأنقذَكُمْ منها) (٦) .

ومن الثانية : قوله : (ويَشف صدورَ قَوم مُؤمنين) (٧) .

(١) المفردات : ٢٦٤ .
(٢) إصلاح المنطق : ٤٠٩ .
(٣) ديوانه : القصيدة : ٤٤ ، البيت : ٢٦ ، ٢٧ ، ص:٤٩٣، وينظر: إصلاح المنطق : ٤٠٩ //الصحاح : ٦/٢٣٩٣ وفيه : بلا شفا .
(٤) إصلاح المنطق : ٢٥٩ ، وينظر : الصحاح : ٦/٢٣٩٤ .
(٥) م.ن : ٢٧٠ ، وينظر : الصحاح : ٦/٢٣٩٤ .
(٦) آل عمران — ١٠٣ .
(٧) التوبة : من الاية ١٤ .

إنّ النصر الذي ناله المؤمنون في الدنيا قد بشر به. الله — سبحانه وتعالى — وأكد دفاعه عن المؤمنين منذ اللحظة الأولى من المواجهة المسلحة بين معسكر الإسلام ومعسكر الشرك ، فقال: ﴿إنّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الذينَ آمَنوا إنّ اللهَ لا يُحبُّ كلَّ خوّانٍ كفور. أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإنّ اللهَ على نَصرِهِم لقدير﴾ (١) .

— فما دلالة لفظ « يدافع » في هذه الآية ؟ :

ولجذر (د ، ف ، ع) في اللغة دلالات حسية . منها قولهم : الدُّفعةُ من المطر وغيره ... مثل الدَّفْقَة ، والدَّفْقَةُ بالفتح : المرة الواحدة ... والدّافع : الشاة او الناقة التي تدفع اللبأ في ضرعها قبيل النتاج (٢) .

وبعير مدفع كريم على أهله إذا قَرَّبَ للحمل رد ضَنّاً به،قال ذوالرمة(٣)

وَقَرَّبْنَ للأظْعانِ في كُلِّ مُدْفَعٍ مِنَ البُزْلِ يوفي بالحويّة غاربُه

والمدفع : واحد مدافع المياه التي تجري فيها .. والدُّفّاع بالضم والتشديد: السيل العظيم. (٤) وتدافع السيل . قال زهير : (٥)

إليكَ منَ الغَوْرِ اليَماني تَدافَعَتْ يَداها وَنِسْعا غَرْضِها قَلِقانِ

وهذه الدلالات ترتبط بمعاني الخير والخصب .

ومن دلالات المادة السرعة ، يقال : دفعت الرجل فاندفع ، واندفع الفرسُ أي : أسرع في سيره (٦) .

---

(١) الحج — ٣٨-٣٩ .
(٢) الصحاح : ١٢٠٨/٣ .
(٣) ديوان شعر ذي الرمة ، تح/كارليل : القصيدة :٥، البيت ، ١٧ ، ص٤٢ ، وينظر : أساس البلاغة : ١٩٠ .
(٤) الصحاح : ١٢٠٨/٣ .
(٥) شرح ديوان زهير : القصيدة : ٥٠ ، البيت : ١٢، ص٣٦٢، وينظر: أساس البلاغة ١٩٠ .
(٦) الصحاح : ١٢٠٨/٣ .

«والدفع إذا عُدّي بإلى اقتضى معنى : الإنالة ، نحو قوله ـ تعالى ـ : (فَادْفَعوا إلَيْهِمْ أمْوالَهُمْ ، (1) وإذا عدّى بعَنْ اقتضى معنى : الحماية»(2) نحو قوله : (إنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الّذينَ آمَنوا)، (3) وهذه الدلالة لاتنفك عن معناها الحسيّ بما فيه من السرعة والخير ، إذ النصر خير من عند الله، وللمؤمنين أنْ يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إيّاهم وهم يجاهدون في سبيله .



---

(1) ألنساء – ٦ .
(2) المفردات : ١٧٠ .
(3) الحج – ٣٨ .

المصادر والمراجع

١ ــ الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، القاهرة ١٩٥١ .

٢ ــ أدب الكاتب ، ابن قتيبة ، تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، القاهرة ١٩٦٣ .

٣ ــ أساس البلاغة ، الزمخشري ، بيروت ١٩٦٥ .

٤ ــ الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، مقاتل بن سليمان ، تحقيق الدكتور عبدالله محمود شحاتة ، القاهرة ١٩٧٥ .

٥ ــ الاشتقاق ، ابن دريد ، تحقيق عبدالسلام هارون ، بغداد ١٩٧٩ .

٦ ــ إشتقاق أسماء الله ، الزجاجي ، تحقيق الدكتور عبدالحسين المبارك ، النجف الأشرف ١٩٧٤ .

٧ ــ إصلاح المنطق ، إبن السكيت ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٧٠ .

٨ ــ الاعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، محمود السيد حسن مصطفى ، الاسكندرية ١٩٨١ .

٩ ــ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، القاهرة ١٩٦١ .

١٠ ــ الأفعال ، ابن القوطية ، تحقيق علي فودة ، القاهرة ١٩٥٢ .

١١ ــ أمالي الزجاجي ، الزجاجي ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٣٨٢هـ .

١٢ ــ أمالي المرتضى ، غرر الفوائد ودرر القلائد ، الشريف المرتضى ، القاهرة ١٩٥٤ .

١٣ ــ البحر المحيط ، أبو حيان الاندلسي ، القاهرة ١٣٢٨هـ .

١٤ — بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مجدالدين الفيروزآبادي ، ج ١ — ٤ ، تحقيق محمد علي النجار ، القاهرة ١٩٦٤ ، ج ٥ — ٦ تحقيق عبدالعليم الطحاوي ، القاهرة ١٩٧٠ ، ١٩٧٣ .
١٥ — التصاريف ، تفسير القرآن مما اشتبهت اسماؤه وتصرفت معانيه — يحيى بن سلام ، تحقيق هند شلبي ، تونس ١٩٨٠ .
١٦ — تصحيح الفصيح ، ابن درستويه ، تحقيق الدكتور عبدالله الجبوري ، بغداد ١٩٧٥ .
١٧ — التطور النحوي للغة العربية — محاضرات ألقاها برجشتراسر في الجامعة المصرية ١٩٢٩ ، ترجمة الدكتور رمضان عبدالتواب ، الرياض ١٩٨٢ .
١٨ — التفسير الكبير ، فخرالدين الرازي ، صورة لطبعة طهران (د.ت) .
١٩ — تفسير مجاهد ، تحقيق عبدالرحمن الطاهر بن محمد السورتي ، قطر ١٩٧٦ .
٢٠ — تفسير النسفي المسمى : مدار التنزيل وحقائق التأويل ، القاهرة (د . ت) .
٢١ — تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشريف الرضي ، بغداد ١٩٥٥ .
٢٢ — تنزيه القرآن عن المطاعن ، القاضي عبدالجبار المعتزلي ، بيروت (د. ت) .
٢٣ — جامع البيان في تفسير القرآن ، الطبري ، بيروت ١٩٧٨ .
٢٤ — الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني وآخرين ، بيروت ١٩٦٧ .
٢٥ — جواهر الحسان في تفسير القرآن ، عبدالرحمن بن محمد الثعالبي ، المعروف بتفسير الثعالبي ، بيروت (د . ت) .

٢٦ - الجنى الداني في حروف المعاني ، حسن بن القاسم المرادي ؛ تحقيق طه محسن ؛ الموصل ١٩٧٦ .

٢٧ - حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، الشريف الرضي ، شرح محمد الرضا آل كاشف الغطاء ، النجف ٢٩٣٦ .

٢٨ - دلائل الاعجاز في علم المعاني ، عبدالقاهر الجرجاني ، تصحيح الإمام محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ؛ وتعليق محمد رشيد رضا ، بيروت ١٩٨١ .

٢٩ - ديوان أبي الهندي وأخباره ، صنعة عبدالله الجبوري ، النجف الاشرف ١٩٧٠ .

٣٠ - ديوان الأخطل ، برواية أبي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي عن أبي سعيد السكري عن محمد بن حبيب عن ابن الاعرابي ، بعناية الأب انطوان صالحاني اليسوعي ، بيروت (د. ت) .

٣١ - ديوان الأعشى الكبير ، شرح الدكتور محمد محمد حسين ؛ القاهرة ١٩٥٠ .

٣٢ - ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، لندن ١٩٧٠ .

٣٣ - ديوان الحطيئة ، برواية ابن حبيب عن ابن الاعرابي وأبي عمرو الشيباني ، شرح ابي سعيد السكري ، بيروت ١٩٦٧ .

٣٤ - ديوان الحطيئة ، بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني ، تحقيق نعمان امين طه ، القاهرة (د. ت) .

٣٥ - ديوان شعر ذي الرمة ، بعناية كارليل هنري هيس ، كمبردج ١٩١٩ .

٣٦ - ديوان طرفة بن العبد ، بيروت ١٩٦٠ .

٣٧ - ديوان العجاج ، رواية عبدالملك بن قُريب الاصمعي ، تحقيق الدكتور عزت حسن ، بيروت ١٩٧١ .

٣٨ ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، بيروت ١٩٦٦ .
٣٩ ـ ديوان الهذليين ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٥.
٤٠ ـ زاد المسير في علم التفسير ، أبو الفرج ابن الجوزي ، دمشق ١٩٦٤.
٤١ ـ الزاهر في معاني كلمات الناس ، ابن الانباري ، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن ، بغداد ١٩٧٩ .
٤٢ ـ سؤلات نافع بن الأزرق ، ضمن كتاب : الاتقان للسيوطي ، القاهرة ١٩٥١ .
٤٣ ـ شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ، صنعة أبي العباس أحمد بن يحيى ابن يزيد الشيباني ، ثعلب ، القاهرة ١٩٦٤ .
٤٤ ـ الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية ـ الجوهري ، تحقيق احمد عبدالغفور عطار ، بيروت ١٩٨٤ .
٤٥ ـ الطبيعة في القرآن الكريم ، الدكتور كاصد ياسر الزيدي . بغداد ١٩٨٠
٤٦ ـ العربية بين امسها وحاضرها ، الدكتور ابراهيم السامرائي . بغداد ١٩٧٨ .
٤٧ ـ الفاضل ، المبرد، تحقيق عبدالعزيز الميمني ، القاهرة ١٩٥٦ .
٤٨ ـ الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، تحقيق حسام‌الدين القدسي ، بيروت ١٩٨١ .
٤٩ ـ الفعل زمانه وأبنيته ، الدكتور ابراهيم السامرائي ، بغداد ١٩٦٦ .
٥٠ ـ فقه اللغة وسر العربية ، الثعالبي ، تحقيق مصطفى السقا ، وآخرين. القاهرة ١٩٧٢ .
٥١ ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، بيروت ١٩٦٧ .
٥٢ ـ في النحو العربي ، مهدي المخزومي ، بيروت ١٩٦٤ .

٥٣ ـ القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، نشر محمد عبداللطيف الخطيب ، القاهرة (د . ت) .

٥٤ ـ كتاب الفرق ، ثابت بن ابي ثابت ، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن ، مجلة المورد ، المجلد الثالث عشر ، العدد الاول ، بغداد ١٩٨٤ .

٥٥ ـ كتاب القرطين أو كتابا : مشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة ، ابن مطرف الكناني القرطبي ، القاهرة ١٣٥٥هـ .

٥٦ ـ كتاب الموطأ ، مالك بن أنس ، تقديم فاروق سعد ، بيروت ١٩٧٩ .

٥٧ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الآقاويل في وجوه التأويل ، الزمخشري ، طهران (د . ت) .

٥٨ ـ كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر ، ابن العماد ، تحقيق الدكتور فؤاد عبدالمنعم احمد ، تقديم ومراجعة الدكتور محمد سليمان داود ، الاسكندرية ١٩٧٧ .

٥٩ ـ كنز الحفاظ من كتاب تهذيب الالفاظ ، ابن السكيت ، ضبط الاب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ١٩٨٥ .

٦٠ ـ لباب النقول في أسباب النزول ، السيوطي ، تونس ١٩٨٤ .

٦١ ـ لسان العرب ، ابن منظور ، بيروت ١٩٥٦ .

٦٢ ـ متشابه القرآن ، القاضي عبدالجبار المعتزلي ، تحقيق الدكتور عدنان محمد زرزور ، القاهرة ١٩٦٩ .

٦٣ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الاثير ، ج ١ ـ ٢ ، تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، القاهرة ١٩٣٩ ، ج ٣ ـ ٤ تحقيق الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي بطانة ، القاهرة ١٩٦٢ .

٦٤ – المحيط في اللغة ، الصاحب بن عباد ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، بغداد ١٩٨١ .

٦٥ – مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، النسفي ، القاهرة (د . ت) .

٦٦ – المستقصى في امثال العرب ، الزمخشري ، حيدرآباد ، ١٩٦٢ .

٦٧ – المصطلح اللغوي في القرآن الكريم ، الدكتور محيي الدين توفيق ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الرابع ، العدد السابع والثلاثون ، بغداد ١٩٨٦ .

٦٨ – معاني الأبنية في العربية ، الدكتور فاضل السامرائي ، بغداد ١٩٨١ .

٦٩ – معاني القرآن ، الفراء ، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي ، بيروت ١٩٨٣ .

٧٠ – معجم الأفعال المتعدية واللازمة ، الدكتور هاشم طه شلاش ، مجلة المورد ، المجلد الثالث عشر ، العدد الثاني ، بغداد ١٩٨٤ .

٧١ – معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٧٠ ، بيروت ١٩٧٩ .

٧٢ – مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الانصاري ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة (د . ت) .

٧٣ – المفردات في غريب القرآن ، الراغب الاصفهاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، بيروت (د . ت) .

٧٤ – منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، ابن الجوزي ، تحقيق محمد السيد الصفطاوي ، الدكتور فؤاد عبدالمنعم أحمد ، الاسكندرية (د . ت) .

٧٥ – المنجّد في اللغة ، كراع الهنائي ، تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر وضاحي عبدالقادر ، القاهرة ١٩٦٧ .

(مجالس المنصور بن ابي عامر واثرها في الشعر بقرطبة)

الدكتور حلمي ابراهيم عبدالفتاح الكيلاني
بجامعة مؤتة*

ملخص

يتناول هذا البحث مجالس المنصور بن ابي عامر واثرها في الشعر الأندلسي آنذاك ، إذ كانت مسرحاً من اكبر مسارح الأفكار ، ومظهراً بارزاً من مظاهر الحياتين العقلية والاجتماعية مثلما كانت عاملا من اقوى العوامل التي أسهمت في تنشيط الحركة الأدبية والفكرية عامة ، والشعرية خاصة ، اذ فتحت امام الشعراء ابواباً واسعة من التامل والتخيل ، وأمدتهم بموضوعات جديدة للقول والإبداع .

وتكمن اهمية هذا البحث في انه عرفنا إلى اهتمام المنصور بن ابي عامر بالشعر والشعراء وإلى مقاييسه في الحكم عليهم من ناحية ، وإلى طبيعة حياته الخاصة وميله إلى اللهو حينما يتاح له ذلك من ناحية اخرى . يضاف إلى هذا كله أنّ مجالس الأدب واللهو كانت صورة صادقة من حياة الطبقة الحاكمة في الأندلس .

(*) أستاذ مساعد بكلية الآداب / قسم اللغة العربية . دكتوراه أدب عربي ، الجامعة الأردنية ١٩٨٨م .

توطئة :

كانت مجالس المنصور بن ابي عامر (١) بقرطبة من ابرز مظاهر النشاط الأدبي والفكري ، مثلما كانت مظهراً بارزاً من مظاهر الحياتين الاجتماعية والحضارية فيها ، ذلك لأن المنصور بن ابي عامر الذي تولى الحكم بقرطبة بعد ان حجر على الخليفة الأموي الصغير هشام المؤيد واستبد بالسلطة دونه ، كان محباً للشعر والشعراء مكرماً لهم . يقول الحميدي : ((... وكان المنصور محباً للعلم ، مؤثراً للأدب مفرطاً في اكرام من ينتسب اليه ، ويفد اليه متوسلا بهما بحسب حظه منهما ، وطلبه لهما ، ومشاركته فيهما)) (٢) .

ولذا ، فقد قصده الشعراء والأدباء من كل حدب وصوب لما سمعوه عن حبه وتقديره لهم ، حتى غدا بلاطه ندوة ادبية وفكرية من الطراز الأول ، إذ كان غاصاً برجال الأدب والفكر ، الذين عملوا على تحقيق هذا المظهر الأدبي الرفيع من مظاهر الأبهة والترف الفكري بما كانوا يقومون به في مجالس المنصور من مناظرات ادبية ، ومساجلات وتطارح للأفكار والأشعار.

ومن مظاهر اهتمام المنصور بالشعر والشعراء وعنايته بهم ذلك المجلس الادبي الاسبوعي الذي اقامه في قصره ، وكان يحرص على حضوره والمشاركة فيه على الرغم من مشاغله السياسية الجمة ، وانشغاله بمحاربة نصارى الشمال لكي يؤمن حدود الدولة الإسلامية آنذاك . يقول الحميدي : «... وكان له مجلس معروف في الاسبوع يجتمع فيه اهل العلوم للكلام فيها بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة» (٣) .

ومنها ايضاً انه اسند مهمة الإشراف على مجلسه الرسمي الذي اقامه للشعراء إلى شخصية ادبية مرموقة ، عرفت بتميزها في ميداني الأدب والنقد بالأندلس الا وهو عبدالله بن محمد بن مسلمة الذي كان كما يصفه الحميدي : «... من

اهل العلم والأدب ، وناقداً من نقاد الشعر ، وكان رئيساً جليلا في ايام المنصور بن ابي عامر ملك الأندلس . وفي ديوانه كان زمام الشعراء في تلك الدولة ، وعلى يديه كانت تخرج صلاتهم ورسومهم ، وعلى ترتيبه كانت تجري امورهم» (٤) .

ومع اعترافنا بحب المنصور بن أبي عامر للشعر والشعراء وعنايته بهم من ناحية ، وتذوقه الشعر ومكافأته عليه من ناحية اخرى ، الا اننا مع ذلك كله نرى ان هناك دوافع اخرى ربما كانت تكمن وراء اهتمامه الزائد بالشعر والشعراء وعنايته بهم ومنها : رغبته في السلطة والتفوق السياسي والحضاري على بني أميّة الذين كانوا كذلك مشغوفين بمجالسة العلماء والأدباء ، وبمظاهر الترف الحضاري ، وخاصة بعد ان استولى على السلطة وحجر على الخليفة الأُموي الصغير هشام المؤيد ، فقرب منه الشعراء ، واستعان بهم لكي يكونوا عوناً له في شؤون دولته من ناحية ، ووسيلة من وسائله الدعائية من ناحية اخرى ، إذ ادرك بحنكته وفطنته دور الشعر والشعراء في التوجيه السياسي والاجتماعي ، وتكوين الرأي العام الذي من شأنه ان يكسبه ثقة الرعية ويقدمه لها بصورة مثلى . يقول الأستاذ علي ادهم : «... وكان المنصور يقدر قيمة الكتّاب والشعراء بوجه خاص من الناحية السياسية والوجهة الاجتماعية ، ويعرف اثرهم البعيد في تكوين الرأي العام وتوجيه الأفكار ، ولفت الأنظار ، واكتساب الشهرة ، وتوطيد المكانة . وكان هذا هو اكبر البواعث عند هذا السياسي الداهية إلى تقريبهم والعناية بهم واجتذابهم إلى صفه لاستغلال ملكاتهم في بناء مجده ، وتحقيق اهدافه» (٥) .

ومنها ايضاً ان المنصور كان يسعى من وراء ذلك كله إلى ان يجمع حوله الكتاب والشعراء ، لكي يحول انظارهم اليه ، ويشغلهم عن أُمراء بني أُمية ،

فيكونوا السنة تلهج بذكره وتتغنى بمآثره وأعماله . ويكفينا للتدليل على ذلك ان نورد حديث ابن بسام في ترجمة صاعد البغدادي (٦) ، وذلك إذ يقول : «... وكان طالع على آفاق الجزيرة في ايام المنصور محمد بن ابي عامر نجماً من المشرق غرب، ولساناً عن العرب اغرب، أبده من رأى وسمع ، واذكى من طار ووقع . فأراد المنصور ان يعفي به آثار ابي علي البغدادي الوافد على بني أمية قبله» (٧) .

وربما اراد المنصور من وراء ذلك كله ان يجعل من قصره صورة عن قصور خلفاء المشرق من ناحية ، وقصور أمراء بني أمية من ناحية اخرى ، لكي يتوافر له ما توافر لهم من مظاهر الترف الأدبي والفكري ، اذ هي صورة من صور الترف والأبهة التي يحرص عليها الحكام . ذلك لأن الأمير او الحاكم الذي ينفصل عن قاعدته يجتهد في منافسة اصله الذي استقل عنه (٨) ، وخاصة في المجالات والميادين التي عرف بها .

ولذا ، فقد اولى المنصور الشعر والشعراء في قصره عناية خاصة ، وعمل على تشجيعهم من الناحيتين : المادية والمعنوية ، فأغدق عليهم الاموال الطائلة (٩) ، واسند اليهم المناصب الرفيعة في دولته ، لكي ينافحوا عنها ، ويكونوا عوناً له في تحقيق مآربه وأهدافه .

ومن اجل ذلك ، فقد كان حريصاً على ان يجمع حوله النابهين من الأدباء عامة ، والشعراء خاصة ، إذ كان متشدداً في قبولهم في محافله الأدبية وديوان شعره ، ولا يسمح لأي منهم أن يصل إلى مجلسه ومنادمته الا إذا اجتاز اختباراً بل اختبارات قاسية تكشف عن تمكنه من ادوات فنه الشعري من جهة ؛ وعن ذكائه وسرعة بداهته من جهة أخرى ، حتى يطمئن اليه ، ويضمن موهبته الشعرية التي سيقطف ثمارها فيما بعد .

ومن هنا ، فإنَّ الناظر فيما وصلنا من اخبار المنصور بن ابي عامر ومجالسه الأدبية ، يلحظ ان الأدباء والشعراء هم فرسانها المتسابقون في حلبتها ، إذ كانوا يتساجلون القول ، ويتناظرون في شتى المسائل ، ويتناشدون الشعر . فعملوا بذلك كله على تنشيط الحركة الفكرية والثقافية، وهيأوا الجو المناسب لقيام مثل هذه المجالس التي كانت من اكبر مسارح الأفكار ، وافخم مظاهر الجمال ، ومظهراً بارزاً من مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية معاً (١٠) .

انواعها :

اولا : المجالس الرسمية :

وهي المجالس التي كان المنصور بن ابي عامر يعقدها في قصره بصفة دورية اسبوعية ، ويدعو اليها كبار رجال دولته وخاصة ندماءه الذين كانوا ما بين اديب وشاعر من امثال : الزبيدي (١١) ، وابن العريف (١٢) ، والطبني (١٣) ، وابن ابي الحباب (١٤) ، والعاصمي (١٥) ، وابن شهيد (١٦) ، وابن حزم (١٧) ، والجزيري (١٨) ، والقائد يعلى (١٩) ، وغيرهم (٢٠) . وذلك من اجل مقابلة الشعراء الوافدين الجدد واختيار النابهين منهم لمجالسته من ناحية ، ومناقشتهم في مسائل الأدب واللغة من ناحية اخرى ، إذ كان المنصور قبل ان يلحق الشعراء في مجلسه ، ويستخدمهم في بلاطه ، يجري لهم اختبارات مختلفة متنوعة اساس النجاح فيها يقوم على سرعة البداهة والارتجال من جهة ، وجودة الإبداع والابتكار من جهة اخرى .

وقد كان المنصور هو صاحب المبادرة في ادارة هذه المجالس ، ومناقشة الشعراء الوافدين والاستماع اليهم ، وخاصة حينما كانت التهم والشكوك تثار حولهم من قبل منافسيهم في مجلس المنصور الذي كانوا يعملون على إبعاد كل وافد جديد عنه حتى يخلو لهم الجو .

ولذا ، فقد كان المنصور حريصاً على ان يسمع الشعراء الوافدين ، لكي يتأكد من صدق التهم المنسوبة اليهم ،او عدمها ، وذلك بحضور من ينافسونهم من اعضاء مجلسه ، او من رموهم بالسرقة والانتحال منهم ، حتى يجعل الشاعر المتهم يقدم اجود ما عنده من ناحية ، ويكون الاختبار بحضور علماء مجلسه وادبائه محبوكاً حبكاً دقيقاً من ناحية اخرى .

واما الاختبار نفسه ، فغالباً ما كان يدور حول وصف شيء من موجودات المجلس من اثاث او فاكهة او زهر او اي شيء آخر كان قد أُعد إعداداً مسبقاً لهذه الغاية من قبل المنصور واعوانه ، ثم يفاجأ الشاعر الوافد – حينما يدخل المجلس – بالمنصور نفسه يقترح عليه ان يرتجل مقطوعة او قصيدة تتعلق بمادة الاختبار . واذا ما اجتازه الشاعر ببراعة ، واحسن الوصف والتصوير الذي ينم عن ارتجال مبتكر، سُجل في الديوان ، وغدا شاعراً رسمياً ، وانثالت عليه الصلات والأعطيات (٢١) .

ويكفينا للتدليل على ذلك أن نورد الاختبار الذي أعده المنصور لأديبين مشهورين كانا قد وفدا عليه ، وهما : صاعد البغدادي ،وابن دراج القسطلي أمّا صاعد ، فقد حدثنا ابن بسام عن طبيعة الاختبار الذي أعد له إثر ماأثير حوله من التهم، وما وجه إليه من مطاعن نالت من موهبته الشعرية ، وذلك إذ يقول : ((... فلمّا أصبح (المنصور) وجه عنه بمجلس حفل . وقد أعدّ طبقاً فيه سقائف من ضروب النواوير : ووضع على السقائف جواري ياسمين. وتحت السقائف بركة ماء حصاها اللؤلؤ ، وكان في البركة حيّة تسبح .فلمّا دخل صاعد مثل الطبق بين يديه ، فقال له المنصور : إنّ هذا يوم إمّا أن تسعد فيه معنا ، وإمّا بالضدّ عندنا ،لأنّه قد زعم قوم أنّ كلّ ماتأتي به دعوى ، وقد وقعت من ذلك على حقيقة . وهذا طبق ماتوهمت أنّه مُثّل بين يدي ملك قبلي في شكله ، فصفه بجميع مافيه . فقال صاعد بديهة :

أبا عامرٍ هل غير جَدواك واكفٌ ... وهل غيرُ من عاداك في الأرض خائفُ
يسوق إليك الدهر كلَّ عجيبةٍ ... وأعجبُ مايلقاه عندك واصفُ
وشائعُ نَوْرٍ صاغها هامرُ الحَيا ... عليها فمنها عَبْقَرٌ ورفارفُ
ولمّاتنا هي الحُسْنُ فيها تَقابلت ... عليها بأنواع الملاهي الوصائفُ
كمثل الظِّباء المستكنَّة كُنَّساً ... تُظلّلها بالياسمين السّقائفُ
وأعجبُ منها أنَّهنَّ نواظرٌ ... إلى بركة ضُمّت إليها الطّرائفُ
حصاها اللآلي سابحٌ في عُبابها ... من الرُّقش مسموم اللّعابين زاحفُ
ترى ماتشاء العيْنَين في جَنَباتها ... من الوَحش حتى بينهنَّ السلاحفُ(٢٢)

هذا ومع أنَّ المادة المعروضة للوصف ـ كما نرى ـ كانت مركبة شائكة ، إلاَّ أنَّ صاعداً استطاع بما أوتي من حسٍّ دقيق ، ومقدرة فائقة على التصوير والإبداع أن يقدّم لنا وصفاً دقيقاً مرتجلاً أعمل فيه كلُّ حواسه ، وسخّر له كلَّ مالديه من طاقات فنّية جعلته يفرض نفسه وشاعريته على الحاضرين بمن فيهم المنصور الذي عبّر عن إعجابه بما صدر عن صاعد . وهذه مقدرة لاتتأتى إلاَّ لشاعر متمكّن من أدوات فنه الشعري، كيف لا وهو يريد أن يدفع عنه التهم الموجهة إليه من ناحية ، وأن يرسّخ أقدامه في بلاط المنصور من ناحية أُخرى ؟ وفي هذا يقول ابن بسّام : ((...فاستغربت له يومئذ تلك البديهة ، وكتبها المنصور بخطّه . وكان إلى ناحية سقيفة فيها جارية تجذّف بمجاذيف ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور أجدت إلاَّ أنك لم تصف هذه الجارية . فقال :

وأعجَبْ منها غادةٌ في سفينةٍ ... مُكلّلةٌ تصبو إليها المهايفُ
إذا راعها موْجٌ من الماء تتّقي ... بسكّانها ماأنذرتْهُ العواصفُ
متى كانت الحسناءُ رُبّان مركبٍ ... تُصرِّفُ في يُمنى يديها المجاذفُ
فلم ترَ عيني في البلاد حديقةً ... تُنَقّلها في الرّاحتين المناصِفُ))(٢٣)

وأمّا الاختبار الذي أعدّه المنصور أيضاً لابن درّاج القسطلي لبتأكد من شاعريته وصدق موهبته الشعرية. وخاصة بعد أن اتّهمه من بمجلس المنصور بالسرقة والانتحال إثر القصيدة التي رفعها إليه مادحاً ومطلعها (٢٤).

أضاء لها فجرُ النُّهى فنهاهـــا عن الدَّنف المُضني بحرِّ هواهـــا

فقد أشار اليه الحميدي في معرض حديثه عن قصيدة ابن درّاج التي تقدم ذكرها ، وذلك إذ يقول : (... وهي طويلة مستحسنة، فساء الظنّ بجودة ماأتى به من الشعر ، واتّهم فيه ... فسي به إلى المنصور وأنّه منتحل سارق لايستحق أن يثبت في ديوان العطاء فاستحضره المنصور عشي يوم الخميس لثلاث من شوال سنة (٣٨٢) ، واختبره ، واقترح عليه فبرز وسبق ، وزالت التهمة عنه ، وأجرى عليه الرزق ، وأثبته في جملة الشعراء) (٢٥) .

ولكنّ الحميدي لم يذكر لنا تفاصيل ذلك الاختبار ، ولم يحدثنا عن طبيعة المادة التي أعدّها المنصور لاختبار ابن درّاج. وقد ذهب الأستاذ محمود مكّي (٢٦) إلى أنّ الاختبار الذي أعدّه المنصور لاختبار ابن درّاج كان يدور حول وصف طبق تفاح احيط بأزهار البهار . ولكنني مع ذلك لم اظفر برواية فيما توافر لي من كتب الأدب والتراجم تؤيد ما ذهب اليه الأستاذ مكّي ، كما انني لم اجد في ديوان ابن دراج اية اشارة الى ذلك ، اللهمّ الاّ الأبيات التي اوردها جامع الديوان ، وقد قدم لها بقوله «وله ايضاً في المنصور إبن ابي عامر رحمهما الله ، ولها قصة طويلة» (٢٧) ، ثم اورد الأبيات التالية :

يا حبـذا خجـل التفاح في طبق مُنضّد بجني الـزهـر مُتّسـق
فيـه عيونُ بَهار قـد احطن به نواظراً بجُفُون العـاشـق الأرق
كأن ما احمـرّ من تفاحه خجلاً بدرٌ بدا قطعاً من حُمرة الشفق
في مجلس الملك المنصور يـانعـة كأنما غُذيت من جوده الغـدق

ومع ذلك كله يظل الأمر قائماً على التقدير والاستنتاج ، وبحاجة إلى دليل قاطع على ان الأبيات السابقة في مادة الاختبار التي اكدت للمنصور سرعة بداهة ابن دراج ومقدرته على الوصف المرتجل. وإنْ كنا نلمح فيها طابع ما يُمتحن فيه الشعراء في مجالس المنصور وغيرها .

ومهما يكن من امر ، فإنّ مصير الشاعر ووجوده في بلاط المنصور بل في دولته كان مرهوناً باجتياز اختباره من ناحية ، وبمقدرته على الوصف المرتجل من ناحية أخرى . ولذا ، فإنّ الشعراء كانوا يعبّرون عن فرحتهم ونشوتهم حينما كانوا يجتازون ذلك الاختبار ، ويكسبون ثقة المنصور ، ويصبحون شعراء رسميين في مجلسه . وذلك على نحو ما نرى في قول صاعد البغدادي معبّراً عن نشوته بالظفر والانتصار إثر نيله إعجاب المنصور ، وذلك إذ يقول (٢٨) :

فأنت امرؤ لو رمت نقل متالعٍ ... ورضوى ذرّتها من سُطاك العواصفُ
إذا قلت قولا او بدهت بديهة ... فكلني لها إني لمجدك واصِفُ

وعلى نحو ما نرى في قول ابن دراج ايضاً مشيراً إلى الاختبار الذي عقد له في مجلس المنصور ، متغنياً بظفره وبإجادته الارتجال ،وذلك إذ يقول (٢٩):

يأبى لك الله إلاّ ان تنوز بها ... خيراً ثواباً وخيراً عنده عُقُبا
أياديا إنْ اكن مخصوص نصرتها ... فقد عَممت بهنّ العلم والأدبا
وانعما اكسبتني عز مفخرها ... وغادرت كاشحي رهناً بما كسبا
فإن يقع جهد شكري دونهنّ فقد ... اوجبن من حسن ظنّي فوق ما وجبا
من بعد ما اضرم الواشون جاحمة ... كانت ضلوعي واحشائي لها حطبا
ودسسوا في مثنى حبائلهم ... شنعاء بتّ بها حرّان مكتئبا
حتى هُزِزت فلا زند القريض كبا ... فيما لدي ولا سيف البديه نبا
واشرقت شاهدات الحق تنشر لي ... نوراً غدت فيه اقوال الوشاة هبا .

ومهما يكن من امر ، فإن اختبارات المنصور لبدائه شعرائه لم تكن تقتصر على الاختبار الأول الذي كان يعقده لهم إثر ما يلصق بهم من تهم تتعلق بشاعريتهم ومواهبهم . وإنما كان يحاول ان يختبرهم في غير مرة ، لكي يتأكد من صدق بداهتهم من ناحية ، ويجعلهم في تيقظ دائم ودربة مستمرة تعمل على صقل مواهبهم وتنميتها ، وتحملهم على الإبداع الذي سيقطف ثماره فيما بعد من ناحية أخرى . وقد تمثّل ذلك في امرين كان المنصور يحرص عليهما حرصاً كبيراً وهي : المساجلات والمناظرات والمعارضات.

١ – المساجلات والمناظرات :

أمّا المساجلات والمناظرات الأدبية واللغوية التي كان المنصور بن ابي عامر يعقدها في قصوره ومجالسه الرسمية ، فقد كانت هي ايضاً من ابرز مظاهر النشاط الأدبي والفكري في الأندلس عامة، وقرطبة خاصة ، إذ كان المنصور حينما يفد عليه شاعر جديد ويجتاز اختباره الأول يوحي إلى ندماء مجلسه المختصين فيما يدّعي الوافد علمه ومعرفته ان يجتمعوا في مجلسه لكي يناقشوه فيما يدّعي علمه ، ويكشفوا عن صدق موهبته او عدمه .

وحتى يعمل المنصور على إثارة المنافسة فيما بينهم ، ويتأكد من مواهب الأدباء الوافدين، كان يحرص حرصاً واضحاً على ان يشهد مثل هذه المجالس من ناحية ، وان يشهدها من كانوا ينافسون الوافد او يعترضون عليه من أدباء مجلسه ونقاده من ناحية أخرى .

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك تلك المساجلة التي دارت ما بين العاصمي والزبيدي من جهة ، وصاعد البغدادي من جهة أُخرى حينما استقر به المقام في مجلس المنصور ، وادعى إنّه يجمع في حوزته معارف متعددة متنوعة فيما يذكر ابن بسام ، وذلك إذ يقول : «اجتمع عند المنصور بن ابي عامر اعيان

الأوان كالزبيدي والعاصمي وابن العريف ومن سواهم ، فقال لهم المنصور: هذا الرجل الوافد علينا صاعد يزعم إنّه متقدم في هذه الآداب التي انتسم سرجها ، واهلتها السارية. واحب ان يمتحن ما عنده . فوجه اليه ، ودخل والمجلس قد احتفل فخجل ،فرفع المنصور مجلسه وآنسه ، وسأله عن ابي سعيد السيرافي ، فزعم إنّه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه . فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة في الكتاب فلم يحضره فيها من جواب . واعتذر أنّ النّحو ليس جلّ بضاعته ، ولا رأس صناعته ، فقال له الزبيدي : فما تحسن ايها الشيخ ؟ قال: حفظ الغريب . قال : فما وزن أوْلَق (٣٠) ؟ فضحك صاعد وقال : امثلي يسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب . قال الزبيدي : فقد سألناك ، ولا نشك أنّك تجهله . فتغيّر لونه وقال : (افعل) . قال الزبيدي: صاحبكم ممخرق ! قال له صاعد إخال الشيخ صناعته الأبنية . قال : أجل . قال صاعد : وبضاعتي انا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار ،وفك المعمّى ، وعلم الموسيقى . قال : فناظره ابن العريف فظهر عليه صاعد ، وجعل لا يجري في المجلس كلمة إلاّ أنشد عليها شعراً شاهداً، أو اتى بحكاية تجانسها؛ فازداد المنصور به عجبا» (٣١) .

وفيما سبق ما يدل دلالة واضحة على انّ صاعداً — على الرّغم من عدم توفيقه في علم اللغة والنحو — استطاع بذكائه وفطنته ان يلفت الأنظار اليه ، وأن يتخلص من هذا الاختبار العسير ، ومن هذا الموقف الصعب الذي وضعه فيه المنصور كما نرى — إذ حوّل الموقف إلى جانبه ، وانتقل من موقف المُمتَحَن المُهاجَم إلى موقف المُمْتَحِن المُهاجِم وخاصة بعد ان تغلب على منافسه ومعارضه الذي لا يُستهان بعمله ومعرفته ابن العريف . فاستطاع بذلك أن ينتزع إعجاب المنصور مرة أخرى ، وأن يحظى بثقته ورضاه من ناحية ،

وأن يثبت لمنافسيه ومعارضيه في مجلس المنصور أنّه متمكّن من ادوات فنّه من ناحية أخرى. يقول العاصمي: «.. ثم سألنا صاعد يوماً فقال: ما معنى قول امرىء القيس (٣٢)

كأنّ دماءَ الهادياتِ بنَحْرِهِ عُصارةُ حِنّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّلِ

فقلنا: هذا واضح، وإنما وصف فرساً اشهب عقرت عليه الوحش فتطاير دمها إلى صدره فجاء هكذا. فقال صاعد: سبحان الله! انسيتم قوله قبل هذا في صفته (٣٣):

كُميتٍ يزلُ اللبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ كما زَلّتِ الصفْواءُ بالمُتنزّلِ

قال: فبهتنا وكأنا لم نقرأ البيت قط. وقد اضطرنا إلى سؤاله. فقال: إنما عني احد وجهين: إما أنّه نضح صدره بالعرق وعرق الخيل ابيض، فجاء مع الدم كالشيب، وإما اشياء كانت العرب تصنعها وذلك انها كانت تسم باللبن الحار في صدر الخيل فيتمعط ذلك الشعر، وينبت كأنه شعر ابيض، فأيّاً ما علّق من الاحد الوجهين فالوصف مستقيم» (٣٤).

وحينما ادرك صاعد انّ منافسيه في بلاط المنصور فشلوا في إبعاده عن مجلسه، وأنّه تفوّق على ألدّ خصومه منهم، اخذ يناقشهم في مسائل اللغة والأدب، ويتحداهم بتفوقه عليهم في حضرة المنصور ابن ابي عامر، حتى يدحض عنه ما تناهى إلى مسامعه من طعن في مواهبه. ويؤكد له أنّه في مستوى علماء مجلسه الذين يختبرونه. يقول المراكشي: «... قال أبو عبدالله وحدثنا ابو محمد علي بن احمد قال: حدّثني ابو الخيار مسعود بن سليمان بن مغلب الفقيه أنّ ابا العلاء صاعداً سأل جماعة من اهل الأدب في مجلس المنصور بن ابي عامر عن قول الشماخ بن ضرار:

دار الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبية عطلا حسّانة الجيد
تُدني الحمامة منها وهي لاهية من يانع المرد قنوان العناقيد

فقالوا هي الحمامة تنزل على غصن الأريكة او الكرمة فتنفضه ، فتتمكن الظبية منهُ فترعاهُ . فأنكر ذلك عليهم وقال: إنّ الحمامة في هذا البيت هي المرآة ، وهو اسم من اسمائها فأراد أنّ هذه الجارية المشبّهة بالظبية إذا نظرت في المرآة ادنت المرآة منها في المنظر شعرها الذي هو كقنوان العناقيد من يانع الكرم او المرد فرأته» (٣٥) .

هذا وكثيراً ما كان المنصور نفسه في مجالسه الرسمية يفاجيء الشاعر الوافد على مجلسه ببعض المسائل او القضايا اللغوية التي قد يكون هو على علم بها ، ليتأكد من تمكنه ويختبره . ومن الأمثلة على ذلك ما يرويه لنا ابن بسام ، وذلك إذ يقول في معرض حديثه عن صاعد — «... وقال له المنصور يوماً ما الخنبشار ؟ قال حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقّدت محبّتها بقلبي كما عقَد الحليبُ بخنبشار » (٣٦)

ولكن هذا لا يعني في حالة من الاحوال انّ صاعداً قد وُفّق في جميع الاختبارات التي تعرّض لها في مجالس المنصور الرسمية التي اتّخذت طابع المساجلات والمناظرات كما تقدّم . وإنما كانت الذاكرة تسعفه حيناً ، وتخونه في احايين أُخرى ، ومع ذلك فإنّ سرعة بداهته وسعة حفظه من ناحية ، وخفة روحه ودعابته من ناحية أخرى كل ذلك جعله محبباً إلى المنصور مقرباً منه ، إذ كان يتجاوز عن بعض عثراته ، وينتصر له حتى يجنبه الإحراج ، يقول العاصمي النحوي : «... لمّا سألناه مراراً عن مسائل من النّحْو بحضرة المنصور فقصر فيها ، قال ابن ابي عامر : فإنّه من طبقتي في النّحْو أنا أُناظره» (٣٧) .

ومهما يكن من امر ، فإنّ هذه المناظرات والمساجلات عرفتنا إلى طرائق المنصور وافانينه في الكشف عن مواهب ادباء مجالسه وشعرائه من ناحية ، وإلى دقّة نظر صاعد في الأدب وسعة حفظه وثقافته من ناحية أُخرى . كما عرّفتنا إلى دور المنصور في تنشيط الدراسات اللغوية والأدبية .

٢ ــ المعارضات :

وأمّا المعارضات ، فهي طريقة أُخرى من طرائق المنصور بن ابي عامر التي استخدمها للكشف عن طاقات شعراء مجالسه واختبار مواهبهم إذ كان إضافة إلى حبّه الشعر والشعراء يحرص حرصاً كبيراً على صقل مواهبهم وتفتيح قرائحهم من ناحية، وعلى استثمار طاقاتهم الفنية وتسخيرها لخدمته من ناحية أُخرى .

ولذا فقد طلب إلى صاعد في احد مجالسه ان ينظم قصيدة على منوال قصيدة ابي نواس في مدح الخصيب التي مطلعها :

أجــارة بيتينــا ابـوك غيـور ... وميسور ما يرجى لديك عسيـر

ومع أنّ صاعداً اعتذر عن ذلك مدعياً اجلاله ابا نواس الا أنّ المنصور الحّ عليه (٣٨) فأنشده قصيدته التي مطلعها :

خـذالّ البُـرى إنّي بكنّ بصيرُ ... طوتكـن عنّـي خِلسةٌ وقتيـرُ

ومنها :

وباتـت كما باتت مهاةُ خميلـة ... لها جُؤذر عنـد الصراة عقيـرُ

وقـد اكلـت اشلاؤه فكأنّهـاً ... مُقسّمة عنـد القداح جزورُ

كما بغمَت من شجْوها أمٌّ واحد ... أُتيح لها مثلُ الزجاج طريـرُ

لدن غدوة حتى صفت شمس يومها ... وفي ابهريْها رنّة وزفيـرُ

تَسوف ثـراهُ عن مَشَقّ إهابه ... كأنّ اسابيّ الدماء عَتيـرُ (٣٩)

ولكنّ صاعداً اخفق في هذا الاختبار ايضاً ، ولم يوفق في هذه القصيدة التي لم تصل إلى مستوى قصيدة ابي نواس التي كان المنصور معجباً بها ايمّا إعجاب ، إذ جاءت معانيها سطحية ، وصورها تقليدية غير مبتكرة ، وكيف لا يكون ذلك وقد دفع صاعد إلى نظمها دفعاً ؟ يقول ابن بسام : «.. الا تراه كيف صرّح باليأس ، عن شق غبار ابي نواس ؟ ولكنّ ابن ابي عامر حمله على الخرر ، وعرّضه لسوء الخبر» (٤٠) .

ويبدو لي أنّ المنصور كان يعلم في قرارة نفسه أنّ صاعداً على الرّغم من موهبته وسرعة بداهه لا يستطيع ان يعارض قصيدة ابي نواس . ولكنّه اراد إضافة إلى اختباره ان يحرجه ،وان يعرفه حدود موهبته الشعرية ،وخاصة بعد ان أدرك كذبه وسرقاته . وهذا واضح في اصراره والحاحه الشديد على تلك المعارضة مع اعتذار صاعد وتصريحه بعدم معارضة ابي نواس ومجاراته. وربما كان يتوقع من صاعد ان ينجح في هذه المعارضة ، وأن ينظم فيه قصيدة على منوال قصيدة ابي نواس تخلد ذكره كما خلّد ابو نواس الخصيب اعتقاداً منه أن في بلاطه شعراء لا يقلون في موهبتهم ومقدرتهم عن مواهب وقدرات شعراء المشرق المشاهير من امثال ابي نواس وغيره .ولذا، فإنّه حينما ادرك عجز صاعد وتقصيره عن تحقيق رغبته في معارضة تلك القصيدة ، طلب إلى ابن دراج في مجلس آخر ان يعارض القصيدة نفسها ،فنظم قصيدته التي مطلعها (٤١) :

دعـي عزمات المُستضام تسيـرُ فتنجدُ في عُرض الفلا وتَغورُ

وقد استطاع ابن دراج بهذه القصيدة الطويلة الرائعة ان يشبع رغبة المنصور من ناحية ، وأن يحقق نجاحاً آخر عنده ، إذ ابدع أيّما إبداع ، ولا سيّما حينما صوّر فيها وداعه زوجه وطفله الرضيع الذي كان في المهد ، وحينما

مدح المنصور وتغنّى بمآثره وصفاته . ومن هنا ، فقد غلب على هذه القصيدة صدق العاطفة ، وجمال التصوير ، وعمق المعاني ، وكيف لا يكون ذلك وابن دراّج فيها يعبّر تعبيراً صادقاً عن تجربة حقيقية كان قد عاشها وتفاعل معها ؟ .

ثمّ إن ابن دراج قد وُضع في موضع اختبار وتحد ، فاستغل جلّ طاقاته ومواهبه الفنية في هذه القصيدة ، حتى يرسّخ اقدامه في بلاط المنصور ، ويثبت له أنّه قادر على التحدّي والمعارضة ، حتى وإن كانت لمشاهير الشعراء . ومن هنا ، فقد نالت هذه القصيدة شهرة واسعة في المشرق والمغرب على حد سواء (٤٢) ، وكانت سبباً في سطوع نجمه في دولة المنصور .

ومهما يكن من امر هذه المعارضات والغاية التي كانت من اجلها ، فإنّها قد اسهمت بطريق مباشر او غير مباشر في تنشيط الحركة الشعرية في قرطبة خاصة والأندلس عامة ، كما اسهمت في إحياء التراث الشعري القديم ، لما فيها من إحياء لذكر الشعراء وقصائدهم المعارضة . إضافة إلى أنّها كشفت لنا عن دور المنصور في تشجيع الشعراء من ناحية ، وتقديره للإبداع والمبدعين واستعانته بهم من ناحية أُخرى .

ثانياً : المجالس غير الرسمية (مجالس اللهو والطرب) :

لم يكن الأمر في مجالس المنصور بن ابي عامر التي كان يعقدها في قصره يقتصر على الطابع الرسمي الذي كان يغمره الإعداد والتخطيط من اجل انتقاء شعراء الدولة والكشف عن مواهبهم وقدراتهم . وإنّما تجاوز ذلك إلى مجالس اللهو والطرب والأُنس التي كان يعقدها في قصره ما بين الفينة والفينة ، وخاصة حينما يفرغ من مشاغل الدولة والحكم ، ويميل إلى الدعة والفراغ ولعل نظرة شاملة في كتب الأدب والتراجم الأندلسية تعطينا صورة واضحة

عن مبلغ اهتمام المنصور ورجال دولته بمثل هذه المجالس التي عملت على ازدهارها وشيوعها عوامل متعددة . ومنها: وفرة الثلاّت والموارد الاقتصادية التي كانت الأندلس عامة وقرطبة خاصة تنعم بها آنذاك ، والحريات العامة التي تمتع بها الأندلسيون عامة والطبقة الحاكمة خاصة، ثم إنّ كثرة الحروب والانتصارات التي احرزها المنصور قد جعلت قصور الأُمراء والحكّام غاصة بالحظايا والقيان .

هذا ويضيف الدكتور هيكل إلى هذه العوامل عاملا آخر ربما كان فيما اعتقد من اقوى العوامل التي اسهمت في شيوع هذه المجالس يتمثّل في حب المنصور نفسه حياة اللهو والأُنس . وذلك إذ يقول : «... وقد كان المنصور نفسه قدوة في ذلك، فهو على الرّغم من ظهوره بمظهر المتعصب للدين ليجامل الفقهاء ،ويقوي مركزه بين الشعب ، كان في حياته الخاصة متحرراً يحب الشراب والرقص واللهو » (٤٣)

وهكذا ، فإن الثراء الواسع الذي اصاب منه حكام الأندلس قد دفع بهم إلى صنوف كثيرة من الملذات واللهو الذي اعانهم عليه التقاء الأجناس المختلفة من الناس من ناحية، والتساهل والحريات الشخصية من ناحية أخرى ومن هنا،فليس غريباً وهذه الحال ان نقرأ عن ابن شهيد الشاعر المشهور يدعو المنصور بن ابي عامر إلى إقامة مجلس لهوهم وأنسهم في قصره فيما يذكر ابن بسام ، وذلك إذ يقول :«... وكان صاعد كثيراً ما يمدح بلاد المشرق بمجلس المنصور ، ويباهي بأخبارها ، ووصف اشربتها واديارها ، فكتب الوزير ابو مروان عبدالملك بن شهيد إلى المنصور في يوم قرّ بهذه الأبيات:

أما ترى بردَ يومنا هذا	صيّرنا للكمون أفذاذا
قد فُطرت صحّة الكبود به	حتى لكادت تعودُ افلاذا

فادعُ بنا للشمول مُصطليـــا	نُغْـذ سيراً إليك إغـذاذا
وادعُ المُسمّى بها وصاحبَهُ	تَـدعُ نبيلاً وتَـدعُ أستـاذا
لو مَعْبدا أو غريضه لحقـا	لكان عن ذا وذاك أخـاذا
ولا تُبال أبا العلاء زهـــا	بخمـر قُطرُبُّل وكَلـــواذا
مـادام مـن أرمـلاط مَشربُنا	من دَيْر عمّا وطيز نابادا (٤٥)

ومما تقدّم ، نلاحظ أنّ القيم في المجتمع الأندلسي قد اختلفت عمّـا كانت عليه في المجتمع المشرقي عامّة والبغدادي خاصّة ، حيث كانت الطبقة الحاكمة تتستر في معاصيها ولهوها إلى حدما . وأمّا في الأندلس : فعلى الرغم من التزّمت الفكري والتعصّب المذهبي الذي فرضه المنصور على الفلاسفـة والمتكلمين ، وعلى الرُغم من حرصه الشديد على مجاملة الفقهاء لإرضاء لهم ، لكي يكسب ثقتهم ، ويعمل على زيادة نفوذه السياسي والاجتماعي ، إلاّ أنّنا نجده وهو الذي دوّخ الأعداء ، وحقق الأمن والرخاء آنذاك يلبّي دعوة ابن شهيد ، فيعقد مجلس لهو وشرب ، ويدعو إليه الصفوة من كبار رجال دولته وخاصته من الوزراء والشعراء وغيرهم ، مقدماً ذلك على الاجتمـــاع بأهله وعياله ، فيعكفون على الملذات ، ويتها لكون على الرّاح حتى استبدبهم الطرب ، وفعلت بهم الراح فعلها ، فتناوبوا الرقص . وفي هذا يقول ابن بسّام : ((...وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالعيال ، فأمر بأحضار الأصحاب ، واحضر الوزير أبا مروان ، وأخذوا في شأنهم : فمرّ لهم يوم من الطيب لم يشهد ، وأئونة من اللهو لم تعهد ، وطما الأمر وسما حتى تصايح القوم وتزافنوا ، ودار الدور ، ثمّ انتهى إلى الوزير ابن شهيد، وكان لايطيق القيام لنقْرِس كان يلازمه ، فأقامه الوزير أبو عبدالله بن عياش فارتجل الشيخ أبياتاً جعل يقود بها وينشد :

هاك شيخ قاده عُذر لكا	قام في رَقْصَته مُسْتَهلكا
لم يُطق يرقصها مُسْتَثْبِتا	فانثنى يرقُصها مُستمسكا
عاقه من هزها مُعتدلا	نقرِس أنحى عليه فاتكا
طربَ اللهوُ وقد حقّ له	طرَبا أرمضه حتى اشتكى
من وزير فيهِمُ رقاصة	قام من طيب يناغي ملكا
لو كنت كما تعرفُني	قمتُ إجلالاً على رأسي لكا
قهقه الإبريق مني ضحكا	ورأى رِعشة رجلي فبكى)(٤٦)

ومهما يكن من أمر فإنّ هذه المجالس لم تكن لغايات اللهو والشرب وحسب وإنّما كانت إلى جانب ذلك عاملاً من أبرز العوامل التي أسهمت في تنشيط الحركة الشعرية . إذ عملت على تفتيق قرائح الشعراء ، وفتحت أمامهم أبواباً واسعة للتأمل والتخيل ، فكانت مثاراً للقول والإبداع ، حيث كانوا يرتجلون فيها المقطعات الشعرية التي تتفق وطبيعتها . يقول بالنثيا : ((...ولم تكن مجالسهم مجرد اجتماعات للشرب . وإنّما اجتماعات أدبيّة شعرية كذلك . وكان المجلس ينقضي بين تقارض الشعر وارتجاله)) (٤٧) . ويقول الشوابكة ولم تكن هذه المجالس مقتصرة على القصف والراح بل كانت — بالإضافة إلى ذلك — ندوات ادبية يتجاذب فيها الادباء اطراف الحديث ، فمن خطبة الى رسالة الى ارتجال مقطوعة شعرية تتفق مع هذه المجالس)) (٤٨) .

ولم تكن المرأة بعيدة عن هذه المجالس . وإنّما كانت عنصراً بارزاً فيها، إذ خالطت الرجال واتحفتهم بألحانها وشدوها إلى جانب الرّاح ، وخاصّة في مجالس اللهو التي كان المنصور يعقدها في أحضان مدينة الزاهرة ذات الطبيعة الخلابة الفاتنة ويدعو إليها خاصته المقربة منه . وذلك على نحو مانرى في قول ابن حزم : ((...ونادمت المنصور بن أبي عامر في منية السرور

بالزاهرة ذات الحسن النضير ، وهي جامعة بين روضة وغدير ، فلما تضمخ النهار بزعفران العشي ، ورفرف غراب الليل الدّجوجي ، وأسبل الليل جنحه وتقلد السّماك رمحه : وهمّ النسر بالطيران ، وعام في الأفق زورق الزبرقان أو قـدنـا مصابيح الراح ، واشتملنا ملأ الارتياح ، وللدجن فوقنا رواق مضروب ، فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أُنس القلوب :

قدم الليل عند سير النهـار	وبدا البدرُ مثل نصف سوار
فكأنّ النهار صفحة خـدّ	وكأنّ الظلام خطّ عـذار
وكأنّ الكؤوس جامد ماء	وكأنّ المُدام ذائبُ نار))(٤٩)

ومهما يكن من أمر هذه المجالس ، فإنّها قد كشفت لنا عن حياة الطبقة الحاكمة في الأندلس ، إذ كانت صورة صادقة عن حياتها الخاصّة ، وميلها إلى اللهو والترف حين يتاح لها أن تخلو إلى الفراغ والدعة .

المجالس وأثرها في الشعر :

يدلّ الاستقراء الداخلي أنّ مجالس المنصور بن أبي عامر : وخاصّـة الرسمية منها قد تركت آثاراً إيجابيّة متعددة أسهمت بطريق مباشر أو غير مباشر في تنشيط الحركة الأدبيّة والفكرية من ناحية ، والشعرية من ناحية أُخرى . وقد كان من أبرز الآثار التي نجمت عن تلك المجالس المنافسـة مابين أعضائها ، إذ كثيراً ماكانت تقع منهم الوقائع ، وتقوم بينهم المناقضات والخصومات ، كتلك التي وقعت مابين ابن العريف النحوي وصاعد البغدادي ويبدو لي أنّ هناك أسباباً كثيرة كانت تكمن وراء المنافسات والمناقضات التي كانت تقع في مجالس المنصور الرسميّة : ومنها : أنّ المنصور بن أبي عامر أدرك أهمية المنافسة ودورها في إثراء الحركة الأدبيّة والشعريّة وازدهارها فعمد إلى إذكاء نارها بين شعراء مجلسه ، إذ كان يظهر ميله إلى جانب أحدهم

تارة (٥٠) ، ويفضل قول أحدهم على منافسه تارة أخرى ، لكي يشحذ قدراتهم ويستثير طاقاتهم الفنية من ناحية ، ويضفي على مجلسه متعة أدبية بما يدور فيها من ناحية أخرى . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما يرويه لنا صاحب النفح عن ابن سعيد ، وذلك إذ يقول : ((ذكر ابن سعيد أنّ ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامريّة من أبيات :

فالعامريّة تزهي	على جميع المباني
وأنت فيها كسيف	قد حلّ في غُمدان

فقام صاعد ، وكان مناقضاً له ، فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ، ومكّن سلطانه ، هذا الشعر الذي قاله قد أعدّه وروّى فيه أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالاً ، فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دعواك ، فجعل يقول من غير فكرة طويلة :

يا أيّها الحاجب المعْـ	ـتلي على كيوان
العامريّة أضحت	كجنّة الرضوان
فريدة لفريد	مابين أهل الزمان
انظر إلى النّهر فيها	ينساب كالثعبان
والطير تلتف شكّرا	على ذرا الأغصان
والقضب تلتفّ سكرا	بميّس القضبان
والرّوض يغترّ زهوا	عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغَضّ يرنو	بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا	رنفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها	في غبطة وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف : مالك فائدة في مناقضته من هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؟ فقال ابن العريف : إنّما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك ، فقال له صاعد : فيخرج من هذا أنّ قلّة إحسانه لك أسكتتك وبعدّت عليك المأخذ ، فضحك المنصور وقال : غير هـذه المنازعة أليق بأدبكما)) (٥١) .

ثم إنّ اجتماع هؤلاء الأفذاذ والنابهين من الأدباء والشعراء في بلاط المنصور إبن أبي عامر على هدف واحد وغاية واحدة ، قد عمل على تعزيز المنافسات والخصومات فيما بينهم وجعلها أشد وأقوى ، إذ كان كلّ واحد منهم يبذل قصارى جهده لكي يتفوّق على أقرانه ومنافسيه ويقدّم أجود ماتجود به قريحته من أشعار ، لينال ثقة المنصور ويكون قريباً منه. وعلى الرّغم من حرص المنصور على قيام المنافسات والمناقضات في مجالسه لما لها من أهمية في تشجيع الشعر وازدهاره ، إلاّ أنّه مع ذلك كلّه كان حريصاً على أن تكون العلاقة فيما بين شعرائه حميمة وثيقة ، وأن لايقودهم ذلك إلى التخاصم والتنازع .

هذا ، وقد يكون وراء هذه المنافسة أيضاً ماعرف عن الأندلسيين مـن التعصب (٥٢) ضدّ الوافدين على بلادهم من أدباء وعلماء المغرب والمشرق، إذ كانوا يرون فيهم منافسين لهم في بلادهم ومراكزهم فعملوا جاهدين من أجل إبعادهم عن مراكزهم ، واحتكار مجلس المنصور عليهم . ولذا فقد ائتمروا على صاعد واتّهموه في شاعريته وعلمه . وفي هذا يقول ابن بسّام في معرض حديثه عن صاعد : ((...ولمّا دخل قرطبة دفعوه بالجملة عن العلم باللغة ، وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه ، وما رضيه أحد من أهلها أيّام دخوله إليها ،ولا رأوه أهلاً للاخذ عنه ولا للاقتداء به))(٥٣) . وهذا

أيضاً مافعلوه مع ابن درّاج القسطلي حينما وفد عليهم،وأراد أن يصل أسبابه بالمنصور ، فنصبوا له الحبائل ، وحاولوا إبعاده عن مجلسهم ، لولا أنّه فرض عليهم نفسه فرضاً بموهبته وسرعة بداهته ، كما فرضها عليهم صاعد من قبل ، وخاصّة حينما لمسوا إعجاب المنصور بهما وتقريبه لهما .

وعلى أيّة حال ، فإنّ موقف المتعصبين الاندلسيين ممن كانوا في مجلس المنصور وما قاموا به لابعاد الوافدين عليهم من غير الاندلسيين، قد جعل الوافدين في موقف المتحدي الذي يريد ان يثبت وجوده وتفوقه بموهبته ومقدرته على القول والابداع . مما كان له أطيب الاثر على الحركة الشعرية وازدهارها .

ومن أبرز الآثار الايجابية التي نجمت عن مجالس المنصور أنّها كانت مثاراً للقول والإبداع ، إذ فتقت قرائح الشعراء، وأمدتهم بموضوعات جديدة للقول ، فتغنوا بوصفها وتصويرها . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قول الجزيري في وصف مجالس المنصور بن أبي عامر ، حيث يقول: (٥٤)

وتوسطتها لجة في قعرها	بنت السلاحف ماتزال تنقنقُ
تنساب من فكّي هزبْر إن يكن	ثَبْتَ الجنان فإنّ فاه أخْرقُ
صاغوه من ندّ وخلّق صفحتي	هاديه محضُ الدرّ فهو مطوّقُ
للياسمين تطلّعٌ في عرشه	مثل المليك عرّاه زهو مُطرقُ
ونضائد من نرجس وبنفسج	وجنيّ خيريّ وورد يَعْبقُ
ترنو بسحر عيونها وتكاد من	طرب إليك بلا لسانٍ تَنْطقُ
وعلى يمينك سَوْسَنَاتٌ أطلعت	زهر الربيع فهنّ حُسْناً تشرقُ
فكأنّما هي في اختلاف رُقومها	رايات نصرك يوم بأسك تخفقُ
في مجلس جمعَ السرورَ لأهله	ملكٌ إذا جمعت قناة يفرقُ
حازت بدولته المغاربُ عزّةً	فغدا ليحسُدها عليه المشرقُ

وقول أبي المطرّف بن أبي الحباب أيضاً في وصف أحد مجالس المنصور بالمنية العامرية (٥٥) :

لايوم كاليوم في أيامنا الأول ... بالعامريّة ذاتِ الماء والظُّلَلِ
هواؤها في جميع الدهر معتّدل ... طيباً وان حلّ فصل غير معتدلِ
ماإن يُبالي الذي يحتلُّ ساحتها ... بالسعد ألاّ تحلّ الشمسُ في الحمل
كأنّما غرست في ساعة وبدا ... سوسانُ من حينه فيها على عجلِ
أبدت ثلاثاً من السوسانِ مائلةً ... أعناقُهُنَّ من الإعياء والكَسَلِ
فبعضُ نُوّارها للبعضِ مُنفتح ... والبعضُ منغلق عنهنّ في شغُلِ
كأنّها راجة ضمت أناملها ... من بعد ماملئت من جودك الخضلِ
واختُها بسَطت منها أناملها ... ترْجو نداك كما عوّدتها فصلِ

ثم إن موقف النقاد والمنافسين النابهين الذين كانوا في مجلس المنصور أسهموا بطريق مباشر أو غير مباشر في تنشيط الحركة الأدبية عامّة ،والشعرية خاصّة ، إذ كان هؤلاء يجعلون الشاعر الوافد في همّ ودأب لكي يصقل موهبته ويعمل على تنميتها ، فيقدم لهم وللمنصور أجود أشعاره ، ولا سيما بعد أن يجتاز الاختبارات التي كانت تعدّ له. ولذا،فإنّ ابن درّاج القسطلي فيما يذكر أُستاذنا الدكتور إحسان عبّاس (٥٦) كان يدأب على تجويد أشعاره ويسهر على حوكها قبل إلقائها في مجلس المنصور .

يضاف إلى هذا كله أنّ مجالس المنصور بن أبي عامر قد تركت آثاراً واضحة في مضامين الأشعار التي دار حولها شعر المجالس عامّة أو ماوصفت بها خاصّة من الناحيتين: الموضوعيّة والفنيّة . وأمّا من الناحية الموضوعيّة ، فقد دار شعر المجالس حول وصف الطبيعة الصامتة منناحية،ومدح المنصور إبن أبي عامر من ناحية أخرى ، إضافة إلى أنّ الشعراء في معظم الأحايين

كانوا يمزجون مابين الموضوعين: وصف الطبيعة ومدح المنصور . ولذا فقد ظهرت في أشعار المجالس صور الحدائق والبساتين والرياض وما فيها من أزهار وورود وأشجار ، كما ظهرت صور القصور وما فيها من مظاهر الحضارة والترف ، إضافة إلى صورة الممدوح وما يتحلى به من مآثر وصفات وأمّا من الناحية الفنيّة، فقد جاءت ألفاظ أشعارها خالية من التعقيد والغموض من ناحية ، ومناسبة للموضوعات التي نظمت من أجلها من ناحية أخرى . ولعلّ ذلك مردّه إلى أنّ أشعار المجالس كانت تُلقى على البداهة ودونما إعداد سابق . كما أنّ معظم ماوصلنا من شعر المجالس جاء على صورة مقطعات قصيرة وذات أوزان شعرية قصيرة أيضاً حتى يناسب طبيعة المجالس وما يقال فيها .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ الشعراء فيما كانوا يصفونه في مجالس المنصور لم يكونوا يصدرون عن تجارب حقيقية كانوا قد عاشوها وتفاعلوا معها ، وإنّما كانت الموضوعات المطروحة عليهم ليقولوا فيها مفروضة عليهم فرضاً فهم لايتناولونها كما تقع في نفوسهم . ولذا ، فإنّ ماقيل فيها مع جمال تصويره وابتكار معانيه لم يكن صادراً من داخل النفس أو نابعاً من الوجدان فهم يحملون على القول فيقولون . وذلك لأنّ المنصور كان يريد أن يجعل منهم أصداء لرغبته ، و ألسنة تعبّر عمّا يريد منها لا ماتريده هي . ولذا فقد كان المنصور حريصاً على صقل مواهبهم من ناحية ، واصطحابهم معه في معظم غزواته (٥٧) من ناحية أخرى .

وكأنني بالمنصور لايريد من الشعراء إلاّ الحياة له ، ولا يقولون إلاّ فيه ، ولا يعبّرو ن إلاّ عمّا يدور في ذهنه وخلده . ولذا فقد عاش الكثيرون منهم حياة أقرب ماتكون إلى خارج النفس منها إلى داخلها .

ومع ذلك كلّه ، فليس يعنينا ماكان يقال فيها من موضوعات ،أو ماكان يقال في التعقيب عليها ، إذ الشأن في ذلك إنّما يعود إلى البراعة في التصوير والمقدرة على الصياغة والإبداع .

هذا فيما يتعلّق بأثر مجالس المنصور الرسمية في الشعر . وأمّا مجالس لهوه وأُنسه التي كان يعقدها في قصوره أيضاً ويدعو إليها كبار رجال دولته وخاصته من الوزراء والأدباء ، فقد تركت هي الأخرى آثارها في الحياة الاجتماعية عامّة ، والشعر خاصّة ، إذ أشاعت فيه ظاهرة المجون ؛ فأصبح الشعراء يتغنون صراحة بمجونهم ومغامراتهم المكشوفة مع النساء دونما خوف أو وجل . وقد ساعدهم على ذلك الحريات العامّة التي تمتعوا بها آنذاك . وفي هذا يقول الأستاذ جودت الركابي :((...كنت ترى حياة الدعة والتساهل منتشرة ،فقد كانت الحياة الخاصّة متعة متصلة الحلقات ، وهنا تبدو الحرية مادامت لاتتصل بأمور السياسة والدّين والحكم ولا تتصدى للمصالح الذاتية، ولهذا كنت ترى الأندلسي يهتك دون وازع ، وقد انغمس الشعراء والكتّاب في حمأة الدعارة ونطقت ألسنتهم بأفحش الأقوال . وامتدت هذه الحرية إلى الملوك فرأيتهم يطلقون العنان للهوهم وطربهم وللهو الناس وطربهم ، مادام هذا اللهو وهذا الطرب لايمسان الدّين الذي له حرمته في النفوس (٥٨) ومن الأمثلة الواضحة على ذلك مادار بين الوزير عبدالملك بن شهيد والمنصور إبن أبي عامر نفسه بشأن الجواري) (٥٩) .

وأخيراً أقول : إنّ هذه المجالس وما كانت تتضمنه من تنافس وتناظر ومعارضات وانشاد صدر عن صفوة رجال الأدب والشعر ، وما كان يثار فيها من ألوان النشاط الأدبي والفكري الذي تمثّل في حسّن المحاضرة ، وسعة المعرفة ،فقد أنتجت شعراً تسابق فيه الشعراء في اختراع المعاني،وابتكار الصور ، وتوليد المبتكرات،كما أنتجت شعراً وأدباً وحكايات كان المنصور ينعم بها . ويقطف ثمارها ، إذ غالباً ما كانت في مدحه والثناء عليه .

الهوامش والتعليقات

(١) وهو : محمد بن عبدالله بن أبي عامر المعروف بالمنصور معافري قحطاني أصله من الجزيرة الخضراء ، دخل قرطبة طالباً للعلم ، الأدب والحديث ، ثم ارتقت حاله وتعلق بوكالة صبح ام الخليفة هشام المؤيد ، ولمامات الحكم تسلم المنصور الأمور وأصبح الحاكم الفعلي للأندلس ، وقد غزا خمسين غزوة ونيف ومات بمدينة سالم سنة (٣٩٢هـ) . انظر أخباره وتراجمه في الحميدي ، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، ط٢ ، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٣م) ، ص١٣٢ وابن الخطيب ، لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ط١، ٢، تحقيق محمد عبدالله عنان (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٧٤م)ص ١٠٢ — ١٠٥. والمراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ط١ (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٤٩م) ص٢٨ ، وابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٧ ، ط١، تحقيق إحسان عباس (بيروت : دار الثقافة ١٩٧٩م) ص٥٦—٦١ ، والمقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ط١ ، ١ ، تحقيق إحسان عباس (بيروت : دار صادر ، ١٩٦٨م) ص ٣٩٦—٤٠٢ . وغيرها كثير .

(٢) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ١٣١/١ . وانظر : الفتح بن خاقان ، مطمح الأنفس ، ط١ ، تحقيق محمد الشوابكة (عمان : دار عمان ، ١٩٨٣م) ص٣٩٠ ، والمراكشي ، المعجب ، ص٣٠ .

(٣) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ١٣١/١ ، وانظر المراكشي ، المعجب ، ص٣٨ ، وابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ط٣ ، ١ ، تحقيق شوقي ضيف . (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤) ص١٩٩ .

(٤) الحميدي ، جذوة المقتبس ٣٩٩/١ .

(٥) علي أدهم ، منصور الأندلس ، ط١ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٤م) ، ص١٥٧

(٦) وهو : أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي اللغوي ، ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم المؤيد وولاية المنصور بن أبي عامر سنة (٣٨٠هـ) . انظر الحميدي ، ٣٧٣/١ . وابن بسام ، الذخيرة ٨/٧ .

(٧) ابن بسام ، الذخيرة ، ٩/٧ .

(٨) انظر : شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط٧ ، (القاهرة : دار المعارف ١٩٤٦م) ص٣٢٥ .

(٩) أنظر : الحميدي ، الجذوة ، ٣٧٣/١—٣٧٤، وابن بسام، الذخيرة ، ٣٥/٧، والمقري النفح ٨٣/١—٨٤ .

(١٠) انظر : أحمد ضيف ، بلاغة العرب في الأندلس ، ط١ (القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٢٤م ص ٢٢—٢٣ .

(١١) وهو : أبو بكر الزبيدي اللغوي صاحب طبقات النحويين ولحسن العامة والاستدراك على العين . انظر الحميدي ، الجذوة ٧٤/١ .

(١٢) وهو : الحسين بن الوليد النحوي إمام العربية وأستاذ في الأدب ومقدم في الشعر . انظر الحميدي ، الجذوة ٣٠٠/١ .

(١٣) وهو : محمد بن الحسين التميمي شاعر مكثر وأديب مفتن ، كان عالماً بأخبار العرب وأنسابهم . انظر : الحميدي الجذوة ٩١/١ ، وابن سعيد ، المغرب ٢٠٦/٢ .

(١٤) وهو : أبو المطرف عبدالرحمن الحضرمي الإشبيلي ، أديب شاعر . انظر الحميدي ، الجذوة ٤٣٣/١ .

(١٥) وهو : أبو القاسم الحسين بن الوليد أديب مشهور وشاعر مكثر . انظر الحميدي ، الجذوة ١٨٢/١ .

(١٦) وهو : الوزير أبو مروان عبد الملك بن شهيد كاتب المنصور بن أبي عامر. انظر الحميدي الجذوة ٤٤٤/١ ، وابن سعيد ، المغرب ، ٣٢١/١ .

(١٧) وهو : أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب ، والد الفقيه أبي محمد ، كان وزيراً في الدولة العامرية ومن أهل العلم ١ الأدب . انظر : الحميدي ، الجذوة ٣٣٠/١ .

(١٨) وهو: عبد الملك بن إدريس الجزيري الكاتب وزير من وزراء الدولة العامرية وكتابها، عالم أديب وشاعر مكثر من ذوي البديهة . انظر : الحميدي ، الجذوة ٤٤٤/١ .

(١٩) وهو : القائد يعلى بن أحمد بن يعلى ، كان شاعراً مكثراً . انظر الحميدي . الجذوة ٦١٥/٢ وابن سعيد المغرب ، ٢٠٤/١ ، وابن بسام ، الذخيرة ، ٧/ ٨٤ .

(٢٠) انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ط١ ، ٢ تحقيق محمد عبدالله عنان القاهرة ، ١٩٧٤م(ص١٠٦-١٠٧ .

(٢١) انظر : الحميدي ، الجذوة ٣٧٣/١ . والمقري . النفح ، ٨٣/١-٨٤ ، والمراكشي ، المعجب ، ص٣٠ ، وابن بسام، الذخيرة ١٩/٧ وص٢٦ .

(٢٢) ابن بسام ، الذخيرة ١٨/٧ ، والمقري ، النفح ٨٠/٣-٨١ .

(٢٣) ابن بسام ، الذخيرة ١٩/٧ ، والمقري ، النفح ٨١/٣ .

(٢٤) ابن دراج ، ديوان ابن دراج ، ط١ ، تحقيق محمود مكي (دمشق: المكتب الاسلامي ، ١٩٦١م) ص٣٧ .

(٢٥) الحميدي ، الجذوة ، ١٧٧/١ .

(٢٦) انظر ديوان ابن دراج ، ص٤٥ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص٤٤/٤٥

(٢٨) ابن بسام ، الذخيرة ١٩/٧ . ومتالع : جبل بناحة البحرين بين السودة والأحساء ، انظر : الحموي ، ومعجم البلدان ، ط١ (بيروت : دار أحياء التراث ، ١٩٧٩م) ٥٢/٥ .وأما وضوى فهو : جبل على طريق المدينة بينه وبين ينبع مسيرة يوم ، وهو جبل ضخم ذوشعاب وأودية . الحموي ، معجم البلدان ٥١/٣ .

(٢٩) ابن دراج ، ديوانه ، ص٣٠٨ .

(٣٠) أؤلق على وزن فوعل . إذ أصلها ألق .

(٣١) ابن بسام ، الذخيرة ١٤/٧-١٥ . والمقري ، النفح ، ٧٨/٣ .

(٣٢) امرؤ القيس ، شرح ديوان امرىء القيس ، ط٣(بيروت : دار صادر ، ١٩٦٩م)ص٣٩.

(٣٣) المصدر نفسه ، ص٣٧ .

(٣٤) ابن بسام ، الذخيرة ٣٣/٧-٣٤ . والحميدي ، الجذوة ، ٣٧٦/١-٣٧٧ .

(٣٥) والحميدي ، الجذوة ٣٧٧/١-٣٧٨ والمراكشي ، المعجب ص٨٠/٨١ .

(٣٦) ابن بسام ، الذخيرة ، ٣٢/٧-٣٣ . والمقري ، النفح ٨١/١ .
(٣٧) ابن بسام : الذخيرة ٣٣/٧ ، والحميدي ، الجذوة . ٣٧٧/ ، والمراكشي ، المعجب ص٣٥ ٣٦ .
(٣٨) انظر : ابن بسام . الذخيرة ٢٢/٧ .
(٣٩) المصدر نفسه ، ٢٢/٧-٢٣ .
(٤٠) المصدر نفسه ، ٢٣٩٧ .
(٤١) ابن دراج ، ديوانه ص٢٩٧-٣٠٤ .
(٤٢) انظر المصدر نفسه ، ص٤٧-٤٨ .
(٤٣) أحمد هيكل ،الأدب الأندلسي : ط١ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥م) ص٢٦٨ - ٢٦٩ .
(٤٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ٢٦/٧-٢٧ ، والمغرب ٢٠٣/١-٢٠٤ ، والنفح ٢٦٠/٣- ٢٦١. والشمول اسم مقن بقرطبة . وأما أرملاط ودير عما ، وكلواذا ، وقطربل فلم أجد لها ذكراً في كتب الجغرافيا وهي أسماء مواقع .
(٤٥) ابن بسام ، الذخيرة ٢٦/٧/٢٧ .
(٤٦) ابن بسام ، الذخيرة ٢٧/٧-٢٨ ، والمطمح ص١٧٩ ، والنفح ٢٦١/١ ، والمغرب٢٠٣/١ ٢٠٤ .
(٤٧) بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ط١ ، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة : النهضة المصرية ١٩٥٥م) ص٤٤ .
(٤٨) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص١١٨ .
(٤٩) المقري ، نفح الطيب ، ٦١٧/١ .
(٥٠) انظر ص٩ من هذا البحث .
(٥١) المقري ، نفح الطيب ٥٨٢/١-٥٨٣ . وانظر أمثلة أخرى في الجذوة ٢٠١/١ والنفح ٧٩/٣-٨٠ .
(٥٢) انظر : الداية ،محمد ، تاريخ النقد الأندلسي، ط٢ (بيروت :مؤسسة الرسالة،١٩٨١) ص٣٦ .
(٥٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ٩/٧ .
(٥٤) المقري ، نفح الطيب ٥٣٠/١ .
(٥٥) المقري ، نفح الطيب ٥٨٢/١ وأنظر أيضاً ص ٥٣١ ، ٥٨٣ .
(٥٦) انظر إحسان عباس ، تاريخ الأدب العربي في الأندلس عصر سيادة قرطبة ،ط٧ (بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٥م) ص٢٣٨ .
(٥٧) انظر ابن الخطيب ، الإحاطة ١٠٦/٢-١٠٧ ؛وهيكل ، الأدب الأندلسي ، ص٢٧٦- ٢٧٧ ، ٣٠٤ .
(٥٨) جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ط٤ ،(القاهرة : دار المعارف ١٩٦١م) ص٤٨.
(٥٩) انظر القصة والشعر في ابن بسام : الذخيرة ٢٩/٧-٣٠ ، والمقري ، النفح ٤٠٠/١.

المصادر والمراجع

ـ أدهم ، عليّ ، منصور الأندلس ، ط١ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤م) .

ـ ابن بسام ، علي ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط١تحقيق إحسان عبّاس ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٩) .

ـ بالنثيا ، انجل ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ط١، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة : النهضة المصرية ، ١٩٥٥م)

ـ الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، ط١ ، (بيروت :دار احياء التراث ١٩٧٩م) .

ـ الحميدي ، محمّد بن أبي نصر، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ط٢ ، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٣م) .

ـ ابن خاقان ، الفتح ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس ، ط١ ، تحقيق محمّد الشوابكة ، (عمان : دار عمّار ، ١٩٨٣) .

ـ ابن الخطيب ، لسان الدّين ،الإحاطة في أخبار غرناطة ، ط١ ،تحقيق محمّد عبدالله عنان ، (القاهرة : ١٩٧٤م) .

ـ الداية ، محمّد ، تاريخ النقد الأندلسي ، ط٣ (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٩٨١م)

ـ ابن دراج ، أحمد ديوان ابن درّاج القسطليّ ، ط١ ، تحقيق محمود مكّي (دمشق : المكتب الإسلامي ، ١٩٦١م)

— الركابي : جودت ، في الأدب الأندلسي ، ط٤ ، (القاهرة : دار المعارف : ١٩٦١م)
— ابن سعيد ، محمّد المغرب في حلى المغرب ، ط٣ ، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة : دار المعارف . ١٩٦٤م)
— ضيف ، أحمد ، بلاغة العرب في الأندلس : ط١ (القاهرة : مطبعة مصر : ١٩٢٤م)
— ضيف : شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط٧/ القاهرة : دار المعارف . ١٩٤٦م)
— عباس ، إحسان ، تاريخ الأدب العربي في الأندلس — عصر سيادة قرطبة — ط٧ (بيروت دار الثقافة ، ١٩٨٥م)
— القيس ، امرؤ ، شرح ديوان امرىء القيس ، ط٣ (بيروت : دار صادر ١٩٦٩م) .
— المراكشي : عبدالواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ط١ ، تحقيق محمّد سعيد العريان ، القاهرة : مطبعة الأستانة ، ١٩٤٩ م)
— المقريّ : أحمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ط١ ، تحقيق إحسان عبّاس (بيروت : دار صادر ١٩٦٨)
— هيكل ، أحمد ، الأدب الأندلسي ، ط١ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥)



هامشية المكان في رواية غانم الدباغ
ضجة في ذلك الزقاق

الدكتور إبراهيم جنداري
كلية الاداب-جامعة الموصل

لقد مـرّ مفهوم المكان الروائي بتحولات أساسية ، وتعاملت الرواية معه تعاملاً خاصاً ، يتميز بالتنوع والتعدد ، فقد جعلت منه رواية القرن التاسع عشر اطاراً تجري فيه الاحداث ، كما هو شأن بلزاك . واستعمل كصدى لتطور الايديولوجيا والاجيال وتباينها الاجتماعي مع المدرسة الطبيعية عـلى يد زولا . في حين اصبح فيما بعد مرآة تعكس الصدى النفسي للشخصية حيث يتماثل -دلالة وتركيباً- مع مايعتمل في أعماقها.

ولم يعد المكان مجرد اطار ،بل احتل الصدارة في العمل الروائي في بعض الاحيان ، فكانت عمليـة تشخيصه ، وازدادت أهميته في الرواية الحديثة، اذ بدأ بالتعبير عن استقلاله التام بوقوعه في الخارج يؤطر الاشياء غير مكتف بعملية التأطير هذه بل يُخضع تلك الاشياء لسلطته،واكتسب سمات الشخصية الحيّة واصبح بالامكان تحديد أدوار الشخصيات الروائية على مدى عمـق ارتباطها بالمكان .

وما نعرفه عن المكان هو جزء لايتجزأ مما نعرفه عن الشخصية التي تتحرك أو تستقر في المكان ، والفعل أو رد الفعل الذي تأتيه فيه ، ولكن المسألة لاتنتهي عند هذا الحد ، فالمكان «مجموعة من الاشياء المتجانسة (من الظواهر او الحالات ، او الوظائف او الاشكال المتغيرة) تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة /العادية (مثل الاتصال ، المسافة..) ويجب ان نضيف الى هذا التعريف ملحوظة مهمة ، وهي اننا اذا نظرنا الى مجموعة من الاشياء المغطاة على انها مكان ،يجب ان تجرد فيه هذه الاشياء من جميع خصائصها ، ماعدا تلك التي تحددها العلاقات ذات الطابع المكاني التي تدخل في الحسبان» [١] .

والواقع ان تسليم الأنسان باستقرار المكان وثباته ووعيه بديمومته النسبية واستمراره من القضايا الأساسية التي دفعت الى التركيز على المكان ، فالانسان ((يخضع العلاقات الأنسانية والنظم لاحداثيات المكان .. وان اضفاء صفات مكانية على الافكار المجردة يساعد على تجسيدها، وتستخدم التعبيرات المكانية بالتبادل مع المجرد مما يقربه الى الأفهام)) [٢] .

وتتضح أهمية المكان من خلال كونه بُعداً ثرياً ، فلم يعد الادب الروائي يتعامل مع المكان بوصفه موقعاً للحدث او اظهاراً له ، بل يتعامل معه بوصفه جوهراً او محوراً « ثابتاً في مواجهة مجموعة متباينة من الحاور المتغيرة» بالصورة التي يصبح معها المكان هو البطل الرئيسي للعمل ، او الموضوع الأساسي للمعالجة وتكتسب معها علاقته بالشخصيات أبعاداً فنية فلسفية جديدة»

---

(١) مشكلة المكان الفني – يوري لوتمان – ترجمة سيزا قاسم دراز – مجلة الف ع ٦ لسنة ٩٨٦ ص ٨٩ .

(٢) بناء الرواية – سيزا قاسم /١٠٠ . دار التنوير للطباعة والنشر – بيروت ١٩٨٥ .

ويتحول المكان الى عنصر ايجابي فاعل يضفي على الشخصيات مجموعة من الدلالات والايحاءات الجديدة)) (٣) .

فتصبح بنية مكان النص نموذجاً لبنية مكان العالم ، وتصبح قواعد التركيب الداخلي للنص وعناصره لغة التنميط المكانية .

وتشكل المدينة بؤرة الحركة في رواية «ضجة في ذلك الزقاق » (٤) لغانم الدباغ ، فهي مجال الحدث وساحة الصراع منها ينبثق وفي تعاريجها يشتد. مع ان الروائي لم يتوقف عند تضاريس المدينة ولم يعمد الى الوصف الحسي الخارجي . لكن المدينة تحضر عبر شوارعها وازقتها وساحاتها وجسورها . وتسجل الرواية لقطات ومشاهد من حياة هذه المدينة في الفترة التاريخية التي تتحدث عنها الرواية . وينقل لنا الدباغ مشهداً لمدينته في وقت زمني محدد حيث « يكتئب المساء في المدينة ، وتتملك الناس روح من الحزن ترتسم على وجوههم . فتبدو على سحنهم الوداعة والسكينة .. العائدون من الاسواق العثمانية المعتمة ، تزق احذيتهم الجلدية الحمراء على الطرق المرصوفة بالحجارة ، يخبون بعباءآتهم الفضفاضة ، يحمل بعضهم زاد العشاء لانهم لايأتون الى دورهم الا عند المساء »(٥) وامعاناً في تحديد وقت المشهد المروي ينقل لنا الدباغ مشهد (ساحة البريد القديم) في تلك الساعة التي كان فيها على موعد مع جارته (ساجدة) وتحديداً في الساعة الخامسة مساءاً من ذلك اليوم الذي يترامن مع زيارة الملك والوصي للمدينة . «قبيل الساعة الخامسة وصل ساحة البريد القديم وكانت تموج بالحركة .. شرطة يروحون ويجيئون يمنعون الناس من عبور رصيف الى آخر، الساحة ترش بالماء ، بعض الناس توقفوا

---

(٣) الحساسية الجديدة واستخدامات المكان الادبية – د. صبحي حافظ – مجلة الاقلام ع ١١ و١٢ لسنة ١٩٨٦ .

(٤) مطبعة الأديب البغدادية /١٩٧٢ وقد ساعدت نقابة المعلمين على نشرها .

(٥) الرواية /١٩ و٢٠ .

عن المسير وتجمعوا على حافة الشوارع» (٦) .

ان وصف المدينة بهذا الشكل والتجديد هو وصف محايد وخارجي .

«ـ من سيأتي ؟

ـ ألم تسمع ..؟ الملك

ـ لوحده .. ام مع ؟

ـ مع الوصي طبعاً . الا ترى القيامة قائمة» (٧) .

ان الدباغ يتقدم خطوة اخرى لاقحام الراوي في خضم المشهد المنقول اذا ماتذكرنا بأن المشهد (عبارة عن فعل محدد ـ حدث مفرد ـ يحدث في زمان ومكان محددين ، ويستغرق من الوقت بالقدر الذي لايكون فيه أي تغيير في المكان ، او أي قطع في إستمرارية الزمن» (٨) . لذا فأن الراوي مايلبث ان يندس بين المحتشدين ، ليدخل إطار المشهد المنقول ، ولكي يكون أكثر اقتراباً ، أكثر قدرة على التقاط التفاصيل .

«..وبعد راكبي الدراجات أقبلت السيارات ، كانت الثانية سوداء فخمة يرفرف عليها العلم الوطني مزركشاً بخيوط ذهبية ويعلوه التاج الملكي ..كان الأول قصيراً قمحي اللون يرد على التصفيق والهتاف بيده ، يزين اصبعه خاتم كبير ، وله ابتسامة حزينة توحي بشخص لايثق بنفسه ، يتطلع بكآبة وخوف دفين من الناس .. وكان الآخر يحدق بعينين واسعتين منحرفتين قليلاً نحو صدغيه ... وينظر الى الجموع بشك وازدراء..)) (٩) .

ان عين الروائي في هذا المشهد تقف وتحدق في بعض المفردات والتفاصيل الصغرى ، سواءاً انحصرت فاعلية هذه العين في الوصف الحسيّ المباشر

---

(٦) و (٧) الرواية /٤٤ .

(٨) بناء المشهد الروائي ـ ليون سرميليان ـ ترجمة فاضل ثامر . مجلة الثقافة الاجنبية ع ٣ س ٧ ـ ١٩٨٧ .

(٩) الرواية /٤٤ .

للاشياء وغدوها اكثر واقعية واكثر أمانة، ام تحولت هذه المفردات والتفاصيل الى رموز .

ان اهتمام الدباغ بالمشهد هنا يتأتى من كونه — أي المشهد — هو ((الوحدة المحددة للفعل)) (١٠) .

وقد ضمّ هذا المشهد نوعين من المشاهد : الرؤية البصرية لشيء مايقع ، أي مشهد الحركة ، ومشهد الحوار . ولما كانت المدينة «فكرة مجردة وعناصرها مشخصات تجسّم قيمها المنحطة وكيانها المؤسس على الشر والقهر ، وهي نمط عيش وذات تتكثف فيها السلبيات)) (١١) فان غانم الدباغ ينقل صوراً من هذه المدينة، صورة في بداية أيلول «..وما لبث الاضراب ان عم المدينة بكاملها ، فبدت الشوارع مقفرة تتناثر فيها النفايات وأوراق الجرائد القديمة وبناياتها كأكوام حجارة تغفو في كآبة وحزن)) (١٢) .

وثمة تفصيل مشهدي آخر يقدمه الدباغ برؤية تتسع باتساع الحيز المكاني وانتشاره ، وهي اذ تبدأ من الجزء لتصل الى الاطار العام فهي تمر لامحالة بالمشاهد التي تتكاثف لتحدد ملامح هذا الاطار .

يتوزع هذا المشهد زمنياً على ثلاثة أيام :

«في يوم خريفي ، وكان الخميس ، انتهى الانتظار الممض الذي كان يبهظ كاهل المدينة ،حيث شل اضراب جزئي حركة بعض الاسواق،وجرت مظاهرات صغيرة في الشوارع أُجهضت حالاً وبقسوة .

في اليوم التالي توقفت الاعمال في المدينة الغاضبة ، احتجاجاً على اساليب القمع الوحشية ..» (١٣) .

(١٠) السيناريو — سد فيلد — ترجمة سامي محمد /١٣٧ — دار المأمون للترجمة والنشر — بغداد /١٩٨٩ .
(١١) البنية والدلالة — عبدالفتاح ابراهيم /١٨٣ — الدار التونسية للنشر /١٩٨٦ .
(١٢) الرواية /٧٠ — ٧١ .
(١٣) الرواية /١٠٨ .

ان هذين اليومين يقدمان للحدث الأكبر في اليوم الذي يليهما، واذ اكتفى الدباغ بالايجاز المكثف لما حدث فيهما فأنه يتهيأ للاحاطة بخارطة المدينة وتضاريسها وحركتهـــا الكلية في يوم السبت ، حيث تنطلق تظاهرة كبرى تتجمع من شوارع المدينة وازقتها باتجاه مركز المدينة وساحتها الرئيسة. ((باتجاه المدينة الغربي شاهد بداية سيل بشري يتدفق مغطياً الشارع والرصيفين وهو يقبل من الاحياء المشيدة وراء سور المدينة القديم،وتسكنها افخاذ وبطون عشائر مازالت تحتفظ بلهجة البادية..واندفعت مقدمة لجمع آخر من الطرف الجنوبي للمدينة خمنهم من ازيائهم وهتافاتهم انهم من مرتع طفولته الاولى (الباب الجديد) حيث هدم باب السور هذا قبل سنوات» (١٤) .

يحرص الدباغ على تقديم تفاصيل التركيبة الأجتماعية لمدينته معتمداً في ذلك على الايحاء المكثف والعبارة الدالة اذ يُغادر الوصف الخارجي ليتغلغل ولو جزئياً — في ثنايا تركيبة هذه المدينة الاجتماعية مستثمراً اللهجة والزي علامات دالة على تلك التركيبة.وينتقل بعد ذلك الى خارطة المدينة وتضاريسها:

«والتقى الجمعان ، ثم التحما منسابين في المدخل الضيق للشارع الذي يقع فيه ضريح (النبي جرجيس) وقد أطلق اسمه على الشارع .

وبدأت تنحدر من فروعه الجانبية شراذم صغيرة ، سرعان ماتذوب في الحشد الكبير المندفع هو الآخر من حي يقع في منتصفه تماماً نحو مركز الشرطة المسيطر على مسيرة الألتحام بين الحشدين» (١٥) .

وبعد ان يصف لنا الدباغ من خلال السارد هذه الملاحظات وحركة الجموع واماكن انطلاقها ونقطة توجهها فانه يلتفت الى السارد الذي يظل قلقاً متردداً لكنه يفشل في الابتعاد عن حركة الجموع التي أغلقت عليه منافذ الابتعاد ،

---

(١٤) الرواية /١٠٩ .

(١٥) الرواية /١٠٩ .

فكان لابد له من الاندفاع وسط الجموع ((وهي تزحف وتخترق شارع المكتبات الضيق المنحدر باتجاه ساحة البريد القديم)) ..(١٦).

وتختلف حاجة الكاتب وهو يصف الخلفيات الخاصة لشخصياته واحداثه اذ قد يحتاج في بعض الاحيان الى الوقوف عند جزئيات تكون الخلفية الموسعة للمشهد بأسره ، او يركز في احيان أخرى على جزئيات صغيرة وهذا كله يستلزم معرفة الكاتب ببيئته التي يصنعها وادراك علاقات جزئياتها فيما بينهما، حتى يحقق اهدافه من هذا الوصف في ثنايا عمله .

ان الاحساس بالمكان لدى الكاتب وفي تعبيره عنه يفترض ان يجعل القارىء «يحسّ بالانطباع والنكهة والاصوات والجو المألوف الخاص به وان يستطيع مراقبة الشخصية في عملها وفي حياتها» (١٧). وان يتمكن من رؤية ماتراه تلك الشخصية ووجهة نظرها بل وادراك احساسها تجاه هذا المكان او ذاك.

«فاخترق سوق السراي ، فسوق العطارين المعتم ، وعند خروجه من سوق البزازين ، ظهر أمامه عبر الشارع سوق الميدان» (١٨).

ان نظر الراوي يتجه الى الامام ليرسم خط سيره الممتد من نقطة انطلاقه وحتى النقطة التي ينبغي الوصول اليها وكأنه لايرى مايحيط به في حركته تلك ولما كان الاحساس بالاشياء ((تجربة انسانية في اوسع مجالها)) (١٩) فلابد من التعبير عن معاناة الانسان امامها فهي بعض منه ، وقد تكون صورة لامانيه وتطلعاته ، او قد تصبح العلامة الدالة على واقعه المعاش ووضعه اليومي وعلينا

---

(١٦) الرواية /١١٣ .
(١٧) البيئة في القصة / مقدمة نظرية – وليد ابو بكر – مجلة الأقلام – العدد ٧ تموز /١٩٨٩.
(١٨) الرواية /١٦٤ .
(١٩) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه – اليزابيث درو /١٢٧ . ترجمة د. محمد الشوش ، منشورات مكتبة منيمنة . مطبعة عيتاني الجديدة – بيروت ١٩٦١ .

ان نوجد ((وسائط لاحصر لها بين الواقع والرمز اذا أردنا أن نعطي الاشياء كل ماتوحي به حركة)) (٢٠) .

لابد اذن ان تقف عين الروائي وتحدق في بعض المفردات والتفاصيل الصغرى ، سواء انحصرت فاعلية هذه العين في الوصف الحسي المباشر وغدوها أكثر واقعية وأكثر امانة ، ام ظلت تجعل من هذه المفردات للاشياء والتفاصيل رموزاً مكانية دالة على الهوية السلبية منها والايجابية :

((مرّ تحت طنوف وشرفات خشبية مزوقة ، وقد تداعت لقدمها ، فاتخذ بعضها مقاه أو مخازن وبعضها ترك فارغاً وتغطي السوق صفائح الجنكو ،او حصران البردي المتهرئة فتلقي ضلالاً خفيفة على ارضية السوق وحوانيته))(٢١).

وعلى الرغم من ذلك فان غانم الدباغ لايصف المدينة وتضاريسها المادية ، فهو كروائي لاتهمه المدينة، لذا فانه لايتوقف الا عند المحطات المحدودة التي تمر من خلالها الشخصية الرئيسة في الرواية (خليل) في رحلتها اليومية المتكررة و (خليل) هذا كاتب أوراق صغير في المالية «يروح ويجيء كالآلة الصماء بين الدار والمكتب» (٢٢) .

ومن **الدائرة** تبدأ الرواية حركتها لكن غانم الدباغ لايضيء لنا هذا الطرف الأساس من أطراف أمكنة روايته فكأن لاعلاقة له بها اذ لايرد ذكرها الا مرتين في الأولى يسمع (خليل) تلميحات احد الملاحظين وهو يزور الغرفة التي يعمل فيها : «سيتلقى اصحاب المبادىء الهدامة ضربة قاصمة . ان يد الباشا القوية ستسحق رؤوسهم» (٢٣) .

---

(٢٠) جماليات المكان – باشلار – ترجمة غالب هلسا /٤١ – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – بيروت /١٩٨٤ .

(٢١) الرواية /١٦٥ .

(٢٢) الرواية /٨٧ .

(٢٣) الرواية /٧١ .

وفي الثانية يستدعيه مدير دائرته (بعد ان يخبره احدهم بأن كتاباً سرياً يعتقد انه بشأنه فوق مكتب المدير) ويخبره بأنه منح اجازة مرضية ليحضر المحاكمة التي حدد موعدها وعندها يلاحظ حين مغادرته «ان دحاماً الفراش بقي جالساً في مكانه ، وهو الدائم القيام والجلوس كلما دخل أحد الموظفين او خرج» (٢٤) .

وهذا يعني فصله من الوظيفة بمجرد تحديد موعد المحاكمة سواء حكم عليه أو له . لذا فأنه يمتلك احساساً عند مغادرته وهو انه «أصبح حراً من كل التزام» (٢٥) .

ومما لاشك فيه ان الحرية — في اكثر صورها بدائية — هي حرية الحركة ويرتبط المكان ارتباطاً لصيقاً بمفهوم الحرية «ويمكن القول ان العلاقة بين الانسان والمكان — من هذا المنحى — تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية ، وتصبح الحرية في هذا المضمار هي مجموع الافعال التي يستطيع الانسان ان يقوم بها دون ان يصطدم بحواجز او عقبات ، أي بقوى ناتجة عن الوسط الخارجي لايقدر على قهرها او تجاوزها» (٢٦)

اما الطرف الآخر الذي تنتهي عنده حركة الرواية في كل مرة هو البيت ، فبين البيت وبين الدائرة تتكرر حركة الشخصية ، لكن هل يجد (خليل) في بيته مايمنحه الدفء والأمان ؟

واذا كان «البيت هو واحد من اهم العوامل التي تدمج افكار وذكريات واحلام الأنسانية ومبدأ هذا الدمج واساسه احلام اليقظة ، ويمنح الماضي

---

(٢٤) الرواية /١٦٤ .
(٢٥) الرواية /١٦٤ .
(٢٦) مشكلة المكان الفني — يوري لوتمان — ترجمة سيزا قاسم دراز — مجلة الف ع ٦ لسنة ١٩٨٦ / ص ٨٢ .

والحاضر والمستقبل البيت ديناميات، مختلفة كثيراً ماتتداخل او تتعارض، وفي احيان تنشط بعضها بعضاً. في حياة الانسان ينمي البيت عوامل المفاجأة ويخلق استمرارية » (٢٧) ؛ (غانم الدباغ) يمر بالبيت مروراً سطحياً دون اعطاءه ملمحاً من ملامح الاهتمام والاهمية ذلك ان (خليل) «جائع نهم .. جائع لينطلق الى حيث لايدري .. جائع لأن يرى اناساً غير الذين يعايشهم ويتساءل دوماً مع خواطره ، هل يحسّ هؤلاء الذين يلتصقون بحياته قرفاً كالذي يخنقه في عالمهم الضيق، وهل تتآكل قلوبهم رغباته المحمودة الضاغطة عليه بشره ؟! بحرقة » (٢٨) .

ولعل لنشأة (خليل) اثرها الكبير في هامشية هذا المكان الاساس الذي تظل صورته باهتة الملامح حتى في ذاكرته ، وام خليل كادت تلده عند حافة النهر وهي تغسل الثياب :

«وازداد صراع الجنين في بطنها واخذتها دوامة من الالم ، وامسكت بخاصرتها وهي توشك على الصراخ فرمت المضرب الخشبي من يدها ومالت تستغيث :

« — اغيثيني .. دادا حسنية الولد سيسقط في الشط، خذيني الى الدار»(٢٩) .

وبعد سنين قلائل توفي والده فاصبح هو وامه واخوته في رعاية عمه حيث شغلوا الغرفة الصغيرة في باحة الدار الخلفية ، وهي الدار التي ابتناها (العم) حديثاً بعد ان باع دارهم القديمة ، لذا ثمة اضطرار لكي «تأكل ام خليل من قدر حسّنية وتربي اولادها الثلاثة من افضال عمهم زوج حسنية» (٣٠) .

(٢٧) جماليات المكان — باشلار /٣٨ .
(٢٨) الرواية /٦ .
(٢٩) الرواية /١٣١ .
(٣٠) الرواية /١٢٣ .

وبعد سنوات يدخل (العم) فجأة الى الدار ليجد (خليل) في وضع مريب مع ابنته فتثور ثائرته ويطرده مع امه واخوته حيث تظل كلماته التي وجهها (للأم) ترن في أذني (خليل):

« — ابنك هذا عار .. عار اسرتنا .. انه كأبيه والعار لايلد الا العار والعار هذه تلكمه ، تحرقه بمعنى آخر ، كان يجوس اعماقه خلال دراسته الطويلة والعقيمة معاً وقد أكلت من حياته قدر ماأكلته اخشاب المقاعد القاسية (٣١).

فيضطر إلى استئجار بيت صغير ذي غرفتين في زقاق (شيخ حنش) الذي يضطر (خليل) إلى اجتياز ثلاثة ازقة للوصول اليه . ان هذا البيت يعطي لحياة خليل «امتداداً جديداً لحياة ابيه ، فهو بديله» (٣٢) لذا فليس هناك ما يشد خليل إلى هذا البيت ، بل انه كلما اقبل عليه يتملكه «احساس المقبل على عالم تختنق فيه رغباته ، ويمتليء بالكآبة والجوع . تموت هذه الرغبات بين جدران الدار ، فلقاؤه بالثالوث المكون من امه واخته وأخيه ، يزهق تجدد الوهم المستمر لديه ، فها هو يتنفس تواجدهم اليومي معه ، يؤاكلونه . يثرثرون فيعكرون مخيلته عزاء انطلاقها من كبت نوازعه » (٣٣).

إنها ازمة (خليل) القلق المتأزم ، «فبدون البيت يصبح الانسان مفتتاً» (٣٤). وقلقاً «يدفع إلى مغادرة التوافق والتكامل والتناغم مع وجود معين ، إلى حالة توتر وتنافر مع هذا الوجود» (٣٥) .

(٣١) الرواية /٥ و٦ .
(٣٢) الرواية /
(٣٣) الرواية /
(٣٤) جماليات المكان — باشلار /٣٨ .
(٣٥) الاغتراب وازمة الانسان المعاصر د. نبيل رمزي اسكندر ص دار المعرفة الجامعية. سلسلة علم الاجتماع، قضايا الانسان والمجتمع — الكتاب الخامس عشر — الاسكندرية / ١٩٨٨ .

انه التشتت بعد فقد كل الأطر التقليدية التي كانت تحيطه او يفترض ان تحيطه بسياج الأمن والاستقرار وهذه مشكلة الانسان في العصر الحديث الذي «اصبح منفصلا انفصالا حاداً لم يسبق له مثيل سواء عن الطبيعة او المجتمع او الدولة او حتى نفسه وافعاله، وغير ذلك من الاسماء التي تطلق على كيانات هي بالنسبة له آخر لا سبيل إلى التواصل معه، فلم يعد قادراً على اقامة الجسور التي تصل بينه وبين هذا الآخر، المختلف المظاهر، والمتعدد الاسماء، واصبح بالتالي عاجزاً عن تحقيق ذاته ووجوده على نحو شرعي اصيل» (٣٦).

وليس هذا (خليل) وحده حسب، بل ان كل شخصيات الرواية الأخرى لا تتوقف عند بيوتها البتة اذ انها تخضع لجبرية واحدة، ويظل بالامكان التمييز في الفن عامة بين موقفين: «موقف المصالحة والقبول (او ما يسميه هربرت ماركوز التلاؤم وهو البعد الواحد) وموقف الرفض والهجس بالتغيير (او ما يسميه ماركوز بعد الممكن) والموقف الأول لا يجسد فجوة في تصور الانسان للعالم او سعياً إلى خلق صورة جديدة له. اما الموقف الثاني فإنه ينبجس من حس بوجود فجوة بين عالمين: العالم القائم والعالم الخفي، ومن نزوع حاد إلى تغيير العالم لا إلى ضمه فقط» (٣٧).

ويظل (الجنس) اللازمة المتكررة دوماً هو الخيط الذي يشد (خليل) إلى البيت فتلبثه المحدود عند البيت يرتكز على هذه الزاوية، فمع كل احاسيسه بالاختناق والاكتئاب كلما توجه إلى البيت، فان ظهور (ساجدة) «على عتبة بابها، وقد انفرج ما بين نهديها، وتهدلت خصلات من شعرها الأجعد تنادي ابنتها الصغيرة وتمط في النداء حين تلمحه، فتعطيه من عينيها المغموستين

(٣٦) الاغتراب – محمود رجب ٨/١. منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٧٨.
(٣٧) في الشعرية. د. كمال ابو ديب /٦٩ مؤسسة الابحاث العربية – بيروت /١٩٨٧

بالسواد ، زاوية مضيئة» (٣٨) يغير من وضعه النفسي كثيراً ، اذ تتصاعد دفقات الحنان إلى صدره فمع برمه بداخل البيت ولجوءه إلى الخارج ،فإن هذا اللجوء يمر من خلال مراقبة الخارج ضمن منظور جنسي لا غير .

فعبر فتحة صغيرة في الجدار الفاعل بين سطح داره وسطح الجيران يتابع (خليل) جلسة ابنة الجيران وهي تمارس العادة السرية .

«قبيل العصر . والشمس تلهب الفرش والوسائد المغطاة بالمزق واكياس الجنفاص المتهرئة ... كان ينز عرقاً..فاختار زاوية تحت ظل مستطيل لسريره ينكسر على جدار السلم الواطيء واستدار صوب الشرق،يتقي اشعة الشمس .. اندفع قليلا إلى الخلف،ولما كان بملابسه الداخلية فقد خدشت كتفه العارية نتوءات الحجارة الصلبة ، تلمس الجدار بيده بحثاً عن بقعة مستوية يتكيء عليها ، في بحثه عثرت اصابعه على ثقب صغير ينبعج على الدار المجاورة .. حدق بعين في الشق واغمض الأخرى..مر ظل ثوب نسائي .. بدت مساحة من فخذ عارية تسده الان ..» (٣٩)

ويستمر الدباغ في نقل تفاصيل حركة الفتاة وجلستها وتلفتها، لون ثوبها، ويدها المندسة بين فخذيها تتحرك صعوداً وهبوطاً .

ومن حاجز السطح ايضاً يرصد جارته(ساجدة) وهي «مضطجعة وقد اثنت ساقاً وارخت الاخرى فانحسر ثوبها حتى الخصر.. انغرزت عيناه اكثر حين تململت واتخذت وضعاً آخر فكورت عجيزتها إلى الوراء ..» (٤٠) .

هي محاولة للتغلب على العزلة من خلال هذا التركيز على الجنس «فالجنس من الاسباب الرئيسة للعزلة الانسانية .والانسان كائن جنسي ، اي انه نصف

(٣٨) الرواية /٧ .
(٣٩) الرواية /١١ - ١٢ .
(٤٠) الرواية /٣٣ .

كائن منقسم وناقص يسعى إلى ان يكون كاملا» (٤١) .

ومع ان الاتحاد الجسدي للجنسين — ينهي الشهوة الجنسية — ليس كافياً في حد ذاته للقضاء على العزلة ، بل انه قد يزيد من شدة الشعور الانساني بالعزلة لذا فإن غانم الدباغ يعمد إلى ممارسة القهر على المرأة للتخلص او للتخفيف من القهر الذي تعانيه شخوصه فيعمد إلى «اختزال للمرأة إلى حدود جسدها واختزال لهذا الجسد إلى بعده الجنسي: المرأة مجرد جنس ، او اداة للجنس ووعاء للمتعة» (٤٢) .

ومن الأمكنة التي تمر بها عجلة حياة (خليل) اليومية : **المقهى** او (مقهى شعبان) على وجه التحديد حيث تكون هذه المقهى جزءاً من الحياة اليومية لعموم الموظفين وخاصة في المساء .

والمقهى «جزء من تركيبة المدن الصغيرة التي ما زالت تحتفظ بقدر كبير من القبلية وقدر آخر من التحرر الآتي بفعل السكن والعمل»(٤٣). لكن غانم الدباغ لا يتوقف عند المقهى بوصفه محطة مكانية تضم بين جنباتها عوالم كثيرة ومتعددة بتعدد روادها ، وانما يجعل منها نقطة ترصّد باتجاهين :

الأول يقوم به (خليل) لينقل عبر ملاحظته حركة الزقاق والناس فيه مركزاً على حالة الفراغ والسأم التي تلف الجميع ، فالمدينة « نظام متكامل ونسيج محكم من قيم (الشر) والانحطاط وهي بؤرة لاستلاب الانسان وتغريبه عن انسانيته ووعيه ذاته والعلاقات السائدة فيها» (٤٤).

(٤١) العزلة والمجتمع . نيقولاي بردياثف — ترجمة فؤاد كامل — دار الشؤون الثقافية العامة الطبعة الثانية — بغداد /١٩٨٦ ص ١١٣ .

(٤٢) التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور — د. مصطفى حجازي ص ٣٢٩ منشورات معهد الانماء العربي ، بيروت ١٩٧٦ .

(٤٣) الرواية والمكان — ياسين النصير ٤٤/٢ . سلسلة الموسوعة الصغيرة (١٩٥) دار الحرية للطباعة — بغداد /١٩٨٦ .

(٤٤) البنية والدلالة — عبدالفتاح ابراهيم ١٨٢ .

يجلس (خليل) على اريكة فوق الرصيف تقابل مدخل الدرب إلى الزقاق الذي يسكن فيه لينقل لنا ما يرى :

«الطريق امامه يزدحم بالناس ، ارباب الحرف والاعمال يعودون إلى بيوتهم مبكرين . انفار من الشباب المتأنقين ، بعضهم يملأ المقهى . اخرون يذرعون شوارع المدينة .. اكثر الجالسين فيه من الكهول يحملقون في الطريق كأنهم يترقعون حدثاً ما في الشارع يذهب عنهم السأم ويمتص كآبتهم » (٤٥) .

والثاني يقوم به الشرطي من الشعبة الخاصة كي يتابع حركة الشباب واحاديثهم وعلاقاتهم ومعرفة اماكن سكناهم .

« احس خليل بخطى تتبعه ثم لمح وهو يتمالك قواه ليسير باستقامة ظلاً يمتد ويتقصر مع مساره عن الضوء ، التفت فجأة ، عرفه ! السري الذي يحتل ركناً من مقهى (شعبان) ، نفس التقاطيع ،الوشم الاخضر على ارنبة انفه والفودين الاشيبين فوق صدغيه .. ثم اطفأ النور ليطل من الشباك ، فرآه يقف امام الدار ويتفحصها ، ثم يخط شيئاً على ورقة تحت عمود النور..» (٤٦) .

واذا كان (خليل) قد اصبح اسير عادة سلوك الطريق إلى مقهى (شعبان) للتخلص مما يسميه بأزمة المساء ، فانه يكبح هذه العادة ، بعد ان يفهم اشارة جارته،واشتداد احساسه بكونها ستصبح طوع يديه حقيقة لا خيالاً من وراء فتحة السطح .. ها هو قد «كبح عادة الذهاب إلى المقهى عصراً،واتخذ مكانه عند النافذة يتطلع عبرها،فلمحها .. مفرجة ما بين ساقيها .. نفس اللباس المثقب ولحمها الاسمر يبدو غامقاً معتماً مثيراً ..» (٤٧) .

وعندما يدخل (خليل) الحمام العمومي وهو يتهيأ لموعده الغرامي فانه

---

(٤٥) الرواية /١٤ .
(٤٦) الرواية /٦٠ .
(٤٧) الرواية /٣٧ .

لايتوقف عند هذا الحمام، اذ ليس هناك وصف لملامحه الخارجية او تكويناته الداخلية وانما يتحول هذا الحمام إلى صورتين من الماضي معلقتين على الجدار في الغرفة الخشبية التي اعتاد على الجلوس فيها : الاولى صورة قديمة بهتت الوانها «تعود إلى ايام العثمانيين وقد طبعت ايام تظهير الصور تحت اشعة الشمس، صورة لصاحب الحمام يجلس مع افراد عائلته بالعقال المذهب» (٤٨) .

وصورة اخرى لا يكف عن التطلع اليها ، صورة عتيقة ممسوحة المعالم ، صورة لحالة سمع باحداثها، ولكنه لم يدركها . ففي ايام المجاعة التي عانت منها المدينة خلال الحرب العالمية الأولى لم يكن امام الناس الا اكل القطط والكلاب حية او نافقة، بل وصل بهم الأمر إلى اكل اللحم البشري اذ ظهر فيما بعد ان(عبود) كان يذبح الاطفال لبيع لحمهم إلى الاهالي وكانت ظاهرة اختفاء الاطفال من الظواهر التي اقلقت الناس وزادت هلعهم. واكتشف امر (عبود) فيما بعد وتبين انه كان يضع رؤوس الاطفال المذبوحين في بئر . فاستحضر صورة عبود ذباح الاطفال «وقد علقت جثته في ساحة...والجندرمة يحيطون بالمشنقة المكونة من ثلاثة اعمدة جمعت على هيئة مخروط يتحلق الناس حولها ويحلقون بغباء وذهول، مرتدين فوق رؤوسهم الطرابيش او العقال. ونسوة محجبات يتطلعن من السطوح المطلة على الساحة.. » (٤٩) .

والمبغى من الأماكن التي يزورها (خليل) مع صديقيه ، انه حصر متعمد يلجأ اليه الدباغ ليبقى بطله أسير ذاته وعبداً لرغباتها . « في الممر المعتم ، كانت السمسيرة الشهية تجلس على مقعد خشبي صغير بزيها الشعبي متحلية بقلائدها واساورها، وترتدي عمامتها المرصعة بالنقود الفضية والذهبية ، رحبت بهم بعربية ركيكة ودعتهم الى الجلوس ريثما تخرج احدى البنات». (٥٠).

---

(٤٨) الرواية /٤١ .
(٤٩) الرواية /٤١ .
(٥٠) الرواية /٧٦ .

ومع ان فتاة المبغى الجديدة كانت مثيرة الا أن الرغبة لدى(خليل) استحالت الى خيبة فخرج ساخطاً ، ومع انها اعجبته فتلمسها مشتهيا اياها برغبة لانها مازالت طرية لم تتقلب كثيراً في احضان الرجال لكن (خليل) يتذكر مغامرته مع جارته على حافة النهير الجاف:

«رغم الفراش الوثير الذي تعتليه والطمأنينة التي تحس بها هنا ، فالقلق على حافة النهير الجاف كان يعطي لحياتك معناها .. هناك على حافته .. كانت تستحثك ان تطيل حتى تسأم انت .. وهذه التي يتضوع عطرها .. ويلمع وجهها الوسيم بالمساحيق ويترجرج بطنها الصغير الذي لم يلد بعد ،، تنتظر بضجر ان تنهي ماتحسه محنة. » (٥١) .

حافة النهير الجاف هي المكان الأثير لدى (خليل) يظل يتذكره حتى وهو في المعتقل. فاليه اصطحب (ساجدة) جارته ، فهو يعرف المكان جيداً ،اذ كثيراً ماانتهى اليه مع جماعته خلال نزهاتهم ، والمنطقة نائية يرتادها من يريد الأبتعاد عن الصخب والضوضاء والزحام .

ويصف الدباغ هذا المكان ويحدده: « ففي موازاة الطريق يمتد مجرى ضحل لنهير صغير يصب في دجلة ، أقيم فوقه جسر حديدي ، وهو ينضب خلال الصيف .. وقد نبتت على ضفتيه شجيرات الغرب والعاقول والأشواك قادها من يدها عبر الطريق الموازي للنهير الجاف وتحسا باقدامهما طريقاً عبدته خطى السابلة نحو الضفة الأخرى ..» (٥٢) .

لكن (ساجدة) ظلت تخشى هذا المكان وتخافه وتطلب منه في كل مرة ان يبحث عن مكان غيره ، ويتحول هذا المكان في احدى المرات الى مكان لايطاق ، يحاط بالخطر والفضيحة :

---

(٥١) الرواية /٧٩ .
(٥٢) الرواية /٤٨ .

«وكان حسها بالخطر ذلك اليوم عجيباً .. وصلا المكان ونور القمر يملأ الأرجاء ..وهما في التحامهما سمعا لغطاً وضجة خافتة تقترب من جهة ما.. (كانت مجموعة من الصبية تبحث عنهما) . مشت امامه واجتازا الشارع الى حقل محروث فراحت تتعثر بالتربة الهشة . وسمعها تجهش بالبكاء فربت على ظهرها يهدىء من روعها :

ـ ها! انك تبكين؟

اشارت وراءها: ـ الأولاد ! لقد ادركونا.

واطبقوا عليهما .. ـ ألم أقل لك اني اخاف هذا المكان.» (٥٣) .

ومن الأماكن المعزولة الأخرى يركز الدباغ على كوخ مهجور في قريتهم القديمة ، وما يجري فيه من ممارسة تظل محفورة في ذاكرة (خليل) يهرب اليها عند أزماته: « أبدا تهرب الى الجنس عند ازماتك،وعلى ظلال وهم بعيد وسحيق في البعد .. جنس نيء ، ساذج وشاذ .. ومرة انفردت وآخرين بعيداً عن جموع الصبيان ، وكان هناك كوخ متداع ومهجور ، أرضه متربة ومن سقفه يتناثر القش والأعواد ، والفئران تقفز في ارجائه ، ورائحة عفن حاد يرتفع من زواياه المعتمة..» (٥٤) .

ان الدباغ يتعمد تقديم هذه الصورة للكوخ مكانا لممارسة ساذجة ستحدث، وكأنه يتعمد من وراء وصفه للكوخ ان يقدم صورة لثقل الفضاء الخارجي عليه و « لاتصبح مادة الكوخ حاجزاً متكاملا عن تداخل متوقع بين فضاء خارجي متسع وآخر داخلي محصور محدد ». (٥٥) .

(٥٣) الرواية /٦٤ - ٦٩ .
(٥٤) الرواية /١٧٦ .
(٥٥) الرواية والمكان - ياسين النصير ٢/٥٧ .

ان الدباغ يهيء المكان للمشهد الذي يريد تقديمه: « كنتم تلعبون ،فيشمـر رفاقك ثيابهم المتربة ويرفعونها الى الأعلى ، بل وينزعونها وهم لايرتدون السراويل.. ثم ينحني احدهم ويقفز الأخر من فوقه ثم يقوم هذا ليقفز من فوق الثاني.. لكن واحداً منهم وهو أكبر الصبية سناً لم يتجاوز صاحبه المنحني بل اعتلاه واستقر على مؤخرته..» . (٥٦) .

وعبر أزمة (خليل) واحباطاته فان الدباغ يعمد الى فتح بعض النوافذ والمسارب وان ظلت ملونة بلون الجنس والرغبة ، فعبر النافذة سمع صوت جارته ، وعبر النافذة رآها مفرجة مابين ساقيها وعبر النافذة يتبادل الأبتسامات معها والمواعيد .

وعلى متن العربة تنثال النشوة على (خليل) ويتلبسه بعض الزهو ويصر على الأجتياز مصطحبا (ساجده) مرتميا الى جانبها على متن العربة :

«عندما انتهوا الى ساحة الجسر الحديدي، ادار الحوذي نصف وجهه قائلا:

— تعبران الجسر؟

اجابه: طبعاً ..طبعاً نعبره» (٥٧) وعندما تجتاز العربة الجسر يسأل الحوذي عن الأتجاه:

«وكانت يده تندفع بجرأة أكثر وتتحسس طراوة لحمها وسخونته فهتف بالحوذي :

— رح ..رح الى الأمام» (٥٨) .

ان المكان الأليف هو مكان العيشة المقترنة بالدفء والشعور بان ثمة حماية

---

(٥٦) الرواية /١٧٧ .
(٥٧) الرواية /٤٦ .
(٥٨) الرواية /٤٧ .

لهذا المكان من الخارج المعادي وتهديداته، ويمنح هذا المكان فسحة للحلم والتذكر .

لكن (خليل) الدباغ لم يعرف مثل هذا المكان ، فظل يلتجأ الى الخارج ، وهو يعيش باستمرار لحظات التأزم والخوف والتبرم ،وكأنه يريد ان يذيب لحظات الضيق والتأزم تلك في الفضاء الخارجي .

ثمة امكنة اذاً لايشعر الأنسان بألفة نحوها ، بل يشعر بالعداء والكراهية لها ؛ وهي اماكن قد يقيم فيها تحت ظرف اجباري .

وامكنة الدباغ في روايته أمكنة لها مؤشراتهاالواقعية ،تحيا بين جوانبها الشخصية التي تظل تهرب خارج هذه الأمكنة . وهي شخصية لاتمتلك مكانها الذاتي.





شعراء ما قبل الإسلام في دائرة الموت

الدكتور علي كمال الدين محمد الفهادي
كلية الاداب – جامعة الموصل

ما أن خلق الله الإنسان حتى راودته هموم الموت والبقاء ، وكانت همومه تلك ثغرة تسلل منها الشيطان إلى نفس آدم عليه السلام فأقنعه بعصيان ربه لينال الخلود. قال تعالى : «ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين»(١) وقال سبحانه «فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» (٢) .

وقد ساور القلق الشاعر قبل الإسلام عندما فكر بالموت والفناء ، وكان قلقه باعثاً لقصائد ومقطعات تحدثت عن رحلة الناس إلى وادي الموت من غير رجوع وقد تمثل ذلك في قول عبيد بن الأبرص (٣) :

وكـل ذي غيبــــة يـــؤوب   وغائـب المـوت لا يـــؤوب

والشعراء الذين تحدثوا عن الموت وعن حتميته كثر ، ولكنهم تحدثوا عنه من خارج الدائرة أي أنهم لم يدخلوا في إطار موت محقق – حتى فيما يتعلق بالشعراء الذين تحدثوا عنه وهم في سوح الوغى عند مبارزة الأقران ، لأن أملهم بغلبتهم على الخصوم اكبر من شعورهم باقتراب الأجل – والبحث سيتناول الشعراء الذين دخلوا في دائرة موت أكيد محقق بمقاييسهم الدنيوية وقطعوا أملهم من الحياة أو كادوا في ثلاث مجاميع فمنهم من جرح جراحات بالغة

(١) سورة الاعراف ١٩ – ٢٠ .
(٢) سورة طه ١٢٠ .
(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣ .

قاتلة . فقال الشعر وهو ينزف بقايا دمه ، ومنهم من أسر وحكم عليه بالموت فهو يقول الشعر مرتقباً أجله،وهناك حالات أخرى أدخلت الشاعر في حلقة موت أكيد . فهو يحتضر من مرض عضال ، أو لدغة أفعى ، أو موافاة أجل فشعراء هذه المجاميع الثلاث. قالوا الشعر من محيط دائرة الموت. فكيف كانت اشعارهم تلك ؟ وكيف نظروا للحال التي هم عليها ؟هذا ما يود البحث سبر غوره وكشف خبيئه .

أولاً : شعراء جرحى

شعراء هذه المجموعة من الفرسان الذين عرفوا بالبأس في قبائلهم وبين العرب ومنهم من ضرب به المثل في الفروسية والإقدام ، وقد جرح هؤلاء فقالوا الشعر قبيل موتهم ، فهذا عنترة بن شداد العبسي أغار في أواخر حياته على قوم من طيء فرماه أحدهم بسهم قطع ظهره فتحامل عنترة حتى وصل أهله (٤) ، وقال وهو مجروح (٥) :

وإنّ ابن سلمى فاعلموا عنده دمي وهيهات لا يُرجى ابن سلمى ولا دمي
يحل بأكناف الشعاب وينتمي مكان الثريا ليس بالمتهضَّم
رماني ولم يدهش بأزرق لهذم عشية حلوا بين نعف ومخرم

لم يسعفه الزمن لينهل من شاعريته أكثر من هذه النتفة التي وجه فيها جل همه إلى تعيين قاتله بغية الثأر منه ، وسرعان ما يدرك ان دمه قد ضاع ، ربما لعلمه ببأس طيء، وربما لضعف ثقته بعبس التي ذاق منها الويل والأمرين لتعترف بنسبه ، أتراها اليوم تحارب طلباً لثأره؟وإن كان الشاعر قد اشار إلى

(٤) ينظر سياق الخبرفي الأغاني ٨/٢٩٩١ .
(٥) ديوان عنترة بن شداد العبسي ٣١٨ – ٣١٩ ينتمي : يتحصن . ليس بالمتهضم : لا يدرك مكانه فيه .
ازرق : صاف الحديدة مصقول . اللهذم : القاطع – النعف : رأس الجبل . المخرم : الطريف فيه .

منعة القاتل المحتمي في رأس جبل لا يدرك ويستعير لمنعته ببعد الثريا في السماء منوهاً ببطولة قاتلة؛ فقد رماه بسهم دون خوف أو تردد، ولكننا نحس بحزن عنترة وشعوره العميق بالأسى من خلال قوله «وهيهات لا يُرجى ابن سلمى ولا دمي» إنه اليأس من الحياة والحزن على مفارقتها في آن واحد، من غير ان يرثي نفسه أو يؤبنها. بيد ان جريحاً آخر لم يمت على الفراش بين اهله وقومه ولكنه مات على صهوة جواده وقد رهبه الأعداء وهو معصوب الجرح فهابوا ملاحقته وعزفوا عن ملاحقة ظعائنه كراهية للقائه، ففي ديوان حسان بن ثابت نقرأ: «أن بني سليم خرجت غازية بني كنانة فلقيهم ربيعة بن مكدَّم الكناني فقتل منهم أربعة نفر، وطعنه بعضهم طعنة جائفة، فانصرف إلى أمه مُثْبتاً فاستسقاها فأبت ان تسقيه. واخذت نصيفاً لها فعصبته على جراحه» (٦) فقال (٧):

شُدّي علي العَصْبَ أم سَيّارِ فقد رزيت فارساً كالدينارِ
في وهج الجيش المغير الكرّار ذا شوكة يضرب خلف الأدبار

قال ربيعة الشعر ثم وجه الظعن إلى مأمن ووقف على فرسه متكئاً على رمحه قال أبو عمرو بن العلاء: «ولا نعلم ميتاً ولا قتيلا حمى الظعائن غيره» (٨) إن الشاعر جريح ينزف الشعر والدم في مواجهة مع العدو، ولذا كان رجزه قوياً متوتراً، فيه الفخر والتأبين متلاحمان متفاعلان يتوقع لأمه الثكل مشبهاً نفسه بالدينار إشراقة ووضوح مكانه، ويشير إلى مكانه بين الجيش إغارة وكرّاً وقدرة على خرق صفوف العدو وضربه من الخلف، ليس ثمة حديث عن الموت او ذكر للثأر أو القاتل، وليس ثمة أسفٌ على الحياة، لقد كانت

(٦) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ٣٦٣ وينظر الخبر في الأغاني ٥٨٢١/١٦ جائفة: صرعه.
(٧) نفسه ٣٦٤.
(٨) الأغاني ٥٨٢٣/١٦.

فرصة الشاعر للبوح بشعره اقصر من فرصة عنترة ، وكان موقفه أقسى وقعاً وأشد ضراوة ، ولكنه آثر التأبين لأنه قال الشعر وهو يغالب جرحه ليواصل القتال ، وعنترة قال الشعر ليودع الحياة ، واراد ربيعة ان يخلد نفسه بذكر بطولته في الجيش ولم يأبه عنترة لذلك .

إن الجراح التي لم تتح لهذين الفارسين قول المزيد من الشعر قد أطلقت ، قريحة بشر بن أبي خازم الأسدي وأمهلته ليقول قصيدة تربو على أبياتهما فقد رمى غلام الشاعر بسهم في ثديه الأيسر فأثخنه ، وأسر بشر الغلام ثم أيقن في الطريق أنه ميت . فأطلق الغلام ، وقال له : أبلغ قومك انك قتلت بشر بن أبي خازم ، ثم اجتمع اليه اصحابه فقالوا له: أوص. فقال ، هذه القصيدة وهو يجود بنفسه (٩) . وتنتظم القصيدة في عشرين بيتاً يبدؤها بالتساؤل عن ابنته عميرة التي تستطلع أخباره من الجيش وتأمل ان يعود اليها بالنهب والأموال كعادته في كل غارة ، وهي لاتعلم ان هذه الغزوة لم تكن لأبيها بل كانت عليه فأصيب بسهم قاتل . يقول بشر :(١٠)

١ – أسائلة عميرة عن أبيها   خلال الجيش تعترفُ الركابا

٢ – تؤمِّلُ أن أؤوب لها بنهب   ولم تعلم بأنَّ السهم صابا

ثم يصف لابنته بأس قاتله الذي رماه بسهم صائب لايطيش في قلبه وقد وصف عنترة بأس ومنعة قاتله من قبل فأنصفه كما انصف بشر قاتله :

٣ – فإن أباكِ قد لاقى غلاماً   من الأبناء يلتهب التهابا

٤ – وإنَّ الوائلي أصاب قلبي   بسهم لم يكن يكسى لُغابا (١١)

(٩) ديوان بشر بن ابي خازم الأسدي . مقدمة الديوان ٣٢ – ٣٣ وهامش القصيدة ٥ .
(١٠) نفسه ٢٤ – ٣٠ تعترف : تسأل عن خبر ، الركاب : الإبل واراد القوم .
(١١) اللغاب : الريش الرديء اذا ريش به السهم طاش .

ويتحدث بشر عن موته وغيابه عن الحياة ويضرب بذلك مثلا بغياب القارظ العنزي الذي ذهب بلا عودة فضربت العرب بطول غيابه المثل ليوئس ابنته من رجوعه .

٥ — فرجّي الخير وانتظري إيابي   إذا ما القارظ العنزي آبا

ثم يحدد مكان قبره باستعارة الباب الذي هو من لوازم البيت ويخبرنا بمكوثه في اللحد ، وأن لابد من الموت ويشعر بالأسى والأسف على غربته وحيداً نائيا غريبا .

٦ — فمن يكُ سائلا عن بيت بشرٍ   فإنّ له بجنب الرِّدْهِ بابا (١٢)

٧ — ثوى في مُلحدٍ لابُدَّ منه   كفى بالموت نأياً واغترابا

لقد صاغ لنا حزنه بصيغة المثل بقوله (كفى بالموت نأيا واغترابا) فكثف تجربة البشرية بغربة الأموات وما تثيره تلك الغربة من حزن ولوعة في قلوب لأحبة الأحياء ولامس مشاعرنا برفق وعمق فأحيا فيها الأسى والحزن ، والتعاطف معه بلمحته السريعة الخاطفة المتمثلة ببعد المسافة والزمن بين الموت، والحياة . لقد كان الفرزدق وجرير محقين في اعجابهمابهذا البيت فقدّما صاحبه على سائر الشعراء (١٣) .

إن بشراً يرثي نفسه ويأسى لمصيره في قبر موحش بلا أنيس ثم يعزي نفسه بأن كل الفتيان مصيرهم الى البلى والأجل المحتوم ، فلا جرم أن يستفيض دموع ابنته ويؤجج في صدرها النحيب :

٨ — رهين بلىً ، وكلُّ فتىً سيبْلى   فأذري الدمعَ وانتحبي انتحابا

(١) الرده : موضع في بلاد قيس دفن فيه الشاعر .

(١٣) العمدة ١/٩٥ — ٩٦ .

ويصوغ لنا مثلا آخر من حتمية الموت يعزي به ابنته ، ولربما يعزي به نفسه أيضاً :

٩ – مضى قصد السبيل ، وكلُ حيٍّ
اذا يدعى لميتته أجابا

وينتقل من رثاء نفسه إلى تأبينها، مقدما هذا التأبين لابنته أيضاً ويحاول من خلاله أن يتمسك بالخلود ويتشبث بالبقاء في ذاكرة الناس بعامة وفي ذاكرة قومه وابنته بخاصة ، بما يرسمه في شعره من لبنات بناء الحب العريق.وأول هذه اللبنات قوده الجيوش،فقد لقي جيشا للاعداء يزحف نحوه وقد ملأ السماء غبار خيله ، فبدا كأنه الضباب ، فقابله الشاعر بجيش كأنه ريح الشام اذا حملت السحاب والتحم معه :

١٠ – فإن أهلك عُمَيْرَ فرب زحف
يشبَّه نقعُه عَدْواً ضبابا

١١ – سموتُ له لألبسهُ بزحفٍ
كما لفّتْ شآميةٌ سحابا

وثاني تلك اللبنات امتلاكه فرساً خفيف القوائم سريعاً يتسلل بين الخيل بسرعة فائقة .

١٢ – على ربذٍ قوائمه اذا ما
شأته الخيل ينسرب انسرابا[١٤]

ثم يصف نفسه على ظهر فرس قوي – بالثقة والحزم والجلد أمام نكبات الدهر ونوائبه ويؤبن نفسه بالصبر على شدة الحرب واختلاف الرماح وركض العذارى خيفة السبي ، ومهما طال تشاجر الأبطال واستعار الحروب فإنه صبور عند اللقاء .

١٣ – شديد الأسر يحمل أريحياً
أخاثقة إذا الحدثان نابا

(١٤) شأته الخيل : سبقته . ربذ : خفيف القوائم .

١٤ ـ صبوراً عند مختلف العوالي اذا ماالحرب أبرزت الكعابا
١٥ ـ وطال تشاجر الأبطال فيها وأبدت ناجذاً منها ونابا

وتتوالى التشبيهات «النقع بالضباب ، وغبار الزحف بريح الشام والسحاب ويستعير لضراوة الحرب صورة الناقة العضوض» ويتصاعد الغضب في نفسه ويتأجج التحدي لأعدائه ويعتذر بلباقة وكبرياء عن رفضه للموت لأن موعده جاء مبكراً قبل أن يحقق أمانيه ببطولات جديدة يسحق فيها أعداءه من قبائل كعب وكلاب ويلقى خيل الطامعين فيرد كيدها الى النحر ويشعل معركة ، ضارية مليئة بالحركة تلتبس فيها الخيل،فلا يبدو العدو من الصديق ، ولاترى فيها غير حركة السيوف مبارزة وضرباً ، والرماح طعناً هابطة نازلة .

١٦ ـ فعزّ عليّ أن عجلَ المنايا ولما ألق كعبا أو كلابا
١٧ ـ ولما ألق خيلاً من نمير تضب لثاتها ترجو النهابا (١٥)
١٨ ـ ولما تلتبس خيلٌ بخيل فيطعنوا ويضطربوا اضطرابا

ثم يفخر بقومه مشيراً إلى عزتهم ومنعتهم وغلبتهم فيقول :

١٩ ـ فيا للناس إنّ قناة قومي أبتْ بثقافها إلاّ انقلابا
٢٠ ـ همُ جدعوا الأنوف فأوعبوها وهم تركوا بني سعد يبابا (١٦)

وهكذا حاول أن يخلدّ قومه بخلوده ويسجل مآثره ومآثرهم في ختام قصيدته وختام حياته .

---

(١٥) تضب لثاتها : يتحلب ريقها .
(١٦) اوعبوها : استأصلوها . اليباب : الخراب .

ثانياً : الشعراء الأسرى

قال شعراء هذه المجموعة الشعر مـن دائرة الموت ، فبعضهم قتلُ بعيد أسرة نحو : الشنفرى وعبيد بن الأبرص وبعضهم قتل بعد أن مضى زمناً في السجـن أو الأسر نحو طرفة بن العبد وعبد يغوث .

يروي لنا صاحب الأغاني ان بني سلامان لما أسروا الشنفري « أدوه الى أهلهم ، وقالوا له : أنشدنا ؛ فقال: انما النشيد على المسرّة ، فذهبت مثلا ثم ضربوا يده فتبعصصت » (١٧) فقال في ذلك (١٨) :

لاتبعدي إمّا ذهبت شامـــهْ فربَّ وادٍ نفرّتْ حَمـــامـه
وربّ قِرنٍ فصلتْ عظامه وربَّ حيٍّ فرّقت سَـوامـه

لقد رفض الشنفري الأنشاد عند اسره ولكنه ارتجز يؤبن يده ويخاطب شامة سوداء فيها، إن الشعر الأصيل يمتلك قدره فائقة على الأستجابة للتحدي كما يمتلك روح الخلود والبقاء والشاعر لاشك في أنه يدرك هذه القوة ويتواصل مع هذه الروح ، ولذلك يسجل لنفسه الخلود في ذاكرة الأمة بتأبين يده التي نفرّت حمام الوديان وفصلت عظام الشجعان ، وساقت ابل الحيّ عَنْوة غنيمة له .

إن براعة الشاعر في تكرار «رب» اتاحت له مضاعفة البطولات التي نفذتها يده وتتابع الجولات والصولات التي جالها وصالها قبل فراقها ، فإن تذهب اليوم فقد أدت ما عليها ووفّت،واستحقت ان يدعو لها بالخير «لا تبعدي»، فإذا علمنا أن جلّ غاراته كانت على بني سلامان الذين قطعوا «شامة» أدركنا ما ينطوي عليه ذلك التأبين من جرأة وتحد وادركنا ما في نفس الشاعر من إرادة عنيدة لا تلين،إنه إلى آخر لحظة يستهين بهم ولا يريد ان يتيح لنفوسهم

(١٧) ينظر تفاصيل خبر مقتله في الأغاني ٨٣٩٦/٢٤ .
(١٨) نفسه ٨٤١٣/٢٤ .

التي تغلي حنقاً وغيضاً شفاء غليلها في رغبة الثأر والانتقام منه . قالوا له من قبل انشدنا . فقال : النشيد على المسرة . ثم قال له أحدهم: أأطرفك ثم رماه في عينه ، فقال الشنفري له : كذلك كنا نفعل، وكان إذا رمى رجلا منهم يقول له : أأطرفك ؟ ثم يرمي عينه . وفي جوابه «كذلك كنا نفعل» حرمان لهم من التشفي أو اطفاء نار الغيظ وإمعان في تحديهم، ويستمرون بمحاولة التشفي به . فقالوا حين أرادوا قتله : اين نقبرك ؟ فقال (١٩) :

١ – لا تقبروني إنّ قبري محرم   عليكم ولكن أبشري أم عامر (٢٠)

إنه يحرم عليهم دفنه وكأن في دفنه خلاصاً لهم منه فهو يتحداهم ويحرمهم من نسيانه إذا قبر ، ويريد لجثته أن تبقى شبح خوف لبني سلامان ومنغصاً لأمنهم وطمأنينتهم كلما رأوها من ناحية ، ومن ناحية اخرى كأن الشاعر يحس بأن القبر سجن جديد وأسر آخر ، أو حرمان من الحرية التي ينشدها في الأرض الفضاء ، وطالما عاش متشرداً بين سباع الأرض فمن حقها ان تأكل لحمه ولها في ذلك البشرى، وفي هذه البشرى استخفاف بالموت وتنعم بحرية حرم منها يوم عاش بين بني سلامان مرة ويوم اسروه واوثقوه مرة ثانية .

٢ – اذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري

وغودر عند الملتقى ثمّ سائري

هنا تبدأ العاطفة بالتغير وتنتهي لهجة التحدي ويخفت الصوت تباعاً ليتناسق مع طقوس الموت، وحمل الجثة ومغادرتها عند ملتقى الطريق ، وهنا يحس بالموت إحساساً عميقاً لكنه لا يصرح به بوضوح ، بيد اننا ندركه من نغمة الأسى المرتبطة بانقطاع الرجاء والأمل بالسرور «آخر الليالي» – موعده مع الغارات والغزوات التي كان مسروراً بشنها – مأخوذاً بذنوبه .

(١٩) الاغاني ٢٤/٨٣٩٧ .
(٢٠) ام عامر : كنية الضبع .

٣ – هنالك لا ارجو حياة تسرني   سمير الليالي مُبسلا بالجرائر (٢١)

والشاعر الآخر الذي قال الشعر قبيل موته عبيد بن الأبرص الذي كان مقتله نزوة من نزوات المنذر بن ماء السماء ، قتله في يوم بؤسه ، وقال له لما اراد قتله : انشدنا قولك (٢٢) :

اقفر من أهله ملحوب

فقال عبيد :

١ – اقفر من أهله عبيد   فاليوم لا يبدي ولا يعيدُ
٢ – عنّتْ له منيّةٌ نكودُ   وحانَ منها له ورود

الشاعر في هذا الموقف في دهشة من أمره فهو محكوم بالقتل بلا جناية أو ثأر أو حرب أو ايّ مما يقتل به الناس،إنه يقتل بنزوة للمنذر ندماً على نزوة قتل سبقتها ،والقاتل المتغطرس يريد من القتيل ان ينشده الشعر ليستمتع به ويطرب لإنشاده، وليس للشاعر حول أو قوة لرد القتل ، أو المروق بجلده ، أو الحاق الأذى بقاتله،ومن يدري فلربما يطلقه المنذر لو مدحه بشعر أو استعطفه بقصيدة،وربما عنّ ذلك للشاعر ولكنه رفض أن يمدح أو يستعطف ولم يذنب ولم يقترف إثماً ، وربما كان يائساً من عطف المنذر أيضاً،ولكن الذي لا شك فيه ان الشاعر كان يمتلك سلاحاً فاتكاً يؤذي المنذر ويسوّد صفحته إلى أبد الآبدين، وذلك بأن يرميه بقافية من الشعر تهز مكانه بين قبائل العرب وتسمه

(٢١) سمير الليالي : اخرها . مبسلا : مسلماً . الجرائر : جمع جريرة وهي الذنب يجره الرجل على قومه .

(٢٢) كان المنذر بن ماء السماء قد نادمه رجلان من بني اسد فأغضبا في بعض المنطق فأمر بهما فدفنا بظهر الحيرة ، حتى اذا اصبح ندم على ذلك وامر ببناء صومعتين عليهما ، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند قبريهما يسمى احدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس ، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل ، واول من يطلع عليه يوم بؤسه يأمر به فيذبح ويغرى بدمه القبران ، وقد اشرف عليه عبيد في يوم بؤسه . ينظر الأغاني ٢٨/ ٩٦٦٩ وديوانه ٤٥ .

بمبسم يصل بألم الكي إلى صميم فؤاده،والموت موت ، فليفعل بعدها الملك ما يشاء،لكن الشاعر لم يلجأ إلى سلاحه لبقية أمل في نفسه ،أو لخوفه من المنذر،أو أن الأمر لم يخطر بباله أساساً، ومهما يكن الأمر فإنه وصف حاله بأنه لا حول له ولا قوة فهو(لا يبدي ولا يعيد)وقد حانت منيته بغيضة محزنة محيرة ، ويلح عليه المنذر مستنشداً فيأبى عليه ما يريد من الشعر وينشد ما لا يعجب قائله (٢٣) :

١ ـ والله إن مِتُّ ما ضرني وإن عشتُ ما عشتُ في واحدة

يسلم الشاعر نفسه للموت قانعاً بحتميته ، ويقسم بأنه لا يبالي اعاش ام مات ، فالأمر أمامه سيّان ، ثم يوجه الموعظة إلى بنيه وإخوته ، فإن النفوس مؤجلة إلى أجل يوافيها مهما كرهت ذلك :

٢ ـ فأبلغ بنيَّ وأعمامهم بأن المنايا هي الواردة
٣ ـ لها مدّة فنفوس العباد إليها وإن كرهت قاصدة

يحاول بعد ذلك تعزية نفسه من خلال تعزيتهم فيصوغ التعزية مثلاً «للموت ما تلد الوالدة» .

٤ ـ فلا تجزعوا لحمام دنا فللموت ماتلد الوالدة

فالمثل تكثيف لتجربة الأنسان مع الموت طوال حياته وعصوره وكل الولادات تؤول إلى الموت ، وإذا كان الأمر كذلك فإن الحياة لاتسر وإن الموت لايحزن

٥ ـ فوالله إن عشتْ ماسرّنيْ وإن متُ ماكانت العائدة

هكذا بدأ بالله يقسم مستهينا بالموت وانهى الأبيات بقسم يستهين فيه بالحياة ، وتوجه إلى أهله بوصية يعظهم فيها أن يتقبلوا الموت بتسليم .

---

(٢٣) ديوانه ٤٦ .

واما طرفة بن العبد البكري فقد هجا عمرو بن هند ملك الحيرة ، فكتب رسالة إلى عامله على البحرين يأمره فيها بقتل طرفه ، وأرسل الرسالة بيد الشاعر موهماً إياه بأنها تضم أمراً بتكريمه واجازته، ولما تسلم عامل البحرين الرسالة أمر بالشاعر فأودع السجن تمهيداً لقتله. فأخذ يحرض قومه على نجدته واطلاقه من السجن ولكن تحريضه ذهب هباء، ولم يستجب قومه لندائه (٢٤)

وطرفة هو الذي آل على نفسه أن يكون أول ملب لداعي قومه وعشيرته إلى الملمات والخطوب والحروب فقد نذر نفسه لذا: (٢٥).

٦٤ – اذا القوم قالوا من فتى خلت أنني

عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وصار اليوم رهين الحبس تمهيداً لقتله ، فكيف يناشد قومه أن يهبوا لنجدته ؟ وما موقف قومه منه ومن سجنه؟ وقد بين لنفسه تصوراً عن الموت وحتميته فصور الأنسان رهين حبل في يد المنية: (٢٦)

٨٩ – لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

لكالطول المرخى وثنياه باليد

٩٠ – متى يشاء يوماً يقده لحتفه ومن يك في حبل المنية ينقد

لقد آل أمر الشاعر إلى الحتف والموت ، فكيف يسجل بشعره هذا المآل؟ وهل يتغير رأيه الذي رآه في حتمية الموت ، وهو خارج دائرة الموت بعد أن خطا إلى داخلها؟ يقول طرفة : (٢٧)

١ – ياحقبة السوء بنا اسْجَحِنْ قدكنت عن هضبتنا نازحة (٢٨)

---

(٢٤) ينظر خبر الرسالة وخبر مقتله في الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد . تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته ١٣ – ١٥ .

(٢٥) نفسه ٤٥ .

(٢٦) نفسه ٥٣ – ٥٤ الطول : الحبل . ثنياه : طرفاه .

(٢٧) نفسه ٢٥ – ٢٦ .

(٢٨) اسجحن : ارفقن . الهضبة هنا : العز . نازحة : بعيدة . فادحة : عظيمة .

٢ — أسلمني قومي ولم يغضبوا لسوءة حلّت بهم فادحه (٢٩)
٣ — كل خليل كنت خاللته لاترك الله له واضحة (٣٠)
٤ — كلهم أروغ من ثعلب ماأشبه الليلة بالبارحة (٣١)

ان الشاعر يألم لأنه في قبضة الموت ، وقد كنا نتوقع منه ان يكون أكثر استسلاماًللموت أو القتل في ساحة المعركة حين يحين، ولكن غضبه هنا ليس سببه الموت أو القتل ؛ بل الغدر والخديعة والخذلان قومه الذين تخلوا عنه فأسلموه للقتل — وما كان ليسلمهم — فأصيب بخيبة أمل كبيرة وإحباط ولذلك يلقي بعض لومه على الزمن «حقبة السوء» وجلّه على أصحابه وقومه ويشبههم بالثعالب في روغانها وحيدها عن الحق والصواب ويدعو الله ان يمحق أسنانهم جميعاً فكلهم سواء .

لقد أتاح السجن للشاعر زمناً يتفنن فيه بصوغ الشعر فاستعار للزمن صفة الأنسان وطلب الرفق منه وكنّى عن العز والرفعة بالهضبة ، وشبّه صحبه وأخلاءه بالثعالب في روغانها وضرب لتشابههم في سوء فعلتهم مثلا بتشابه الليالي السود «ماأشبه الليلة بالبارحة» .

ولما تأخر قومه عن نصرته خاطبهم ثانية ، ولكن بغضب وانفعال وتعنيف واذا كان في المقطوعة الأولى قد دعا عليهم بسحق أسنانهم ، فانه في هذه المقطوعة سوف يدعو عليهم بقطع آذانهم ،ويذكر أسماء سادتهم ورؤساء البيوت في عشائرهم ؛ لأنهم لم يهبوا لنجدته ، ولم يدافعوا عن أحسابهم وقيمهم (٣٢)

---

(٢٩) اسلمني : خذلني . السوءة : الخلة القبيحة .
(٣٠) الواضحة : الاسنان تبدو عند الضحك .
(٣١) اروغ : من الروغان وهو الميل عن الحق .
(٣٢) الشاعر الجاهلي الشاب ٢٣٢ — ٢٣٣ .

١ ـ أبلغ سراة بني بكر مغلغلة

فجدَّع الله من آذانها اليُمُنا (٣٣)

٢ ـ عنيت ثعلبةَ العجلّي مألكةً

عند الحوادث اذا ألّى واذ غبنا (٣٤)

٣ ـ والمرءَ قيساً يرى نوّاحةً بعثت

تبكي لبيت ولاتبكي به شجنا (٣٥)

ثم يبلغ به الغضب مبلغاً فيهجو هانئا ويفحش في هجائه فيقول:

٤ ـ وهانئاً هانئاً في الحيِّ مومسةً

ناطت سخابا وناطت فوقه ثكُنَا (٣٦)

فهو لايسلب هانئا رجولته ويحيله امرأة فحسب ، بل يسلب هذه المرأة شرفها حينما يجعلها مومسةً تتزين اغواء للرجال ، وفي هذا حط أي حط من مكانة هانئ، ولكن طرفه يرى انه يستحق هذه المكافأة لتقاعسه عن نصرة فارس من قومه ، ولقعوده عن بناء ذكرهم الحسن :

٥ ـ مادافعوا فيرى فيهم مكانهُمُ

ولاسمعنا لها من ذِكرِها حَسَنا

وقد عقد الشاعر لقيس (البيت الرابع) مشابهة بين رئاسته بيتا من بيوت بكر وادعائه الحرص على أحسابها ،وبكاء النائحة المستأجرة التي تبكي في

---

(٣٣) سراة : جمع سري وهو الشريف . مغلغلة : رسالة تحمل من بلد إلى بلد .
(٣٤) ثعلبة : يعني بني ثعلبة وهو احد اجداد طرفة . مألكة : رسالة . ألى : قصر وابطأ .
(٣٥) نواحة : النواحة تبكي بكاء ظاهرياً ليس من قلبها .
(٣٦) ناطت : علقت . السخاب : قلادة من سك وقرنفل ومحلب بلا جوهر .
الثكن : جمع ثكنة : وهي القلادة .

البيت بكاء ظاهرياً يخلو من الحزن والدموع وقد قالوا قديما ليست النائحة كالثكلى ثم يشبه هانئا تشبيهاً مهينا بالفاجرة البرزة تبغي الرجال .

إن استغاثة الشاعر بقومه وصرخاته وشتائمه لم تثمر نخوة في نفوس قومه فلم يفزعوا لإنقاذه واسلموه للموت، فلما يئس منهم وحان حينه قال يصف خشبة صلبه حزيناً يائساً (٣٧) :

١ – فمن مبلغ احياء بكر بن وائل   بأن ابن عبد راكب غير راجل (٣٨)

٢ – على ناقة لم يركب الفحل ظهرها   مشذبـة اطرافهـا بالمناجـل

لقد منح الزمن ذلك الفتى هنيهة اخيرة قبيل صلبه ، فأفاد منها لصوغ استعارة جميلة لخشبة القتل التي شبهها بناقة شذبتها المناجل .

اسلم الموت طرفة إلى حالة هجا فيها قومه وافحش في هجاء سري من سراتهم لأنهم وقفوا منه نقيض موقفه الذي اعلن عنه في معلقته «اذا القوم قالوا من فتى» . وألم ذلك نفسه وأغضبها فنسي من جراء ذلك نفسه، ولم يبحث عن الخلود ليسجله في ذاكرة الأمة ولم يحاول ذكر بطولاته ومآثره الشخصية، ولم يصغ لنا أفكاره وحكمه وتجاربه في الحياة شعراً ولم يحاول ان يكون واعظاً أو حكيماً، ليس ذلك وليد خوف أو رعب ولكنه وليد غضب وشعور بالخيبة والإحباط ، شعور أنساه تأبين نفسه وتخليد مآثرها وهذا خلاف لما آل اليه امر شاعر آخر خذله قومه ولكنه لامهم وحاول تخليد نفسه بتأبينها وذكر مآثرها ألا وهو عبد يغوث الحارثي .

كان عبد يغوث رئيس عشيرته (مذحج) وقائدها في يوم (الكُلاب) بين مذحج وقبائل «تيم» ووقع اسيراً بعد أن فرّ عنه أتباعه وبقي يدافع عن نفسه

(٣٧) الشاعر الجاهلي الشاب ٢٢٧ .

(٣٨) الناقة هنا : الآلة الخشبية التي ربط عليها ليقتل .

واراد ان يفدي نفسه من الأسر فأبى عليه أعداؤه ذلك وقالوا نقتله بدم النعمان ابن جساس الذي قتل في اليوم نفسه ولم يكن الشاعر قاتله ، وكانوا قد شدوا لسانه لئلا يهجوهم ،فلما يئس من إقناعهم بالفدية طلب اليهم أن يطلقوا لسانه لينوح على نفسه فأستجابوا لطلبه،وسقوه الخمر ، ثم قطعوا له عرق الأكحل فنزف حتى مات (٣٩) ، وقال حين جهز للقتل (٤٠) :

١ ــ ألا لا تلوماني كفى اللّوم َ ما بيا   وما لكما في اللّوم خير ولا ليا

٢ ــ ألم تعلما أنّ الملامــةَ نفعُها   قليل ، وما لومي أخي من شماليا(٤١)

ليس بالشاعر حاجة إلى اللوم ففي النفس ما يكفيه من مشاعر الأسى ، فلا نفع للوم وما من خلقه لوم أخيه ، ولكن في النفس مشاعر غربة واحاسيس من الشوق دفعته إلى توجيه رسالة إلى قومه يعلمهم ان لقاءه مستحيل :

٣ ــ فيا راكباً إما عرضت فبلغَنْ   نداماي مـن نجران أن لا تـلاقيـا

ويلوم قومه وأحلافهم على فرارهم وهزيمتهم :

٥ ــ جزى الله قومـي بالكـلاب ملامـةً

صريحهم والآخريـن المواليـا (٤٢)

ثم يلتفت إلى نفسه يلتمس لها العذر في وقوعه أسيراً ، فهو لم يطلق عنان فرسه لينجو ، وإنما قاتل حتى أخذته رماح العدو وبهذا يبدأ تأبين نفسه :

٦ ــ ولو شئـت نجتنـي من الخيل نهدةَ

ترى خلفها الحُوَّ الجياد تـواليـا (٤٣)

---

(٣٩) ينظر تفصيل خبر موته في الأغاني ١٧/٦١٥٩ – ٦١٦٦ .

(٤٠) المفضليات ١٥٥ – ١٥٨ .

(٤١) الشمال : الخلق . جمعها شمائل .

(٤٢) الكلاب : بضم الكاف ، يوم بين اهل اليمن وتميم وفيه اسر الشاعر .

(٤٣) النهدة : المرتفعة الخلق . الحوة : الخضرة ،والأحوى من الخيل ما ضرب لونه إلى الخضرة .

٧ ـ ولكنني أحمي ذمار ابيكم

وكان الرماح يختطفن المحاميا (٤٤)

ويصف شجاعته وحرصه على نقاء حسب أبيه ودفاعه عنه ، ومن كان شأنه كذلك فلا بد أن تناله الرماح يوماً قتيلا أو أسيراً ويصوغ لنا هذه الحتمية بصيغة المثل «وكان الرماح يختطفن المحاميا» . ثم يستعطف أسريه ـ خلافاً لما فعله الشنفرى وعبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد ـ ويذكر مفاوضته إياهم على الفدية ويبرىء نفسه من دم النعمان بن جساس فيقول :

٨ ـ أقول وقد شدوا لساني بنسعة

أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا (٤٥)

٩ ـ أمعشر تيم قد ملكتم فاسجحوا

فإن أخاكم لم يكن من بوائيا (٤٦)

١٠ ـ فإن تقتلوني تقتلوا بي سيداً

وإن تطلقوني تحربوني بماليا (٤٧)

ويخيم شبح الموت على نفسه فتنتابه مشاعر الألم والشوق إلى ارضه واهله واحس بالغربة التي احس بها بشر بن أبي خازم قبله :

١١ ـ احقاً عباد الله أن لست سامعاً

نشيد الرّعاء المعزبين المتاليا

---

(٤٤) الذمار : ما يجب على الرجل حفظه كنمة الجار وطلب الثأر .

(٤٥) النسعة : بكسر النون سير يضفر من جلد .

(٤٦) اسجحوا : يسروا امري في الفداء وارفقوا بي . اخاكم : النعمان بن جساس البواء : ان يقتل الرجل برجل ، فيصير دمه بدمه .

(٤٧) حربه : اخذ ماله كله ولم يبق شيئاً .

١٢ ـ وتضحك مني شيخهُ عبشميةُ
كأن لم ترى قبلي اسيراً يمانيا

ويعود الشاعر لتسجيل مآثره وصولاته مضفياً على نفسه شجاعة الأسود ويؤبن نفسه بذكر كرمه ونحره الجزور للضيف، ومطيته للندماء الكرام وسماعه الغناء حتى يطرب فيمزق ثيابه من فرط السكر والطرب. وقد قال ذلك تعزية لنفسه وتسلية ليقنعها بأنها قد عبّت من ملذات الدنيا ما شاءت فلا اسف على الحياة عند الموت.

١٤ ـ وقد علمت عرسي مليكة انني
أنا الليثُ معدواً عليَّ وعاديا

١٥ ـ وقد كنت نحار الجزور ومعمل ال
مطي وأمضي حيثُ لاحيَّ ماضيا

١٦ ـ وانحر للشرب الكرام مطيتي
وأصدع بين القينتين ردائيا

ويعود من الملذات إلى التأبين بالبطولة ليخلد شجاعته وبأسه بشعره ويباهي بتصرفه بفنون القتال إذا اشتد التطاعن بالرماح حتى تنفر الخيل، هنالك تأتي براعته في تصريف القناة بجرأة ومهارة :

١٧ ـ وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا
لبيقا بتصريف القناة بنانيا (٤٨)

ثم يفاخر بأنه يردّ الخيل المغيرة الكثيرة كثرة الجراد خائبة مدحورة على الرغم من أن فرسانها يتجهون اليه برماحهم :

---

(٤٨) شمصها : نفرها .

١٨ - وعاديـــة سوم الجـراد وَزَعتهـا
بكفي وقد أنْحَوا اليَّ العـــواليـا(٤٩)

لقد انقضى عمره بسرعة وكأنه لم يعش ذلك الزمن الذي شغل به نفسه بركوب الخيل وإغاثة الملهوفين وتقديم الخمر وإيقاد نار الضيف:

١٩ - كأني لم أركب جواداً ولم أقـــل
لخيلي كرّي نفسي عـن رجاليـا

٢٠ - ولم أسبأ الزق الرويَّ ولم اقــل
لإيسار صدق . أعظموا ضوء ناريـا(٥٠)

هكذا ودع الدنيا والقصيدة ونفسه بملذات الحياة ، جمعها في بيتين :- الفروسية والشجاعة والخمر والكرم (٥١) .

ثالثا - شعراء وافتهم المنية

وهم الذين اجتازوا عتبة الموت وخطوا الى دائرة بين يدي أجل محقق ، وأولهم أمرؤ القيس بن حجر الذي كان أبوه ملكاً على كندة فقتلته بنو أسد وزال ملكه ، فأراد الشاعر أن يثأر له ويعيد ملكه فلم تواته الفرصة ، وتعقّبه المنذر ملك الحيرة فاستجار بأحياء العرب حتى انتهى به المطاف إلى قيصر ، ملك الروم فأكرم وفادته وقربه منه ، ولكن سعاية رجل من بني أسد يدعى الطمّاح غيرت موقف القيصر منه فأهداه حلةً مسمومة سُرَّ بها ولبسها ، فأسرع فيه السم فسقط جلده ، وقال أكثر من مقطوعة في اقتراب

(٤٩) عادية : خيل عادية . سوم الجراد : انتشاره في طلب المرعى يريد بذلك كثرة الخيل . وزعتها : كففتها . انحو إلي : توجهوا الي برماحهم .
(٥٠) سباء الخمر : شراؤها . الروي : الممتلىء . الإيسار : ضاربو قداح الميسر .
(٥١) ينظر الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام ففيها موازنة في الغربة والخلود بين قصيدة الحارثي وقصيدة شاعر من صدر الإسلام يدعى خبيب ١٨٢ - ١٨٥ .

أجله عند عودته من قيصر (٥٢) . وأطول هذه المقطوعات قالها وهو يعالج قروحه ثم قدم أنقرة فكان بها حتى مات ، وفي ذلك يقول: (٥٣)

١ – ألا أبلغ بني حُجر بن عمرو
وأبلغ ذلك الحيّ الحريدا

٢ – بأني قد بقيتُ بقاءَ نفس
ولم أخلق سِلاماً أو حديدا (٥٤)

٣ – فلو أني هلكت بدار قومي
لقلتُ الموتُ حقٌّ لا خلودا

٤ – ولكنّي هلكت بأرض قوم
بعيد من دياركم بعيدا

٥ – أعالج ملكَ قيصر كل يوم
وأجْدِرْ بالمنيّةِ أن تعودا

٦ – بأرض الروم لانسبٌ قريبٌ
ولاشاف فيسند أو يعودا

٧ – ولو وافقتهن على أسيس
ضُحيّاً أو وردن بنا زرودا (٥٥)

٨ – على قلص تظلّ مقلدات
أزمتهنّ ما يعدفن عودا (٥٦)

---

(٥٢) ينظر الأغاني ٣٢١٣/٩ – ٣٢٢١ وديوانه ٢١٢ – ٢١٣ .
(٥٣) ديوانه ٢١٣ – ٢١٤ .
(٥٤) سلاماً : السلام : الحجارة واحدها سلمة .
(٥٥) وافقتهن : يعني المنايا والأحداث . اسيس وزرود : موضعان .
(٥٦) قلص : جمع قلوص وهي الناقة الفتية . يعدفن : يذقن . ازمة : جمع زمام .

الشاعر يرسل رسالة إلى إخوته وقومه تقترب في فحواها من فحوى رسالة عبيد بن الأبرص لبنيه وإخوته بما فيهما من صبر على الموت ، وتعزية للنفس وتختلف عن رسالتي طرفة بن العبد التي تضمنت الأولى منهما هجاء لأهله وسراة قومه والثانية خبر إعدامه على خشبة الصلب . وتزيد على برقية عبديغوث الحارثي « أن لاتلاقيا» فامرؤ القيس يعتذر لنفسه ويقرر حقيقة الضعف الأنساني كونه خلق من جسد وروح ليموت ولم يخلق من صخر أوحديد فيبقى ، ويخاطب الشاعر نفسه مؤكداً مشاعر الغربة التي أحس بها بعيداً عن قومه وأهله ، وأنه لو مات بين ظهرانيهم لكان ذلك تعزية لنفسه عند الموت واستسلاماً لحتميته « لقلت الموت حق لاخلوداً » ولكن الحزن الذي تنطوي عليه النفس والمرارة التي تألم لها الروح يتأتيان من هلاكه بعيداً عن وطنه في بلاد الروم ، بلاد ليس له فيها أهل أو رحم او عائد تسرّ به النفس . يسنده ويشد أزره ويسل أحزانه ، ويتمنى لو ان المنايا وافقته في ديار قومه أول الضحى أو عند المساء على نياق فتية تشاركه حزنه وتأسى لموته فتكف عن الرعي ومضغ الطعام . ويلحظ ان تعامل الشاعر مع المواقع (أسيس أوزرود» وهما موضعان في بلاد قومه ينطلق من عمق الصلة التي تثيرها هذه المواقع وتبغيها هذه الأماكن لما تحمله من ذكريات وتحتفظ به من صور ، عزيزة على نفوس الشعراء (٥٧) .

ثمة مشاعر مشتركة بين البشر وثمة أحاسيس تكاد تكون واحدة عند الأنسان واخيه الأنسان في كل مكان وتوشك أن تكون وقفة المرء ازاء الموت واحساسه بالقهر تجاهه واحداً ولذلك فان هذه القصيدة تستأثر بمشاعرنا وتدخل صميم قلوبنا على الرغم مما بيننا وبين الشاعر من مسافة وزمن . ولكنها النفس

(٥٧) الشعر الجاهلي د. نوري القيسي (مجلة) ٣٨ .

الإنسانية تتقرب من أختها وتتوحد معها إزاء الموت ، وربما يكون هذا سر احساسنا بالحزن وشعورنا بالأسى تجاه ميتة امرىء القيس غريبا فريداً يائساً .

ليس في القصيدة صور مجازية ولكنها اللغة المشتركة للبشر أمام الموت . وتجربة الإنسان يوجزها الشاعر في صيغة مثل « وأجدر بالمنية أن تعودا»وهي القدرة البارعة التي عرف بها امرؤ القيس على التأثير في المتلقي وهز مشاعره بعمق .

يذكر الشاعر في المقطوعة الاتية التي قالها في أنقرة أيضاً يذكر علتــه ويبدؤهابالوقوف على الطلل وهو الوحيد الذي فعل ذلك من دون سائر الشعراء الذين تناولهم البحث وفي هذه المقطوعة حسب فيقول : (٥٨) .

١ – لمـن طلـل داثـر آيُــهُ تقادمَ في سالـف الأحْرُس (٥٩)

فهو يتساءل عن أهل الطلل وكأنه غريب عنه غربة نفسه وكأنه قديم في البشرية قدم الموت الذي خلق مع الحياة،وهو طلل ميت (داثر) ليس فيه أي معلم من معالم الحياة أو أي آية من آيات الحيوية والأحياء ذلك أن امرأ القيس في دائرة الموت الآن في هذه الوقفة وقد يئس من الحياة فلم يعد قادراً على رؤية ظواهرها في الطلل ولم يعد قادراً على إشاعة عناصر الحياة فيه كما كان دأبه في معلقته . إنه يتساءل عن اصحاب الطلل ثم يلتفت إلى المرأة فيصف لهـا مرضه وسقمه وكأني به يخاطب نفسه من خلالها :

٢ – فإمـا تـرينـيَ بـي عـرة كأني نكيب مـن النِّقرس (٦٠)

---

(٥٨) ديوانه ٣٣٩ .
(٥٩) الأحرس : جمع حرس وهو الدهر .
(٦٠) العرة : القرحة في الجسم . النقرس : داء يصيب المفاصل .

٣ ـ وصيّرني القَرح في جبّة تخال لبيساً ولم تلبس (٦١)
٤ ـ ترى أثر القُرح في جلده كنقش الخواتم في الجرجس (٦٢)

ينظر الشاعر إلى جسمه فيرى ما فيه من داء وما على جلده من سقم وما في بدنه من وهن فتتوالى عنده صور هذا المرض مشبهاً انحناء قامته بانحناء المصاب بالنقرس ثم يستعير صورة الثوب للتقرحات التي عمّت جلده كأنها توقيعات الخواتم في الصحف .

ويقترب أجل الشاعر ويدنو الموت منه قيد خطوات فيراه قريباً من قبر امرأة على جبل عسيب ،فتعصر الغربة قلبه ، وتطبق على صدره لوعة البعد لكنه يسلي نفسه ويعزيها بقبر امرأة غريب فيقول (٦٣) :

١ ـ أجارتنا إنّ المزار قريبُ وإني مقيم ما أقام عسيب (٦٤)
٢ ـ أجارتنا إنّا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

عما قريب سيزور المرأة زيارة لم يقم بها من قبل ولسوف يخالف بها دأبه في زياراته الليلية البهيجة بلا خوف من قومها أو أحراسها أو زوجها سيزورها في قبر قريب ، زيارة ليس بعدها مغادرة أو رحيل،بيد أن فيها عزاء للنفس في غربتها غربة يتخذ منها رحماً تصله بها إلى أبد الآبدين خلافاً لرحم الدم التي يقطعها الموت .

ويقترب الموت من امرىء القيس خطوة اخرى ويغدو قاب قوسين من الردى فيبلغ به الغيظ مبلغاً عميقاً لبعده وغربته وخيبة رجائه فيقول (٦٥) :

١ ـ لقد دمعت عيناي في القُرّ والقيظِ وهل تدمع العينان إلاّ من الغيظ !

---

(٦١) اللبيس : الثوب الخلق شبه طبقة الجلد المتقرحة من جسمه بالثوب .
(٦٢) الجرجس : الصحيفة .
(٦٣) ديوانه ٣٥٧ .
(٦٤) عسيب : جبل في انقرة .
(٦٥) ديوانه ٣٥٧ .

٢ – فلما رأيت الشرّ ليس ببارح   دعوت لنفسي عند ذلك بالفيظ (٦٦)

كان يتذكر مآسي حياته التي أذرت دموع عينيه على مدار الزمن في شتائه وصيفه ؛ وحاول بجهده أن يدفع الشر عن نفسه ولكن دون جدوى ، وحاول استعادة ملك ابيه فلم يفلح وها هو الآن قاب قوسين من الردى فلا بأس ان يطلق الروح من عناء الجسد . ويصوغ لنا سبباً من أسباب البكاء بصيغة المثل «وهل تدمع العينان إلاّ من الغيظ» .

إنّ امرأ القيس في مقطوعاته قد أكد حتمية الموت ، وضعف الإنسان في مواجهته ،وإنّ ادراكه لهذه الحتمية لم يدفعه إلى الجرأة على الموت كما فعل الشعراء الفرسان (٦٧) . ثم أولى الشاعر الغربة وما يرتبط بها من مشاعر اهتماماً جلياً ، ولم يلق بالاً لتخليد نفسه بتأنيبها كما فعل سواه .ووصف علّته وسقم جسمه وجلده ؛ وحدد مكان موته فوق جبل عسيب ،وأبدى الحزن على نفسه لخيبتها وإحباطها من جراء المرض وضياع الملك فتمنى الموت ، بيد ان تمنيه لم يكن لامتداد العمر الذي ادى بالشعراء المعمرين إلى تمنيه (٦٨) .

وثاني شعراء هذه المجموعة أُفنون بن صريم التغلبي الذي لقي كاهناً في الجاهلية فأخبره انه يموت بمكان يدعى «الإلاهة» .ثم سافر إلى الشام وفي طريق عودته ضلّت القافلة الطريق .ثم دلّوا عليه عبر الإلاهة (وهي قارة بالسماوة) فلما أتوها خشي ان ينزل عن ناقته فيدركه الموت حسب نبوءة الكاهن ، وبينا كانت ناقته ترعى العشب لدغتها افعى في مشفرها، فاحتكت بساقه والحيّة متعلقة به فلدغته في ساقه فقال لأخ له اسمه معاوية: احفر لي قبراً فإني هالك(٦٩)

(٦٦) فاظت نفسه : خرجت وفاظ الرجل : مات .
(٦٧) ينظر الحياة والموت في الشعر الجاهلي ٢٣٤ – ٢٣٥ .
(٦٨) تجربة الأيام لدى المعمرين من شعراء صدر الاسلام د. سامي العاني (مجلة) ٨١ .
(٦٩) هامش المفضليات ٢٦٠ .

ومغزى هذه القصة حسبما يرى الدكتور الجادر هو : «تأكيدها ان قدر الموت اقوى من جهد الإنسان ، فالموت وهم لا بد ان يتحول إلى حقيقة مهما حاول الإنسان الهرب منه» (٧٠) . وقال أفنون يخاطب أخاه معاوية (٧١) :

١ – ألا لست في شيء فروحاً معاويـاً

ولا المشفقات يتبعْـن الحوازيـا (٧٢)

٢ – ولا خيرَ فيما يكذبُ المرء نفسَـه

وتقوالهُ للشيء ليت ذا ليـا

٣ – وإن اعجبتك الدهر حال من امرىء

فدعهُ وواكل حالـه والليـاليـا

٤ – يَرُحن عليه او يُغيّرن ما بـه

وإن لم يكن في جوفه العيش وانيـا

إن الشاعر بعد ان وقف على عتبة الموت يزهّد أخاه في الدنيا وما فيها من سرور يبعث الفرحة في نفوس الناس ، لأن مآل كل شيء إلى الفناء ومآل المرء إلى الموت ، وما دام الأمر كذلك فلنكفر بالكهان واقوالهم ولنبعد عن خوف النساء من المستقبل وخبيء القدر ، ان تعليل النفس بالمنى باطل وان احوال المرء لاتدوم مهما بلغته من رفعة وأثارته من إعجاب فلا بد يوماً أن يذهب برفعتها الموت ويجعلها محط حزن واشفاق بعد ان كانت مثار دهشة وإعجاب ، إن الزمن كفيل بزوال حالي المرء من الحزن والمسرة :

٥ – فطأ معرضاً انّ الحتـوف كثيرة

وانّك لاتبقى بـمـالك بـاقـيـاً

(٧٠) هاجس الخلود في الشعر العربي قبل الإسلام د. محمود الجادر (مجلة) ٩٨ .
(٧١) حماسة البحتري ١٦٣ – ١٦٤ .
(٧٢) فروحاً : كثير الفرح . المشفقات : النساء الخائفات . الحوازي : جمع حاز ، زاجر الطير.

٦ — لعمرك مايدري أمرؤ كيف يتقي

إذا هو لم يجعل له الله واقيا

٧ — كفى حزنا أن يرحل الرّكب غدوةً

وأصبح في أعلى الالاهة ثاويا (٧٣)

ان الشاعر بعد ان ايقن من عجز الكاهن وزاجر الطير عن دفع الموت عنه ينصح أخاه أن يسير في الأرض حيث يشاء فان الحتوف كثيرة وسوف تصادفه أنّى أقام وأنّى نأى فلماذا يهرب منها؟ ويقتنص أفنون فرصة الرهبة من الموت ليوجه النصح لأخيه ويحثه على الكرم والأنفاق فإن ادخار المال وبقاءه لايخلد صاحبه ،ويصوغ لنا فكرة رائعة من افكار الأحناف بصيغة المثل موجزة مكثفة سريعة « لعمرك مايدري امرؤ كيف يتقي اذا هو لم يجعل له الله واقيا» ليس من أحد بقادر على حفظ الأنسان غير الله فهو الذي يقيه من الشرّ والأذى ويلتفت أفنون الى نفسه فيراها حزينة بائسة تتنابها مشاعر الغربة ، فبعد قليل ينام نومته الأبدية بلا أنيس يؤنس وحشة قبره كما صادف لامريء القيس ، ولكنه سوف يطيل اللبوث في ذلك اللحد بعد أن يرحل عنه المسافرون .

وثالث شعراء هذه المجموعة يزيد بن خذّاق الشنيّ الذي يتفق المفضل الضبي وثعلب وأبو عمرو بن العلاء على أنه«أول من ذمّ الدنيا» (٧٤)وصور حاله بعد الموت ، وسنلمح في شعره أنه قالها عند موته أو عند شعوره باقتراب أجله فهو يبدأ أبياته بتساؤلين عن الموت ومصائبه ،فأما الأول فعن محال الوقاية من المصائب ونائبات الزمن ، وأما الثاني فعن الشفاء من الموت وعلاجه ،وهما

(٧٣) الإلاهة : قارة بالسماوة .
(٧٤) هامش المفضليات ٢٩٩ .

استفهامان خارجان للنفي وظيفتهما توكيد استحالة الوقاية من الموت اوعلاجه يقول : (٧٥)

١ — هل للفتى من بناتِ الدهـر مـن واق
أم هـل لـه من حِمام المـوت مـن راق

ثم يجنح الخيال بيزيد فيصور لنا ما يجري للميت من غسل وترجيل شعر وإدراج في الكفن ، يليه رفعه على الأعناق وتشييعه إلى مثواه لاحول له ولا قوة ، يتولى بعد ذلك أفضل فتيان قومه حسباً دفنه في قبره :

٢ — قد رجّـلـوني ومارجلتُ من شعث
والبسوني ثيـابـا غـيـر أخــــلاق

٣ — ورفّعوني وقالوا : أيـمـا رجـل
وأدرجوني كـأني طـيُّ مـخـراق(٧٦)

٤ — وأرسلوا فتية مـن خـيرهـم حسباً
ليسندوا في ضـريح الـتـرب أطباقي(٧٧)

ثم يعظنا بحتمية الموت ويلزمنا الصبر ومخالفة الجزع ويدعو دعوة خفية إلى إنفاق المال لأن المال هين الشأن ومآله الى الوارثين ومادام الأمر كذلك، فعلام هذا الحرص على جمعه ؟ وعلام الخوف من انفاقه وذهابه . ويصوغ لنا تجربة الإنسان مع المال وتجارب الكرام والبخلاء على حد سواء بصيغة المثل « إنما مالنا للوارث الباقي» سنة من سنن الحياة في الأحياء .

---

(٧٥) المفضليات : ٢٩٩ — ٣٠٠ .
(٧٦) طي مخراق : العمامة يلهو بها الصبيان فيضرب بعضهم بعضاً .
(٧٧) اطباق : جمع طبق وهو الغضروف بين كل فقارين من فقار الظهر ، واطباق الرأس : عظامه لتطابقها واشتباكها ينظر المعجم الوسيط مادة (طبق) .

٥ ــ هوّن عليك ولاتولع باشفاق

فانما مالنا للوارث الباقي

إن الموت يأتينا في زمن مجهول وسبيل غامض لاندرك طريقه ولانعلم مصدره ونجهل زمانه ومكانه ولذا فالشاعر يراه وكأنه سهام خفيّة تأتي عن بعد ومن ناحية قصية لكنها تأتي على كل حال.لقد وجّه يزيد بن خذاق اهتمامه لفنّه فكنّى عن الكفن بالثياب وشبه جدثه بالعمامة التي يلهو بها الصبية في العجز والأستسلام وانعدام الحول ،ثم استعار للدهر صفة الصيّاد واستعار لأسباب الموت نفاذ السهام :

٦ ــ كأنني قد رماني الدّهر عن عرُض

بنبا فذات بلا ريش وأفواق

ومن الملاحظ على شعراء المجموعة الثالثة أنهم لم يحاولوا جميعاً تأبين أنفسهم أوتخليد ذكراهم ماخلا ومضة صغيرة لمحناها في قول يزيد «وقالوا أيماّ رجُل» وكان الثلاثة مؤمنين بحتمية الموت مستسلمين له ولم يدفعهم ايمانهم بهذه الحتمية الى الجرأة عليه كما فعل الشعراء الفرسان(٧٩).ووجدنا في شعر أفنون ويزيد وعظا لم نلمسه في شعر امرئ القيس .

ملحوظات فنية :

تناول البحث قصيدتين واحدة لبشر بن أبي خازم وأخرى لعبد يغوث ، الحارثي طول كل منهما عشرون بيتاً ، وتناول خمس عشرة مقطوعة ، فالغالب على الشعر في دائرة الموت المقطعات والأيجاز والقصر ، وهو أمر مرهون بالظروف التي تحيط بالشاعر كونه في حالة احتضار أوبين يدي،

(٧٨) المشفقات : الخائفات .

(٧٩) ينظر الحياة والموت في الشعر الجاهلي ٢٣٤ – ٢٣٥ .

القتل أوفي انتظاره ، ويريد أن يرسل رسالة أويوصي وصية ، فليس ثمة مقام للإطالة إنه يريد ان تحفظ رسالته أو وصيته وأغلب الشعر الذي قيل في دائرة الموت من هذين اللونين والقصر أنسب لمقتضى حاليهما ، فقد «سئل أبو عمرو بن العلاء ! هل كانت العرب تطيل؟ فقال : نعم ليسمع منها ، قيل : فهل كانت توجز ؟ قال نعم ليحفظ عنها» (٨٠) . وفضلاً عن مسألة الحفظ فإن الجوّ النفسي للشاعر يملي عليه القصر خلافاً للإطالة التي تكون وليدة التمهل والأناة والاستقرار . فكيف يتأتى لطرفة قول مطولة وهو يرى خشبة صلبه معدّة مهيأة لإزهاق روحه ، والشعر على حد تعبير الشنفري : «إنما النشيد على المسرّة» أو على حد قول عبيد بن الأبرص : «حال الجريض دون القريض» (٨١) .

والملحوظة الثانية عزوف الشعراء «باستثناء امريء القيس في مقطوعة واحدة » عن الوقوف على الأطلال واستهلال شعرهم بها خلافاً لما هو شائع ومعروف في الشعر العربي قبل الإسلام ، إذ يذكر أبو هلال العسكري : أن العرب في أكثر شعرها قبل الإسلام كانت «تبتديء بذكر الديار والبكاء عليها ، والوجد بفراق ساكنيها...» (٨٢) أما في دائرة الموت فالشاعر هو المفارق وأن البواعث والمواقف التي كانت وراء ظهور المقدمة الطللية لم تعد تناسب المقام بين يدي الموت على اختلاف التفسيرات التي قيلت بشأن المقدمة الطللية (٨٣) هذا فضلاً عن أن أغلب الشعر في دائرة الموت قيل على شكل مقطوعات ــ كما قدمنا ــ لاتسمح بتغطية موضوع واحد فما بالنا بمقدمة وموضوع .

(٨٠) العمدة ١٨٦/١ .
(٨١) الأغاني ٩٦٧٠/٢٨ . الجريض : الريق يغص به .
(٨٢) كتاب الصناعتين ٤٥٢/٢ .
(٨٣) ينظر موجز هذه التفسيرات في المطر في الشعر الجاهلي ١١٥ ــ ١٣٠ .

والملحوظة الثالثة حفول الشعر في دائرة الموت بالمثل وما يصاغ على صيغته في الشعر «والمثل السائر في كلام العرب كثير نظماً ونثراً وأفضله أوجزه وأحكمه وأصدقه» (٨٤) ، « والمثل إنما وزن في الشعر ليكون أشرد لـــه وأخف للنطق به فمتى لم يتزن كان الإتيان به قريباً من تركه» (٨٥) ودور المثل في الحياه بعامة وفي الشعر بخاصة دفع الإنسان إلى التفكر واتخاذ العبر والمواعظ والتذكر قال سبحانه . (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) (٨٦) وقال جل شأنه (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) (٨٧) .

لقد عمد الشعراء في دائرة الموت إلى الأمثال فضمنوا شعرهم بعضاً منها فقد ضرب بشر بن أبي خازم الأسدي لموته وغيابه عن ابنته مثلاً بغياب القارظ العنزي الذي خرج يطلب القرظ فلم يرجع إلى أهله) (٨٨) .

فرجّي الخير وانتظري إيابـي إذا ماالقارظ العنزي آبـــا

وضرب طرفة بن العبد البكري المثل لسوء خلانه وتنكر أصدقائه له عند سجنه بالثعالب في روغانها وضرب المثل أيضاً وفي بيت الشعر نفسه لتساوي أصدقائه في السوء بالليالي السود في ظلمتها :

كلهم «أروغُ من ثعلـــب»(٨٩) «ماأشبـه الليلـة بالبارحة» (٩٠)

وعمد هؤلاء الشعراء فضلاً عن تضمين أشعارهم أمثالاً سائرة إلى صياغة

---

(٨٤) العمدة ٢٨٠/١ .

(٨٥) نفسه ٢٨٢/١ .

(٨٦) سورة الزمر ، الآية ٢٧ .

(٨٧) سورة الحشر ، الآية ٢١ .

(٨٨) ينظر مجمع الأمثال للميداني ٧٥/١ والقرظ : نبات يدبغ بورقه وثمره .

(٨٩) نفسه ٢٦/١ .

(٩٠) نفسه ٢٧٥/٢.

حكم وخلاصات لتجارب شخصية وعامة عن الموت على صيغة المثل وأسلوبه بعضها يرتبط بغربة الميت وإحساسه بالبعد من مثل قول بشر «كفى بالموت نأياً واغتراباً» ونحو قول امرىء القيس «وكـل غريب ، للغريب نسيب» وبعضها يقرر حتمية الموت ومآل الحياة إليه نحو قول عبيد بن الأبرص «فالموت ماتلد الوالدة .. وقول امريء القيس «وأجدر بالمنية أن تعودا» . ويحدد يزيد بن خذاق الشنيّ علاقة المال بصاحبه علماً أنه وديعة تعود إلى الباقي بعد موت الراحل فيقول «فإنما مالنا للوارث الباقي» ويحدد امرؤ القيس سبباً من اسباب البكاء بقوله «وهل تدمع العينان الا من الغيظ» .

لقد جاءت تجارب هؤلاء الشعراء موجزة مكثفة مركزة في الصياغة واضحة سهلة الحفظ تعلق في الذهن مع سهولة في الايقاع تضمن شرودها وتغلغلها بين أبناء الأمة .

وبعد فثمة ملحوظة أخيرة هي من جنس الإيقاع الذي حرص الشعراء قبل الإسلام عليه في مطالع قصائدهم ألا وهو التصريع الذي يعرفه ابن رشيق بأنه «ماكانت عروض البيت فيه تابعة لضربه : تنقص بنقصه ، وتزيـد بزيادته» (٩١) . وقد ترك شعراء دائرة الموت تصريع مطالع قصائدهم ومقطوعاتهم لما خلا خمس منها ، وربما كان ذلك لحزنهم على أنفسهم وبعدهم عن إيقاع التصريع الذي يناسب الفرح .

وبعد فقد ظل الإنسان العادي والشاعر على حد سواء قلقين بشأن الموت ، يبحثان عن الخلود في ذاكرة الناس الآخرين ويحققان ذلك كل حسب رصيده من الحسب الذي ارتضاه المجتمع ورضيت به الأمة ، ولكن هذا

(٩١) العمدة ١/١٧٤ .

الخلود يبقى في إطار الحياة الدنيا المهددة بالموت والفناء ولذلك ظل القلق من المصير يراود العربي قبل الإسلام حتى جاء الله برسالة الإسلام وبشر الرسول صلى الله عليه وسلم بالحياة الآخرة وما فيها من خلود أبدي في نعيم مقيم أو في عذاب دائم بعمل المرء ورحمة ربّه إذا أخلص النية لله ، وبهذا انزاح القلق وانجاب ذلك الكابوس المظلم الذي كان يملأ أرجاء النفس الإنسانية عند ذكر الموت والفناء ، واستقرت النفس البشرية راضية مطمئنة لقضاء الله وقدره ، فهل سجل الشعر تجارب الشعراء مع الموت من داخل دائرته ؟ وهل صدروا عن هذا التصور الإسلامي للخلود والحياة الآخرة ؟ أم لازمهم ذلك الجزع والقلق المفزع ؟ هذا مانود أن نكشف عنه في بحث قادم يدرس الشعراء الإسلاميين في دائرة الموت بإذنه تعالى .



المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المكتوب على الآلة الكاتبة

١ ـ الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام ـ دراسة فكرية فنية ،رسالة دكتوراه تقدم بها كلية الآداب في جامعة الموصل الدكتور علي كمال الدين محمد الفهادي صفر ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

المطبوعات

١ ـ الأغاني ، أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) إشراف وتحقيق : إبراهيم الأبياري ، طبعة خاصة تصدرها دار الشعب ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .

٢ ـ الحماسة (رواية أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بابن أبي خالد الأحول عن أبيه البحتري ـ رحمه الله ـ أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري (ت ٢٨٤هـ) ضبط الأب لويس شيخو اليسوعي ، دار الكتاب اللبناني ، ط٢ ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٣ ـ الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، الدكتور مصطفى عبد اللطيف جياووك ، الجمهورية العراقية ، وزارة الإعلام ، سلسلة دراسات (١٢٣) دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .

٤ ـ ديوان امرىء القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ط٤ ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

٥ – ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ، تحقيق : الدكتورة عزة حسن ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، إحياء التراث ، مطبعة هاشم الكتبي ط٢ ، دمشق ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م .

٦ – ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، تحقيق : الدكتور سيد حنفي حسنين ، مراجعة : حسن كامل الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .

٧ – ديوان عبيد بن الأبرص ، شرح وتحقيق : الدكتور حسين نصار ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م .

٨ – ديوان عنترة ، تحقيق ودراسة : محمد سعيد مولوي ، المكتب الإسلامي ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م .

٩ – الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد ، تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته الدكتور علي الجندي ، دار الفكر العربي ، القاهرة بلا تاريخ .

١٠ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط٤ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٢م .

١١ – كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ) تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، منشورات : المكتبة المصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

١٢ ــ مجمع الأمثال ، الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني (ت ٥١٨هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الفكر ، ط٣ ، ١٩٧٢م .

١٣ ــ المطر في الشعر الجاهلي ، أنور أبو سويلم ، دار عمّان ، عمّان ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م .

١٤ ــ المفضليات ، أبو العباس المفضل بن محمد الضبّي (ت ١٦٨هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون ، دار المعارف مصر ، ١٩٧٦م .

الدوريات

١ ــ تجربة الأيام لدى المعمرين من شعراء صدر الإسلام ، الدكتور سامي مكي العاني ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد : الثامن ، المجلد : الثاني ، الكويت ، خريف ١٩٨٢م .

٢ ــ الشعر الجاهلي مصدر من مصادر دراسة الجزيرة العربية وأحوالها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، الدكتور نوري حمودي القيسي ، مجلة آفاق عربية ، السنة الثانية ، العدد : الحادي عشر ، بغداد ، تموز ١٩٧٧م .

٣ ــ هاجس الخلود في الشعر العربي قبل الإسلام ،الدكتور محمود عبدالله الجادر ، مجلة آفاق عربية ، السنة : الحادية عشرة ، العدد : العاشر بغداد ، تشرين الأول ، ١٩٨٦م .

الاستثناء بـ « لما »

محمد حسين نجم
كلية الاداب / قسم اللغة العربية

من اللافت للنظر في موضوع الاستثناء أن بعض الدارسين القدامى يعدون «لما» ضمن ادوات الاستثناء ويتناولونها في هذا الباب ، فهل ترد «لما» بمعنى «إلاّ» ؟ وهل يحق لنا ان نقول : حضر الطلاب لمّا زيداً ، ورأيت الطلابَ لما زيداً ، ومررت بالطلاب لَما زيداً بمعنى إلاّ زيداً ؟ وإنْ كان هذا جائزاً فلمَ لم يشع في اساليب الكلام ؟ .

للاجابة على هذه التساؤلات كان عليَّ أنْ اقوم بجولة واسعة في كتب النحو واللغة والتفسير ، وآثرت ان ابدأ بكتب معاني الحروف فهي بحكم تخصصها اقرب إلى معالجة «لما» من غيرها .

و «لمّا» عند المرادي (ت ٧٤٩هـ) وابن هشام (ت ٧٦٢هـ) ترد لثلاثة معان [1] :

الاول : ان تكون حرف نفي وجزم وقلب ، فتختص بالمضارع وتجزمه وتقلب زمنه إلى المضي ، كـ «لم» الا انها تفارقها في ان منفيها مستمر نفيه إلى الحال ، كقول الشاعر [2]

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولمّا أُمَــزّقِ

وكقولك : حضر زيد ولما تشرق الشمس .

الثاني : ان تكون حرف وجود لوجود ، فتقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود اولاهما ، نحو : لما جاءني اكرمته ، وزعم ابن السراج وتبعه

---

(١) ينظر الجنى الداني للمرادي : ٥٣٧ – ٥٣٨ ، ومغني اللبيب لابن هشام : ١/٢٨١ – ٢٨٢

(٢) البيت منسوب الى الممزق العبدي، شأس نهار بن الأسود . (شرح شواهد المغني : ٢/٦٨٠)

ابو علي الفارسي وابن جني وجماعةَ آخرون انها ظرف بمعنى حين ، وقال ابن مالك بمعنى إذْ .

والثالث — ان تكون حرف استثناء بمعنى «الا» في موضعين :

احدهما — بعد القسم نحو ، نشدتك بالله لما فعلت ، و «عزمت عليك لما ضربتَ كاتبك سوطاً» (٣) ، قال الراجز (٤) :

قالت لـه بالله ياذا البردين   لما غَنِثْتَ نفساً او اثنين

وثانيهما — بعد «إنْ» النافية ، ومنه قراءة عاصم (٥) وحمزة (٦) : «وإنْ كل لمّا جمع لدينا محضرون» (٧) «وإن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا» (٨) ، اي ما كل الا جميع لدينا محضرون ، وما كل ذلك الا متاع الحياة الدنيا .

فـ «لمّا» على رأي المرادي وابن هشام تكون بمعنى «الا» الاستثنائية بعد قسم الطلب ، وبعد «إنْ» النافية .

ولمعرفة آراء النحويين واللغويين الأقدمين قمنا بجولة في أُمات المصادر لنرى موقفهم من الاستثناء بـ «لمّا» ، فها هو ذا سيبويه (ت ١٨٠هـ) يقول (٩):

(٣) من رسالة لعمر بن الخطاب الى ابي موسى الأشعري في تعنيف كاتبه لما لحن، (شرح الرضي على الكافية ٢٥١/١) .

(٤) البيت مجهول القائل .

(٥) هو عاصم بن بهدلة ابن ابي النجود ، أحد القراء السبعة ، تابعي ، أخذ القراءة عن ابي عبدالرحمن السلمي وابي عمرو الشيباني (ت١٢٧هـ) . (غاية النهاية في طبقات القراء : ٣٤٨/١).

(٦) عن سليمان الأعمش ، (ت ١٥٠هـ). (غاية النهاية في طبقات القراء: ٢٦١/١) .

(٧) يسن : الأية٣٢ . قرأ عاصم وحمزة بتشديد «لما» وخفف الباقون . (الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٢١٥/٢) .

(٨) الزخرف: الأية٣٥ . قرأ عاصم وحمزة «لما» مشددة وقرأ الباقون «لما» مخففة . (السبعة في القراءات : ٥٨٦) .

(٩) الكتاب: ١٠٥/٣— ١٠٦ .

«وسألتُ الخليل عن قولهم : اقسمت عليك الاّ فعلت ، ولمّا فعلت ، لم جاز في هذا الموضع وإنما اقسمت ههنا كقولك : والله ، فقال : وجه الكلام لتفعلن ههنا ولكنهم اجازوا هذا لأنهم شبهوه بنشدتك الله إذْ كان فيه معنى الطلب» .

فسيبويه يسأل شيخه عن عدم إتيان العرب بفعل مضارع مؤكد باللام في اوله وبنون التوكيد في آخره كما هو شأنهم في كل قسم موجب ، ولذلك اجابه الخليل بقوله : وجه الكلام لتفعلن ، وهذا لا يعنينا كثيراً ، انما الذي يعنينا قولُ سيبويه : «وسألت الخليل عن قولهم : اقسمت عليك إلا فعلت ولما فعلت» وقد قرن فيه «لما» بـ «الا» وجعلهما بمعنى واحد ، وهذه اشارة من سيبويه إلى أن «لما» بمعنى إلا ، ويعنينا ايضاً قول الخليل : ولكنهم اجازوا هذا لانهم شبهوه بنشدتك الله إذ كان فيه معنى الطلب ، وهذا نص صريح من الخليل على ان «لما» تكون بمعنى إلا بعد قسم الطلب .

وانكر الكسائي (ت ١٨٩هـ) ان تكون «لما» بمعنى إلا ، وكان يقرأ قوله تعالى : «وإنْ كل لما جميع لدينا محضرون» (١٠) بتخفيف لما ، ولا يشدد الميم وكان يقول : لا اعرف جهة «لما» بالتشديد في القراءة (١١) .

وانكر الفراء (ت ٢٠٧هـ) ان تكون لمّا بمعنى إلا فقال (١٢) : واما من جعل لما بمنزلة إلا فإنه وجه لا نعرفه ، وقد قالت العرب : بالله لما قمت عنا ، وإلا قمت عنا ، فأما في الاستثناء فلم يقولوه في شعر ولا في غيره ، الا ترى ان ذلك لو جاز لسمعت في الكلام : ذهب الناس لما زيداً» . فهو هنا

(١٠) يس: الآية ٣٢ .
(١١) معاني القرآن للفراء: ٣٧٦/٢ ، وينظر البحر المحيط: ٣٣٤/٧ .
(١٢) معاني القرآن: ٣٧٦/٢ – ٣٧٧ .

لا يجيز ان تكون «لما» بمعنى الا ، إلا بعد قسم الطلب . وذكر في موضع آخر أن لما تكون بمنزلة إلا مع إنْ خاصة فتكون في مذهبها ، كأنها لمْ ضمت اليها «ما» فصارتا جميعاً استثناءً وخرجتا من حد الجحد (١٣) .

ومعنى هذا ان الفراء يجيز ايضاً ان تكون «لما» بمعنى إلا بعد قسم الطلب بعد إن النافية وإن بدا لنا انه متردد في قبوله استثنائيتها ، وهذا ما سنفصله فيما بعد .

وتردد الاخفش (ت ٢١٥هـ) في قبول لما بمعنى إلا ، قال (١٤) : قرأ بعضهم«لمّا» ففتح اللام وضعف الميم وزعم انها إلا وانها من كلام العرب». ان قول الأخفش : وزعم بعضهم انها إلا وانها من كلام العرب يوحي بتردده .

وذهب المازني (ت ٢٢٥هـ) فيما حكى عنه ابو اسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) إلى ان الأصل (لما) بالتخفيف فثقلت (١٥) ، فهو ينكر ان تكون لما استثنائية وانما هي لما، ولم تبين لنا المصادر رأيه في «ما» اهي الموصولة ام الزائدة .

واجاز الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) ان تكون لما بمعنى إلا مطلقاً وزعم انه يقال : لم يأت من القوم لما اخوك ولم ارَ من القوم لما زيداً بمعنى الا اخوك وإلا زيداً (١٦) ، ولم يجوز أحد الاستثناء بها مطلقاً إلا الزجاج .

وأجاز ابو منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ) ، ان تكون لما بمعنى إلا بعد إنْ النافية واستدل على ذلك بقراءة عبدالله بن مسعود (إن كلُّهم لما كـذب الرسل) (١٧) وهي في قراءة الجمهور : (إن كل إلا كذب الرسل) (١٨)،

(١٣) نفسه: ٢/٣٧٦ - ٣٧٧
(١٤) معاني القرآن للأخفش : ٢/٤٧٣
(١٥) المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات : ٣٨٣ .
(١٦) البغداديات :٣٨٨ ، وينظر الهمع: ١/٢٣٦ .
(١٧) مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع لا بن خالويه :١٢٩ .
(١٨) ص: الآية ١٤

فلما في قراءة ابن مسعود تعادل إلا في قراءة الجمهور وكذلك اجاز ان تكون بمعنى إلا بعد قسم الطلب (١٩) .

وقبل ابو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) ورود لما بمعنى إلا فقال : «وأما ما حكوه من كون لما بمعنى إلا فمقبول»(٢٠)واشترط ان تقع بعد قسم الطلب او بعد إن النافية .

وانكر ابو حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ) كون «لما» أستثنائية فقال : «وَقَوْلُ من قال لما بمعنى إلا فليس يعرف في اللغة» (٢١) .

وذهب الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في مفصله وتابعه أبن يعيش (ت ٦٤٨هـ شارح المفصل الى أنّ «لما» في حديث عمر «رض» عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطاً بمعنى إلا (٢٢) .

وأنكر أبو البركات آبن الانباري (ت ٥٧٧هـ) أن تكون لما بمعنى إلا بعد إن النافية ، لكنه أجاز مجيئها بمعنى لما بعد قسم الطلب فقال . «وأما لما فلا يجوز أن تجعل ههنا (يقصد بعد إن النافية) بمعنى إلا لانه لو جاز أن تجعل لما بمعنى إلا لجاز أن يقال: ماقام القوم إلا زيداً وقام القوم لما زيداً بمعنى إلا زيداً ، وفي امتناع ذلك دليل على فساده وانما جاءت لما بمعنى إلا في الايمان خاصة نحو قولهم: عمرك الله لما فعلت كذا، أي إلا فعلت كذا (٢٣)

وأجاز الرضي (ت ٦٨٨هـ) ، أن تكون بمعنى إلا ، إذا تقدمها قسم الطلب نحو أنشدتك بالله إلا فعلت ، ووضح معنى هذا الأسلوب فقال :«ومعنى إلا

---

(١٩) تهذيب اللغة: ٤٢٦/١٥ .
(٢٠) البغداديات: ٣٨٨ .
(٢١) تاج اللغة وصحاح العربية :٥/ ٢٠٣٣
(٢٢) شرح آبن يعيش على المفصل: ٥٩/٢ .
(٢٣) الأنصاف في مسائل الخلاف: ١٩٥/١ .

فعلت : إلا فعالك .. لانك إذا حلّفت غيرك بالله قسم الطلب فقد ضيقت عليه الأمر في فعل مطلوبك فكأنك قلت : ماأطلب منك الا فعالك ، وانما جعلته فعلاً ماضياً لقصد المبالغة في الطلب حتى كأن المخاطب فعَلَ ماتطلبه وصار ماضياً ثم أنت تخبر عنه ، ولما في الاستثناء لاتجيء إلا بعد النفي ظاهراً أو مقدراً ، كما رأيت ، ولا تجيء إلا في المفرغ» (٢٤) .

فالرضي يجيز أن تكون لما بمعنى إلا بعد قسم الطلب ، ولا تقع إلا في استثناء مفرغ ،وهو مالم يذكر فيه المستثنى منه ، وعلى هذا فلا يجوز عنده أن يقال : حضر القوم لما زيداً .

وذهب أبو حيان الاندلسي (ت ٧٤٥هـ) الى أن لما ترد بمعنى إلا ، وقال. «ولما بمعنى إلا حكاها الخليل وسيبويه والكسائي (٢٥)، وهي قليلة الدور في كلام العرب فينبغي أن يقتصر فيها على التركيب الذي وقعت فيه نحو قوله تعالى: «إن كل نفس لما عليها حافظ» (٢٦) «إن كل لما جميع لدينا محضرون في قراءة من شدد الميم وقالت العرب : نشدتك بالله لما فعلت ، وعمرك الله لما فعلت ، وقد يحذف نشدتك وسألتك فيقال : بالله لما صنعت كذا ، أي نشدتك الله إلا صنعت» (٢٧) .

فأبو حيان يجيز أن تكون لما بمعنى إلا بعد قسم الطلب وبعد إن النافية ، ولا يجيز استعمالها بهذا المعنى في غير هذين الموضعين ، لم يقبل رأي الزجاج

---

(٢٤) شرح الرضي على الكافية: ٢٣٠/١ – ٢٣١ .
(٢٥) وهذا من تناقضات ابي حيان، لا نه ذكر في البحر المحيط: ٣٣٤/٧ ان الكسائي ينكر ان تكون لما بمعنى الا ، وطالب بأن لا يلتفت الى رأيه .
(٢٦) الطارق: الآية ٤ .
(٢٧) ارتشاف الضرب من لسان العرب : ٣٣٢/٢ .

في جواز استعمالها كـ «إلا» مطلقاً وقال : «وينبغي أن يتوقف في إجازة مثل هذه التراكيب حتى تثبت» (٢٨)

وهكذا يتبين لنا أن علماء اللغة منقسمون على أنفسهم في جواز الاستثناء بـ«لما» فهم يكادون يجمعون على أنها بمعنى ألا بعد قسم الطلب واختلفوا في كونها بهذا المعنى بعد إن النافية ، فلم ترد اشارة إلى ذلك عن الخليل وسيبويه ، وانكرها الكسائي والمازني والجوهري وابو البركات ابن الانباري وتردد الفراء والاخفش وتابعهما ابو علي الفارسي ، وقبلها الزجاج وابو منصور الازهري في التهذيب ، وابو حيان في الارتشاف .

ويلاحظ ان الذين قبلوا بورود «لما» بمعنى «إلا» في الاستثناء قلّة لايملكون من الشواهد الشعرية إلا شاهداً واحداً مجهول القائل (٢٩) فلم إذن قبل بعض النحاة كونها استثنائية ؟

للاجابة عن هذا التساؤل نقول : إن هناك آيات قرآنية كريمة وردت فيها «لما» ، وتخريجها على معنى إلا مناسب جداً ، وهذه الآيات هي :

١ ـ «إنْ كلُّ نفس لما عليها حافظ» (٣٠)

٢ ـ «وإن كل لما جميع لدينا محضرون» (٣١)

٣ ـ «وإن كلُّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا» (٣٢)

وقرأ عبدالله بن مسعود ، قوله تعالى :

---

(٢٨) المصدر نفسه: ٣٣٢/٢ .

(٢٩) وهو :قالت له بالله ياذا البردين لما غنثت نفساً او اثنين

(٣٠) الطارق: الأية٤ .

(٣١) يس: الأية ٣٢ .

(٣٢) الزخرف: الأية ٣٥ .

«إن كل إلا كذب الرسل» (٣٣) : «إن كل لما كذب الرسل» (٣٤) «وما منا إلا له مقام معلوم» (٣٥) : «وإن كلنا لمّا له مقام معلوم » (٣٦) فهذه الايات قرأت «لما» فيها مخففة ومشددة ، فأما من خفف فلا اشكال في قراءته ، لأن «إنْ» عنده مخففة من الثقيلة ، واللام التي في لما ، هي اللام الفارقة ، وما زائدة ، والتقدير : إن كل نفس لعليها حافظ .

«اما من شدد «لمّا» فاختلف الناسُ في معناها ، ولنتابع الآن آراء المفسرين واصحاب إعراب القرآن في لما المشددة هذه ، ونبدأ بالفراء وهو يفسر قوله تعالى : «وإن كل لما جميع لدينا محضرون» (٣٧) قال : «شددها الاعشى وعاصم ، وقد خففها قوم كثير منهم قراء أهل المدينة ، وبلغني ان علياً خففها وهو الوجه ... ولم يثقلها من ثقلها الا عن صواب ، فإن شئت أردت : وإن كل لمن ماجميع لدينا محضرون ، ثم حذفت إحدى الميمات لكثرتهن والوجه الآخر من التثقيل أن يجعلوا لما بمنزلة إلا مع إنْ خاصة فتكون في مذهبها كأنها لم ضمت اليها «ما»فصارتا جميعاً استثناءً وخرجتا من حد الجحد» (٣٨) . وعند تفسيره قوله تعالى: «إن كل نفس لما عليها حافظ» قال : «قرأها العوام (يعني الجمهور) بتشديد الميم وخففها بعضهم ، الكسائي كان يخففها ،ولا نعرف جهة التثقيل ونرى انها لغة في هذيل يجعلون

(٣٣) ص: الآية ١٤ .
(٣٤) قال الفراء: «قوله تعالى»: «ان كل الإكذب الرسل» في قراءة عبدالله: ان كلهم لما كذب الرسل» (معاني القرآن: ٢/٤٠٠) .
(٣٥) الصافات: ١٦٤ .
(٣٦) معاني القرآن: ٢/٣٩٥ .
(٣٧) يس: الآية ٣٢ .
(٣٨) معاني القرآن: ٢/٣٧٦ — ٣٧٧ .

«إلاّ» مع «إنْ» المخففة «لـمّا» ولا يجاوزون في ذلك ، كأنه قال : «ماكل نفس إلا عليها حافظ» (٣٩) .

وقد رأينا فيما سبق أن الفراء مقر بأن لما تكون بمعنى إلا بعد قسم الطلب أما كونها بمعنى إلا بعد إن النافية ، فلا يعرف جهته ويظن انها لهجة هذلية تجعل لما بعد إن النافية بمعنى إلا ، ويبدو أنه لم يطمئن الى هذه اللهجة ، ولهذا حاول أن يجد لـ «لما» تخريجاً آخر لاتكون به آستثنائية مما يشير الى تردده في قبولها بمعنى إلا .

وتابع الفراءَ في تردده الأخفش ، وقد مر بنا قوله : وزعموا أنها — لما في التفسير بمعنى إلا وأنها من كلام العرب (٤٠) .

وذهب ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) إلى أنها بمعنى إلاّ وانها لغة هذيل مع إن النافية (٤١) .

وخرجها ابن خالويه (ت٣٧٠هـ) على أنها بمعنى إلا أو أنها أصلها لمن ما ، متابعاً بذلك الفراء (٤٢) .

وقبل أبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) أن تكون بمعنى إلا ، ولكنه لم يرض ان يكون اصلها لمن ما ، مخالفاً بذلك الفراء ، لان «ما» إما ان تكون موصولة وإما أن تكون زائدة فلا يسهل ان تكون موصولة في قوله تعالى : «وإن كل لمّا جميع لدينا محضرون» لأن التقدير يكون : لمن الذين هم جميع لدينا محضرون ، فهم جميع لدينا صلة للذين ، والذين مع صلته بمنزلة اسم واحد ،

---

(٣٩) معاني القرآن: ٣/٢٥٤ — ٢٥٥ .
(٤٠) ينظر ص: ٥ من هذا البحث
(٤١) تأويل مشكل القرآن : ٤١٣ .
(٤٢) اعراب ثلاثين سورة من القرآن: ٤١ — ٤٢ ، وينظر الحجة في القراءات السبع لا بن خالويه : ٣٢١ .

ومحضرون خبر «ما» الذي بمعنى الذي ، والاسم وخبره صلة مَنْ ، فلم يرجع على «مَنْ» من صلته شيء وهذا لا يجوز . ولا يجوز ان يكون اصل «لما» لمن ما في قوله تعالى «وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا» (٤٣) لانك لو قدرت ما زائدة كان المعنى وزخرفاً وإن كل ذلك لمن متاع الحياة الدنيا ، والزخرف لا يكون متاع الحياة الدنيا ، فهذا قول مستكره لانكساره وتجويز مالا يجوز فيه (٤٤) .

ولم يرضَ رأي المازني لأن الحروف يخفف مضاعفها كإنَّ وأنَّ ولكنَّ ونحو ذلك ولا تثقل (٤٥) .

وبعد ان ضعف رأي الفراء والمازني جاء برأي جديد وادعى انه لم يسبقه احد اليه فقال «وقد رأينا نحن في ذلك قولاً لم اعلم احداً تقدمنا فيه وهو أن تكون لما هذه في قول من شدد لم النافية دخلت عليها ما فهيأتها للدخول على ما كان يمتنع دخولها عليها قبل لحاق ما لها والتقدير (إن كل نفس لما عليها حافظ) أي ليس كل نفس ليس عليها حافظ نفياً لقول من قال : كل نفس ليس عليها حافظ ، فقيل : ما كل نفس ليس عليها حافظ ، أي كل نفس عليها حافظ » (٤٦) فإن على هذا التقدير هي إن النافية ، والقراءة بالتثقيل تطابق القراءة بالتخفيف لأن المعنى يؤول إلى كل نفس عليها حافظ (٤٧) .

وهكذا نرى أن أبا علي قد حاول تفنيد رأي الفراء معتمداً على المنطق فلما لم يعد ضمير إلى الموصول ابطل ان تكون ما موصولة ، وعندما دخلت كلمة

---

(٤٣) الزخرف : ٣٥
(٤٤) البغداديات : ٣٨٤ – ٣٨٥ ، وأنظر اعراب القرآن المنسوب للزجاج ٢/٧٥٥ – ٧٥٨
(٤٥) البغداديات: ٣٨٨ .
(٤٦) البغداديات : ٣٨٨ .
(٤٧) البغداديات: ٣٨٩ .

الزخرف في المتاع ابطل ان تكون ما زائدة ، واتجه إلى رأي جديد وهو أن تكون لما أصلها لم زيدت عليها ما الكافة ، ولهذا جاز دخولها على الاسماء، وانها أبطلت النفي فعاد الكلام إلى الاثبات ، وهذا جميل فيه حل لمشكلة إلا ، ولكن التقديرات التي قدرها ابو علي كانت بعيدة وقد اعترف هو نفسه بهذا البعد وقال : والقراءة بتخفيف لما اسهل مأخذاً وأبعد تناولا» (٤٨) .

وذهب مكي ابن ابي طالب (ت ٤٣٧هـ) إلى أن «لما» ترد بمعنى «إلا» بشرط أن تكون إنْ نافية (٤٩) ، وهذا شأن الزمخشري (ت ٥٣٨هـ (٥٠) والعكبري (ت ٦١٦هـ) (٥١) وقال الرازي (ت ٦٠٦هـ) : «ولما بمعنى إلا وارد مناسب وهو أن «لمّا» كأنها حرفا نفي وهما «لم» و «ما» فتأكد النفي، وإلا كأنها حرفا نفي إنْ ولا ، فاستعمل أحدهما مكان الآخر» (٥٢) .

وهاجم ابو حيّان (ت ٧٤٥هـ) من انكر أن تكون «لما» بمعنى «إلا» فقال : «ولما المشددة بمعنى إلا ثابت في لسان العرب بنقل الثقاة فلا يلتفت إلى زعم الكسائي انه لا يعرف ذلك» (٥٣) . ورفض قول الفراء بأن اصلها لمن ما ، وقال : إنه : «ليس بشيء» (٥٤) .

ومما تقدم يتبين لنا أن الذين ذهبوا إلى انها بمعنى إلا في الآيات الكريمة هم ابن قتيبة وابن خالويه ومكي ابن أبي طالب والزمخشري والعكبري والرازي وأبو حيان ، أما الفراء والاخفش وأبو علي الفارسي فهم مترددون في ذلك وإلا لما بحثوا لها عن تخريج .

---

(٤٨) البغداديات: ٣٨٩ .
(٤٩) الكشف عن وجوه القراءات السبع : ٢١٥/٢ .
(٥٠) الكشاف: ١٤/٤، ٧٣٤/٤ .
(٥١) التبيان في اعراب القرآن: ١٢٨١/٢ .
(٥٢) التفسير الكبير : ٦٤/٢٦ — ٦٥
(٥٣) البحر المحيط: ٣٣٤/٧ .
(٥٤) البحر المحيط: ٣٣٤/٧ .

وقبل أن أنهي هذا البحث واستيفاءً له ، أود أن اشير إلى آية قرآنية كريمة لها تعلق وثيق ببحثنا وهي قوله تعالى: «وإنَّ كلاً لما ليوفينهم ربُّك اعمالهم» (٥٥) التي اختلف فيها القراء (٥٦) ، ويمكن تقسيمهم على اربعة أقسام (٥٧) :

القسم الأول : قرأ «إنَّ» مشددة النون و «لما» خفيفة الميم ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ، ومذهب الفراء أنها موصولة (٥٨) ، واستخدمت «ما» للعقلاء كما استخدمت في قوله تعالى : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» (٥٩) ومذهب ابي علي كما يقول الرازي أنَّ اللام في «لمّا» هي لام التوكيد ، والتي في «ليوفينهم» هي لام القسم . فلما اجتمع لامان دخلت «ما» لتفصل بينهما ، وعلى هذا ، «ما» زائدة (٦٠) ، والتقدير : «وإنَّ كلا لمّا والله ليوفينهم» .

القسم الثاني : قرأ : «وإن كلاً لما» بتخفيف «إنْ» وتخفيف «لما» وهي قراءة ابن كثير (٦١) ، ونافع (٦٢) ، فهم قد اعملوا «إنْ» مخففة

---

(٥٥) هود: الآية ١١١
(٥٦) قرأ الحرميان وأبوبكر : « وإن كلا » بتخفيف إن والباقون بتشديدها وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر : «كما ليوفينهم» بتشديد الميم من لما والباقون بتخفيفه . (الكشف عن وجوه القراءات السبع ، لمكي ابن أبي طالب. ١/٥٣٦) .
(٥٧) التفسير الكبير للرازي: ١٨/ ٦٩ - ٧٠ .
(٥٨) معاني القرآن: ١/ ٢٨ .
(٥٩) النساء: الآية٣ .
(٦٠) التفسير الكبير : ١٨/٦٩، ورأي أبي علي في البغداديات مخالف لهذا ، ومر ذكره في الصفحات : السابقة من هذا البحث .
(٦١) هو عبدالله بن كثير بن المطلب الداري ، امام اهل مكة في القراءة ، ولد بمكة سنة ٤٥هـ ولقي بها عبدالله بن الزبير وأبا أيوب الأنصاري وأنس ابن مالك (ت١٢٠هـ) . (غاية النهاية في طبقات القراء: ١/٤٤٣) .
(٦٢) هو نافع بن عبدالرحمن بن ابي نعيم ، أحد القراء السبعة ، أخذ القراءة عن جماعة من التابعين والية أنتهت رئاسة القراءة في المدينة (ت١٦٩هـ) . (غاية النهاية في طبقات القراء ٢/٣٣٠) .

كما اعملوها مشددة لان «إنّ» تشبه الفعل ، فكما يجوز إعمال الفعل تامـاً ومحذوفاً في قولك : لم يكن زيد قائماً ، ولم يك زيد قائماً ، فكذلك إنّ وإنْ .

وهذان القسمان لا يعنيان البحث في شيء لأن «لما» فيهما مخففة فلا يمكن تأويلها بـ «إلا» .

القسم الثالث : قرأ «وإنّ كلاً لمّا» بتشديد «إنّ» وتشديد «لمّا» وهي قراءة حمزة وابن عامر (٦٣) وحفص (٦٤) ، وهذا القسم لا يمكن ان تكون «لما» فيه بمعنى إلا ، لان «إنّ» لتوكيد الشيء وتخفيفه وإلا تفيد نقيض ذلك إذ يؤتى بها لإخراج شيء من حكم سابق ، فيتدافع معنى التأكيد ومعنى «لما» (٦٥). وأحسن ما قيل في «لما» في هذا الموضع أن اصلها «لمّاً» بالتنوين كقوله تعالى : «أكلاً لمّاً» (٦٦) والمعنى : إنّ كلاً ملمومين ، أي مجموعين (٦٧)، وقرأ الزهري (٦٨) : «وإنْ كلاً لمّاً» بتنوين «لمّاً» (٦٩) .

القسم الرابع — قرأ : «وإنْ كلاً لمّا» بتخفيف «إنْ» وتشديد «لمّا» وهذا يحتمل أن تكون فيه «لمّا» بمعنى «إلا» ويعيق هذا التقدير أنّ كلمة «كلاً» جاءت منصوبة ، والناصب لها «إنْ» المخففة من الثقيلة ، فعلى هذا لا يجوز

---

(٦٣) هو عبدالله بن عامر بن يزيد اليحصبي ، امام أهل الشام في القراءة أخذ القراءة عن ابي الدرداء ولد سنة ٨ هـ وتوفي سنة ١١٨هـ (غاية النهاية في طبقات القراء: ١/٤٢٥) .

(٦٤) هو حفص بن سليمان بن المغيرة ، أخذ القراءة عن عاصم ، ولد سنة ٩٠هـ وتوفي سنة ١٨٠هـ (غاية النهاية في طبقات القراء: ١/٢٥٥) .

(٦٥) جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٥/٤٩٦ .

(٦٦) الفجر: الآية ١٩ .

(٦٧) التفسير الكبير : ١٨/٧٠

(٦٨) هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري المدني ، تابعي ، قرأ على أنس ابن مالك ولد سنة ٥٠هـ وتوفي سنة ١٢٤هـ . (غاية النهاية في طبقات القراء: ١/٣١٢) .

(٦٩) معاني القرآن: ١/٢٨، وينظر مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه : ٦١ .

أن تكون «لمّا» بمعنى «إلا» بعد «إنّ» المخففة لأنها تفيد التأكيد أيضاً ، ولو عددنا «إنْ» نافية لما استقام اللفظ ، لأن كلمة «كلاً» تبقى بلا ناصب: وهذا لا يجوز ، ورب قائل يقول : تنصب «كلاً» بالفعل «ليوفينهم» قلنا : هذا لا يجوز لأن ما بعد لام القسم لا يعمل فيما قبلها ، وتخرّج هذه القراءة على أنّ اصل «لمّا» «لمن ما» فأبدلت النون ميماً ، ثم حذفت إحدى الميمات لكثرتهن ، فأصبح «لمّا» بالتشديد (٧٠) .

وجوّز ابو حيان أن تكون لما في هذه الآية بمعنى «إلاّ» واستشهد على ذلك بقراءة أبي (٧١) وأبان بن تغلب (٧٢) ، «وإن كل لما ليوفينهم» (٧٣) وقال (٧٤): «إن هذه القراءة المتواترة حجة عليهم» .

وهكذا نرى أن النحويين وعلماء اللغة لا يقبلون ان تكون «لما» في هذه القراءة بمعنى إلا ، لاسباب تتطلبها صناعة النحو ، وهي أن كلمة كلاً جاءت منصوبة ، فقالوا : أنها منصوبة بـ «إنْ» فهي مخففة وليست النافية ولما التي بمعنى إلا لا تقع بعد إنْ المخففة.

والذي نراه أنّ لما هنا بمعنى «إلا» مستدلين على ذلك بقراءة عبدالله بن مسعود (٧٥) للآية نفسها فهو قد قرأها : «وإنّ كل إلا ليوفينهم ربك

---

(٧٠) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه: ١٩١ ، وينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ابن ابي طالب : ٥٣٦/١ .

(٧١) هو ابي بن كعب بن قيس الأنصاري ، قرأ على النبي (ص) القرآن العظيم ، آختلف في وفاته فقيل سنة١٩هـ ، وقيل سنة ٢٠هـ ، وقيل سنة ٣٠هـ (غاية النهاية في طبقات القراء : ٣١/١) .

(٧٢) هو ابان بن تغلب الربعي الكوفي النحوي ، قرأ على عاصم وابي عمرو الشيباني ختم القرآن على الأعمش ، ت سنة ١٤١هـ . (غاية النهاية في طبقات القراء : ٤/١) .

(٧٣) لم يذكرها أبن خالويه في مختصر شواذ القراءات ، وكذلك لم يذكرها أبن جني في المحتسب

(٧٤) البحر المحيط: ٢٦٨/٥ .

(٧٥) هوعبدالله بن مسعود بن الحارث ، عرض القرآن على النبي (ص) ، وكان يخدم النبي (ص) ويلزمه ت ٣٢هـ (غاية النهاية: ٤٥٩/١) .

أعمالهم» (٧٦)فأبدل كلمة «لما» بكلمة «إلا» وهذا يدل على أن الكلمتين في معنى واحد ، ولو لم تكن الكلمتان في معنى واحد لما أجازه الرسول الكريم «ص» على هذه القراءة .

وقد تبين لنا أن ابن مسعود يُسوي بين «لما» و إلا في المعنى في قراءته فكما أبدل «لما» بـ «إلا» نجده يفعل العكس ، فيبدل «إلا» بـ «لما» في آيتين كريمتين هما : «إنْ كل إلا كذّب الرسل» (٧٧) «وما منا إلا له مقام معلوم» (٧٨) قرأهما : «إنْ كلهم لما كذب الرسل» (٧٩) «وإن كلنا لما له مقام معلوم» (٨٠) فأبدل إلا بـ «لما» .

إن هذه القراءات المتواترة عن رسول الله (ص) خير دليل على أنّ «لما» بمعنى إلا في هذه الآية وفي الآيات القرآنية السابقة ، أما إذا تعارض هذا المعنى مع صناعة النحو ، فمن الأفضل للنحاة أن يجدوا لهم مخرجاً آخر ، لا أن يذهبوا إلى مخالفة القراءة وهي سنة متبعة .

* * *

(٧٦) المحتسب: ٣٢٨ .
(٧٧) ص: الآية ١٤ .
(٧٨) الصافات :الآية ١٦٤ .
(٧٩) مختصر شواذ القراءات: ١٢٩ .
(٨٠) المصدر نفسه : ١٢٨ .

خاتمة البحث

أظهر البحث ما يأتي :

١ ــ ان علماء اللغة والنحو يكادون يجمعون على أنَّ «لما» ترد بمعنى «إلاّ» بعد قسم الطلب ، نحو : عزمت عليك بالله لمّا فعلت ، أي عزمت عليك إلا فعلت .

٢ ــ وأنهم مختلفون في كونها بهذا المعنى بعد «إنْ» النافية ، فلم ترد إشارة من الخليل وسيبويه بهذا الخصوص ، وأنكرها الكسائي والمازني والجوهري وأبو البركات ابن الانباري وتردد الفراء والأخفش وتبعهما أبو علي الفارسي ، وقبلها أبو منصور الازهري وأبو حيان الاندلسي .

٣ ــ وأنَّ الزجاجي هو الوحيد الذي قبل أن تكون «لمّا» بمعنى إلا مطلقاً ، فجاز عنده حضر القوم لمّا زيداً ، بمعنى : إلا زيداً .

٤ ــ وأنَّ سبب ذهاب بعض النحويين والمفسرين إلى أنها بمعنى «إلاّ» بعد «إنْ» النافية هو ورودها في الآيات القرآنية الكريمة : «إن كل نفس لمّا عليها حافظ» «وإنْ كل لمّا جميع لدينا محضرون» «وإن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا» بهذا المعنى ، وتخريجها عليه اقرب من التخريجات الأخرى ، فارتضاها ابن قتيبة وابن خالويه ومكي بن أبي طالب والزمخشري والعكبري والرازي وأبو حيان وأنكرها الكسائي وتردد الفراء والأخفش وتبعهما أبو علي الفارسي .

٥ ــ وأن النحاة والمفسرين مترددون في قبولها بمعنى «إلا» في قوله تعالى : «وإنْ كلاً لما ليوفينهم ربك اعمالهم» لأسباب تتعلق بصناعة النحو ، وقد

قبل أبو حيان أن تكون بمعنى «إلا» أيضاً في هذه الآية ، معتمداً على قراءة ابن مسعود «وإنْ كل إلا ليوفينهم ربك أعمالهم» .

٦ ــ وأنَّ ابن مسعود يبدل بين «لمّا» و «إلا» بعد إن النافية في قراءته ، الأمر الذي يشير إلى انهما بمعنى واحد .

وهكذا نرى أن «لما» ترد بمعنى «إلا» في هذين الموضعين ولا تجاوزهما لذلك ينبغي الاقتصار عليها فلا تستعمل «لما» بمعنى «الا» مطلقاً، لأن ذلك لم يرد به السماع ، وكون «لما» بمعنى «إلا» في هذين الموضعين فقط لا يقدح باستثنائيتها لان العرب قد قصرتها عليهما .



المصادر

١ – إرتشاف الضرب من لسان العرب – أبو حيان الاندلسي ، تحقيق الدكتور مصطفى احمد النماس ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م .

٢ – اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم – ابن خالويه ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٠هـ – ١٩٤١م .

٣ – اعراب القرآن – منسوب للزجاج ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، مطبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م .

٤ – الانصاف في مسائل الخلاف – ابو البركات ابن الانباري ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط ٤ ، المكتبة التجارية ، مصر ، ١٣٨٠هـ – ١٩٦١م .

٥ – البحر المحيط – أبو حيان الاندلسي ، مطبعة السعادة ، مصر ١٣٢٨هـ .

٦ – تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة ، تحقيق احمد صقر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي .

٧ – تاج اللغة وصحاح العربية – اسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، مطابع دار الكتاب العربي ، مصر .

٨ – التبيان في اعراب القرآن – ابو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي .

٩ – تهذيب اللغة – أبو منصور محمد بن احمد الازهري ، تحقيق الاستاذ ابراهيم الأبياري ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧م .

١٠ ـ التفسير الكبير ـ الفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ، طهران .
١١ ـ جامع البيان عن تأويل القرآن ـ ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٠م .
١٢ ـ الجنى الداني في حروف المعاني ـ حسن بن قاسم المرادي ، تحقيق طه محسن ، مؤسسة دار الكتب ، جامعة الموصل ، ١٣٩٦ ، ١٩٧٦م .
١٣ ـ الحجة في القراءات السبع ـ ابن خالويه ، تحقيق الدكتور عبدالعال سالم مكرم ، دار الشروق ، بيروت ، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .
١٤ ـ السبعة في القراءات ـ ابن مجاهد ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ط ٢ ، دار المعارف ، مصر ١٤٠٠هـ .
١٥ ـ شرح الرضي على الكافية ـ رضي الدين الاسترابادي، استانبول ١٢٧٥هـ.
١٦ ـ شرح شواهد المغني ـ جلال الدين السيوطي ، صححه وعلق عليه الشيخ محمد محمود الشنقيطي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .
١٧ ـ شرح المفصل ـ موفق الدين يعيش بن يعيش ، عالم الكتب ، بيروت .
١٨ ـ غاية النهاية في طبقات القراء ـ ابن الجزري ، عني بنشره براجستراسر القاهرة ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م .
١٩ ـ الكتاب ـ سيبويه ، تحقيق عبدالسلام هارون ، عالم الكتب ، بيروت .
٢٠ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ الزمخشري ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٢١ — الكشف عن وجوه القراءات السبع — مكي بن ابي طالب القيسي ، تحقيق الدكتور محيي الدين رمضان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م .

٢٢ — المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها — ابو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ١٣٨٦هـ .

٢٣ — مختصر في شواذ القراءات ، من كتاب البديع لابن خالويه — عني بنشره برجشتراسر ، دار الهجرة .

٢٤ — المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات — ابو علي النحوي ، تحقيق صلاح الدين عبدالله السنكاوي ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٨٣م .

٢٥ — معاني القرآن — الفراء ، ط ٢ ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٠م .

٢٦ — معاني القرآن — الاخفش الأوسط ، تحقيق الدكتور فائز فارس ، ط ٢ الكويت ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

٢٧ — مغني اللبيب عن كتب الاعاريب — ابن هشام الانصاري ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد .



نظــرة الامويين للحكـم

الدكتور زريف المعايطة
قسم التاريخ — كلية الآداب
جامعة مؤتة
مؤتة — الكرك
الاردن

الملخص

تسعى هذه الدراسة إلى القاء الضوء على الاسس التي اعتمدها الامويون في إثبات حقهم في الخلافة والحكم ، اذ رأوا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي اختارهم للخلافة والحكم مستندين في ذلك إلى مبدأ الجبر . ولذا فقد تلقبوا بالقاب تدل على هذه المكانة ، لكي يضفوا على دعوتهم نوعاً من القداسة الدينية . كما إدّعوا انهم أقرباء الخليفة عثمان بن عفان وانهم ورثته .

ولذا فهم أحق الناس بالحكم . وذلك لأنهم يتمتعون بصفات عربية اصيلة . وبناء عليه فقد وضعوا نظرية معدن الخلافة والملك مؤكدين أن الخلافة لاتصلح الا لهم وحتى يثبتوا هذه النظريات فقد اتكأوا على شعراء ليكونوا السنة تلهج بدعوتهم .

"The Outlook of the Umayyads to Governorship"

Abstract

The study aims at shedding light on the principles which the Umayyad caliphs depend upon in proving their legitimate right in caliphate and governorship. They thought that God has chosen them for caliphate and governorship depending on the principle /Aljabr/ : the inescapability of fate or fatalism. So, they were named by nicknames which suggest this status, so as to give this claim a sort of holly sanctity. They also claimed that they are the legitimate relatives and inheritors of the caliph Uthman ibn Affan. Therefore they have the right to governorship.

They used to enjoy an original Arab characteristicis. They also come up with the theory of caliphate. The Umayyads emphasize that caliphate does not suit anyone other than themselves. They depend on poets, who used to be their spokesmen, to prove these theories.

نظرة الامويين للحكم

جاءت الدولة الاموية نتيجة تفوق الاتجاه القبلي وإنتصار مؤيديه ، فهي منبثقة من اوضاع العرب واستعدادهم .

إن رسوخ قدم الامويين وإنشاء الدولة الاموية مظهر لمواتاة الظروف العامة لقيام مثل ذلك الحكم ، ودليل على ان الدولة الاموية ظاهرة طبيعية للتطور العام .

لقد بقي الامويون يمثلون سيادة قريش امام القبائل ، وتكون شعور بأنهم يمثلون السيادة العربية على العجم . ومع ذلك فإن إنقسام قريش حول مسألة الخلافة إستمر ، كما أن العرب كانوا متباينين في نظرتهم إلى بني أمية .

وإن حللنا ظروف الامويين لاحظنا ان صلتهم بالعرب كانت لا تخلو من توتر احياناً . فقد عُدُوا بنظر قسم من العرب مغتصبين للسلطان ،اخذوا الخلافة بالقوة لا بالانتخاب . وكان مجيء معاوية إلى الخلافة نتيجة لتوافر الظروف في جانبه . ثم أن معاوية ادخل مبدأ جديداً في نظام الخلافة وهو مبدأ الوراثة المباشرة (١) .

ومنذ تولي معاوية بن ابي سفيان الخلافة اصبح مبدأ الجبر فلسفة الامويين ، يحاولون من خلاله تبرير خلافتهم .فأعلنوا للناس أن الله سبحانه وتعالى إختارهم للخلافة ، فورد عن معاوية قوله : «لو لم يرني ربي أهلاً لهذا الأمر ما تركني وإياه ، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيره» (٢) .

---

(١) الدوري ، عبدالعزيز ، ١٩٦١ ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام،المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ص٦٢-٦٣ .

(٢) القاضي عبدالجبار ، محمد ، ١٩٧٤م ، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ،تحقيق فؤاد السيد ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ص١٤٣-١٤٤ .

وحث الأحنف بن قيس التميمي معاوية بن ابي سفيان على التريّث في بيعة إبنه يزيد ، فرّد عليه معاوية قائلا : «يا أبا بحر فإن خيرة الله تجدي ، وقضاء الله يجري ، وأحكام الله تنفذ ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، وان يزيد قد بلوناه ، ولم نجد في قريش فتى هو أجدر بأن يجتمع عليه منه» (١) .

وبعد إختيار مروان بن الحكم خليفة في مؤتمر الجابية عام ٦٥هـ ، خاطبه حسّان بن مالك بن بحدل قائلا : «يا مروان والله ما كلهم يرضى بك» فأجابه مروان : «ان يرد الله أن يعطينها ، لا يمنعني إياها احد من خلقه : فقال له حسّان صدقت» (٢) .

وعندما قتل عبدالملك بن مروان بن سعيد الأشدق ، امر عبدالملك برأس عمرو بن سعيد ان يطرح من اعلى القصر ، فطرح إلى اتباعه وطرحت معه الدراهم والدنانير ، ثم اعلن فيهم قائلا : «إن امير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والامر النافذ» (٣) .

وعندما اراد هشام بن عبدالملك خلع الوليد بن يزيد عن ولاية العهد كتب اليه الوليد : «فقد كتب اليّ من العهد ، وكتب إليّ من العمر وسبب لي من الرزق ، ما لا يقدر احد دونه تبارك وتعالى على قطعه. عنّي دون موته ولا صرفه عن مواقعه المحتومة ، فقدر الله يجري على ما قدره ، بما احب الناس

(١) مؤلف مجهول ، (دت) ، الامامة والسياسة ، تحقيق محمد طه الزيني ، بيروت ، ج١ ، ص١٦١-١٦٢ . والحصري القيرواني ، أبو اسحاق ، ١٩٥٣م ، زهر الاداب وثمر الالباب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة، ج٢ ص٦٤٥ .

(٢) الطبري ، محمد ، ١٩٦٦م ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ج٥ ، ص٥٣٦-٥٣٧ .

(٣) مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ج٢ ، ص٢١-٢٢ .

وكرهوا ، لا تعجيل لعاجله ، والناس بعد ذلك يحتسبون الاوزار ، ويعتزمون الآثام على انفسهم من الله بما يستوجبون العقوبة عليهم فرد عليه هشام قائلا : «وأما ما ذكرت مما سببه الله لك ، فإن الله قد ابتدأ امير المؤمنين بذلك واصطفاه له ، والله بالغ امره . ولقد اصبح امير المؤمنين وهو على يقين من رأيه ، الا انه لا يملك لنفسه مما اعطاه الله من كرامته ضراً ولا نفعاً ، وان الله ارأف بعباده وأرحم من يولي امرهم غير من يرتضيه لهم ، وان امير المؤمنين مع حسن ظنه بربه لعلى احسن الرجاء لأن يوليه بسبب ذلك عن هو اهله في الرضا به» (١) .

ووردت ايضاً روايات تفيد ان مبدأ الجبر قد ظهر في العصر الراشدي ، فمعاذ بن جبل يخاطب ابا بكر الصديق : «أن الله بعث محمد صلى الله عليه وسلم برسالته إلى خلقه فبلغه الله ما احب أن يبلغ ،وكان كما أحب ربه أن يكون فقبضه الله وهو محمود مبرور صلوات الله عليه ، ثم ان الله استخلفك ايها الصديق على ملأمن المسلمين ورضي منهم» (٢) .

وعندما تولى عمر بن الخطاب الخلافة قال : «ايها الناس إن الله ولانـي امركم وقد عملت انفع ما لكم وأسأل الله أن يعينني عليه ، وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره ، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي امر به ، فإني عبد مسلم وعبد ضعيف الا ما اعان الله» (٣) .

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٧ ، ص ٢١٢-٢١٤ .

(٢) الأزدي، محمد ، ١٩٧٠م ، فتوح الشام ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة، ص١٩-٢٠ وهناك مثال آخر في : الذهبي ، محمد ، ١٩٧٩م تاريخ الاسلام ، تحقيق حسام الدين القدسي ، مطبعة القدس ، القاهرة ، ص٨ .

(٣) إبن أبي الحديد ، عبدالحميد ، ١٩٥٩م ، شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ج١٢ ، ص١٠٩ .

وعندما طلب الثائرون في المدينة من عثمان أن يعتزل الخلافة ردّ عليهم قائلا : «ما كنت لانزع قميصاً قمصنيه الله» (١) ، وعن يزيد بن الاسود بن قيس بن مالك النخعي ، قال: «قلت لعائشة : «ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع اصحاب رسول الله (ص) في الخلافة ؟ فقالت : وما تعجب من ذلك ؟ وهو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر ، وقد ملك فرعون اهل مصر اربعمائة سنة» (٢) .

وقد اعتمد اهل مبدأ الجبر على بعض الآيات القرآنية التي تؤيد اراءهم ، قال تعالى : «وما تشاؤون الا أن يشاء الله ، ان الله كان عليماً حكيماً ، يدخل من يشاء في رحمته والظالمين اعدّ لهم عذاباً اليما» (٣) . وقال تعالى : «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم» (٤) .

ووردت أيضاً احاديث نبوية تؤكد مبدأ الجبر الذي نادى به الخلفاء الامويون ، قال رسول الله (ص) : «أن الله عز وجل لو عذب اهل سماواته واهل ارضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من اعمالهم ، ولو كان لك مثل جبل احد ذهبا انفقته في سبيل الله ما قبله الله منك ، حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما اصابك لم يكن ليخطئك . وأن ما اخطأك لم يكن ليصيبك ، فإن مت على غير هذا دخلت النار» (٥) .

---

(١) البلاذري ، أحمد ، ١٩٣٦م ، أنساب الاشراف ، نشر غوتين ، القدس ، ج ٥ ، ص ٦٦-٦٧ . والطبري ، تاريخ ، ج٤ ، ص٣٧١ .

(٢) إبن كثير ، أبو الفداء ، ١٩٦٤م ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ج ٨ ، ص١٣٦ .

(٣) سورة الانسان ، آية ٣٠ . انظر تفسير هذه الآية في أبن كثير ، أبو الفداء ، ١٩٦٩م ، تفسير القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج٤ ، ص٤٥٧-٤٥٨ .

(٤) سورة البقرة ، آية ٦ ، ٧ ، أنظر تفسير هذه الآية في أبن كثير ، ج١ ، ص٤٥-٤٦.

(٥) أبو داود ، سليمان ، (د-ت) ، سنن أبي داود ، راجعه محمد محيي الدين عبد الحميد دار إحياء التراث ، بيروت ، ج٤ ، ص٢٢٥ .

وعن ابي هريرة قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : «التقى موسى وآدم عليهما السلام ، فقال موسى لآدم : «انت أبو الناس الذين اغويتهم واخرجتهم من الجنة ، فقال آدم : اوتلومني على عمل قد كتبه الله عليّ أن اعمله ، وقبل أن اخلق فحج آدم وموسى» [١] . وقال رسول الله (ص) : «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة او بخمسين ليلة ، فيقول : أي رب ذكر ام انثى ، فيقول الله ويكتب الملك ، فيقول : أي رب شقي ام سعيد ، قال : فيقول الله ، ويكتب رزقه وعمله واجله ثم يطوي الصحيفة ، فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص» [٢] . وهكذا فإن الامويين لم يستخدموا فكراً غريباً عن المسلمين بل فكراً معروفاً عندهم ، بل أن الايمان بالقدر خيره وشره ، هو احد عناصر الايمان عند المسلمين [٣] .

واستخدم الامويون الشعراء وسيلة إعلامية لاعلان ونشر نظريتهم في الجبر ، بهدف إقناع اكبر عدد ممكن من الناس بالجبر ، فأشاع الشعراء بين الناس أن الله سبحانه وتعالى هو الذي إختار بني أمية للخلافة ، ولا مجال لتغيير إرادة الله .

لذا ظهر مذهب الجبر في الخلافة في الشعر الاموي ، وتمثل الشعراء الموالون للامويين نظريتهم في الخلافة ، واتخذوها اساساً لتصويب حقهم

---

(١) البخاري ، محمد ، ١٩٣٧م ، صحيح البخاري ، المطبعة البهية ، القاهرة ، ج٢٤ ، ص٨٤ . ومسلم ، أبو الحسين ، ١٩٧٨م ، صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، بيروت ، ج٤ ، ص٢٠٤٢ . وأبو داود ، سنن ، صحيح ، ج٤ ، ص٢٠٣٨ .

(٢) البخاري ، صحيح ، ج٢٣ ، ص٧٢ . وابي داود ، سنن ، ج٤ ، ص٢٢٨ . ومسلم صحيح ، ج٤ ، ص٢٠٣٨ .

(٣) أبو داود ، سنن ، ج٤ ، ص٢٢٤ ، ومسلم ، صحيح ، ج١ ، ص٢١٥٧ ، وابن ماجه ، أبو عبدالله ، ١٩٧٥م ، سنن أبن ماجه ، تحقيق فؤاد عبدالباقي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ج١ ، ص٣٢-٣٥ .

في الملك والاحتجاج له والدفاع عنه . والشواهد على ذلك كثيرة وبعضها يكرّر بعضاً فهم دائماً يُبدئون ويُعيدون في معنى واحد ، وهو ان الله قلدّ الامويين الخلافة ، وانهم ظل الله في الارض وسلطانه على الناس ، فمنها قول عبدالله بن همام السلولي ليزيد بن معاوية مُقرراً أن الله اختاره لولاية امر المسلمين (١) :

أصبـر يزيد فقد فـارقت ذا ثقة واشكر عطاء الذي بـالملك أصفاكا

وقول جرير لعبد الملك مؤكداً أنّ الله حباه الخلافة لأنه احق بها وأقوى عليها (٢) :

الله طـوقك الخلافـة والهـدى والله ليـس لمـا قضـى تبـديـل

وقال الفرزدق يمدح الوليد بن عبدالملك (٣) :

اشاروا بها في الأمر غيرك منهـم ولولاكها ذو العرش نحلا من النحـل

منها قول جرير لعمر بن عبدالعزيز منوهاً بان الله فوض اليه الخلافة (٤):

ان الـذي بعـث النبـي محمـدا جعـل الخلافـة في الامـام العـادل

وقوله له مردداً أن الله خوّله الخلافة (٥) :

نـال الخلافـة إذ كانت له قـدرا كما أتى ربه موسى عـلى قـدر

(١) البلاذري ، أحمد ، ١٩٣٨م ، أنساب الأشراف ، نشر ماكس شلوزنجر ، القدس ، ج٤ ، قسم٢ ، ص٥ .

(٢) جرير ، إبن عطية ، ١٩٧٢م ، ديوان جرير ، جمع وشرح محمد اسماعيل الصاوي الطبعة الاولى ، دمشق ،مكتبة محمد حسين النوري ، بيروت ، الشركة اللبنانية ، ص٧٤

(٣) الفرزدق، همام ، ١٩٦٦م ، ديوان الفرزدق ،دار صادر ، بيروت ، ج٣ ، ص١٤٥ـ ١٤٨ .

(٤) جرير ، الديوان ، ص٤١٥ ، وابن الجوزي ،ابي الفرج عبدالرحمن ، ١٩٨٤م ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، تحقيق نعيم زرزور ، الطبعة الاولى ،دار الكتب العلمية بيروت ، ص٣٠٠ .

(٥) جرير ، الديوان ، ص ٤١٥ . وابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ،ص٢٠٠ ، والجريري أبو الفرج ، ١٩٨١م ، الجليس الكافي والانيس الناصح الشافي ، تحقيق محمد مرسولي الخولي ، الطبعة الاولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ج١ ، ص٢٥٦ .

ومنها قول جرير ليزيد بن عبدالملك مصرّحاً بأن الله وهبه الخلافة وآثره بها ، لورعه وتقواه ، وبُعد همته وحُسن تدبيره (١) :

أما يزيد فإن الله فهمه حكماً وأعطاه مُلكاً واضح النور
يكفي الخليفة ان الله فضله عزم وثيق وعقد غير تغرير (٢)

والابيات السابقة وثائق حية صادقة لها قيمة فائقة ، لأنها تصور نظرية الامويين في الخلافة ، وتاريخ نشرهم لها ، ومبلغ الحاحهم عليها ، ومقدار اعتقاد انصارهم بها ، مما يوافق الاخبار التي رويت في ذلك ويؤيدها تأييداً شديداً ، ومما يزيد عليها زيادة كبيرة ، تستدرك ما اخلّت به ، وتوضحه توضيحاً دقيقاً .

فهي تدل على أن الامويين اظهروا نظرية الجبر في الخلافة في عهد معاوية إبن ابي سفيان وأن المروانيين منهم تمسكوا بها ، واعتمدوا عليها لاثبات حقهم في الملك وتعليل استجابتهم له ، وتفسير استئثارهم به ، فقد كانوا يزعمون أن الله إختارهم للخلافة ، وخصهم بها ، لأنهم احسن المسلمين صلاحاً وفضلا ، واكثرهم تُقى وورعاً وأدقهم علماً وحكماً وأصدقهم جهاداً ونضالا ، واشهرهم إنصافاً وعدلا ، مما لم ترد فيه أخبار من أيام مروان بن الحكم إلى أيام هشام بن عبدالملك الا قليلا .

وعلى اساس القول بأن الله سبحانه وتعالى إختار الامويين للخلافة ، فانهم حاولوا إكساب انفسهم صفات دينية ، وذلك بتعظيم مكانة الخلفاء وتشبيههم بالانبياء في صفاتهم واخلاقهم ، ولذلك فمكانهم الجنة بالقرب من الانبياء .

فقال الفرزدق يمدح يزيد بن عبدالملك (٣) :

---

(١) جرير ، الديوان ، ص٢٥٢ ، ٢٥٧ .
(٢) غير تغرير ، لايقود الى الهلكة .
(٣) الفرزدق ، الديوان ، ص٢١٣ - ٢١٦ .

لو لم يبشر به عيسى وبنيه ... كنت النبي الذي يدعو إلى النور
فأنت اذا لم تكن إياه صاحبه ... مع الشهيدين والصديق في السور
في غرف الجنة العليا التي جعلت ... لهم هناك بسعي كان مشكور

وقال الفرزدق يمدح هشام بن عبدالملك بمثل ذلك محاولا إكسابه صفات الانبياء والرسل (١) :

يقول ذوو العلم الذين تكلموا ... به عن رسول الله من كل عالم
ولو أرسل الروح الامين إلى امرىء ... سوى الانبياء المصطفين الاكارم
اذا لاتت كفى هشام رسالة ... من الله فيها منزلات العواصم

ومن اجل اكساب هذه الصفات الدينية الصدق ، حاول الشعراء إظهار الامويين بأنهم شديدو الورع والتقوى ، فقال نابغة بني شيبان يمدح يزيد بن عبدالملك (٢) :

يقطع الليل آهة وانتحابا ... وابتهالا لله أي ابتهال
تارة راكعاً وطوراً سجودا ... ذا دموع تنهل أي انهلال
عادل مقسط وميزان حق ... لم يحف في قضائه للوالي

وادّعى الامويون أن بقاء الخليفة يعني بقاء الاسلام ، واستمروا في تأدية الشعائر الاسلامية فلولا الخلفاء لم تقم شرائع الدين ولم تنفذ احكامه ، فوجود الخليفة ضروري لوجود الدين واستمراره ، فيقول الوليد بن يزيد في كتاب العهد لابنيه الحكم وعثمان : «ثم استخلف الله خلفاءه على منهاج نبوته ، حين قبض نبيه (ص) وختم به وحيه لانقاذ حكمه ، واقامة سنته وحدوده ،

---

(١) الفرزدق ، الديوان ، ج٢ ، ص٢٠١ –٢٠٢ .
(٢) النابغة الشيباني ، عبدالله ، ١٩٣٢م ، ديوان نابغة بني شيبان ، الطبعة الاولى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ص٦٨ ، ٦٩ .

والأخذ بفرائضه وحقوقه ، تأييداً بهم للاسلام ، ودفعاً بهم عن صريحه واصلاحاً بهم لبلاده ، فانه تبارك وتعالى يقول: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض (١) ، ولكن الله ذو فضل على العالمين (٢) » .

وقال جرير يمدح عبدالملك بن مروان (٣) :

لولا الخليفة والقرآن يقرأه ما قام لناس احكام ولا جمع

ونتيجة لهذه المكانة التي إدّعاها الامويون لأنفسهم ، فقد أعلنوا ان كل خروج او ثورة عليهم هو خروج على طاعة الله وعلى الاسلام ، وبالتالي فإن هذا الخروج يعد كفراً بالاسلام ، فعندما اجتمع حسّان بن مالك بن بجدل بأنصار بني أمية في الاردن خاطبهم قائلا : «يا أهل الاردن ما شهادتكم على إبن الزبير ، وعلى قتلى اهل الحرة ؟ قالوا : نشهد ان ابن الزبير منافق وأن قتلى اهل الحرة في النار : فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرة؟ قالوا : نشهد أن يزيد على الحق ، وأن قتلانا بالجنة» (٤) .

وعندما خرج عمرو بن سعيد على عبدالملك بن مروان ، خطب في اهل دمشق فقال : «ايها الناس انه لم يقم احد من قريش قبلي على هذا الا زعم ان له جنة وناراً يدخل الجنة من اطاعه والنار لمن عصاه ، واني اخبركم أن الجنة والنار بيد الله ، وأنه ليس من ذي شيء ، غير أن لكم عليّ حسن المؤاساة والعطية» (٥) .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٥١ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ٧١ ، ص٢١٩ .

(٣) جرير ، الديوان ، ص٣٥٤ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٥ ، ص٥٣١-٥٣٢ ، والبلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص١٣٢ . وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص٢٤٠ .

(٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٦ ، ص١٤٠-١٤١ . والمسعودي ، ابي الحسن ، ١٩٦٥ م ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، وضع الفهارس أسعد داغر ، دار الاندلس للطباعة ، بيروت ، ج ١٣ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

ولما حاول الخلفاء الامويون إعطاء انفسهم مكانة دينية رفيعة ومنزلة مرموقة في نظر الناس من خلال القول بأن الله سبحانه وتعالى اختارهم للخلافة، فقد تلقبوا بالقاب جديدة تدل على هذه المكانة ، وأول هذه الالقاب هو لقب خليفة الله ، فروى عن معاوية قوله : «الارض لله وانا خليفة الله» [١] .

واعتمد الامويون لتبرير استخدامهم لهذا اللقب على بعض الآيات القرآنية التي تدعم رأيهم ظاهرياً [٢] ، ومنها قوله تعالى : «يا داود إنّا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق» [٣] .

وقد اطلق الشعراء على الخلفاء الامويين ، القاباً مختلفة ، لقب امين الله ، فقال جرير يمدح الخليفة عبدالملك بن مروان [٤] :

أنت الامين أمين الله لا يسرف فيما وليت ولا هبابة ورع

ومن الالقاب الاخرى ، لقب الامام ، فقال جرير يمدح الوليد بن عبدالملك [٥] :

إن الوليد هو الامام المصطفى بالنصر هز لواؤه والمغنم
ذو العرش قدر أن تكون خليفة ملكت فاعل على المنابر وأسلم

ومن الالقاب الاخرى لقب خليل الله ، فقال الفرزدق يمدح هشام بن عبدالملك [٦] :

ونحن قيام حيث كانت وطاءة لرجل خليل الله من غير محتد

---

(١) البلاذري ، أحمد ، ١٩٧٩م،انساب الاشراف ،تحقيق إحسان عباس،الطبعة الكاثوليكية بيروت ، قسم ٤ ، ج١،ص ١١٦ المسعودي ، مروج الذهب . ج٣ ، ص٤٣ .
(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٧ ص ٢١٧ .
(٣) سورة ص ، آية ٢٦ . انظر، تفسير الآية في ابن كثير ، التفسير ، ج١ ، ص٣٢ .
(٤) جرير ، الديوان ، ص ٣٥٤، ٣٥٥ . والفرزدق ، الديوان ، ج٢ ، ص٢٨٤ .
(٥) جرير ، الديوان ، ٤٩٢ .
(٦) الفرزدق . الديوان . ج١ . ص١٤٠-١٤١ .

ومن هذه الالقاب لقب راع ، فقال الفرزدق يمدح الوليد بن عبدالملك [١]:

وانك راعي الله في الارض تنتهي اليك نواصي كل أمر وآخره

ولقب الخلفاء الامويون بلقب آخر هو المهدي ، وقد اطلق الشعراء هذا اللقب على الخلفاء الامويين المتأخرين منهم خاصة . فقال الفرزدق يمدح سليمان بن عبدالملك [٢] :

أنت الذي نعت الكتب لنا في ناطق التوراة والزبر
كم كان من قس يخبرنا بخلافة المهدي او حبر

وتسمّى الخلفاء الامويون بلقب المهدي رداً على الفِرَقْ الشيعية التي تبنّت فكرة المهدي ودعت اليها ، وكان الايمان بهذه الفكرة يعني عدم الرضا بالخلافة الاموية وانتظار خروج المهدي للاشتراك معه في الثورة على الامويين والقضاء على دولتهم باقامة دولة الحق والعدل،كما ان الايمان بهذه الفكرة يعطي معتنقيها الامل بتغيير الحكم الاموي ، فحارب الامويون هذه الفكرة بالادعاء بأن الخليفة القائم هو المهدي ، وانه لا مهدي غيره ، وهم بذلك يدفعون المؤمنين بهذه الفكرة إلى اليأس والقنوط ، لانه لا امل لهم في ظهور المهدي ، فتفترق قوتهم ويضعف حماسهم ويمتنعون عن معارضة الامويين . وتوصل بعض الباحثين إلى أن إطلاق لقب المهدي على الخلفاء الراشدين والامويين كان بمعنى الخلفاء الذين يهدون إلى الخير والرشد [٣] .

---

(١) الفرزدق ، الديوان ، ج١ ، ص ٢٤٨-٢٥١ .

(٢) الفرزدق ، الديوان ، ج١ : ص٢٦٢ و ٢٦٤ . وجرير ، الديوان ، ص١٤٦-١٥١

(٣) الدوري ، عبدالعزيز ، ١٩٨١-الفكرة المهدية بين الدعوة العباسية والعصر العباسي الاول مهداة إلى إحسان عباس ، طبع الجامعة الاميركية في بيروت ، ص١٢٤ - ١٢٥ . وانظر القاضي ، وداد ١٩٧٤ ، الكيسانية في الادب والتاريخ ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ١٢٣ . عطوان ، حسين ، ١٩٨٦ ، الامويون والخلافة ، دار الجيل ، عمان ، ص٢١ ٢٢

وتبنّى الامويون الجبر لدفع الناس لطاعتهم ، والاستسلام لحكمهم ، ومنعهم من التفكير بالثورة عليهم ، ومحاولة تغيير حكمهم ، لأن اي ثورة يقومون بها محكوم عليها بالفشل ، لانها تتعارض مع ارادة الله التي قررت اختيارهم للخلافة .

وقد عبّر الوليد بن يزيد عن هدف الامويين من القول بالجبر فقال : «فتتابع خلفاء الله على ما اورثهم الله من امر انبيائه واستخلفهم عليهم منه ، لا يتعرض لحقهم احد الا صرعه الله ولا يفارق جماعتهم احد الا اهلكه الله ولا يستخف بولايتهم ويتهم قضاء الله فيهم احد الا امكنهم الله منه وسلطهم عليه ، وجعله نكالا وموعظة لغيره ، وكذلك صنع الله بمن فارق الطاعة التي امر بلزومها والاخذ بها والاثرة لها ، والتي قامت السماوات والارض بها ، قال الله تبارك وتعالى : «او كرها قالتا أتينا طائعين» (١) ، فبالخلافة أبقى الله من ابقى في الارض من عبادة وصيره وبطاعة من ولاة اياها سعد من الهمها ونصرها .... والطاعة رأس هذا الامر وذروته وسنامه وملاكه وزمامه ... فالزموا طاعة الله فيما عراكم ونالكم وألمّ بكم من الامور ... (٢) .

ولدفع الرعية لمزيد من اليأس والقنوط وجعلهم يفقدون الامل في تغير الحكم الاموي ، إدّعى الامويون ان الخلافة باقية فيهم إلى يوم القيامة ، فقال الفرزدق (٣) :

فلن تزال لكم والله أثبتها   فيكم إلى نفخة الرحمن في الصور

ويقول معاوية لأولئك النفر الذين امتنعوا عن البيعة لابنه يزيد : «إنما كان

---

(١) سورة فصلت ، آية ١١ .
(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٧ ، ص٢١٩ .
(٣) الفرزدق ، الديوان ، ج١ ، ص٢١٤ .

هذا الامر لبني عبد مناف ، لأنهم اهل رسول الله(ص) ، فلما توفي رسول الله(ص) ولىّ الناس ابا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة غير انهما سارا بسيرة جميلة ثم رجع الملك إلى بني عبدمناف فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة» (١) .

ومن الاسس الاخرى التي اعتمد عليها الامويون في ادعائهم أحقيتهم بالخلافة ، القول بأنهم ورثة الخليفة عثمان ، وأنهم جاؤا للانتقام من قتلته ، فمعاوية بن ابي سفيان رفض بيعة الخليفة علي وحاربه في صفين معتمداً على انه قريب الخليفة عثمان ويحق له المطالبة بالثأر له من قتلته ، واستطاع معاوية إقناع اهل الشام بجديّة مطلبه هذا ، ولكن معاوية استغل هذا الطلب للوصول للخلافة ، فبعد ان اصبح خليفة لم يتتبع احداً من المتهمين بقتل عثمان ، وقال بعد ان بويع بالخلافة عام ٤١هـ : «ألا واني قد طلبت بدم عثمان قتل الله قاتليه ورد الامر إلى اهله ، على رغم معاطس اقوام» (٢) .

ولم يتتبع المروانيون سياسة معاوية المتسامحة مع المتهمين بقتل عثمان ، بل قاموا بقتل بعضهم ، فعندما وصل الحجاج بن يوسف إلى الكوفة والياً عليها قتل كميل بن زياد النخعي ، وعمير بن ضابيء البرجمي ، وهما ممن اتهم بقتل الخليفة عثمان (٣) .

---

(١) مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ج١ ، ص١٥٠ .

(٢) البلاذري ، أحمد ، ١٩٧٧م ، أنساب الاشراف ، تحقيق محمد باقر المحمودي ، بيروت ، ج٣ ، ص٤٦ ، ٤٧ .

(٣) البلاذري ، أحمد ، أنساب الأشراف (مخطوط) ، نسخة استانبول ، المكتبة السليمانية رقم ٥٩٨ ، قسم٢ ، ص٤ . وأنظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٦ ، ص٢٠٧ . وأبن سعد ، محمد ، ١٩٧٥م ، الطبقات الكبرى ، دار بيروت ودار صادر ، بيروت ، ج٦ ، ص١٧٩ .

وقتل مروان بن الحكم ، الاكدر بن همام بن عامر بن صعب ، سيد قبيلة لخم في مصر ، وكان ممن سار إلى الخليفة عثمان (١) .

وعمل الشعراء على نشر هذا الادعاء الاموي بين الناس ، فقال الفرزدق يمدح عبدالملك بن مروان وواليه الحجاج بن يوسف (٢) :

هو السيف الذي نصر ابن اروى ... به مروان عثمان المصابا
اذا ذكرت عيونهم ابن أروى ... ويوم الدار اسهلت انسكابا
تراث عثمان كانوا الاولياء له ... سر بال ملك عليهم غير مسلوب

وادعى الامويون أنهم احق بالخلافة لانهم ورثة الرسول (ص) محتجين بقرابتهم من الرسول (ص) ، وقد مر بنا ما قاله معاوية في اثناء البيعة ليزيد ، مخاطباً المعارضين لبيعة يزيد من أهل المدينة : «وعندما تولى العباسيون الحكم دخل على ابي العباس مشيخة من اهل الشام فقالوا : «والله ما علمنا ان لرسول الله (ص) قرابة يرثونه الا بني أمية حتى وليتم» (٣) .

يؤيد هذا الادعاء الاموي ماورد في اشعار الشعراء :فيقول لفرزدق ليزيد إبن عبدالملك (٤) :

ورثتم خليل الله كل خزانة ... وكل كتاب بالنبوة قائم

ويقول الفرزدق ايضاً لمعاوية بن هشام بن عبدالملك (٥) :

ورثوا تراث محمد كانوا به ... أولى وكان لهم من الاقسام

---

(١) الكندي ، محمد ، ١٩٥٩م ، ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار ،دار صادر ،بيروت ص٦٧ .
(٢) الفرزدق ، الديوان ، ج١ ، ص٢٣-٢٦ .
(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٣، ص١٥٩ ، والمسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ص٤٣ .
(٤) الفرزدق ، الديوان ، ج٢ ، ص٢٨٢ .
(٥) الفرزدق ، الديوان ، ج٢ ، ص٢٨٣ .

ولما ادعى الامويون أن الخلافة لاتصلح الا لهم ، اوجدوا نظرية معدن الملك والخلافة ، وهدفوا من ذلك الى تدعيم سيطرتهم وخلافتهم ، وأول ماتظهر هذه النظرية عند معاوية (١) :

وفي مؤتمر الجابية عام ٦٥هـ ، دار نقاش بين عبدالله بن عضاه الاشعري وحسّان بن مالك بن بحدل ، فقال ابن عضاه : «أراك تريد هذا الامر لخالد إبن يزيد وهو حدث السن ، فقال له حسان: «انه معدن الخلافة ومقر الرياسة والسياسة» (٢) .

وادعى الأمويون انهم يستحقون الخلافة لما يتمتعون به من صفات تؤهلهم لتولي الخلافة ؛ وهي صفات كان من الضروري توفرها فيمن يتولّى الزعامة عند العرب قبل الاسلام ، ومن هذه الصفات ، الكرم والحلم والشجاعة والسن المناسبة والعدل والحكمة والمكانة الرفيعة في القبيلة .

وهكذا فان الامويين نظروا الى أن الخلافة جاءتهم من الله سبحانه وتعالى، ولم تصل اليهم عن طريق بيعة الناس لهم ، وهذه النظرة تشبه مايعرف بنظرية الحق الآلهي المقدس في الحكم ، والتي سادت عند بعض الشعوب القديمة مثل الفراعنة والبيزنطيين والفرس وحتى عند دول اليمن في جنوب الجزيرة العربية (٣) .

وهذا يعني أن سلطة الخليفة مستمدة من الله ، لذلك يجب على الرعية طاعته والانقياد له، لان أوامره ونواهيه هي بمثابة قانون سماوي، ومن هذا المنطلق لقّب الخلفاء الامويون بألقاب تدلّ على هذه المكانة العظيمة التي

---

(١) مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ج١ ، ص١٥٠ .
(٢) البلاذري ، أنساب الاشراف ، ج٥ ، ص١٢٧-١٢٩ .
(٣) الدوري ، عبدالعزيز ، ١٩٥٠ م ، النظم الاسلامية ، مطبعة بغداد ، ص١١-١٣ .

تمتعوا بها مثل خليفة الله ، راعي الله ، ظل الله، خليل الله ، وهذا يعني ايضاً انه ليس من حق الرعية محاسبة الخليفة على أعماله وأفعاله ، لأن الخليفة لم يصل الى الحكم ببيعة الناس له ، وأن الله سبحانه وتعالى قرر هذه الاعمال . وهدف الامويين من ذلك اقناع الرعية بالانصياع للحكم الاموي ، واقناعهم بعدم اللجوء للثورة لتغيير خلافتهم ، لانه لاجدوى من وراء هذه الثورات لان الله سبحانه وتعالى هو القادر على ابعاد الامويين عن الخلافة وليست الامة .

وهذا يناقض ماكان معروفاً عند الخلفاء الراشدين ، الذين كانوا يرون ان الامة هي التي تملك الحق في تعيين الخلفاء وعزلهم وقتما شاءت اذا خالف الخلفاء التعاليم الاسلامية ، فأبو بكر يطلب من الرعية في أول خطبة مراقبة اعماله ، وتصحيحها اذا اخطأ [1] .

وفي سبيل اقناع الناس بصحة الادعاء الاموي ، بأحقيتهم بالخلافة ، فقد نسب الامويون الى انفسهم صفات كانت مرموقة في نظر العرب . منها أنهم سادة العرب عامة وقريش خاصة، وأنهم أكرم الناس وأكثرهم عطاء وأكثرهم قدرة على قتال الاعداء ، ونتيجة لذلك فإن الخلافة لاتصلح الا للأمويين ، فهم معدن الملك والرياسة ، وان أي شخص يحاول الوصول الى الخلافة سوف تبوء محاولته بالفشل ، لان الخلافة باقية فيهم الى يوم القيامة فيقول مسلمة بن عبد الملك بعد ثورة يزيد بن المهلب : « أترى هؤلاء القوم قد خرجوا علينا كانو يظنّون ان الخلافة فيهم لئن كانوا ظنّوا ذلك فقد ظنّوا إفكا وزوراً» [2] .

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٢٣ ، ٢٢٤ . وانظر الزبير بن بكار ، ١٩٧٢م ، الاخبار الموفقيات ، تحقيق سامي مكي العاني ، مطبعة العاني ، بغداد ، ص٥٧٩ .

(٢) ابن اعثم الكوفي ، ابي محمد ١٩٦٨م ، الفتوح ، الطبعة الاولى ، مطبعة مجلس المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ج٨ ، ص٢١ .

وبيدو من كل ماتقدم من الاخبار والاشعار أن الامويين تذرعوا بمقتل عثمان الى طلب الخلافة والظفر بها ، فأظهروا انه قتل بغير حق ، وانهم ثائرون به ، منكرون لقتله، مصرون على الاخذ بثأره ، لأنهم اقرباؤه وأولياء دمه . وقاد معاوية صفوفهم ، ونازع علياً في الخلافة ، وغالبه عليها ، فلما اغتيل علي حصل معاوية على الخلافة واستبد بها .

واشاع الامويون بعد ذلك انهم اصحاب الخلافة واربابها ، واونى الناس بها وأن لهم حظاً مشروعاً فيها، فانها جاءت عثمان عن مشورة وبيعة، وهم أحق بوراثته لانهم عصبته وأهل بيته ، ولم يزالوا يرددون ذلك ويحتجون به لحقهم في الخلافة الى وقت متأخر من دولتهم .

ولكنهم تبينوا في زمن مبكر ، بل في الشطر الاول من عهد معاوية أن حجتهم في الطلب بدم عثمان انما تخول لهم الاقتصاص من قتلته ، ولا تنقل اليهم الخلافه عنه ، ووجدوا أن ماذكروه من انهم ورثوا الخلافة عنه لايكون لهم نظرية واضحة في الخلافة تقوم على أسس تلقى بعض القبول وتقوى على الصمود أمام نظريات الفرق الاخرى في الخلافة ، فجنحوا الى مذهب الجبر في الخلافة واعتمدوا عليه لاثبات حقهم فيها ، واستندوا اليه لتسويغ سيطرتهم عليها ، فأذاعوا ان الله قلدهم الخلافة واعطاهم الملك وانهم يسوسون بقضائه وقدره ويعملون باذنه وأمره ، واضفوا على خلافتهم مسحة من الجلالة ، وخلعوا على شخصياتهم ألواناً من الالقاب الدينية . وجدوا في نشر نظريتهم والتبشير بها ، ونشطوا في شرحها ، والدعوة اليها، وكان الوليد إبن يزيد بن عبدالملك أهم من بسطها منهم وفصلّها .

وقد اعلنوا ان الله حباهم الخلافة لانهم نخبة العرب نسباً وخلقاً ، وصفوة المسلمين ورعا وتقى .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

الازدي ، محمد بن عبدالله ، ١٩٧٠م — فتوح الشام، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة .

ابن أعثم ، أبي محمد ، ١٩٦٨م — الفتوح ، الطبعة الاولى ، مطبعة مجلس المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند .

البخاري ، محمد بن اسماعيل، ١٩٣٧م — صحيح البخاري ، المطبعة البهية ، القاهرة .

البلاذري أحمد بن يحيى — انساب الاشراف (مخطوط) ، نسخة استانبول السليمانية ، رقم ٥٩٧ — ٥٩٨ .

البلاذري ، احمد بن يحيى ، ١٩٣٨م — أنساب الاشراف ، جزء ٤، قسم٣ ، نشر ماكس شلوزنجر ، القدس .

البلاذري ، أحمد بن يحيى ، ١٩٣٦ — انساب الاشراف ، ج٥ نشر غوتين ، القدس .

البلاذري ، أحمد بن يحيى ، ١٩٧٩م — انساب الاشراف .قسم٤، ج١ ، تحقيق احسان عباس ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت .

البلاذري ،احمد بن يحيى ، ١٩٧٧ — انساب الاشراف ، ج٣ ، تحقيق محمد باقر المحمودي ، بيروت .

جرير ، ابن عطية الخطفي ، ١٩٧٢م — شرح ديوان جرير ، جمع وشرح محمد اسماعيل الصاوي ، دمشق ، مكتبة محمد حسين النوري ، بيروت ، الشركة اللبنانية للكتاب .

الجريري ، أبي الفرج ، ١٩٨١م – الجليس الكافي والانيس الناصح الشافي تحقيق محمد مرسولي الخولي . عالم الكتب ، بيروت .

ابن الجوزي ، ابي الفرج عبدالرحمن ، ١٩٨٤م – سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز ، تحقيق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

ابن ابي الحديد ، عبدالحميد ،١٩٥٩م – شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، احياء الكتب العربية ، القاهرة .

الحصري القيرواني ، أبي اسحاق ، ١٩٥٣ – زهر الآداب وثمر الالباب ، تحقيق علي البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

أبو داؤد ، سليمان بن الاشعث – سنن أبي داود ، راجعه محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

الدوري ، عبدالعزيز ، ١٩٥٠م – النظم الاسلامية ، مطبعة نجيب ، بغداد.

الدوري عبدالعزيز ، ١٩٨١م – الفكرة المهدية بين الدعوة العباسية والعصر العباسي الاول ، مقالة في مجلة دراسات عربية واسلامية مهداة الى احسان عباس ، بيروت ، الجامعة الاميركية .

الدوري ، عبدالعزيز ، ١٩٦١م ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

الذهبي ، محمد بن أحمد ، ١٩٧٩م – تاريخ الاسلام ، تحقيق حسام‌الدين القدسي ، مطبعة القدس ، القاهرة .

الزبير بن بكار ، ١٩٧٢م – الاخبار الموفقيات ، تحقيق سامي مكي العاني مطبعة العاني ، بغداد .

ابن سعد ، محمد ، ١٩٧٥م – الطبقات الكبرى، دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر ، بيروت .

الطبري ، محمد بن جرير ، ١٩٦٦م – تاريخ الرسل والملوك ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة .

الفرزدق ، همام بن غالب ، ١٩٥٩م – ديوان الفرزدق ، دار صادق للطباعة والنشر ، بيروت .

القاضي عبدالجبار ، عبدالجبار بن محمد ١٩٧٤م – فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق فؤاد السيد ، الدار التونسية للنشر ، تونس .

القاضي ، وداد ، ١٩٧٤م – الكيسانية في الادب والتاريخ ، دار الثقافة ، بيروت .

ابن كثير ، ابو الفداء الحافظ ، ١٩٦٤م – البداية والنهاية ، مكتبة المعارف الرياض .

ابن كثير ، ابو الفداء الحافظ ، ١٩٦٩م – تفسير القرآن العظيم ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .

الكندي ، محمد بن يوسف ، ١٩٥٩م – ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت .

ابن ماجة ، أبو عبدالله محمد ، ١٩٧٥م – صحيح سنن ابن ماجة ، تحقيق فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

المسعودي ، ابي الحسن علي ، ١٩٦٥م – مروج الذهب ومعادن الجوهر ، وضع الفهارس أسعد داغر ، دار الاندلس للطباعة والنشر ،بيروت.

مسلم ، ابو الحسين ، ١٩٧٨م — صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، بيروت .
مؤلف مجهول — الامامة والسياسة ، تحقيق محمد طه الزيني ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .
النابغة الشيباني ، عبدالله بن مخارق ، ١٩٣٢م — ديوان نابغة بني شيبان ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة .



فئة التجار في العصر العباسي

الدكتور
نجمان ياسين
كلية الاداب – جامعة الموصل

تعد التجارة احدى الفعاليات المهمة في تاريخ الحضارة العربية قبل الإسلام والحضارة العربية الإسلامية ، وتستند فئة التجار إلى جذر تاريخي عميق يوغل في فترات سحيقة في المنطقة العربية ، وقد رفع الإسلام شأن التجارة ذات الاتجاه النظيف والطهور وأشاد بالتجار الأمناء ، وجاء هذا الدفع للتجارة من خلال ما اورده الخطاب القرآني الكريم ورسخته السنة النبوية الشريفة ، لتؤدي حروب التحرير العربية الإسلامية وما اعقبها من توحيد للمنطقة وايقاف لتزيف الذهب والفضة ووضعهما في ايدي السكان الأصليين بعد ان كانت الثروات بيد القوى الأجنبية ، إلى تطورات موضوعية ، كان لها شأنها في بروز فئة التجار وتميزهم اقتصادياً ولا سيما في العصر العباسي ؛ بيد أن هذه الفئة المؤثرة في الحياة والمثقفة عموماً ، لم تستطع ولأسباب كثيرة منها عدم التجانس القومي والديني والاجتماعي والسياسي ، أن تصل إلى السلطة ، وهذا امر قد حير الباحثين الذين اسهموا في تقديم تفسيرات عديدة له ، ونسعى

في هذا البحث إلى دراسة تركيب فئة التجار ومحاولة التوصل إلى الأسباب التي حالت دون انجاز مهمة الوصول إلى السلطة السياسية من قبل فئة التجار ..

ان الموقع الجغرافي الوسطي للدولة العباسية على مفرق الطرق التجارية العالمية التي كانت ترد فيها بضائع اقطار الشرق الأقصى والهند إلى اوربا، قد حدد الأهمية البارزة لهذه الدولة في تجارة الترانزيت العالمية .ولكن ما كان يتمتع بالأهمية الأكبر بالنسبة لاقتصاد الخلافة ،هو العلاقات التجارية بين الأقطار المختلفة التي كانت تؤلف كيان هذه الأمة الواسعة . الواقعة بين المحيطين الكبيرين : الهندي والأطلسي ، والتي كانت تغتسل بأربعة بحار — المتوسط ، والأسود ، والأحمر ، والبحر العربي في خاصرة البصرة — وكانت قاعدة التبادل التجاري النشيط الواسعة ، هي الانتاج الحرفي المتطور والاستغلال المتقدم للثروات الطبيعية (١) .

وكان لتعدد وسائل الدفع والنشاط الحاد في ضرب النقود وسرعة تنقلها واتساع نطاق عمليات القروض المصرفية والاقبال على الإستهلاك الناجم عن إتساع العمران في المدن ، الأثر في ازدياد وسرعة نشاط التبادل التجاري ، وإلى حيوية الإنتاج الزراعي والصناعي ، وإلى انخفاض قيمة المعادن الثمينة وبالتالي إلى ارتفاع الأسعار خلال مدة طويلة ، ذلك الغلاء الذي يسانده تدفق المعادن الثمينة — النقود — بصورة اقوى واهم من ازدياد حجم الإنتاج على الرغم من التقدم التقني الذي تحقق في هذا المجال ، وارتفاع الأسعار ، إنما تستفيد منه طبقة التجار واوساط القصور،وتركز الثروة في يد التجار يدفعهم إلى السعي لاستثمار ثروتهم ،وإلى عقد صفقات تجارية كبيرة تضيف ثروة إلى ثروتهم ،واما اوساط القصور فإنها تستنزف قسطاً معتبراً من الثروة المتوفرة وتغذي حياة البذخ عن طريق الضرائب وبواسطة ارباب المصارف الذين يتعاملون معها (٢) .

لقد تكونت طبقة من التجار تمتلك الأموال الطائلة ، وقدرت ثروات البعض بالملايين ، وظهرت فئة رأسمالية نشطة كوّنت انواعاً من الشركات ، مثل شركة الضمان — تشبه شركة المساهمة — وشركة المفاوضة . حيث تبقى رؤوس الأموال مستقلة — وشركة الوجوه ، وتكون اختصاصاً بين التجار من المجهز — الذي يستعين بالوكلاء ويجمع البضائع من جهات عدة دون أن يغادر مركزه — والركاض — وهو الكثير الأسفار المتعامل مع بلدان مختلفة بعد دراسة اوضاعها — والخزان — الذي يركز على نوع يشبه الاحتكار إضافة إلى السماسرة (٣) .

يشير الجاحظ إلى ثروة التجار والتفاوت في مردود العمل بينهم وبين اصحاب المهن البسيطة فيقول : «ولم أر شواء قط بلغ حال اليسار والثروة وكذلك ضراب اللبن والطيان والحراث وكذلك ما صغر من التجارات والصناعات .الا ترون أن الأموال اكثر ما تكون عند الكتاب وعند اصحاب الجوهر وعند أصحاب الوشي والأنماط ، وعند الصيارفة والحناطين وعند البحريين والبصريين ، والجلاب أبداً والبيازرة أيسر ممن يبتاع منهم» (٤) .

ويلاحظ ان بعض المتصوفة قد عد التجارة من اعمال الأخيار والأبرار كما فعل ابو طالب المكي(٥)مما يجعلنا نتساءل عن طبيعة العلاقة بين فئة التجار والمتصوفة في العصر العباسي ؟

من جانب آخر تكيف الفقه الإسلامي للأوضاع الإقتصادية الجديدة التي سمحت بالتعامل دون الإصطدام بقوانين الشريعة ، فقد وضع محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ)كتاباً في المكاسب هو «الإكتساب في الرزق المستطاب» عد فيه التجارة احد النشاطات الإقتصادية المباحة ، كما وضع كتاباً في — المخارج

والحيل — اعده دليلا للتجار العراقيين يمكنهم من تفهم شامل لرؤية الإسلام إلى التعامل التجاري ، وعالج الشيباني العلاقات التجارية بين دار الإسلام ودار الحرب في كتابه «السير » (٦) ، وقدم الجاحظ في كتابه « التبصر بالتجارة» العديد من النصائح للتجار بضرورة البيع بالربح القليل وحذّر من البيع بالدين وعدم اليأس من التجارات ، كما لمح إلى بعض قوانين العرض والطلب (٧) وقد كرس الجاحظ رسالته «مدح التجار وذم عمل السلطان» للتأكيد على الأمان والكرامة والإستقلال كمزايا يتمتع بها التجار تجاه عدم الأمان والشعور بالذلة والأمتهان عند الذين يخدمون السلطان ممن يعمل في الوظائف الحكومية ودافع عن تقوى التجار ومعرفتهم كرد على الذين يهاجمونهم (٨) كما اولى الغزالي ٥٠٤هـ اهتماماً بالتجارة ترد في مؤلفاته التي قدمت صورة التاجر المثالي ودافعت عن التجارة كوسيلة يعد بها المرء نفسه لثواب الآخرة بوصفها كسباً مشروعاً (٩) وفيما بعد خصص ابو الفضل جعفر بن علي الدمشقي — عاش في القرن السادس الهجري — كتاباً أسماه «الإشارة إلى محاسن التجارة» قدم فيه الكثير من النصائح العملية للتجار وبحث في معرفة جيد الأعراض ورديئها وتزييف وغشوش المدلسين وحقيقة المال وانواعه واستثماره والكشف عن رديئه وفاسده وعن الأحجار الكريمة والأفاويـة والأنسجة والأبسطة والمحصولات الموسمية والأقوات وعن الدواب مثل الخيل والبغال والماشية ، وضم الكتاب فقرات في تحصيل الأموال واكتسابه بالمغالبة والاحتيال ووصايا اخرى نافعة للتجار إضافة إلى ضرورة حصول التجار على معلومات عن أسعار السوق وتسليم البضاعة وخزنها وعن الإدارة المالية والتجارية وعن اصناف التجار (١٠) .

وتجدر الإشارة الى ان الدولة كانت تشجع التجار فهي السوق الأعظم وأم الاسواق كلها (١١) وكان لأعفاء بعض الخلفاء للتجار من بعض الرسوم وتقديم مكافآت مالية لهم الأثر في تطور التجارة ، وهناك اشارات إلى ان الواثق قد امر بالغاء ضرائب العشر على البضائع الواردة عن طريق البحر الصيني ، كما منح التجار مساعدات نقدية ، وكان المعتصم قد ساعد تجار الكرخ الذين ذهبت اموالهم في حريق كبير (١٢) .

ولقد ارتفع شأن التجار اقتصادياً ومعنوياً ، يؤيد هذا عناية الجغرافيين والرحالة بالتجارة ومسالكها البرية والبحرية واوضاع البلاد الإقتصادية ومواردها وأصناف البضائع والمعاملات التجارية إذ وصف الجغرافيون المنتوجات المحلية وسجلوا ملاحظاتهم تسهيلاً للتجار (١٣) وقد إنعكست مغامرات التجار في اسفارهم من خلال حكايات «الف ليلة وليلة» والتي تعكس إهتماماً بالتاجر الذي يركب المخاطر ويسافر بعيداً ليستثمر امواله (١٤) ويعلق احد الباحثين على ذلك بقوله : «ان المغامرات الاسطورية للسندباد البحري التي دخلت في مجموعة — الف ليلة وليلة — إنما كانت تعكس النشاط التجاري للتجار العباسيين في البحار الجنوبية ، وكما هو مفترض فإن السندباد بلغ مدينة كال في ملقا : ومن شبه الجزيرة هذه كانوا ينقلون الذهب والقصدير ، وكان التجار المسلمون في سومطرة بخاصة يحصلون على بضائع كثيرة ثمينة جداً ، كما كانوا يحملون منها الذهب والتوابل والمواد العطرية والنباتات الطبية والكافور ؛ وفي بورنيو الشمالية كانوا يحصلون على اللؤلؤ ، اما في جزر الفلبين فعلى الذهب والعاج (١٥) .

ويلاحظ ان كبار التجار قد جمعوا ثروات طائلة من التجارة ، ففي البصرة بلغت ثروة احد التجار عشرين مليون دينار (١٦) وبقي ابن الجصاص

تاجر المجوهرات الشهير ببغداد ، غنياً موسراً بالرغم من أن المقتدر صادر منه ستة عشر مليون دينار (١٧) . ويتضح ان ابن الجصاص كان يتعامل بسلع الترف فقط كالجواهر والرياش وكانت له صلات بالأمير الطولوني الذي قال عنه: «لعن الله إبن الجصاص افقرني في السعر» (١٨) وكانت له صلاته بالخلفاء العباسيين في بغداد وعن طريق صلاته تلك وبيعه الجواهر والرياش للحكام وذويهم جمع ثروة ضخمة ، وصار له نفوذ واسع يمكنه من تهديد الوزير والتأثير عليه (١٩) ، وقد وجد في ميناء سيراف الذي تمر به صادرات وواردات ايران من التجار الذين امتلك كل واحد منهم اكثر من اربعة ملايين دينار (٢٠)، ويذكر إبن حوقل انه قد لقي تاجراً في سيراف ايضاً يملك ثلاثة ملايين دينار (٢١) .

يبين الدوري بأن التجار «كانوا يستعملون السفاتج — جمع سفتجة — للدفع في البلاد الأخرى ، وتقوم بدور الحوالات وصكوك المسافرين . كما يستعملون الصكوك للدفع أو للكمبيالات ، وكانت السفاتج والصكوك تقبل من قبل التجار حتى خارج نطاق الأراضي الإسلامية (٢٢) وأوضح ابن حوقل بأنه قد رأى صكاً كتب بدين على التاجر محمد بن سعدون بأودغشت من اعمال مراكش بأثنين واربعين الف دينار وشهد عليه العدول (٢٣) .

وكانت معاملات الاعتماد تحصل بين الدولة والتجار ، ففي اوقات الضائقات المالية ، وعند تأخر جباية الضرائب ، كانت الدولة تقترض من التجار فقد نصح وزير المعتضد إبنه ونائبه علي بن عيسى ان يقترض من التجار (٢٤) ، وعندما يقترض الوزير من التجار يقدم لهم ضماناً بالدين ، فكان علي بن عيسى يعطي التجار سفاتج على الواردات ، مؤجلة تصرف حينما يحل موعدها (٢٥) ، وقد كان التجار يأخذون فائدة على ما يقرضونه للدولة ،

وعلى السفاتج التي يصرفونها (٢٦) ، ويلاحظ ان الجهابذة قد إستفادوا من قيام صلات مع كبار موظفي الدولة ، وكانت هذه الصلات تضر احياناً بمصلحة الدولة عن طريق الإختلاس والتلاعب فقد ذكر «ان الوزير ابن الفرات نصب سنة ٢٩٦هـ يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران الجهبذين واسند اليهما حفظ كل الأموال المصادرة من إبن المعتز وأنصاره دون يد صاحبي بيت المال العامة والخاصة ، ولكنه افرد ابن فرجون كاتبه بمحاسبتهما والاستيفاء عليهما فكان يحاسبهما ولا يرفع إلى الدواوين شيئاً من حسابهما ، وعندما سجن ابن الفرات بعد وزارته الأولى . اعترف لمؤنس الحاجب ، صاحب بيت المال ، بأنه بقي قبل يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران ١,٤٧٠,٥٤٦ درهماً ، فقبض مؤنس منهما ثلث البقية ومضى الأصل كله لا يعرف في اي شيء صرف ، وكان مبلغه فيما ظنه الكاتب نحو مليون دينار ، وفاز ابن الفرات بجميعها ولم يتم بها حجة عليه،ولكن هذا لم يرض الوزير الجديد علي بن عيسى ٣٠٠ ـ ٣٠٤هـ فأمر باحضار ابن فنحاس وابن عمران وطالبهما بما اودع ابن الفرات . وبعد ضغط شديد إعترفا بأنه بقي عندهما مائة الف درهم لحساب ابن الفرات ولكن علياً الح حتى الزمهما بمائتي الف درهم (٢٧) ويبدو أن ابن فنحاس وابن عمران كانا يديران شركة مصرفية ببغداد .

وكان التجار قد خصصوا سوقاً مفردة لكل طائفة منهم (٢٨) الأمر الذي يشير إلى التخصص .

ويذهب باحث معاصر إلى ان نشاط التجار كان يمثل الأساس الذي يقوم عليه الازدهار الإقتصادي ، مؤكداً بأن التاجر صاحب الأعمال يعمد إلى اقامة صناعة وتشغيل العمال فيها ، وتوفير المواد الأولية وتقديم القروض ، كما

يذهب مقرراً بأن التاجر الكبير متعلم ، ونحن نستطيع ان نتصوره مستغرقاً في مراجعة دفاتر حساباته وفي تحرير رسائله ومعالجة اوراق الإعتماد ، ولابد ان التجار يعرفون عن الشفرة والرسائل السرية وهم يعلمون الأرقام الهندية التي جرى تعميمها في الكتب العلمية ثم بين العلماء وفي اوساط التجار ، وإلى جانب هذه الثقافة العملية، كثيراً ما يتمتع التاجر الكبير بحظ كبير من الثقافة الحقيقية ، لا بل ان التاجر الكبير يقوم بدور هام في فعل الخير والإحسان ورعاية المعوزين في الجماعة ، وهو أيضاً يسهم في تمويل تكاليف تحسين وتوسيع المعابد — المساجد والبيع والكنائس — ويمد بالمال المؤسسات الخيرية ، وهذه المؤسسات تشمل ايضاً في الإسلام إنشاء مؤسسات ذات فائدة عمومية مثل المدارس والفوارات ، وهو يقدم المأوى والضيافة للطلاب والعلماء كما يفتح ابواب منزله للحجاج ولعابري السبيل والتجار الأثرياء من اليهود في الاسكندرية والقاهرة ، وكانوا كذلك يتقدمون الفدية لتحرير اليهود الذين وقعوا في اسر القراصنة ، ومع ان التاجر الكبير يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة قد تجعله يتقلد منصباً رسمياً ، وربما تقلد الوزارة ووضع على رأس ادارة الدولة للشؤون المالية ، الا انه قد يفقد الحظوة وينزل مقامه فجأة ، وفقدان الحظوة يرافقه عادة الإستيلاء على اموال التاجر وممتلكاته حينئذ تكون حياته العملية منتهية (٢٩) .

ويقرر الباحث نفسه بأن التجار كانوا — يشتركون في المؤامرات التي تحاك في القصور ويشكلون حلقة وصل بين القصر وطبقة الأغنياء في المدينة ، وهؤلاء التجار هم الأعوان الرئيسون المحركون — مع كتاب الدواوين — للحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي، وهم العمدة التي تقوم عليها الحضارة الاسلامية العظيمة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلادي (٣٠).

ومن المهم الاشارة إلى ان اللغة العربية قد إمتدت من خلال التجار إلى الكثير من البلدان ، ذلك انها :- لا تقنع بتأمين تفوقها المطلق في داخل الامبراطورية الإسلامية ، حيث انها سوف تخترق الحدود مع التجار اليهود من نربونة ، او مع التجار البربر الذين يعملون في بلاد افريقية الغربية - السودان - بل إلى مناطق التبادل التجاري العربية - ايران على المحيط الهندي ، وفي اندونيسيا والهند الصينية والصين الجنوبية - المعروف ان مدينة كانتون ، كانت تأوي مستعمرة كبيرة من التجار الذين ينتمون إلى مختلف ارجاء العالم الإسلامي - وكذلك انتشرت اللغة العربية في اتجاه الشمال حتى بلغت الأنهار الروسية الكبيرة ، ودخلت مدناً مثل آتل ، وبلغار وكييف والقسطنطينية نفسها ستشتمل على مسجد يضم جماعة المسلمين الذين يعيشون فيها (٣١) .

ويلاحظ ان فئة التجار التي اسهمت بهذا الدور الفاعل في دفع الحياة الإقتصادية والتطور الإجتماعي قد تعرضت إلى انتكاسة زمن البويهيين اذ - تراجع النشاط التجاري والصيرفي نتيجة اعتمادهم على الأرض وتقلص التعامل بالنقد في نطاق الدولة ، هذا علاوة إلى تعرض التجار للمصادرات وللضرائب الكثيرة نتيجة تجزئة اراضي الخلافة - (٣٢) واستمر وضع التجارة متردياً زمن السلاجقة ، لتتلقى ضربة اخرى قوية زمن المغول اذ ادى - ثقل الضرائب وقلة العناية بنظام الري ، إلى تردي احوال البلاد إقتصادياً فتدهور وضع المدن وضعفت السيطرة المركزية . الأمر الذي ساعد على توسع فعاليات البدو ، وقطع الطرق التجارية والأضرار بالحياة العامة (٣٣) .

ويعد جواتياين التجار من ضمن الطبقة المتوسطة فيقول : «وكان تشكيل الطبقة المتوسطة يتكون من التجار وعلماء الدين وكذلك القضاة العاديين ، والوعاظ والمنشدين ، ويجب ان يكون معلوماً لنا ان علماء الدين كانوا غالباً

ما يشتغلون بالأعمال او حتى بالصناعات ، بينما كان التجار يعملون بانتظام كقضاة او كمصلحين دينيين اجتماعيين في ميادين اخرى ، بالاختصار فإن فن الكتابة — وليس القراءة الذي شاع واتسع — كان علامة مميزة للطبقة المتوسطة وللدوائر الحكومية» (٣٤) ، ولكن الباحث نفسه وهو يدرك الدور العظيم الذي لعبته الطبقة المتوسطة ، يرى مفارقة في وضعها السياسي ويثير تساؤلاً مهماً بقوله : «إنا نتساءل عن سبب عدم تحرك بورجوازية الشرق الأوسط في العصور الوسطى لكسب القوة السياسية وحكم الدولة . لماذا تركت البورجوازية المقتدرة في كل الأقطار الإسلامية قيادة الدولة في يد الجند المتبربرين ؟» (٣٥) ، وما يلبث ان يجيب على ذلك بقوله : «والاجابة على هذا السؤال الموجع تكمن في شخصية هذه الطبقة كما حددناها في دراستنا ، فلقد كانت هذه الطبقة حملة لواء الدين الإسلامي ، ورأي الدين الإسلامي حيال الدولة كان سلبياً تماماً . والدين الإسلامي لا يعارض الدولة ، ولكنه حاول أن يتعامل معها بأقل قدر ممكن ، ولم تتغلب الطبقة المتوسطة على الدولة لأنها لم تقم اساساً لتحقيق هذا الهدف ، على أية حال،فإن اخفاقها في الإستحواذ على السلطة السياسية كان نتيجة عدم سعيها وراء ذلك» (٣٦) .

ويفسر باحث آخر اسباب اخفاق الطبقة البورجوازية في إنجاز تحول تاريخي حاسم في — ان البورجوازية كانت تجارية في الأساس فيقول : «ان البورجوازية التجارية وإن كان لها دور تاريخي في خلخلة البنية الإقطاعية ، إلا انها اعجز من أن تحدث تحولاً رأسمالياً ، فإذا اضيف إلى ذلك بنيتها «الهجينة» غير المتجانسة اذ ضمت شرائح اقطاعية وبيروقراطية ، فضلاً عن عناصر اجنبية يهودية ونصرانية ، ادركنا سر هزالها ، وفشلها في إجتثاث الاقطاعية من جذورها .

لقد إرتهن وجود البورجوازية الإسلامية بوفاقها مع الدولة وسيطرة الأخيرة على منافذ وطرق تجارة العبور العالمية ، ومعلوم ان السلطة لم تكن بورجوازية أصلاً ، وتجارة العبور كانت مرتبطة بموازين القوى الدولية ، لذلك ارتكنت البورجوازية على اساس عابر وهش ، ذلك ان الدور التاريخي للبورجوازية يتأتى من خلال تناقض مصالحها مع مصالح السلطة التي تستحوذ على — فائض القيمة — ولأن البورجوازية على هذا النحو وسيط بين انتاج السلع وتسويقها ، فإن مصالحها تصبح مرتبطة بالقطاعات المنتجة بالدرجة الأولى ، ومن ثم تقود القوى المنتجة لتخوض صراعاً مع السلطة بهدف تقويضها وتسلم زمام الحكم ، وبالتالي تستطيع قيادة التحول التاريخي من الإقطاع إلى الرأسمالية ، وعلى العكس ، كانت البورجوازية الإسلامية — بحكم طبيعة تكوينها — حريصة على تكريس — الوضع الراهن — ولأن هذا الوضع فقد مقوماته — تحت تأثير الثورات الإجتماعية وتغير الظروف الدولية — كان من الطبيعي أن تبرز معطيات جديدة لاسقاطه وقد تمثلت تلك المعطيات في تزايد نفوذ العسكر المجلوب من الأطراف والذي استطاع أن يستولي على السلطة ، ويقضي على الصحوة البورجوازية ويكرس الاقطاعية» (٣٧) ، وقد ارتبط تدهور فئة التجار بأسباب موضوعية ، ذلك «ان اندحار القوى البورجوازية وانهيار النظم المتبرجزة : حل في وقت سيطرت فيه قوى خارجية على محاور وطرق التجارة العالمية براً وبحراً ، ومن ثم الهيمنة الكاملة على مقدرات التجارة بعيدة المدى ، وحرمان العالم الإسلامي من دوره — التقليدي — كوسيط في تجارة العبور بين الشرق والغرب» (٣٨) .

ويقرر احد الباحثين الجادين في دراسة التاريخ الاقتصادي والإجتماعي ، طبيعة تركيب فئة التجار وعلاقتها بالسلطة العسكرية ، بقوله : «من الثابت

انه نشأ في العالم الإسلامي إبان العصر الوسيط – قطاع رأسمالوي واسع – وان لم يشمل كافة مظاهر الحياة الإقتصادية ، لكن هذا القطاع تجاري في اساسه ، ولم يكن صناعياً على نحو ما كانت الرأسمالية الأوربية في فترة نشوئها . ولا ينبغي لنا ان نبخسه قدره ولا ان نبالغ فيه ، فسلطة التجار لا تنكر ، كما لا ينكر ان العنصر العسكري الذي اصبح من الناحية الإقتصادية مالكاً عقارياً قد تغلب عليه خلال المنازعات التي حدثت في القرنين العاشر والحادي عشر ، ولئن بقي التجار فعلاً ، الا انهم في المرتبة الثانية اي في خدمة العساكر الذين كانوا ينهبونهم متى شاءوا» (٣٩) .

يستنتج مما سبق ان التكوين التاريخي لفئة التجار والبنية الداخلية لتشكيلها الإجتماعي والبشري والفكري من جهة ، والتطورات الدولية السياسية والتجارية وطبيعة الدولة في العصر الإسلامي الوسيط وما تعرضت له من صراعات داخلية واحتلال اجنبي ، تعد العوامل الأساسية التي حالت دون وصول فئة التجار إلى استلام السلطة السياسية ، اضافة إلى هيمنة الإقتصاد الزراعي الذي طغى على الإقتصاد التجاري النقدي وانحسار الأخير وعدم اكماله لدور تاريخي مغاير ربما كان سيسبب نقلة اقتصادية ، ولكن هذا الأمر لم يتم بسبب جملة تطورات ذاتية تتعلق ببنية فئة التجار ، وأخرى موضوعية تتعلق بالأحوال السياسية الدولية والداخلية معاً .

* * *

المصادر والمراجع :

(١) ي . أ . بيليايف . الحالة الاقتصادية في عهد الخلافة العباسية ، مجلة المورد ، العدد ٣ أيلول ١٩٧٣ ، ص ٣٧ –ص٣٩ .

(٢) موريس لومبار ، الاسلام في مجده الأول ، ترجمة : اسماعيل العربي ، الجزائر ، ص ٢١٩ وقد أشار الى هذا الأمر كلود كاهن بقوله : «فالتجار الذين حققوا بعض الأرباح يستثمرون جزءاً منها في التجارة .وجزءاً آخر في شراء الأراضي والعقارات تكون ضماناً لهم . وعلى العكس يتولى الملاكون الكبار إستغلال عقاراتهم تبعاً لأحوال التجارة، ويوظفون فيها بعض أرباحهم بواسطة –القراض–أو بغيرها من الوسائل دون أن يعيروا إهتماماً الى عقيدة التاجر المكلف بادارة أعمالهم سواءاً كان مسلماً أو ذمياً . ولما كان هؤلاء الأعيان في غالب الأحوال من كبار الموظفين أو من ضباط الجيش . بغض النظر عن أفراد العائلة المالكة . أو أسر الخليفة بالذات ، كان التجار إذن يتقربون فعلا من الدولة . هذا وقد رأينا من ناحية ثانية :أن الدولة غالباً ماعهدت إلى التجار أو إلى غيرهم من الأثرياء بتضمين ضرائبها . بل طلبت اليهم أحياناً أن يسلفوها المال الذي تحتاج اليه ... الخ . ولئن نجم حقاً بعض المخاطر للتجار الذين يتصلون إتصالا وثيقاً بأطماع الحكام أو ملاءتهم . إلا أنهم كانوا يفيدون من تلك العمليات لأنهم وقتئذ يتصرفون بأموال عامة تفوق مايملكون ، ويحتفظون بعمولتهم من الصفقات التي اجريت على خزانة الدولة»، كلودكاهن،تاريخ العرب والشعوب الأسلامية ،ترجمة بدر الدين القاسم ، دار الحقيقة،بيروت .ط١ . ١٩٧٢ ص٢٣٨ . . .

(٣) د. عبدالعزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٠ ، ص٧٠ .

(٤) الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان ، بعناية عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٩ ، ج٤ ، ص٤٢٤ .

(٥) ابو طالب محمد بن علي المكي ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ، القاهرة ١٩٦١ ص ٥٤١–٥٤٢ .

(٦) محمد بن الحسن الشيباني ، الأكتساب في الرزق المستطاب، نشره :عزت العطار ،.مطبعة الأنوار ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص٢٠– ص٣٦ .
وانظر للتوسع : فهمي عبد الرزاق سعد . العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع – الهجريين ، الدار الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٣ ، ص١٢١

(٧) الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ،التبصر بالتجارة . عناية : حسن حسني عبدالوهاب بيروت ١٩٦٦ ، ص ١١– ص١٢ .

(٨) د. فيصل السامر ، نهضة التجارة في العصور الوسطى الأسلامية. المؤرخ العربي ،العدد١٧ سنة ١٩٨١ ، ص٦٢–٦٣ .

(٩) المصدر نفسه ص٦٣

(١٠) المصدر نفسه ص٦٢
وقد كتب بهذا الصدد أيضاً قائلا :
«وظهرت كذلك كتابات كثيرة تناولت السموم والتوابل وصناعة الصلب والخزف والمعادن والنسيج الى غير ذلك من الأمور ، وكانت هذه الكتابات من عمل أصحاب الصناعات والتجارة أنفسهم ، فلم يكتبها علماء ، وإنما كان مؤلفوها دون شك صناعاً وتجاراً من طبقة ممتازة . كتبوا أعمالهم لعامة أهل حرفهم . وهكذا نرى أن التجارة والصناعة وسلطان الدولة والمال الوفير تعاونت كلها مع بعضها في أنصبة متساوية على نشر المعارف والعلوم». ي.حل . الحضارة العربية . ترجمة : د. ابراهيم العدوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص٩٤ .

(١١) عبدالرحمن بن خلدون المقدمة ، دار القلم ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٢٣٩ .

(١٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ ، ج ٢ ، ص ٤٨٣
وانظر : التنوخي ، المحسن بن علي،نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، عناية عبود الشالجي ، بيروت ١٩٧١ ، ج٢ ، ص١٠١-١٠٢ .
ويلاحظ ان التجار قد أسهموا في شراء منتوجات الدولة وتقديم الثمن مقدماً الأمر الذي كان يساعد أحياناً على تجاوز الدولة لبعض المتاعب المادية . أنظر للتوسع :
الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي ، تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ دار الفكر العربي ، بيروت ، دون تاريخ ، ج٤، ص٢٣١
الصابي ، هلال بن المحسن ، الوزراء ، عناية : عبدالستار فراج ، القاهرة ١٩٥٧، ص٣٧ .
الصولي ، ابو بكر محمد بن يحيى ، أخبار الراضي بالله والمتقي بالله ، بعناية دن ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، ص١٧ .
الأصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين ، الأغاني ،بولاق ١٢٨٤-١٢٨٥ القاهرة ١٩٧٠-١٩٧٤ الهيئة العامة للكتاب ، ج٢٣ ص٤٨ ، ص١٧٦ ويؤخذ بنظر الأعتبار ان التجار كانوا يتعرضون لمصادرات الدولة وتشديد الضرائب عليهم . كما لاقوا عنتاً من الشطار والعيارين واللصوص ،
انظر : التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج١ ، ص٢٥ ، ٣١
والفرج بعد الشدة ، بعناية عبود الشالجي ، بيروت ١٩٧٨ ، دار صادر ، ج٤ ، ص ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٥٦
الصولي ، أخبار الراضي ، ص١٧٦ .
الهمداني ، محمد بن عبدالملك ،تكملة تاريخ الطبري بعناية ألبرت كنعان ، ج١، بيروت ١٩٦١ ، ص١٣٤ .

(١٣) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة ، صلاح‌الدين عثمان هاشم ط ١٩٥٧١ ، ص١٩ .

(١٤) نيكيتا ايليسيف الشرق الأسلامي في العصر الوسيط ترجمة منصور أبو الحسن بيروت ١٩٨٦ ، ص٢٩٥ .

(١٥) بيلياييف ، الحالة الاقتصادية في عهد الخلافة العباسية .ص٣٩
(١٦) برهان‌الدين دلو ، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الأسلامي ، دار الفارابي بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٢٦٠ .
(١٧) محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، مصر ص٢٠٣ .
(١٨) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج٢ ، ص٣١٥ .
(١٩) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٣-ص٣٥ .
(٢٠) ابو اسحق ابراهيم بن محمد الأصطخري ، مسالك الممالك باعتناء دي خويه . طبعة ليدن ١٨٧٠-١٩٢٧ ، ص١٣٩
(٢١) أبو القاسم محمد النصيبي البغدادي ابن حوقل ، المسالك والممالك باعتناء دي غويه ، ليدن ١٣٠٦هـ ، ق٢ ، ص٢٩١ .
(٢٢) الدوري ، مقدمة في التأريخ الأقتصادي العربي ، ص٧١
(٢٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ج١ ، ص٦١ ، ص٩٩
(٢٤) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج٨ ، ص٢٦ .
(٢٥) المصدر نفسه ، نفس المكان .
(٢٦) الصابي ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، بيروت ١٩٠٤ ، ص٧٩ .
(٢٧) برهان الدين دلو ، مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي ، ص ٢٦٢ -ص ٢٦٣.
(٢٨) اليعقوبي ، البلدان ، باعتناء . دي غويه ، طبعة بريل . ليدن ١٨٩١ ، ص٢٤٣ -ص ٢٥٧ .
(٢٩) الأسلام في مجده الأول ، ص٢٢١-ص٢٢٤ .
(٣٠) المصدر نفسه ، ص٢٢٥
(٣١) المصدر نفسه ص١٤٧ .
وكتب واط بهذا المعنى قائلا :
- ان انتشار الحضارة الأسلامية هذا قد دعم بقدرة العرب ومهارتهم في حقل التجارة-وانه- كانت هناك مناطق مثل شرق افريقيا وكذلك جنوب شرق آسيا إنتشر الأسلام فيها نتيجة نشاط رجال الأعمال إذ لم يكن للمسلمين في تلك المناطق الوثنية أية سرية في ممارسة الصلاة خمس مرات يومياً ، وإن اخلاص هؤلاء المسلمين والتزامهم المتزن بالأسلام الحنيف أذهل الوثنيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع المسلمين مما أدى إلى اعتناق الأسلام والأختلاط عن طريق الزواج الى تكوين مجتمعات أسلامية صغيرة وسط المناطق الوثنية ونمت تلك المجتمعات بصورة تدريجية..»
•ونتكمري واط ، تأثير الأسلام على أوربا في العصور الوسطى . ترجمة : د. عادل نجم عبو ، ط١ ، جامعة الموصل ١٩٨٢ ، ص٢٩-ص٣٠ .
(٣٢) الدوري ، مقدمة في التاريخ الأقتصادي العربي ، ص٩٠
(٣٣) المصدر نفسه ، ص٩٩ .
(٣٤) س . د. جواتياين ، دراسات في التاريخ الأسلامي والنظم الاسلامية ، تعريب وتحقيق : د. عطية القوصي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط١ ، ١٩٨٠ ص١٥٨ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص١٥٩ .

(٣٦) المصدر نفسه ، نفس المكان .

ولا ينسى ان يشير الى ان فوضى الجنود البرابرة المستمرة ، بالأضافة الى تدهور التجارة الدولية في حوض البحر المتوسط قد زادت ظروف الطبقة المتوسطة السيئة في الشرق ص١٥٩

(٣٧) د. محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الأسلامي ، دار الثقافة ، ط١ ، ١٩٨٠ ، ج٢ ، ص١٠-١١ .

(٣٨) وقد كتب كلودكاهن قائلا : «هناك سمة أخرى بهذا الصدد هي تنوع الطوائف الدينية التي تتعاطى التجارة . لقد أسهم فيها المسلمون والنصارى واليهود واتباع – زرادشت – بوذا – في آسيا الوسطى . وماني حيثما وجدوا ، وغيرهم» تاريخ العرب والشعوب الأسلامية ص٢٢١ .

وكتب الدكتور صالح احمد العلي بهذا الصدد قائلا : «وكانوا خليطاً من العرب والعجم والعبيد ، يختلفون في مكانتهم الأقتصادية والأجتماعية . غير أن مهنة التجارة التي مارسوها تجمعهم وتظهرهم بما يميزهم عن بقية المجتمع فصاروا بذلك نواة للطبقة المتوسطة في المدينة» ..

د. صالح احمد العلي ، التنظيمات الأجتماعية والأقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري – دار الطليعة ، ط٢ ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٦٣-٢٦٤ .

(٣٩) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الأسلامية ، ص٢٣٨ .



العراق في تقارير السفير
البريطاني كينهان كورنواليس
١٩٤١ - ١٩٤٥م

عبدالتواب احمد سعيد
مدرس
قسم التاريخ

عبدالرحيم ذوالنون
مدرس
قسم التاريخ

جامعة الموصل / كلية الاداب

«المقدمة»

كان كينهان كورنواليس « K.Cornwallis » خبيراً بالشؤون العراقية ، وعلى دراية واسعة باحوال العراق ، لانه شغل منصب مستشار لوزارة الداخلية العراقية منذ تكوين اول وزارة عراقية بعد تتويج الملك فيصل بن الحسين في ٢٣ آب ١٩٢١م حتى عام ١٩٣٥م . عندما انهى رشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية خدماته في عهد وزارة ياسين الهاشمي .

وعندما تولى مهام عمله سفيراً لبلاده ارسل عدداً كبيراً من البرقيات والمذكرات والتقارير إلى مسؤوليه في الخارجية البريطانية ، اشتملت على قضايا واسعة ومتشعبة ، وقد اخترنا عدداً منها . وتم الاطلاع عليها في دائرة

السجلات العامة في لندن P.R.O . لتكون موضوع بحثنا هذا ، وهي تشكل معلماً مهماً في تاريخ العراق المعاصر ، وقد اعتمدنا عليها لتكون الدراسة وثائقية خالصة رغم رجوعنا إلى عدد قليل جداً من المصادر الاساسية الاخرى .
يشتمل البحث على نقطتين : —

الاولى : — دراسة التطورات السياسية العراقية فيما بين ١٩٤١ — ١٩٤٥م وهي حول احداث نيسان وما تلاها ، وانطباعات السفير بشأن عدة قضايا .

الثانية : — دراسة القضايا القومية ، وهي حول موقف العراق من مسألتي فلسطين وسوريا .

التطورات السياسية في العراق
١٩٤١ — ١٩٤٥م

مع بداية الازمة السياسية التي وقعت اوائل عام ١٩٤١م ودفعت الجيش إلى الامساك بزمام الامور لصالح رشيد عالي الكيلاني في الاول من نيسان من ذلك العام ، وكانت السفارة البريطانية في بغداد ترصد الاحداث عـن كثب ، وتراقب التطورات حتى هروب الوصي على العرش من بغداد إلى البصرة عن طريق الحبانية [1] .

في الثاني من نيسان ١٩٤١م وصل كينهان كورنواليس إلى بغداد لتسلم مهام عمله سفيراً جديداً لبلاده ، وقد اشار في التقارير الاولى التي ارسلها إلى وزارة الخارجية البريطانية إلى ان رئيس الوزراء الجديد رشيد عالي اتصل بالسفارة عن طريق المستشار البريطاني في وزارة الداخلية العراقية ، وطالب

(١) للتفاصيل عن احداث نيسان وأيار ١٩٤١م يمكن الرجوع الى :—
عبدالرزاق الحسني : الاسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحررية . صيدا ١٩٧١ .
اسماعيل ياغي : حركة رشيد عالي الكيلاني . بيروت ١٩٧٤ .

عتراف بريطانيا بحكومته (١) . غير ان الانكليز كانوا في وضع متزعج ، نقد امتعضوا تماماً من الانقلاب العسكري وعودة الكيلاني إلى الحكم رغم ظهاره الولاء لمعاهدة عام ١٩٣٠م باعتبار ان ذلك لم يكن منه الا ستاراً يخفي رراءه حقيقة تعامله مع المانيا لاشراكها في عمل عسكري إلى جانبه ضد بريطانيا كما قال السفير (٢) .

والحق أن كورنواليس ابدى فيما بعد رأيه ، ومن خلال خبرته الطويلة بشؤون العراق ، فيما يتعلق بشؤون الحكم قبل احداث عام ١٩٤١م ، حيث اشاد بقدرات الملك فيصل الاول ١٩٢١ – ١٩٣٣م ، وأنتقد ما اسماه «طيش» الملك غازي ١٩٣٣م – ١٩٣٩م وخجل وتردد وجبن الوصي عبدالاله وعدم كفاءته في اختيار العناصر الجيدة لمساعدته ، كما انتقد ايضاً قلة وجود القوات البريطانية في العراق ، مهاجماً الكيلاني بقوة ، لانه اعتمد على من أسماهم «زمرة من السياسيين والضباط المتأثرين بالنظام العثماني التركي» . وانهم اصبحوا مقبولين من الشعب بسبب مواقفهم من بريطانيا واساليبهم المضادة لها . وبسبب ضعف الادارة والحكم قبل وصولهم ، وقوة الدعاية الالمانية التي تولاها رجل نشط متمرس هو الدكتور فرتز غروبا Fritz Grobbe (٣)

---

(1) F.o. 371: E 328b. Sirk. Cornwallis to Mr. Eden. 28/ Apr/1941.

(2) F.o. 371: E 2431. Confidential, Sirk. Cornwallis to Mr. Eden. 30/ mar/ 1945. p.1

(3) F.o. 371: E 2431. Ibid p 2.

الدكتور غروبا : من الشخصيات الدبلوماسية الالمانية المرموقة ، وقد عمل في فلسطين وافغانستان وتولى مسؤولية الشعبة الشرقية في وزارة الخارجية الالمانية قبل ان يتولى مهامه الدبلوماسية في العراق وزيراً مفوضاً فسفيراً حتى قطع العلاقات مع المانيا بعد نشوب الحرب العالمية الثانية انظر : الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ ، محمود درويش والياهو دنكور ص١٨٠ بغداد ١٩٣٧.

لم تلبث الاحداث ان تطورت بسرعة لتصل إلى الحرب بين القوات البريطانية والجيش العراقي ، والتي انتهت بالاحتلال البريطاني الثاني للعراق ، ومغادرة قادة الحكم إلى خارج العراق ... وخلال ذلك ارسل السفير تقارير عديدة دعا في احدها إلى ضرورة عودة الوصي على العرش عبدالاله إلى بغداد ، وتشكيل حكومة تكون مهمتها الاولى اعادة انشاء علاقات مع بريطانيا واعادة الانضباط للجيش والشرطة ، وطمس معالم دعايات المحور ، وانشاء محاكم خاصة لمحاكمة الثوار ... غير انه تحدث بمرارة عن بقاء العناصر المعادية لبريطانيا في الجيش والدوائر العامة وهو ما جعلهم يشكلون معارضة واسعة الانتشار [1] .

اما الجيش العراقي ، فان السفير وجه اليه اهتماماً خاصاً في تقاريره ، فهو يقول مثلاً : «يشكل الجيش عنصراً فعالاً وخطراً لان مرارة الهزيمة (كذا) تشكل بين افراده نيران الحقد ضد البريطانيين وهي نيران تحت رماد من السكون الظاهر» [2] . ولا شك ان الانكليز بذلوا جهوداً واسعة لمنع الجيش من القيام بانشطة تزعزع النفوذ البريطاني في العراق . ويلاحظ ان القائد العام للجيش البريطاني في الشرق الاوسط الجنرال ويفل G. Wavell يدعو في شهر ايار ١٩٤١م إلى «عدم الطلب من الجيش العراقي القاء سلاحه شريطة تأكيد ولائه للوصي ، وبقاء جنوده شرق بغداد ، وقيامه بمنع اية محاولة لتخريب منشآت النفط في كركوك وخانقين» [3] . وكان ذلك امراً بديهياً ، لان النفط ومنشآته اهم لبريطانيا من اي شيء آخر .

وحول الشؤون الداخلية العراقية البحث نجد آراء السفير واضحة جلية مترابطة مع نظرته للعلاقات التي كان يريدها ان تقوم بين العراق وبريطانيا .

(1) F.o. 371: E 4231: Confidential. Sirk. Cornwallis to Mr. Eden.
(2) F.o 371: E 2431: Ibid p 2.
(3) F.o. 371: E 7723: Top Secret, from Cairo to Baghdad. 31/ Ma/ 194 .

أ ــ «العلاقات العراقية البريطانية»

اكد كورنواليس في تقاريره على ضرورة اتباع سياسة خاصة من اجل الاحتفاظ بعلاقات سماها كورنواليس ودية مع العراق اهم سماتها : ــ

اولاً : ــ المعالجة المتفهمة والمتعاطفة مع المشاكل العراقية من قبل الحكومة البريطانية وبالذات الاقتصادية المتعلقة بالانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، إن معالجة كهذه ستجعل هذا الشعب يحس بانه محاط برعاية الآخرين . وان ارتباطهم معنا سيعود عليهم بمنافع مادية [1] .

ثانياً : ــ يجب ان يتحلى كل موظف ترسله بريطانيا إلى العراق بشخصية دقيقة ومطلعة . كما تحدد نفوذ السفير ضمن مهام منصبه فقط ، والنفوذ الحقيقي داخل الحكومة يتركز في ايدي الموظفين البريطانيين ، واذا وفرنا رجالاً اكفاء فانه ما من شك بأن العراق سيطالبنا بالمزيد ، ولا يجدي نفعاً ان نفرض الموظفين بالقوة على الحكومة العراقية . ويجب ان نتذكر دائماً بأن العراقيين شديدو الحساسية من الاجانب الذين يتقاضون اجوراً اعلى من الوزراء انفسهم [2] .

ثالثاً : ــ من الاهمية بمكان ان نبقي في ايدينا ما قمنا به من الاتصالات الشخصية ،كما علينا ان نستمر بالاحتفاظ بهيئات المستشارين السياسيين والعلاقات العامة اطول فترة ممكنة ، وعندما يحين الوقت الذي نتخلى عنها يجب ان نعمل على ابقاء بعض المفتشين الاداريين في المدن،ولاجل ذلك يجب ان نعمل على تعيين مستشارين اكثر تكون واجباتهم بصورة رئيسة سياسية واجتماعية . فضلاً عن اعطاء الاهمية البالغة للاتصالات الشخصية التي اهملت لسنوات .

(1) F.o. 371: E 2431: Ibid. p 3.
(2) F.o. 371: E 2431: Ibid. p 3.

وهذه مهمة العلاقات العامة ومنظمة اخوان الحرية التي تشكلت في منتصف عام ١٩٤١م . كل هذه الاجهزة تعمل متقاربة ومتفاهمة (١) .

ان اهداف كورنواليس من كل ما تقدم هي :—

١ — ضمان كافة التسهيلات للاغراض الحربية .

٢ — اقتلاع جذور — النازية — كما يسميها كورنواليس ، وتغير وجهة نظر الشعب ، وتعزيز موقفه عن طريق توعية الناس باهمية التحالف مع بريطانيا .

٣ — التأكيد على الصداقات القديمة (بالشخصيات السياسية وشيوخ العشائر) (٢) .

وعندما اعلن العراق دخوله الحرب بجانب الحلفاء ضد المانيا يوم ١/١٧/ ١٩٤٣م تحسنت العلاقات اكثر . ولم تعد نظرية بغض الانكليز موضع فخر البلاد وبين طبقات الشعب . وابدت حكومة نوري السعيد اعلى درجات التعاون مع بريطانيا . لكن السفير البريطاني حذر حكومته قائلاً : «يكون خطأ جسيماً الافتراض بانه في مقدورنا الاسترخاء في المقاعد الخلفية في امان لان المشهد في هذا البلد يمكن ان يتغير بسرعة مذهلة ،كما ان المشاكل ستزداد في العراق كماً وتعقيداً كلما انحسرت الحرب اكثر فاكثر عن الشرق الاوسط (٣) .

---

(1) F.o. 371: E2431: Ibid. p 3.

منظمة اخوان الحرية : منظمة اسستها المخابرات البريطانية خلال الحرب ، لها فروع في عدن ومصر والعراق وفلسطين برئاسة الميجر سكيف ، عملها بث الدعاية للحلفاء ومكافحة الدعاية الالمانية . للمزيد انظر : عبدالرحيم ذوالنون : جمعية اخوان الحرية في العراق » بحث مقبول للنشر في مجلة المؤرخ

(2) F.o. 371: E 2431: Ibid. p3.

(3) F.o. 371: E 1143: Confidential SirK. Cornwallis to Mr. Eden. Baghdad 8/ Feb/1944.

ب ـ « الشؤون الداخلية »

تشكلت في الثاني من حزيران ١٩٤١م حكومة جميل المدفعي واستمرت لغاية ٢١ أيلول ١٩٤١م . بعدها شكل نوري السعيد الوزارة في ٩ تشرين الاول ١٩٤١م لغاية ٢٣ أيار ١٩٤٤م . اجرى خلالها تغييراً وزارياً عام ١٩٤٣م . هذه الوزارة نفذت ما تريده بريطانيا ، لان نوري السعيد كما يصفه السفير البريطاني «عنصر توازن وذو تأثير في السياسة العراقية وان تعاطفه مع بريطانيا فوق مستوى التساؤل . وهو سهل الاستجابة إلى النصيحة وحازم في اداء واجبه» (١) .

لم يكن مجلس وزراء نوري السعيد منسجماً ، فنوري السعيد خاب امله في وزير ماليته صالح جبر . وبالمقابل فقد غضب صالح جبر على نوري لعدم موافقته على منحه قطعة ارض مساحتها الف الافدنة . كما ان تحسين العسكري قد فشل في وزارة الداخلية . وحتى رئيس الديوان غير اهل لمنصبه لان صغار موظفي البلاط يستغلون مراكزهم استغلالاً سيئاً للتأثير في الزوار من القبائل . وبطبيعة الحال فان مثل هذا المجلس لم يدم طويلاً لذلك تردد نوري على السفير البريطاني لتبادل الرأي معه . وحدث التعديل يوم ٢٣ حزيران ١٩٤٣م . ويصف كورنواليس التغيير الوزاري بقوله : «لم يكن للتغيير اي شعبية ولم يحصل على ثقة الوصي على العرش ، لان عبدالاله يبغض توفيق السويدي وعمر نظمي وعلي ممتاز الذين يعتبرهم غير مخلصين له . كما توجد معارضة قوية لنوري السعيد في البرلمان ، الذي رفض طلب نوري بحله واستطاع المعارضون الصمود بوجه رئيس الوزراء (٢) .

(1) F.o. 371:E 608. Sirk. Cornwallis to Mr. Eden. Baghdad. 9/Jan/ 1945. P 1.

(2) F.o. 371: E 4699; British Embassy, Baghdad, 26 Jul/ 1943.

وكانت اول مناورة للمعارضة في البرلمان بخصوص تعيين توفيق السويدي بمنصبه نائباً لرئيس الوزراء ، وهي الوظيفة التي انشأها نوري خصيصاً له . وبعد احالة الموضوع إلى المحكمة العليا اضطر توفيق السويدي إلى الاستقالة من منصبه ، وهذا ما شجع نواب المعارضة للاشتباك اكثر مع الحكومة في كل مناسبة . ونصح السفير البريطاني عبدالاله ان يضع حداً لذلك، لان الوضع غير مستقر ومتأرجح ، فالمعارضون لرئيس الوزراء مستمرون في كسب وتجسيم حجم هجومهم ، ووصل الامر إلى نهايته عند مناقشة الميزانية عندما تحول النواب من النقد إلى التشهير ثم تلاه صخب وهرج ، اضطر بعدها رئيس الوزراء إلى وقف الجلسة . بعدها قدم نوري استقالته إلى الوصي موضحاً انه من المستحيل عليه الاستمرار في منصبه دون تأييد الوصي تأييداً كاملاً وصريحاً ومعلناً [1] .

وبعد ان ناقش كورنواليس وعبدالاله وضع مجلس الوزراء ، اعطى عبدالاله لنوري السعيد مهلة امدها ٢ — ٣ أشهر ، واوضح الوصي للسفير انه اذا اضطربت الامور فلن يحاول تسويتها . ورد عليه كورنواليس بضرورة مساندة المجلس إلى ان يثبت فشله او يغيره فوراً . اما اتباع سياسة الوسط فلابد ان يترتب عليها شد وشك ، واشار السفير إلى انه خلال العامين ونصف الاخيرة طرأت على مجلس الوزراء تغيرات مستمرة نتج عنها عدم اعطاء الوقت الكافي او الثقة للوزارة لكي تعمل على الاصلاح [2] .

عند البحث عن بديل لنوري السعيد يقول السفير : لم ار شخصية مناسبة ، فابراهيم كمال كان هو البديل الوحيد ، لكنني سمعت من جميع الاطراف

(1) F.o. 371: E 608: Ibid. PP 2-3.
(2) F.o. 371: E 172: SirK. Cornwallis to F.o. 6/ Jan/ 1944.

انه لا يستطيع النجاح ، ووافقني الوصي على ذلك.وكان يعتقد انه لا امل في مجموعة ابراهيم كمال ، وانه لا يستطيع الاستعانة بغيرهم » . في مثل هذا الموقف كان السفير متشائماً ،وقد عبر عن ذلك بقوله : «يبدو اننا على وشك مواجهة وقت عصيب » (١) .

على اي حال ، كلف عبدالاله حمدي الباجهجي لتشكيل الوزارة . وبعد (١٥) يوماً من التكليف تشكل المجلس في ٣ حزيران ١٩٤٤م الذي عرف في كل مكان على انه من صنع الوصي . وقد عرض حمدي الباجهجي منصباً وزارياً لكل من نوري السعيد وابراهيم كمال ، ولكنهما رفضا ، لان نوري بحاجة إلى الراحة بينما لم يرض ابراهيم بديلا عن منصب رئاسة الوزارة . وفي بيان تشكيل الوزارة ابدى الباجهجي اسفه لعدم اعداد برنامج مكتمل لحكومته ، لكنه اكد على ان المجلس امامه ثلاث مهمات : —

١ — تحسين وتنظيم شؤون التموين .

٢ — اتخاذ كافة الوسائل لتحقيق الاستقرار والامن .

٣ — رفع كفاءة موظفي الحكومة واستقامتهم (٢) .

لم تستمر حكومة حمدي الباجهجي لفترة طويلة ، لانعدام الانسجام فيها فحدثت ازمة وزارية . يعلل سببها كورنواليس بقوله: «عندما تبلغ حرارة الطقس اقصاها كالمعتاد في منتصف الصيف تتوتر الاعصاب فتنشأ الازمات عادة في مجلس الوزراء . ففي آب ١٩٤٤م اختلف وزير الدفاع مع زملائه الوزراء على مشروع الجنرال رنتون Renton لاصلاح الجيش . وبعد

---

(1) F.o. 371: E 172: Ibid .
(2) F.o. 371: E 608: Ibid. P 3.

اجراء التعديل الوزاري على المجلس بوقت قصير استقال الباجهجي في ٢٥ آب ١٩٤٤م ، لكنه كلف بتشكيل الوزارة مرة اخرى ، فشكلها في ٢٩ آب ١٩٤٤م [1] .

ان التشكيل الوزاري الجديد لم يختلف عن الذي سبقه ، فوزارة التموين التي رأسها اكثر من وزير خلال بضعة شهور حظيت اخيراً بوزير كان يشغل وظيفة مدير عام التموين ورقي إلى مرتبة وزير . ويعلق كورنواليس على ذلك قائلا : «لم يوجد سياسي قدير ومعروف على استعداد لقبول هذه الوظيفة المثيرة للاحقاد» وتم اجراء تعديلات اخرى في تشرين الثاني ١٩٤٤م في وزارتي الشؤون الاجتماعية والدفاع ، ويسود الهدوء مجلس النواب فيما عدا اشارات تشير إلى ان رئيس الوزراء المقبل نوري السعيد [2] .

جـ - «نظرة السفير إلى الرأي العام»

بعد مرور عام على ثورة مايس ١٩٤١م تمت محاكمة قادة الثورة وصدرت بحق بعض منهم حكم الاعدام الذي نفذ في ايار ١٩٤٢م . ويبالغ كورنواليس في وصفه للاعدامات وإلى اي مدى كان تأثيرها فيقول : «اظهرت التقارير ان احكام الاعدام ينظر اليها عموماً بمثابة عقاب عادل» -- وهذا لا يتفق مع رأي شعب العراق -- ويضيف كورنواليس قوله : «التخوف من الالمان لايزال اكثر من اي وقت مضى ، ولم تعد لهم اي شعبية كما كان في السابق». اما العسكريون فقد وصف لنا كورنواليس وجهة نظرهم بقوله : «اني لاأدافع عن الجيش العراقي ولكني اتساءل عما اذا ما كان موالياً لالمانيا كما كان يبدو فلماذا لم يعبر عن شعوره خلال محاكمة اعضاء اثنين من القادة الاربعة،

(1) F.o. 371: E 608: Ibid, P 4 .
(2) F.o. 371: E 608, Ibid, P. 4 .

وبعد اعدامهم ، وكان يمكن ان يُرى على الاقل بعض علامات القلق في اثناء تلك الفترة . ولكن لم يردني تقرير واحد يشير إلى حدوث ذلك» (١) .

لم يدافع كورنواليس عن الجيش العراقي كما قال ؛ لكنه ذكر حقيقة ونسى ان الجيش العراقي بعد فشل الثورة تحجمت قوته من خلال عملية التسريح والاحالة على التقاعد لخيرة الضباط .

ويبقى من المهم القاء نظرة على الوضع في شمال العراق والتأثيرات الفكرية على المجتمع العراقي حسبما نظر اليها السفير ، فالشيخ محمود (٢) في شمال العراق رجل فوضوي متعجرف كثير المشاكل التي يثيرها امام الادارة والحكومة التي فرضت سلطتها بالتعاون مع القوات البريطانية ... وتفاوضت مع الشيخ محمود الذي طالب بمطاليب معينة جعلت الوزارة ترفضها ، لانها خطوة اولى واسعة نحو الحكم الذاتي (٣) . لكن الامر الذي يهم السفير لم يكن اضعاف او عدم اضعاف الحكومة في بغداد ولا خداع الشيخ محمود المتمرد ، وانما عدم قيام اي شخص او زعيم بعرقلة المجهود الحربي البريطاني (٤) .

وخلال عام ١٩٤٥ كان كورنواليس على وشك الرحيل عن العراق بعد انتهاء مهامه ، شهد العراق تطورات مهمة مع انتهاء الحرب الثانية ، عندما

(1) F.o. 371 : E2 936; I mportant Secret, Sir k.Cornwallis. to. F.o.8/ jun/ 1942.

(٢) الشيخ محمود البرزنجي : عينه الاتراك حاكماً على السليمانية خلال الحرب العالمية الاولى . ولما احتل الانكليز كركوك عرض خدماته لهم . فتم تعينه حكمداراً للسليمانية أعلن على الحكومة في عهد الملك فيصل الاول . وآخر تمرد له كان في منتصف عام ١٩٤١ . انتهى عن طريق المفاوضات . بعدها انتقلت القيادة الى الملا مصطفى البارزاني
انظر : محمود الدرة : القضية الكردية : ط٢ بيروت ١٩٦١ .

(3) F.o. 371: E 4231; Ibid .

لاشك ان منح الاكراد حكماً ذاتياً كان تطوراً بالغ الاهمية ومعلماً بارزاً بعد عام ١٩٦٨ .

(4) F.o. 371 : E 4231: Ibid .

ارسل السفير افضل تقاريره التي تعلقت بالوضع العام في العراق ، ونظرته للرأي العام وارائه بشأن المستقبل . فالهدوء سمة واضحة في العراق بعد فشل ثورة الكيلاني ، لكن ذلك لم يكن ليدوم فترة طويلة او يمكن لاحد الاطمئنان اليه. ذلك ان النار التي ظلت تحت الرماد كما عبر عن ذلك القائد العام البريطاني جعلت امكانية التغيير الدراماتيكي والسريع للوضع امراً ممكناً مع عدم الوثوق بأي ضمان (1) .

لم يكن الرأي العام بعيداً عن تفكير السفير فهو ينبه مسؤوليه إلى اهمية تأثر الجماهير بما تسمع ، ويصف تلك الجماهير باوصاف سيئة متمنياً نجاح الحكومة في بغداد بالتصدي للجماهير اذا لزم الامر ، ويورد هنا عبارة مهمة وصريحة تقول : «لا احد في بريطانيا يدرك كم هو صعب حكم العراق حتى في وقت السلم» (2) شارحاً العوامل التي تقف وراء تلك الحقيقة : منها سنوات التخلف الطويلة التي عاشها البلد ، ووجود نزعات مختلفة وحقيقة وجود تباين شاسع بين سكان المدن والبدو المسلحين ، ثم مشاكل الحدود مع جيران العراق ، واخيراً مشكلة التمرد المزمن في شمال العراق والتي تبدو مصدراً للتوتر الشديد (3) .

ومع ان عدداً من العوامل يبدو منطقياً ، فان الامر الذي لم يشر اليه السفير هو ان بريطانيا نفسها مسؤولة عن بعض تلك العوامل .

ومن الجدير بالذكر ، فان السفير البريطاني كان يؤمن بان الاستقرار لن يدوم فترة طويلة ، فهناك «احقاد شخصية ، ونزاعات داخلية ، وضعف

(1) F.o. 371: E 608: Ibid. P. 5
(2) F.o. 371: E 1494: Sir.K. Cornwallis to Mr.Eden Top Secret . 24/Feb / 1944 .
(3) F.o. 371: E 2431: Ibid. PP 3-5 .

في الانسجام ، وانحسار للروح الجماعية بين فئات الشعب ، وتصميم سيء من الحكم القائم على استمرار الوضع على حاله» (١) .

انها عوامل مؤذية حقاً شكلت واقعاً في الاربعينيات ، وسعى المخلصون إلى تجاوزها مع السنين . وكان للمثقفين دور كبير في هذا الشأن ، غير انهم في نظر السفير كانوا مندفعين نحو ما اسماه «الافكار السياسية السوفيتية دون ادراك منهم بطبيعة النظام السياسي السوفيتي حتى اصبحت الشيوعية واجهة تختفي وراء ستارها المعارضة النزيهة وغير النزيهة لتظهر بمظهر التقدمية» (٢).

ان الوضع الذي بدأ يتبلور مع نهاية الحرب كان مؤشراً على بداية مصاعب اخذت تتسع مع الايام لتصبح اصعب ما يواجه الانكليز ، وهم يدعمون نظاماً حاكماً تقليدياً دون ظهور فريق حاكم جديد يمكن التعامل معه . لذلك فان السفير يقول بصراحة : «ان مشكلة العراق الحقيقية ليست معنا ، بل هي مع اولئك الحكام الذين يرفضون بعناد التنازل عن اي من امتيازاتهم للاخرين ، مع خوفهم من المستقبل بعد تحذيرنا لهم من مخاطر المستقبل ... وان صداماً سيحدث بين من يملكون والذين لا يملكون» (٣) .

ورغم المرارة التي كانت ظاهرة في تقارير السفير الاخيرة ، فان التمسك بوجهة النظر البريطانية في العراق بدت واضحة اكثر . انه يشير بصراحة إلى ان الوجود البريطاني في العراق ومع نهاية الحرب كان قوياً جداً ، لكن ذلك الوجود قد يتدهور رغم نموه المستمر خلال الحرب الثانية . ويبادرنا السفير بسؤال مهم حيث يقول : «اذا كان العراق غير ذي اهمية لنا فانه يتعين علينا الجلاء عنه ... ولكنه في الواقع مهم جداً بسبب موقعه الاستراتيجي والنفط

(1) F.o. 371: E 2431: Ibid. PP 2–3.
(2) F.o.371: E 2431; Ibid. P. 4.
(3) F.o. 371: E 2431: Ibid. P. 4.

والمواصلات ... وان بريطانيا لن تتركه هدفاً لاطماع الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية ... ويجب عدم السماح لموقفنا في العراق بالتدهور (١) .

انها نظرة شاملة وبعيدة ، تلك التي كتبها كورنواليس ، فالعراق مهم جداً لبريطانيا ، ولم يكن سهلاً عليها ابداً التخلي عن نفوذها هنا لدول اعظم منها ، لكن ظروف ونتائج الحرب العالمية الثانية ، فرضت على بريطانيا تنازلات وتنازلات كثيرة وكبيرة في العالم .

ولاجل العمل على ابقاء النفوذ البريطاني قوياً في العراق اطول مدة ممكنة «فإن توثيق الروابط بين الطرفين على اسس من التعاطف والتفهم : وحل المشاكل التي يعاني منها الاقتصاد العراقي ، واشعار المواطنين العراقيين بانهم محط رعاية الاخرين ، كل ذلك كفيل بالنجاح في المساعي البريطانية من اجل عدم اضعاف العراق ، لان اضعافه انما هو اضعاف لبريطانيا وايذاء لها . وان على من يتعامل مع العراقيين ان يتجنب جرح كبريائهم ، لانهم شديدو الحساسية والعاطفية» (٢) .

هكذا اذاً كانت الحقيقة ، وهي ان اضعاف بريطانيا هو اضعاف للعراق والعراقيين ، حتى ان السفير يطلب من مسؤوليه الكف عن اي موقف او قرار يؤذي العراقيين ... وينصحهم — ينصح المسؤولين الانكليز — ارسال شخصيات تمتلك خبرة عالية لتتولى وظائف تحتاج إلى الكفاءة ، وتشعر الشعب هنا بانها تستلم رواتب او اجوراً عالية ، لانها كفوءة ونشطة نظراً لحساسية العراقيين القوية تجاه الاجانب وأجورهم العالية . والابقاء على جسور الاتصال غير السياسية بين الانكليز والعراقيين ، ومنها تعزيز الروابط الثقافية والعلمية من خلال المعاهد البريطانية (٣) .

(1) F.o. 371: E 2431: Ibid, P 6.
(2) F.o. 371: E 2431: Ibid. P. 6.
(3) F.o. 371: E 2431: Ibid. PP 6-8.

ثانياً — القضايا القومية

آ — العراق والمسألتان الفلسطينية والسورية

أظهر العراق اهتمامه الكبير بالقضايا العربية وخاصة بعد استقلاله عام ١٩٣٢م ، ثم جاءت احداث عام ١٩٤١م لتؤكد ارتباطه الوثيق بالقضايا القومية عندما استهدف الرجال الذين قادوا الحركة الثورية : تحقيق الوحدة بعد تحرير العراق وسوريا وفلسطين ... لكن الحركة انتكست وتعرض العراق للاحتلال وعاد رجال الحكم المتعاونون مع بريطانيا إلى السلطة .

ومع ان الرجال الذين حكموا العراق بعد عام ١٩٤١م قد ادركوا عظم المشاكل التي يواجهونها في الداخل ، فانهم انغمسوا بالمسائل العربية حتى وجدت السفارة البريطانية نفسها في وضع صعب بسبب اهتمامات الحكومة العراقية بالقضايا العربية . فكتب كورنواليس مذكرة تتحدث عن اهتمام نوري السعيد بقضايا عربية تدفعه اليها اوهام التطلع إلى اقطار اخرى ... رغم ادراكه التام لمدى الضرر الذي اصاب العراق جراء المغالاة بالاهتمام بالمسألتين السورية والفلسطينية (١) .

ان تلك (الاوهام) و (المغالاة) التي يتحدث عنها السفير البريطاني هي التي دفعت بريطانيا وبمساعدة جلية من الناشطين الصهيونيين إلى الدخول في حرب مع العراق ومن ثم احتلاله ... لكن الامر الذي اقلق السفير هو استمرار الاهتمام الرسمي بالمسألتين الفلسطينية والسورية حتى مابعد الاحتلال .

في ربيع عام ١٩٤٣م جرى لقاء بين السفير ورئيس الحكومة نوري السعيد ، وخلال اللقاء اعرب السعيد عن امله في الا يدلي الساسة الانكليز بتصريحات تثير مشاعر العراقيين بشأن فلسطين مما يدفع باتجاه عقبات صعبة الحل (٢) .

(1) F.o. 371: E 4779: Sir K. Cornwallis to . F.o. 21 Jan/ 1943 .
(2) F.o. 371: E 1615: Sir k. Cornwallis to. F.o. 2/Mar/ 1943.

اذاً لم يكن اهتمام السعيد بالتطورات الفلسطينية ، نابعاً من أوهام خاصة باقامة امبراطورية عراقية ، بل من اهتمامه خاصة بالاستقرار الداخلي مع مشاعره العربية ... ووجدت مواقفه تلك اهتماماً من الجهات البريطانية عندما قام كورنواليس بابلاغ حكومته عن «مدى المتاعب التي يمكن ان تواجه بريطانيا في العراق بسبب مشكلة فلسطين التي يمكن ان تفسد كل شيء مع شعب تثيره الانفعالات بسهولة» (١) . ذلك ان التطورات المتلاحقة للحرب الرهيبة في اوربا ، جعلت الانكليز يتخوفون من عمل ثوري جديد يعرقل مساعيهم الاساسية في الحرب ، ولذلك وأدوا أي عمل ثوري في فلسطين يثير مشاعر العراقيين ، ومن ثم حدوث فوران جديد (٢) .

يعيد كورنواليس عوامل الاثارة في العراق الى وجود المفتي الحسيني في العراق قبل احداث عام ١٩٤١م وخلالها ، مما تسبب في تهديد وضع بريطانيا هناك بشكل خطير ، ودفع الكيلاني وصحبه الى تحدي بريطانيا ودفع الذين جاؤوا بعد فشل الحركة ايضاً الى تبني سياسة قومية بالنسبة لفلسطين ، وهي سياسة ستؤدي كما قال الى : «احتمال حدوث اضرار خطيرة للمصالح الستراتيجية البريطانية في العراق خصوصاً اذا استمر التأييد الامريكي البريطاني للحركة الصهيونية وانشطتها» (٣) .

ولاجل تهدئة الاوضاع والنفوس وربما لارباك العناصر الشعبية المؤيدة لعرب فلسطين في المدن العراقية والتي يتخوف السفير من وصولها للسلطة في

---

(1) F.o. 371: E 1382 : Sirk. Cornwellis to Mr. Eden 8/Mar/ 1943.

(٢) قام كورنواليس بتحذير نوري السعيد من وجود عناصر (لم يذكرها) قد تعمل على اضعاف العراق بتقسيمه او الضغط عليه . أنظر .

F.o. 371: E 1465: War Cabinet Distribution, Sirk. Cornwallis to . F.o. 12/Mar/ 1943 .

(3) F.o. 371: E 2755: Sirk. Cornwallis to. Mr. Eden 26/ Apr/ 1943.

بغداد (١). فقد بادرت وزارة الخارجية البريطانية الى تقديم مشروع سري يستهدف حل المشكلة الفلسطينية بتقسيم فلسطين .. ويبدو ان كورنواليس أطلع المسؤولين في بغداد على ذلك المشروع وخرج بانطباع سلبي حين قال في مذكرة له : «ان مشروع التقسيم سيجعل الصدام بين العرب واليهود امراً محتملاً ، بل انه سيديم الصراع بينهما لاماد طويلة» (٢) .

ووقع الصدام حقاً ودام الصراع فعلاً ، لكن المسألة الجوهرية التي لم يشر اليها السفير هي ان بلاده كانت المسؤولة تماماً عن ذلك ، لكنه على اي حال حذر حكومته من مغبة احتمال ردود الفعل العربية والعراقية ، وطالبها بالاسراع في ايجاد حل للمشكلة موضحاً ان اي تأخير في ذلك سوف يزيد من حالة الاحباط لدى الجماهير العراقية التي تدرك «اتساع الهوة بين العرب واليهود تنظيمياً ومالياً واعلامياً — وعدم ادراك السلطات لمدى اتساع الدعاية الصهيونية العالمية» (٣) .

كم كان قاسياً ودقيقاً ذلك الحكم الذي اصدره كورنواليس ، فالجماهير تدرك والسلطات لاتدرك ، ومن هنا نجد ضجة واهية لاقيمة لها حدثت في عامي ١٩٤٣م و ١٩٤٤م تحت اشراف السلطات لوقف التأييد الواسع المدى للصهيونيين في الولايات المتحدة خاصة،وتمثلت في ارسال برقيات للاحزاب الامريكية يحتج فيها مرسلوها على التأييد الامريكي .. وفي تصريحات رسمية تدعو الى الانتظار لما بعد الانتخابات الامريكية وربما لما بعد انتهاء الحرب(٤).

---

(1) F.o. 371: E 1494: Sirk. Cornwallis to. Mr. Eden. Top Secret. 24/ Feb/ 1944.
(2) F.o. 371: E 7436: Sirk. Cornwallis to. F.o. 5/Dec/ 1944.
(3) F.o. 371: E 608: Ibid. P. 3.
(4) F.o. 371: E 608: Ibid. P. 4.

ولم تكن تلك الوسائل قادرة على مواجهة او مجاراة الصهيونيين واساليبهم فكان طبيعياً ان يكون الكفاح العربي مبتوراً منذ بدايته وحتى وقت لاحق .

اما سوريا ولبنان فان كورنواليس كتب حولهما عدة تقارير تظهر مدى اهتمام العراق بشأنهما .. فقد صرح عدد من رؤوساء الحكومات السابقة بتصريحات تنم عن الامل في قيام الحلفاء بمساعدة سوريا على تحقيق استقلالها (١) .

مع اقتراب العالم من السلام وتحقيق الحلفاء لانتصارهم على المانيا في ايار/ مايس ١٩٤٥م؛ فان حصول سوريا ولبنان على استقلالهما اصبح قريب المنال وتوضحت معالم اهمية البلدين بالنسبة للعراق اقتصادياً .. وسياسياً فضلاً عن العامل القومي ... لكن كورنواليس يضيف الى ذلك قائلاً : «ان سوريا ولبنان اهم من فلسطين للعراق ، وان العراقيين يأملون في وقوف بريطانيا الى جانب استقلال سوريا من فرنسا» (٢) .

ولو نظرنا بامعان الى العبارة التي اوردها السفير لادركنا حقيقة الموقف البريطاني الذي كان يعمل بكل جهد مستطاع لتغييب فلسطين ونسيانها لكي تصبح يهودية ، فيما كان العراقيون مهتمين بشؤون فلسطين مثلما هم مهتمون بسوريا ولبنان والمغرب العربي في سبيل حصول تلك الاقطار الشقيقة على استقلالها يحدوهم الأمل في ان يكون ذلك مقدمة لتحقيق الوحدة العربية.

ب ــ العراق والوحدة :

خلال المدة التي قضاها كورنواليس سفيراً في بغداد ، أرسل عدداً من التقارير تحدث فيها عن قوة المشاعر الوحدوية في العراق ، مذكراً المسؤولين

(1) F.o. 371: E 2755: Ibid. P.3.
(2) F.o. 371: E 608: Ibid. PP 6-7.

الانكليز بالمبادرات التي صدرت عن العراق منذ وقت مبكر في سبيل تحقيق هدف الوحدة ، وتزعم هذا البلد للحركة القومية العربية ، وتعاطف شعبه مع اي انجاز سياسي عربي وحدوي ، وتركز ذلك التعاطف منذ اواخر الثلاثينيات ، وجرى اهتمام مؤقت بالحرب عند بدايتها ... ثم عاد الاهتمام بالوحدة ببروز تيارها الرامي الى بعث الامة واقامة وحدة متماسكة للعرب تكون بدايتها باستقلال سوريا وفلسطين تمهيداً لتوحيدهما مع العراق بمساعدة دولة كبرى لحين تتمكن الدولة الاتحادية من الاعتماد على نفسها بـــــلا مساعدة (١) .

ويتحدث السفير في تقريره المسهب ربيع عام ١٩٤٣م عن زعماء الوحدة في العراق ، ونجده يقول : «انهم يتمتعون بتأييد طيب من الجماهير ، وان هؤلاء الزعماء مرتاحون للانكليز ويتصورون ان أماني العرب يمكن تحقيقها بالتعاون الوثيق والودي مع بريطانيا ... الى جانب مجموعة من الشباب ترى القيام اولاً باصلاحات اساسية اجتماعية واقتصادية قبل تحقيق الوحـــدة الكاملة» (٢) :

كانت الوحدة تطوراً مؤلماً للانكليز ، ولو قالوا غير ذلك ، ومن اجـل ابعاد العراق عن الوحدة والاهتمام بها ، فاننا نجد كورنواليس يكتب الى ايدن – وزير الخارجية – تقريراً حول الاهتمام العراقي بالمسألة الفلسطينية ليورد في نهاية التقرير أخطر فكرة قدمها للمسؤولين الانكليز حين قال : «ان من الحكمة العمل على ابقاء العراق معزولاً قدر الامكان» (٣) . لكــن

(1) F.o. 371: E 2755: Ibid. P.3.
(2) F.o. 371: E 2755: Ibid. P. 4.
(3) F.o. 371: E 1382: Sirk. Cornwallis to Mr. Eden 8/Mar/1943 .

السفير لايتمسك بحكمته تلك بعد التطورات اللاحقة حيث اشار الى ان الوحدة لاتضر بالمصالح البريطانية لو قامت بين العرب وانه ينبغي على البريطانيين «الا يوقفوا تياراً سوف يشتد مع السنين» (١). مضيفاً الى ذلك قوله في تقرير آخر «ان من الافضل لبريطانيا ان تتعامل مع العالم العربي كدولة واحدة» (٢)

فيما بين ١٩٤٢م وعام ١٩٤٥ تحددت الوحدة ومسألة العمل لتحقيقها من خلال تطورات ثلاثة هي : تصريح ايدن وزير الخارجية البريطانيـــة ومذكرة نوري السعيد المعروفة بالكتاب الازرق ، ومباحثات الجامعة العربية .

ففي ٢٩ أيار ١٩٤١م صرح ايدن في البرلمان البريطاني بان حكومتـــه «تؤيد اي مشروع يوثق الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية ويحظى بموافقة جماعية منها»(٣) ولم يلبث ان صرح بتصريح آخر بعد فترة مـــن الزمن تاركاً مسألة الشروع بالاتحاد العربي الى العرب انفسهم (٤) .

وفي اعقاب التصريح البريطاني الرسمي بادر نوري السعيد الى العمل لتحقيق الاتحاد العربي وتبلور نشاطه في المذكرة التي كتبها وعرفت بالكتاب الازرق ، وانطوت على مشروع اتحادي هاشمي عرف بمشروع الهلال الخصيب . وأرسل المذكرة الى وزير الدولة البريطاني ريتشارد كيسي في القاهرة بتاريخ ١٤ كانون الثاني ١٩٤٣م (٥) .

وبعث كورنواليس باول تقويم له للمذكرة بعد دراستها فكان تقويمه سلبياً رغم الاشادة بها . فقد وصفها بانها «تؤثر في عواطف القراء وتبعـد

(1) F.o. 371: E 1494: Ibid. P. 12.
(2) F.o. 371: E 2431: Ibid. P. 4.
(3) Hurewitz J: Diplomacy in the Near and Middle East Adocumentary Record. 1914–1956. V II New york. 1972. P 236.
(4) Kimball; L.K.; The Changing Pattern of Political Power in Iraq. New york. 1972. PP. 77 78.
(5) F.o. 371: E 794: from. M. of. S (Cairo) to f.o. 5/Feb/1943.

افكارهم عنها ، ولا تأخذ بالمصاعب العملية لتنفيذ مشروعها .. لكنها وثيقة ستكون بالغة الاهمية» (١) .

وانزعجت الحكومة البريطانية من مذكرة نوري السعيد لانه أرسل نسخاً كثيرة منها للخارج ، لكنه أكد شخصياً للسفير انه أرسل تلك النسخ بموافقة الحكومة البريطانية وعلمها (٢). اي انه لم ينفرد بالتصرف بموقفه لكن الخارجية البريطانية غضبت لاسباب عديدة لعلها تتعلق بالقلق من تزعم العراق ثانيــة لمساعي الوحدة ومبادراتها ، أو بسبب القلق من الاهتمام العراقي بالولايات المتحدة بعد تسلم مندوبين امريكيين نسخاً من المذكرة ، وقد يكون السبب ماسببته المذكرة من الم وازعاج لعدد من المسؤولين العرب المتعاونين مع الانكليز ومنهم ابن سعود .

ولكن نوري السعيد لم يترك الفرصة تضيع ، فقد اجتمع مع كورنواليس وأبلغه بتطورات مشروعه الوحدوي مشيراً اليه في ذلك الاجتماع الى أن العراق لايعمل مطلقاً على اثارة المتاعب للحكومة البريطانية (٣) . لكن الخارجيــة البريطانية ابدت قلقها من المتاعب التي اثارتها لها المذكرة في اعقاب قيــام نوري السعيد بارسال مبعوث شخصي عنه الى سوريا ولبنان وفلسطين، لاقناع المسؤولين العرب في تلك الاقطار بمشروعه ، لكن المبعوث فشل في ذلــك حسبما أورد السفير (٤) . لذلك فان نوري السعيد بدأ العمل بنفسه لاقناعهم، واقترح امام السفير لاول مرة «فكرة عقد اجتماع عربي وحدوي موسع في القاهرة وليس في بغداد» (٥) .

(1) F.o. 371: E 538: Sirk. Cornwallis to. F.o. 22/Jan/ 1943.
(2) F.o. 371: E 636: Sirk. Cornwallis to. F.o. 29/Jan/ 1943 .
(3) F.o. 371: E 1222; Sirk. Cornwallis to F.o. 27/Feb/ 1943.
(4) F.o. 371: E 1227; F.o. To. Sirk. Cornwallis. 3/mar/ 1943.
(5) F.o. 371: E 1382: Ibid.

كانت تلك اولى المبادرات العملية لاقامة جامعة الدول العربية واساسها مذكرة نوري السعيد ، والذي لم يلبث ان توجه بنفسه الى القاهرة واجتمع مع رئيس الحكومة المصرية مصطفى النحاس، مكرراً عليه فكرة اقامة وحدة تضم العراق وسوريا ولبنان وشرق الاردن وفلسطين .. لكنه اقنع النحاس بعقد مؤتمر عربي تحضيري للوحدة ، فيما فشل في مسعاه سواء في عمان او في الرياض والقدس (١) .

وعلى الرغم من استمرار نوري السعيد في تشبثه الواضح بمشروعه فان الانكليز سعوا الى اهمال واسقاط المشروع ، وزادوا من اهتمامهم بفكرة الاجتماع العربي الموسع والمقترح على النحاس من قبل نوري السعيد. والذي كان مقرراً له ان يضع خطة عمل لقيام نوع من الاتحاد العربي (٢). وهي خطة لم يرفيها السفير خطراً على بريطانيا ؛ فقد كتب الى ايدن يقول له : «ان قيام اتحاد عربي اليوم ليس وارداً الا أن الامكانية المتاحة هي في عقد اتفاقيات ثقافية واقتصادية بين العرب» (٣) .

وادت الجهود العراقية الحثيثة الى اقناع المسؤولين العرب في اقطار عديدة لعقد مؤتمر في الاسكندرية حيث تم اصدار ميثاق الاسكندرية الذي كان ميثاقاً للجامعة العربية والذي رحب به العراقيون خاصة ووجدوا فيه أملاً في تحرير فلسطين. لكن السفير كورنواليس ابدى قلقه من احتمال التوصل الى خطة عربية موحدة تعارض اية سياسة اجنبية لن تكون مقبولة للعرب معرباً

(1) F.o. 371: E 4391; H.C. for Palestine to. Sirk. Cornwallis, Top Secret,
(2) 24/Jun/ 1943.
F.o. 371: E 4699; Sirk. Cornwallis to. F.o. Report 26/Jul/ 1943.
أشار السفير بعد ذلك بشهور الى محادثات مفيدة بين الرجلين حول الاتحاد : انظر
F.o. 371: E 7807; Si k. Cornwallis to F.o. 3/Dec/1943.
(3) F.o. 371: E 1494: Ibid. P.1.

عن اسفه الشديد «لان العراق سيكون له دور رئيس في اية خطة من ذلك القبيل..وسيكون موقفه مستقبلاً اكثر تشدداً»[1] .وفي ذلك دليل واضح على الاهمية البالغة للعراق وتخوف القوى الغربية أو قلقها من تطوره العملاني الرصين.

اخيراً فان من المناسب ان نورد آخر تقرير لكورنواليس وهو عبارة عن مذكرة شمولية كتبها وهو على وشك مغادرة العراق ، وفيها نظرة مهمة بل خطيرة حول العراق فيقول: «علينا اعتبار العالم العربي وحدة واحدة لا مجموعة دول متعددة على الخارطة .. وعلينا اعادة التوازن الى سياستنا في الشرق الاوسط .. وان ادامة المصالح البريطانية والنفوذ البريطاني هو مايجب ان نكرس له جهودنا...واذا تخلينا عن موقفنا المتميز هنا في العراق فان الفوضى ستعم الشرق الاوسط ، خاصة وان هناك امماً غيرنا تتلهف لمشاركتنا امتيازاتنا ومسؤولياتنا .. لذلك يجب حفظ الاستقرار في هذه الارض ذات التراث التاريخي العظيم»[2] .

«الخاتمة»

من خلال ماتقدم يلاحظ اهتمام كورنواليس بمستقبل العراق والوجود البريطاني فيه. واهتمامه الشديد بالافكار التي يمكن ان تتمخض عنها التطورات السياسية والاجتماعية في العراق . لذلك لم يترك في تقريره جانباً من جوانب التطور في العراق الا وقدم فيه رأياً ، واعطى عنه موقفاً .

لقد توضحت من خلال تقارير السفير ايضاً قيمة العراق ومكانته في الشرق الاوسط والوطن العربي على وجه الخصوص ، والتي مازالت قائمة حتى اليوم . وهي مادفعت كورنواليس الى الاستنتاج بان مستقبل العراق سيكون قوياً ومؤثراً في الشؤون العربية والدولية . لذلك نجده يطالب بعزل العراق عن

(1) F.o. 371: E 1494: Ibid. P.2.
(2) F.o. 371: E 2431: Ibid. P. 3.

الوطن العربي ، الا أن الملاحظ ان كورنواليس لم ينجح في مساعيه وتمنياته، وذلك من خلال الاحداث التي جرت في العراق بعد ذلك .
كما يتضح قلق بريطانيا خلال الحرب من احتمالات المستقبل سواء حول نفوذها في العراق، أو بشأن علاقات المنطقة بدول كبرى جديدة . وخاصة بعدما اصبح العراق عنصراً مهماً وخطيراً في اعقاب الغزو الالماني للاتحاد السوفيتي .
ونستنتج ايضاً ان السفير كان راغباً بل عاملا" من اجل دفع العراق نحو الاهتمام بقضاياه الداخلية البحتة ، وعدم ممارسته لدوره الفعال والنشط عربياً

وينبغي على المطلعين والمهتمين بالشؤون العراقية والعربية تسليط الضوء على تاريخنا المعاصر من خلال توجيه الاهتمام بما كتبه السفراء الاجانب ، لما تكشفه من جوانب مفيدة لحاضر العراق ومستقبله ، ويتطلب ذلك جمع كل مايمكن جمعه من وثائق اجنبية تخص تاريخ العراق المعاصر .

«رموز وارقام الوثائق المستخدمة»

أ ــ الرموز

F.o.	مختصر	foreign office.
M. of.s	=	Minister of state.
H.C	=	High Comnissioner.

ب ــ الارقام

E 172	E538	E 7436
E 608	E636	E 7723
E 794	E 1143	E 7807
E 1222	E 1227	
E 1382	E 1465	
E 1494	E 1615	
E 2431	E 2755	
E 2936	E 3286	
E 4231	E 4391	
E 4699	E 4779	

التقنيات الحديثة ودورها في الشبكات الوطنية للمعلومات
وصف واستخدام

محمود صالح اسماعيل

مدرس

المكتبة المركزية / جامعة الموصل

المقدمة : ـ

يشهد العالم مشكلة ضخامة الانتاج الفكري وتعدد اوعيته وتعدد اللغات التي ينشر بها ونمو عدد كبير من الموضوعات الجديدة ، وخاصة في العلوم والتكنولوجيا نتيجة لتشابك هذه العلوم وتداخلها لذا فقد بذلت جهود عالمية للسيطرة والتحكم الببليوغرافي لهذا الانتاج الفكري والعلمي ، وانصبت احدث هذه الجهود حول استخدام الحاسبات الالكترونية والتقنيات الحديثة الاخرى في اختزان واسترجاع المعلومات وظهور مايسمى ببنوك المعلومات (Data Banks) او باختزان واسترجاع المعلومات الببليوغرافية وهو مايسمى بمراصد المعلومات (Data Bases) وعلى اثر ذلك أنشئت الشبكات الوطنية للمعلومات للاستفادة من هذه الخدمات ولربط المكتبات لتبادل المعلومات .

والشبكة الوطنية للمعلومات هي عبارة عن تسهيلات اجهزة الاتصالات بين المكتبات ومراكز المعلومات . فهي اذن انظمة اتصالات المكتبات التي تشمل انظمة الحاسبات الالكترونية ومعداتها وبرامجها ، وانظمة الاتصالات والطرفيات التي تستخدم لتزويد المستفيد بالمعلومات ، والاقمار الصناعية ودورها في نقل المعلومات وفي هذه الحالة سيكون بامكان المكتبات التعامل مع هذه الوسائل بشكل واسع من اجل تسهيل مهمة جمع المعلومات وخزنها واسترجاعها وتقديمها للمستفيدين عن طريق استخدام وسائل اخرى من التقنيات الاخرى .

اما في الوطن العربي فقد اصبحت الاقطار العربية تعي اهمية المعلومات من اجل تطورها الاقتصادي والعلمي والحضاري . فاذا القينا نظرة على وضع هذه الاقطار لرأيناها معتمدة اعتماداً شبه كلي على الدول المتقدمة في الحصول على العلوم والتكنولوجيا كما ان الدول المتقدمة تتحكم في مصادر المعلومات وتقرر اي المعلومات يمكن نشرها لمن ، وكيف ، وباي ثمن ، دون مراعاة لمدى ملاءمة هذه المعلومات لمتطلبات الدول العربية وانسجامها مع حاجاتها وخططها وبرامجها .

فالشبكة الوطنية للمعلومات في الاقطار العربية أصبحت ضرورة من اجل توفير المعلومات العلمية للمستفيدين . ويعتقد بان الشبكة الوطنية للمعلومات سوف تسير بشكل بطيء في السنوات العشر الى الخمس عشرة سنة القادمة ، بسبب المشاكل التي تعانيها المكتبات ومراكز المعلومات العربية فيما يخص المطبوع العربي ، من نقص في قواعد الفهرسة والتصنيف، وغياب التوحيد والقياس ، وغياب التعاون في التغلب على هذه المشاكل ووضع الحلول الناجحة لها من اجل خلق قواعد قياسية موحدة ينتج عنها فهارس موحدة تستخدم

في كل المكتبات العربية . هذا بالاضافة الى غياب التكثيف والاستخلاص لاوعية المعلومات العربية . ومهما يكن من مشاكل لابد للشبكات الوطنية للمعلومات في الوطن من ان ترى النور مع بداية القرن القادم .

من هنا تكمن اهمية هذه الدراسة التي تهدف الى القاء الضوء على التقنيات والوسائل الحديثة واستخداماتها في الشبكات الوطنية للمعلومات ومدى الاستفادة منها في الوطن العربي اذا ماأردنا انشاء مثل هذه الشبكات في اقطار الوطن العربي على نطاق القطر الواحد، او على نطاق الوطن العربي ككل كشبكة قومية مثلاً .

لهذا ستحاول هذه الدراسة الاجابة على السؤالين الآتيين :

كيف ستتعامل الشبكة الوطنية للمعلومات مع التقنيات الحديثة ؟

وماهي التطورات المتوقعة في هذا المجال ؟

اعتمدت هذه الدراسة على الدراسة الوصفية لادبيات الموضوع واستنتاج الملاحظات التي تم الحصول عليها نتيجة للتطورات الهائلة في مجال التقنيات الحديثة في مجال التعامل مع المعلومات .

نبذة تاريخية :-

إن الهدف الأساس للمكتبات ومراكز المعلومات هو الحصول على المعلومات وتقديمها للمستفيدين . وقد استخدمت المكتبات ومراكز المعلومات الوسائل والأدوات المتوفرة لتحقيق ذلك الهدف . فنشأ التعاون والتبادل بمصادر المعلومات : وقد اتضح هذا التعاون والتبادل بشكل أكبر في العصر الحديث من خلال بعض المؤسسات الدولية مثل الاتحاد الدولي لجمعيات المكتبات (IFLA) واليونسكو التي ساعدت على تبادل المعلومات وانتقالها عالمياً .

أما شبكات المعلومات فقد بدأت بمفهوم التعاون بين المكتبات في الولايات المتحدة حينما قام Charles Coffin Jeweft في المؤتمر الامريكي الاول للمكتبات عام ١٨٥٣ بالدعوة الى استخدام الصفائح الطباعية المعروفة بـ (Streotype Plates) في إنتاج الفهرس الموحد .

وجاءت الحاسبات الالكترونية التي ظهرت في أواخر عقد الثلاثينيات وبداية عقد الاربعينيات لتطور مفهوم شبكات المعلومات وتطورها ، خاصة بعد التطورات التي شهدتها هذه التقنية في عقد الستينيات والسبعينيات ودخولها في مجال المكتبات والمعلومات وتأتي تقنيات الاتصالات وما شهدتها من تطورات في عقد الستينيات والسبعينيات واندماجها مع الحاسبات الالكترونية والتي ادت إلى تطور شبكات المعلومات. وهذا يدل على ان شبكات المعلومات قد تطورت في اواخر الستينيات وتكاملت في أوائل السبعينيات من هذا القرن (1) .

ان التقنيات الحديثة في مجال الشبكات الوطنية للمعلومات تشمل : انظمة الحاسبات الالكترونية ، وانظمة الاتصالات ومعداتها ، والحاسبات الطرفية التي تقوم بتزويد المستفيد بالمعلومات .

ان الهدف الاساسي للتقنيات بكافة اشكالها هو الاستخدام الامثل للمعارف الانسانية وقد استطاعت التكنولوجيا ان تقدم للانسان الكثير من المعلومات والخبرات والوسائل والاجهزة التي مكنته من اداء دوره في تطوير مجتمعه بشكل جيد .

وحينما نتطرق إلى تقنيات المعلومات علينا ان نميز بينها وبين المعلومات التي اضافتها التكنولوجيا إلى عالم المعرفة . فاذا كانت التكنولوجيا بشكل عام هي الاستخدام الامثل لمختلف مجالات المعرفة ، فان تقنيات المعلومات تعني

البحث عن افضل الوسائل لتسهيل الحصول على المعلومات وتبادلها وجعلها متاحة لطالبيها بكفاءة وفاعلية (٢) .

لذا فعلينا ان نعود لنقول انه في عصرنا الحاضر الذي تضخمت فيه المعلومات بشكل واسع ، اصبحت معه الوسائل اليدوية عاجزة عن التعامل بكفاءة وفاعلية مع الانتاج الفكري بصوره المختلفة ومع المعلومات حصولاً واستيعاباً وتصنيفاً وتوفيراً للمستفيدين في القطاعات المتعددة . ويرجع هذا بالدرجة الاولى إلى تداخل المعلومات وتشابك المواضيع مما يحتار معه اي تصنيف موضوعي مهما كانت حداثته ، ويضع الذين يعتمدون على الوسائل اليدوية في موقف صعب وعاجزين عن تأدية الخدمات المطلوبة منهم . ويزداد هذا الموقف صعوبة وتعقيداً في حقول التخصص الدقيق ، هذه الحقول التي تزداد يوماً بعد يوم وتولد معها مصطلحات جديدة وتحتاج إلى تنظيم جديد يربطها بما هو موجود اصلاً . وهذا هو الذي ادى إلى محاولة استخدام طرق جديدة لتنظيم المعلومات وتحليلها ، وامتد التفكير إلى استخدام الحاسبات الالكترونية وتقنيات اخرى في هذا المجال . وقد تعاون على تحقيق هذا العاملون في المكتبات والتوثيق ، والمتخصصون في الرياضيات ، ومصممو النظم واللغويون ، ومنتجو التقنيات والباحثون والمختصون ببرامج الحاسبات الالكترونية . وهذا الجهد ادى بالطبع إلى ظهور تقنيات جديدة في مجال المعلومات واختزانها واسترجاعها ، كما تطورت الحاسبات الالكترونية تطوراً واسعاً واتسعت استخداماتها وسرعتها في مجال الفهارس والكشافات والادلة . واصبحنا في هذا العصر نعيش عصراً تتمتع فيه الحاسبات الالكترونية بسرعة مذهلة وطاقة تفتح الافاق امام استخدامات واسعة في مجال المعلومات حتى يمكن لهذا المجال ان يستفيد فائدة كاملة من هذه الامكانيات الجديدة (٣) .

ان تعدد مؤسسات المعلومات واجهزتها واختلاف اسمائها التي تطلق عليها لا يجعلها تخرج من نطاق وظائفها المشتركة وهي تحقيق اقصى فائدة ممكنة من المعلومات والخبرات المتاحة وتوفير جهود الباحثين كي يصبح البحث مجالاً للاستثمار الفعلي . وهذه الوظائف تضطلع بها المكتبة التي تعد اقدم مؤسسات المعلومات وكذلك مراكز التوثيق والمعلومات التي تهدف جميعها إلى جمع المعلومات وتنظيمها وتحليلها وحفظها واسترجاعها ونشرها للاستفادة منها . اذ ان برامج التنمية تعتمد إلى حد كبير على المعلومات . ولكي يشترك جميع المواطنين في عملية التنمية يجب نشر المعلومات لعدد متنوع من المستفيدين على جميع المستويات ، وهذا يشمل القادة والجماهير ، ومتخذي القرارات والباحثين . وان وجود المعلومات في المكتبات ومراكز التوثيق والمعلومات دون ان تصل إلى المواطنين في الشكل والاسلوب المناسبين سوف يفقدها اهميتها كعامل من عوامل التنمية . فلهذا وجدت شبكات المعلومات الوطنية والقومية لتقوم بايصال وربط مؤسسات المعلومات باشكالها وتسمياتها المختلفة باستخدام التقنيات الحديثة لتحقيق انسياب المعلومات وتدفقها بين هذه المؤسسات والاستفادة المشتركة من استخدام التقنيات الحديثة (٤) .

الحاسبات الالكترونية في الشبكة الوطنية للمعلومات : ـ

لقد تطورت استخدامات الحاسبات الالكترونية في التعامل مع المعلومات تطوراً كبيراً خلال السنوات الاخيرة فاصبحت العمليات التي كانت تحتاج إلى الاف الساعات في الماضي تتم على الحاسب الان في بضع دقائق . ولم يتم هذا الوضع بسهولة ، وانما بفضل جهود واختراعات واسعة ومتتالية زادت من امكانيات الحاسب في استيعاب المعلومات والتعامل مع اشكالها المختلفة (٥) . وقد ازداد انتشار الحاسب الالكتروني في المكتبات ومراكز المعلومات

المختلفة ، واخذت تمتد شبكاته لتصل بين بعض مراكز المعلومات الموجودة في قارات متباعدة باستخدام وسائل الاتصال عبر الاقمار الصناعية (٦) .

وستتناول فيما يأتي الشبكات الوطنية ودورها في المعالجة للمعلومات وخزنها واهمية المحطات الطرفية : —

١. المعالجات : —

مازالت معالجات الحاسبات الالكترونية هي نفسها منذ بداية ظهور الحاسبات قبل اكثر من ثلاثين عاماً ، والشيء الوحيد الذي اختلف فيها هو السرعة في معالجة العمليات حيث ان التطور الذي حدث في مجال الحاسبات الالكترونية قاد التطور في سرعة الحاسبات في معالجة المعلومات ..

فظهرت الحاسبات الالكترونية الكبيرة (Mainframe Computer) والتي تشتمل على وحدة معالجة كبيرة الحجم اضافة إلى ملحقاتها الاساسية الكثيرة . لذلك كانت البرامج الاساسية يمكنها معالجة العمليات بصورة متصلة ، حينذاك يتم ربط محطات طرفية محلية او بعيدة بها ايضاً على شكل شبكة معلومات .

اما الحاسبات الالكترونية المصغرة (Mini Computer) فقد ظهرت في اوائل الستينات وقد استخدمت في المكتبات واسترجاع المعلومات في عقد السبعينات لان لها ملحقات وبرامج اساسية محدودة وارخص ثمناً .ومع مرور الزمن تطورت واصبحت اكثر مرونة فالحاسب الالكتروني المصغر يتألف من وحدة معالجة مركزية مع ذاكرة سريعة ومخزن مساند (قرص ممغنط غالباً) ووحدة عرض مرئي وطابعة سطرية ووحدات اخراج كاتبة . وبعد هذه التطورات اصبح استخدامها باكثر من طريقة . ومن اهم تلك

الطرق استخدامها كجزء من شبكة ، حينما تربط حاسبات الكترونية كبيرة في شبكة يستخدم الحاسب المصغر كمحطة طرفية لضبط الاتصالات السلكية بين اكثر من وحدة عرض مرئي .

وظهور الحاسبات المايكروويـة (Micro Computer) يعد طفرة في مجال تقنيات الحاسبات الالكترونية . اذ ان وحدة المعالجة المركزية في الحاسبات المايكروويـة الحديثة لا تتجاوز حجم الاصبع وتتألف من عدد من الرقائق المعدنية (Chips) وكل رقيقة من هذه الرقائق تكاد لا تتجاوز حجم الظفر باستطاعتها استيعاب ما يقرب من ٣٠٠٠ كلمة من الذاكرة .

وقد قامت شركة بيل الامريكية بتركيب مثل هذا النوع من الحاسبات المايكروويـة على الهواتف ، بحيث اصبح بامكان الشخص اذا ما اراد ان يتصل بشخص آخر ان يضغط على رمز معين في الهاتف ، والحاسبة والهاتف سوف يتوليان تحصيل الخط وما على الشخص الا تنفيذ المكالمة . وسيصبح بامكان الهاتف القيام بعمليات اخرى عن طريق هذه الحاسبات المايكروويـة كالسيطرة على منبه الحرائق في الدور والمؤسسات ، ومنبه الابواب وغير ذلك . فاذا ما اشتغل النظام يصبح بامكان الهاتف الاتصال بالاطفاء اذا ماشب حريق ؛ او الاتصال بشرطة النجدة اذا ما حدثت سرقة على الدار او اي مشكلة اخرى (٧).

وما زال التطور جارياً ومستمراً في مجال معالجات الحاسبات الالكترونية، وهي في نفس الوقت تميل إلى انخفاض اسعارها وخاصة معدات معالجات الحاسبات المايكروويـة.فعلى سبيل المثال نلاحظ ان (Oclc) (Online Computer Library Centre) في الولايات المتحدة حينما ، استخدمت المعالجات المايكروويـة كانت تتألف من ١٠٠ طرفية ، وكان ثمن الطرفية الواحدة حوالي ١٢٦ دولاراً ، بينما اصبح سعر الطرفية الواحدة في الوقت الحاضر

يكلف اقل من دولار واحد ، يضاف إلى ذلك قلة ما تحتاجه الحاسبات المايكروويّة من طاقة الذي يقل بكثير عما تحتاجه الحاسبات الاخرى ، والذي يعادل حوالي ١/١٠ من طاقة الحاسبات الالكترونية القديمة (٨).

وهناك انواع متعددة من معدات المعالجات ما زال البعض منها لم يستعمل بعد في مجال الشبكات الوطنية للمعلومات . ومن احدث هذه المعدات التي لم تستعمل لحد الان هي معدات المعالجات المترابطة (Associative Processor) الملائمة للاستخدام في الشبكات الوطنية للمعلومات ، نظراً لقدرتها الكبيرة على معالجة المعلومات الهائلة في وقت قياسي . وتختلف هذه المعدات عن وحدات المعالجات التقليدية في عدة نقاط منها مايأتي : ـ

١ ـ المعدات التقليدية تسترجع المعلومات باستخدام موقع محدد ، بينما تقوم وحدة المعالجة المترابطة بطلب قطعة الذاكرة التي يوجد عليها اسم جونس مثلاً او قطع الذاكرة التي يوجد فيها كل اسماء جونس . وهذا يعني ان المعالجة المترابطة تشرك المفتاح جونس مع ما موجود فعلاً في الذاكرة نفسها.

٢ ـ تستخدم المعالجات المترابطة لمعالجة المجاميع الضخمة من المعلومات التي يمكن ان تخزن في الحاسبة الالكترونية في وقت واحد .فهي تستخدم لمعالجة معلومات الطقس والمناخ التي تنقل عبر الاقمار الصناعية مثلاً . وهي في هذه الحالة ملائمة لمعالجة المعلومات التي تحتاجها الشبكات الوطنية للمعلومات نظراً لضخامتها .

٣ ـ صممت المعالجات المترابطة لمعالجة شريط من المعالجات الميكانيكية او لحمل كمية كبيرة من الرموز والمفردات . والحاسبات الالكترونية التي تستخدم في الشبكات الوطنية للمعلومات تستخدم لمعالجة وحمل اشرطة

وكميات كبيرة من الرموز والمفردات . فهي مصممة لحمل ارقام تضـــاف وتطرح وتقسم إلى ارقام اخرى ، حيث ان الرموز تصنع كي تصبح أرقاماً . وهذا السبب الذي يجعلنا نعتقد بان الحاسبات الالكترونية تتعامل مع الارقام، رغم وجود حاسبات تصمم كي تتعامل مع المفردات اصلاً ، وهذه تكون من صلب عمل الذين يتعاملون مع المعلومات دون الارقام (٩) .

٢ . أدوات الخزن : —

من الاسباب الرئيسة لاستخدام الحاسبات الالكترونية هو لمعالجة المعلومات. وقبل معالجة المعلومات يجب ان تكون بشكل مقروء اليأ . وعلى هذا الاساس يجب ان تخزن في مكان ما قبل معالجتها .

تعد ذاكرة الحاسب الالكتروني نظام الخزن الرئيس في الحاسب . وذاكرة الحاسبة الالكترونية توجد اينما وجدت برامج الحاسبة ، وأينما اخذت الحاسبة كمية من البيانات لغرض معالجتها . واكبر انظمة الحاسبـات الالكترونية لا يأخذ اكثر من ١٦ مليون رمز للخزن . وهذه الكمية من الرموز لا تعد كبيرة جداً بالنسبة للشبكات الوطنية للمعلومات . والحاسبات الشائعة الان لا تستوعب ذاكرتها اكثر من ٤ — ٨ مليون رمز . ومثل هذه الذاكرة تتألف مما يطلق عليه بالذاكرة الاساسية او تتألف من ذاكرة شبه متصلـة ، وتكون عادة اسرع من الذاكرة الاساسية للحاسبة .

النوع الثاني من الذاكرة هو القرص الدوار ، وهو الاتجاه الجاري لخزن كمية كبيرة من البيانات في الحاسبات . والقرص الدوار متوفر في عدة أشكال . ويتحرك بشكل الكتروميكانيكي ليخزن مابين ٥ — ٦٠٠ مليون رمز . والقرص الدوار الذي يخزن ٦٠٠ مليون رمز يبلغ سعر الواحد منه حوالي ٣٠٠٠٠ دولاراً .

وقد تم تصنيع انواع من القرص الدوار باستطاعتها تخزين ما يقرب من بليون رمز على القرص الواحد كحد اعلى . ويعد هذا حداً اعلى بسبب محدودية الشكل المادي للقرص نفسه [١٠] .

اما النوع الجديد من تقنيات التخزين ، فهو ما يعرف باداة الخزن الواسعة (Mass Storage Device) . وقد تم تطوير هذا النوع من تقنيات الخزن من قبل شركة (IBM) والذي سيصبح بامكانها تخزين حوالي ٥٠٠ مليون رمز اي ما يعادل ٢٠٠٠ قرص دوار بحجمه الحالي الان .

يتم عمل هذه التقنيات عن طريق تخزين البيانات على اسطوانات (سلندرات) صغيرة تكون بحجم نصف علبة البيبسي كولا ، وهذه السلندرات تحفظ باقراص مشابهة لاقراص خلية النحل بشكل عمودي منبسط . فحينما تريد الاداة قراءة واحد من السلندرات ، هناك ذراع تقوم بسحب السلندر من الاسفل خارج خلية النحل وتضعه في محطة قراءة الاقراص .

ففي حالة انتشار تقنيات الخزن الواسعة حينذاك سوف يكون بامكان الحاسبات الالكترونية قراءة المعلومات مهما كان حجمها . فلو تصورنا ان قدرة تقنيات الخزن الواسعة تخزين ما يقرب من ٥٠٠ مليون رمز ، فكم يكون عدد الرموز التي تكون على الصفحة المطبوعة ، وكم هو معدل عدد صفحات الكتاب . وهذا يعني انه بامكاننا تخزين كميات كبيرة من المعلومات الحقيقية وليس المعلومات الببليوغرافية فقط باستخدام هذه الادوات الجديدة [١١] .

وحينذاك يمكننا ان نتصور ما سوف تقدمه هذه التقنيات الجديدة من خدمات كبيرة للشبكات الوطنية للمعلومات في مجال تخزين المعلومات الببليوغرافية وغير الببليوغرافية .

وهناك نوعان اخران من ادوات الخزن .اولاهما الذاكرة الفقاعية Bubble . Memory ذات الاهمية الكبيرة ، التي ستقوم بملء الفراغ بين الاقراص الدوارة واكثر انواع ذاكرات الحاسبات الالكترونية سرعة وتطوراً. ففي الوقت الذي تكون فيه ذاكرة الحاسبات الالكترونية اكثر سرعة في استرجاع المعلومات من الاقراص الدوارة يكون سعرها مرتفعاً جداً .

لذلك قام مختبر بل في الولايات المتحدة بتطوير الذاكرة الفقاعية ، والتي هي اسرع من الاقراص الدوارة وارخص ثمناً من ذاكرة الحاسبة الالكترونية وهي اداة خزن متوسطة الحجم . ونموذج المختبر يحوي ربع مليون رمز . ويعتقد بان الذاكرة الفقاعية سوف تزيد من فاعلية الحاسبات الطرفية التي توضع على منضدة المستفيد لكونها المكان الملائم لوضع مخزن من هذا الحجم فربع مليون رمز ذاكرة كبيرة الحجم وهي تساوي ضعفي ذاكرة حاسبة شبكة مكتبات اوهايو (OCLC) الاولى . فاذا ماتم الحصول على هذا الحجم من التخزين على منضدة المستفيد في الحاسبة الطرفية فهناك مستجدات كثيرة سوف تظهر في مجال المعلومات والشبكات الوطنية (١٢) .

وثانيتهما هي اداة الخزن الجديدة التي سوف يكون لها مكان بارز في عالم الشبكات الوطنية للمعلومات.الا وهي اسطوانة الفديو المعدنية (Video Disk). حيث ان الكثير من المتخصصين يؤيدون فكرة اسطوانة الفديو كاحدى وسائل الخزن بسبب قدرتها على التصوير اضافة إلى الحقيقة الاخرى الاكثر اهمية في هذا المجال ، وهي قدرتها على تخزين المعلومات المكثفة .

ان اسطوانة الفديو المعدنية هي وسيلة ضوئية تستخدم عادة لخزن التصورات البصرية ، وتستطيع استيعاب حوالي ٥٤٠٠٠ اطار على كل وجه من وجوه

الاسطوانة او ما يعادل حوالي ٥٠٠.٠٠٠ صفحة فولسكاب ، اي ما يقرب من ١٥٠٠ كتاب كل منها ب ٣٠٠ صفحة . ومع كل هذا فهناك وسائل وتقنيات عديدة لديها القدرة على تسجيل واسترجاع المعلومات التي تخزن على اسطوانة الفديو هذه . وان كلفة اسطوانة الفديو المصنعة تجارياً حوالي ٣٠٠٠٠ دولار . ويتم تسجيل البيانات عليها واسترجاعها باستخدام اشعة ليزر اذ يقوم جهاز بمسح المادة المقروءة ليحولها إلى اشارات رمزية تتأثر بها أشعة ليزر وتحدث حفراً مايكروسكوبية على سطح الاسطوانة وبعد الانتهاء من التسجيل يغطى سطح الاسطوانة بمادة بلاستيكية وتصبح الاسطوانة جاهزة للعمل . واذا كان شريط الفديو التقليدي يتيح لنا ان نسجل ما نريد ، الا ان جودة صوره مازالت قليلة ، خصوصاً لدى ايقاف الصورة ، او اعادة تشغيل الشريط . كذلك فان البحث عن معلومة ما من التسجيل يستغرق بعض الوقت ، اذ من الضروري ان الشريط إلى الامام او الخلف للوصول إلى المقطع المطلوب . ثم ان استعمال التسجيل عدة مرات يخفض من جودة الصورة . في المقابل ، فإن جميع هذه السلبيات ليست موجودة في نظام اسطوانة الفديو . فالوصول إلى الصور سهل وسريع كما في الكتاب ، اذ يكفي اتباع ارقام فهرس الاسطوانة المسجل على غلافها لاختيار الفصول المسجلة ومن ثم المقاطع المحدودة داخل كل فصل . وهكذا يمكن للجهاز ان يقرأ التسجيل فصلاً بعد فصل . ويمكن لقارىء الاسطوانة ان يقفز فصولاً إلى الامام او إلى الخلف . ثم ان بامكانه ان يعيد عرض المقطع عدة مرات وان يتوقف عند صورة معينة دون اي اهتزاز في الصورة على عكس ما يحصل في اجهزة الفديو التي تعتمد شريط التسجيل . غير ان فيها بعض السلبيات وهي انها يمكن التسجيل عليها فقط

ولا يمكن محو التسجيل او اعادة تسجيله ، فاذا سجل مرة فان ذلك سيبقى نهائياً ، الا انه اعلن قبل ايام عن القرص الجديد القابل المحو والتسجيل .

ولاسطوانة الفديو بعد دمجها مع الحاسب الالكتروني فائدة كبيرة في عمليات التوثيق والشبكات الوطنية للمعلومات ، ولعل اكبر مركز للوثائق المسجلة على اسطوانات الفديو هو مدينة العلوم والصناعة في ضاحية «لافيليت» قرب باريس ، التي تحتوي على مركز توثيق يضم ١٨٠ حاسبة طرفية وعشرين الف اسطوانة فديو سجلت عليها كتب ومجلات ووثائق كثيرة . ويقوم المستفيد بطلب الوثيقة التي يريدها عبر احدى الحاسبات الطرفية ، وعندئذ تتحرك ذراع الية نحو الاسطوانة التي تحمل الوثائق وتضعها في جهاز قراءة ، فتخرج الصور على الشاشة (١٣) .

وبالامكان الاستفادة من تقنيات اسطوانة الفديو في الشبكات الوطنية للمعلومات لتخزين محتويات المكتبات الكبيرة من الكتب والصور وغير ذلك ، كما فعلت ذلك مكتبة الكونكرس الامريكية باعتبارها اكبر مكتبة في العالم وتحتوي اكثر من ٨٠ مليون مادة مكتبية تحتل حوالي ٨٥١ كم من الرفوف على مساحة ٤٣ هكتاراً من الارض، حيث بدأت بتحويل البعض من محتوياتها على اسطوانات الفديو ، حيث تختزن نحو مليون صفحة من المواد المكتبية على حوالي ١٣,٠ م٢ . ولهذا ابتدأت بتحويل الصور الفوتوغرافية النادرة القابلة للتلف لخزنها على اسطوانات الفديو . ويتم تنفيذ ذلك لاغراض البحث العلمي والتطوير اكثر منه لتوفير حل لمشكلة نقص مساحة تخزين الكتب . وسوف تتم مراقبة طرق استخدام المستفيدين لهذه الوثائق عن كثب . فاذا كانت النتائج مرضية ، فيمكن نقل اجزاء اخرى من ممتلكات المكتبة إلى اسطوانات

الفديو . وما زالت مكتبات اخرى وشبكات وطنية للمعلومات تنتظر نتيجة هذه التجربة من اجل تطبيقها في تخزين واسترجاع المعلومات (١٤) .

ونجاح هذه التجربة سوف يكون فتحاً جديداً في حقل المعلومات وسوف يكون انجازاً كبيراً للشبكات الوطنية للمعلومات والمكتبات ومراكز التوثيق والمعلومات .

٣. المحطات الطرفية :ـ

تستخدم الحاسبات الطرفية للاتصال بين انظمة المعلومات اي لخدمة الشبكات الوطنية للمعلومات .

ان اول نوع للحاسبات الطرفية هي تلك التي اجرت عليها شركة (IBM) بعض التعديلات ، وهي عبارة عن آلات كاتبة الكترونية باستطاعتها اخراج نسخ ورقية . وفي نهاية الستينيات استبدلت هذه الحاسبات الطرفية بطرفيات انابيب الاشعة الكاثودية التي تربط بشاشة تلفزيونية . وهناك سببان لاستبدال طرفيات الآلة الكاتبة بطرفيات انابيب الاشعة الكاثودية وهما :ـ

١ ـ لكون طرفيات الالة الكاتبة وسائل ميكانيكية . لهذا لا يمكنها ان تجاري سرعة الحاسبات الالكترونية. كما ان الالات الكاتبة بحاجة إلى صيانة مستمرة .

٢ ـ التحديدات الطبيعية التي نواجهها في عنصر الطبع في الالات الكاتبة هي التي دعت العاملين في مجال الحاسبات الالكترونية إلى تطوير طرفيات انابيب اشعة الكاثود (١٥) .

فطرفيات اشعة الكاثود اصبحت قياسية في انظمة الاتصال الثنائية المباشرة في الوقت الحاضر ، بسبب عدم وجود آلات كاتبة ورقية تقليدية بامكانها

تجارات سرعات وحدات الفديو الا في حالات نادرة . فعلى سبيل المثال نرى طرفيات شبكة (OCLC) تعمل بسرعة ٢٤٠ رمزاً في الثانية ؛ بينما نرى اسرع آلة كاتبة ورقية لا تعمل باكثر من سرعة ١٨٠ رمزاً في الثانية (١٦) .

رغم كل هذا اذا اردنا استخداماً اوسع للحاسبات الطرفية من قبل المستفيد فلابد من استخدام حاسبات طرفية اكثر تطوراً بامكانها ان تتماشى مع متطلبات المستفيد دون استخدام لغة امر خاصة . وهذه الطرفية تكون مثل طرفية الدفع النقدي في المصارف الامريكية والاوربية ، التي تقوم بسؤال المستفيد بعد اعطاء رقمه السري لها،بعض الاسئلة من على شاشتها مثل . ماذا تريد ان تعمل ؟ وتعطيه عدة اختيارات ، وما على المستفيد الا ان يلمس احد المفاتيح الذي يمثل اختياره والتي سوف تظهر على الشاشة امامه ، وهذه العملية يمكن ان تستمر إلى ان يتوصل المستفيد إلى ما يبغي من معلومات . وهذا التطور في الطرفيات اذا ما حدث سوف يكون ذا اثر كبير في مجال الشبكات الوطنية للمعلومات ، بسبب كون مستفيديها من مستويات وخلفيات مختلفة ، لايعرف البعض منهم استخدام مفاتيح الالة الكاتبة المربوطة بطرفيات انابيب اشعة كاثود

اذا كان ما ذكرناه سابقاً يلقي ضوءاً على دور تقنيات الحاسبات الالكترونية في الشبكات الوطنية للمعلومات للدول المتقدمة ، فما هو الوضع في الاقطار العربية ؟

ان الباحث في هذا الموضوع يعاني من قلة المصادر التي تشير إلى وجود هذه التقنيات في الوطن العربي وذلك لعدم وجود شبكات وطنية للمعلومات في الوطن العربي ،وكل ما يمكن العثور عليه شذرات هنا وهناك عن استخدام بعض هذه التقنيات (وليست المتطورة منها) بصورة بدائية ؛ وبدون تنسيق

مع بقية الاقطار العربية في هذا المضمار . ولعل نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات كانت هي البداية. ففي هذه الفترة فطنت الاقطار العربية إلى استخدام تقنيات الحاسبات الالكترونية في مجال المكتبات وتوفير المعلومات . وتساءلت هذه الدول عن استخدام هذه التقنيات بشكل فعال وارسلت البعوث إلى الدول المتقدمة من اجل التخصص ونقل الخبرات في هذا المجال .وجرت عمليات المسح وتم اعداد بعض الدراسات ونشر البعض منها حول ضرورة انشاء شبكات وطنية للمعلومات خاصة بكل قطر عربي على ان يتم التنسيق فيما بينهم عن طريق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من اجل انشاء شبكة معلومات قومية تعمل على خدمة الوطن العربي باسره . ولكن الذي يمعن النظر في النتائج يجد ان قليلاً قد تحقق في هذا المجال . وهنا يفرض السؤال التالي نفسه ، ما السبب في ذلك ؟

هناك معوقات ومشاكل عديدة تعاني منها الاقطار العربية بشكل عام والتي يمكن تلخيصها فيما يأتي ، وهي السبب في ذلك : —

١ — المشكلة المالية التي يعاني منها الكثير من الاقطار العربية وخاصة غير المنتجة للنفط .

٢ — النقص بالايدي العاملة المدربة في مجالات الحاسبات الالكترونية وفي المعلومات

٣ — عدم كفاءة الاتصالات داخل القطر العربي الواحد ، وبين الاقطار العربية مع بعضها البعض ، وبين الاقطار العربية والدول المتقدمة ، وعدم وجود شبكة اتصالات عربية .

٤ — مشكلة الترميز بالنسبة للغة العربية وتطبيقاتها في الحاسبات الالكترونية.

٥ — عدم وجود تشريعات تساعد على الاستفادة من المعلومات المتوفرة لدى كل قطر عربي ، وعدم وجود اسس لتبادل المعلومات .

٦ – عدم التقدير الصحيح للمعلومات واهميتها لدى الفرد العربي في مجال التخطيط واتخاذ القرارات .

٧ – تعدد انواع الحاسبات الالكترونية المستخدمة في الوطن العربي .

٨ – قلة المجموعات كماً ونوعاً في الكثير من المكتبات ومراكز المعلومات العربية وعدم توفر المعلومات الشاملة والكاملة .

٩ – رفض المكتبيين التقليديين لكل ما هو جديد ، خاصة في مجال تطبيقات الحاسبات الالكترونية (١٧) .

وعلى هذا الاساس مازال الكتاب هو العنصر الاساسي في المكتبة العربية ، ولم تنل التقنيات الحديثة ما تستحقه من العناية ، ولن تتحقق التنمية الصحيحة الكاملة دون ان تشارك المكتبة فيها بكل موادها ومواردها ، ولكن من هو المسؤول عن ذلك ؟ وهل يتوفر عدد كاف من المكتبيين المتخصصين في الوطن العربي من اجل تحمل هذه المسؤولية والقيام بها ؟

أدوات الاتصالات ودورها في الشبكات الوطنية للمعلومات :–

تعد تقنيات الاتصال بمثابة حلقة الوصل بين نقطتين او اكثر بينهما مسافة معينة وذلك عن طريق استخدام ما يسمى بتقنية المعلومات (١٨) .

ان انظمة الاتصالات هي التي تقوم بتوصيل المعلومات إلى المستفيدين من الحاسبات الالكترونية . والطريقة المعروفة لدينا لايصال المعلومات بين الحاسبة الالكترونية والمستفيد تتم عبر التسهيلات التي تقدمها مؤسسات الهاتف. وهذه التسهيلات تشمل دوائر ذات اشارات كهربائية ووسائل تعرف بمحولات الاشارات (Modem) التي تقوم بتحويل البيانات من خلال الاشارات

الكهربائية .وهذه الدوائر يمكن ان تؤجر بشكل مفتوح ، او يتم حساب ثمن ايجارها حسب الاستخدامات اليومية مثلها مثل المكالمات الهاتفية الاعتيادية .

ان ٩٩٪ من اتصالات الحاسبات الطرفية تتم عبر هذه الطريقة . والطريقة المألوفة في استخدام هذه الدوائر تتم عبر القابلوات المعدنية التي تمتد تحت الارض او فوقها . او يتم نقلها عبر اجهزة المايكروويف ، وهذه الاخيرة لاتستخدم الا في نقل المعلومات عبر الدول والقارات المتباعدة(اي الاتصالات الخارجية) (١٩) .

وقد تحولت الان معظم شركات الهاتف في الولايات المتحدة ودول اوربا إلى استخدام الالياف البصرية التي سوف تؤثر على تخفيض اسعار الاتصالات بشكل عام . والالياف البصرية تستخدم قابلوات مصنوعة من خيوط زجاجية بشكل شعرة الانسان لتقوم بنقل البيانات على شكل ضوء وليس على شكل موجات كهربائية . والالياف البصرية هي الان ارخص ثمناً لكي تمد بدلاً من القابلوات المعدنية حيث تستطيع ست شعرات من الالياف البصرية من نقل ١٠٠٢ قناة، بينما يقوم سلك من النحاس قطره انج واحد من نقل ٤٠ قناة فقط.

وتمتاز الالياف البصرية عن غيرها بما يأتي :ـ

١ ـ القدرة العالية على نقل المعلومات لانها تنقلها على شكل ضوء وليس على شكل اشارات كهربائية .

٢ ـ سهولة صيانتها مقارنة بالقابلوات المعدنية .

٣ ـ النقل بدون تداخل وضوضاء التي تصاحب القابلوات المعدنية .

ان الالياف البصرية في الوقت الحاضر غير مجدية اقتصادياً لربط انظمة الاتصالات الخارجية لشركات الهاتف ، لكن الاعتقاد السائد يؤكد بان المستقبل

القريب سيثبت لنا اقتصادية استخدام الالياف البصرية في كافة انواع الاتصالات (سواء المحلية او الخارجية) . وبهذا سوف تحل الالياف البصرية محل القابلوات المعدنية المستخدمة في الاتصالات الهاتفية حتى للخطوط التي تمتد إلى الدور . وفعلاً قامت شركات الهاتف الامريكية والاوربية بتوصيل هواتف الدور بواسطة الالياف البصرية . وفي هذه الحالة سيصبح بامكان شركات الهاتف توصيل اكثر من خط هاتفي للدار الواحد اذا ما رغب صاحب الدار بذلك إلى حد اربعة خطوط في آن واحد .

وحينذاك سيصبح بامكان شركات الهاتف بيع قابلواتها المعدنية لشركات تلفزيونات الكيبل (Cabel TV) . وهذا سيساعد في امكانية انتشار تلفزيونات الكيبل على نطاق واسع . اذ ان شركات تلفزيونات الكيبل لن تحتاج إلى مد قابلواتها لانها جاهزة من قبل شركات الهاتف اصلاً .وبهذا ستكون كل انواع انظمة الاتصالات متوفرة في الدور مباشرة (٢٠) .

ويعد تلفزيون الكيبل احد الوسائل المهمة في نقل الخدمات والمعلومات بين الشبكات الوطنية للمعلومات والمستفيدين مباشرة . اذ تستطيع الشبكة بواسطة الكيبل نقل قواعد البيانات الالكترونية وملفات المعلومات إلى دور المستفيدين مباشرة (٢١) .

ان ادخال تقنيات الاتصالات الحديثة المذكورة اعلاه في خدمات المعلومات ادى إلى تعزيز التعاون بين المكتبات ومراكز المعلومات المختلفة عن طريق تشكيل الشبكات الوطنية للمعلومات . وهذا ادى إلى خلق علاقات قوية بين المؤسسات والمنظمات الخدمية الاخرى . وكذلك اعطت الشبكات الوطنية للمعلومات القدرة على استرجاع المعلومات بسرعة ودقة فائقة ونشر خدماتها

إلى مناطق واسعة . وتقاسم المعلومات بين المكتبات ومراكز المعلومات . ان تقنية وسائل الاتصال تتيح للمستفيدين الوصول إلى المعلومات مباشرة وبطرق متعددة ، مما جعلنا نضع علامة استفهام كبيرة على دور المكتبة التقليدي اذا ما تم ذلك .

الاقمار الصناعية ودورها في الشبكات الوطنية للمعلومات : —

ان الاقمار الصناعية هي واحدة من التقنيات الحديثة التي سوف تأخذ مكانها الحقيقي في عالم الشبكات الوطنية للمعلومات . ان الاقمار الصناعية ذات الاتجاهين المتفاعلة في نقل المعلومات لم تظهر لحد الآن بسبب الظروف الاقتصادية غير المشجعة للاتصالات الثنائية عبر الاقمار الصناعية ، وبسبب كلفة المحطات الارضية ، حيث تبلغ كلفة انشاء محطة ارضية ترسل وتستقبل من والى الاقمار الصناعية حوالي ١٢٠,٠٠٠ دولار . الا ان المحطات الارضية المستقبلة فقط ارخص بكثير ، لكنها غير مجدية للاتصالات الثنائية . ولما كانت المعلومات بحاجة الى نظام ثنائي لنقل واسترجاع المعلومات فانه ليس من الطبيعي ان تقوم شبكة معلومات وطنية باقتناء محطة ارضية تكلف اكثر من ١٢٠,٠٠٠ دولار . الا ان المتوقع انه خلال السنوات القادمة سوف تبلغ كلفة المحطات الثنائية الاتصال حوالي ٣٠٠٠٠ دولار ومن الطبيعي ان شبكة معلومات وطنية مثل (OCLC) بامكانها اقتناء واحدة من هذه المحطات لكي تتصل بمكتبة الكونكرس او غيرها من المكتبات الكبيرة في الولايات المتحدة او خارجها (٢٢) .

وما زالت التجارب جارية لعمل التطبيقات اللازمة لنقل المعلومات عبر الاقمار الصناعية .ولاشك ان النجاح متوقع في استخدام هذا النظام في اعمال الشبكات الوطنية للمعلومات عند توحيده مع غيره من الانظمة الاخرى

كالكيبل والفاكسميلي مثلاً (٢٣) . وهذا سيتيح امكانيات كبيرة ومتعددة لاستخدام هذا النظام في مجالات نقل واسترجاع المعلومات .

بالاضافة الى هذه التقنيات الخاصة بالاتصالات هناك تقنيات حديثة لاتقل اهميتها عن التقنيات المذكورة اعلاه، ويمكن ان يكون لها دور اساسي في الشبكات الوطنية للمعلومات . منها الفاكسميلي (Facsimile) الذي يعتبر وسيلة مثلى لنقل المعلومات من مصادرها الاصلية الى المستفيدين (٢٤) . وهذا ذو اهمية بمكان للشبكات الوطنية للمعلومات كي يحصل المستفيد على المعلومات من مصادرها الاصلية .

والفيديو تكست (Video Text) الذي صمم لنقل وتوصيل الكتب ونصوص المعلومات المختلفة الى داخل الدور والمكاتب وبتكاليف مناسبة وذلك عن طريق استخدام جهاز التلفزيون او اي جهاز عرض آخر . ويقوم المشاهد بالحصول على المعلومات المطلوبة عن طريق استعمال بعض الانظمة مثل الضرب على لوحة مفاتيح معينة يعقبها ظهور الصفحات المطلوبة فوراً .

ويوجد قسمان لنظام الفيديوتيكست وهما ، التيليتيكست (Teletext) والفيديوداتا (Video Data) (٢٥) .

وهذا سيوفر المعلومات للمستفيد في داره او في مكتبه وهذا مايتمناه كل باحث وطالب معلومات ومتخذ قرار ، وهو الحصول على المعلومات المطلوبة وهو جالس في مكان عمله او في منزله ، دون ان يتحمل عناء الذهاب والسؤال عن المعلومات ومصادرها وما الى ذلك .

ان ماتقدم ذكره يخص تقنيات الاتصالات ودورها في الشبكات الوطنية للمعلومات في الدول المتقدمة . اما في الوطن العربي ، فان هذه التقنيات معظمها

غير متوفر واذا توفر فلم يستخدم لخدمة المكتبات والمعلومات . ومن أهـم التقنيات المستخدمة في الوطن العربي : —

١ — شبكات الهاتف : —

صحيح ان كل الاقطار العربية مرتبطة بشبكة هاتف عبر المايكروويف ، لكن استخداماته في مجال نقل المعلومات قليلة جداً ولا تكاد تذكر . الا انه تم مؤخراً الاتصال بقواعد وبنوك المعلومات العالمية عن طريق شبكات الهاتف في عدد من الاقطار العربية .

٢ — الفاكسميلي : —

كما ان الفاكسميلي مستخدم في كل الاقطار العربية تقريباً ، واستخداماته تكاد تكون مقتصرة على مراسلات البريد الاعتيادية وليس لنقل المعلومات العلمية .

٣ — القمر الصناعي : —

مشروع القمر الصناعي العربي يتألف من جزأين . الاول هو الاقمار الصناعية والثاني المحطات الارضية .

ويعد القمر الصناعي العربي من الجيل الجديد لاقمار الاتصالات وهو متوسط الحجم ومتعدد الوظائف . ومن أهم وظائفه تبادل المعلومات كما هو مخطط له (٢٦) . الا انه ولحد الآن لم يستخدم في هذا المجال ، اذ انه مازال مكرساً لخدمات الاذاعة والتلفزيون دون الخدمات الاخرى المذكورة في وظائفه حين التخطيط له والبدء به .

فاذا ماأردنا انشاء شبكة وطنية للمعلومات علينا استخدام هذه التقنيات المتوفرة في الوطن العربي وتوظيفها لخدمات المعلومات ونقلها وتبادلها ، سواء

داخل القطر الواحد ، او بين الاقطار العربية ، او بينها وبين دول العالم المتقدم للاتصال بقواعد وبنوك المعلومات المتوفرة في العالم .

المواصفات المطلوبة في الكادر البشري العامل في الشبكات الوطنية للمعلومات :-

ان تطبيق التقنيات السالفة الذكر بحاجة الى نوع معين من العاملين ، ويشمل بالاضافة الى المكتبيين المتخصصين والعاملين في التوثيق والمعلومات ، الفنيين في اعمال تشغيل التقنيات والمعدات الحديثة التي يحتاجها العمل في الشبكات الوطنية للمعلومات . وكل فئة من هذه الفئات لها بناؤها ومستوياتها التي تحتاج كل منها إلى مواصفات خاصة واعداد معين (٢٧) .

لهذا فان الشبكات الوطنية للمعلومات بحاجة الى التخطيط لاعداد القوى البشرية العاملة في مجالات توفير المعلومات . والى اعداد برامج تدريبية مكثفة لهؤلاء العاملين من اجل استيعاب العمل ومتطلباته في الشبكة قبل الشروع بتنفيذ مهام الشبكة . يضاف الى ذلك ضرورة توفر بعض السمات الشخصية في العاملين في مجال الشبكات الوطنية للمعلومات ، كالقدرة على التكييف والصبر ، وتحقيق الاتصال السريع والناجح مع الآخرين . والميل الى تحصيل المعرفة وتنميتها، والقدرة على القراءة السريعة مع الاستيعاب الكامل . والكتابة باسلوب جيد والتفكير بوضوح ومنطقية . كما ان التوسع في استخدام التقنيات الحديثة في هذا الحقل ادى الى الاتجاه نحو التخصص الدقيق والتعمق في مجالات المعرفة (٢٨) .

ولم تقتصر البرامج الخاصة لهؤلاء العاملين على تعليمهم لعلوم المكتبات والتوثيق والمعلومات كنظريات فحسب ، وانما تعداها الى التطبيق والاندماج مع علوم الحاسبات الالكترونية والتقنيات الحديثة الاخرى.اضافة الى مجالات

اخرى متعلقة بالعلوم الادارية والاجتماعية. لذلك فان الضرورة تقتضي تدريس هذه البرامج وتطويرها للعاملين في هذا الحقل بصور مستمرة. والتدقيق في اختيار الافراد المتقدمين اليها ومتابعتهم بعد عملهم بحيث يمكن تكويـــن كوادر يعتمد عليها في هذا المجال ويتم تحقيق استفادة كاملة من قدراتهم. ففي دول العالم الغربي تتوفر كوادر فنية مدربة ذات كفاءة عالية تتولى العمل في حقل التوثيق والمعلومات، وذلك بسبب توفر عدد كبير مـــن المؤسسات والبرامج التعليمية التي تعد العاملين في هذا الحقل.

اما في الوطن العربي فان الحالة تختلف حيث تعاني معظم الاقطار العربية من عدم كفاءة العاملين في حقل التوثيق والمعلومات، اضافة الى قلة عدد العاملين في هذا الحقل في نفس الوقت مما يعرقل عمل مؤسسات المعلومات ويمنعها من اداء واجباتها بشكل مرضي، ويحول دون نموها وتطورها نحو تحقيق دورها في مجال شبكة المعلومات الوطنية المفترض وجودها. ان السبب وراء هذه المشكلة يعود الى عدم وجود عدد كاف من المؤسسات والبرامج التعليمية التي تعد العاملين في هذا الحقل. وقد عالجتها بعض الاقطار العربية عن طريق تدريب بعض العاملين في مؤسسات الدول المتقدمة، وبعد عودتهم الى بلادهم كانوا بمثابة النواة لخدمة حقل المعلومات في مجال الخدمات والتدريب. وهناك بعض الاقطار العربية الاخرى التي اتجهت نحو انشاء مدارس مكتبات ومعلومات، استعانت في تكوين هيئات تدريسها ببعض التدريسيين من الدول المتقدمة، ولكن اياً من الحلين لايصلح ان يكون حلاً دائماً وانما بداية وحلاً مؤقتاً، لحين التوسع في انشاء المؤسسات التعليمية التي تعد الكوادر لحقل المعلومات في كل الاقطار العربية في اطار خطة تراعي متطلبات الحاضر وحاجات المستقبل لهذا الحقل وتعتمد على متخصصين

مؤهلين من الوطن العربي . والاجيال التي سوف تتخرج من هذه المؤسسات سوف تكون أقدر على خدمة الوطن العربي لانها اكثر دراية بظروفه ومشكلاته وحاجاته (٢٨) .

الأستنتاجات : —

مما تقدم نستطيع ان نستنتج بان الشبكة الوطنية للمعلومات بحد ذاتها انظمة اتصالات المكتبات مع بعضها البعض او مع قواعد وبنوك المعلومات . ففي السنوات القادمة سوف تكون المكتبات بكافة انواعها على استعداد لشراء المعلومات من مجهزي المعلومات المتعددين ، والذين منهم مجهزون تجاريون ومنهم مؤسسات علمية خدمية . كما ستكون الحاسبات المايكروية هي الوسيلة الاساسية المستخدمة في هذا المجال . اذ ان العديد من انظمة المعلومات سوف يكون في طرفية صغيرة ، ويكون هذا النظام مبرمجاً وكاملاً وجاهزاً للعمل في الشبكة الوطنية .

فدور الشبكة الوطنية للمعلومات سيكون عبارة عن توفير تسهيلات الاتصال بين تلك الطرفيات التي سوف ترتبط بها بشكل او بآخر — وبين اي مجهز للمعلومات سوف يتصل بها ايضاً . فستكون الطرفية التي ستستقر في المكتبة ، هي التي ستقوم بادارة هذه العمليات ومتابعة التطورات التي ستحدث في مجال المعلومات . كما ستمكن المكتبة من الاتصال بخدمات الفهرسة لشبكة المعلومات الوطنية وخدمات التزويد ايضاً . وسوف تكون كل انواع الخدمات متوفرة للمكتبة مثل ماتريد من خلال حاسبة طرفية . وهذا لايعني ان كل مستفيد سوف يحصل على المعلومات التي يريد بنفسه او بواسطة المتخصصين انما ستكون جاهزة بشكل يسهل على المكتبة تقديمها دون ان تكلفها مبالغ اضافية .

وبهذا فان التقنيات الحديثة المذكورة اعلاه سوف تسهل كثيراً من عمل الشبكات الوطنية للمعلومات ، وتجعلها ذات تأثير وفاعلية للمكتبات المشتركة بها ولمستفيدي تلك المكتبات ، الذين يهمهم الحصول على المعلومات الحديثة بسهولة ويسر من اجل تنمية معلوماتهم وتطوير مجتمعاتهم.

فعلى هذا الاساس نرى بان الانسان يقف الآن على عتبة مرحلة الانتقال الجديدة التي تعتمد على تقنيات الحاسبات الالكترونية وتقنيات الاتصالات . ويعد هذا نوعاً جديداً من التقنيات التي تسود المجتمعات بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسانية اذ ان مادتها الاساسية هي المعلومات التي لاترى ولا تلمس .

ومن المؤكد ان المكتبات في المستقبل وبفضل الشبكات الوطنية للمعلومات ستكون مختلفة تماماً عن المكتبات التقليدية ، بحيث يصبح بامكان الانسان استعمال الحاسب الالكتروني المنزلي او جهاز التلفزيون للاتصال ببنوك ومراصد المعلومات المركزية ليحصل على المعلومات مباشرة على جهازه المنزلي .

ومن الطبيعي ان يكون تأثير هذه التقنيات الحديثة في تحقيق تغيرات جذرية هامة ليس في المجال المادي للحياة الانسانية فحسب وانما في القيم الانسانية وفي اتجاهات التفكير وفي البناء السياسي والاقتصادي للمجتمعات (٣٠)

* * *

المصادر : —

(١) جرجيس ، جاسم محمد ، ورزوقي ، نعيمة حسن . «شبكات المعلومات في الدول النامية» في : عالم الكتب ، ٧ (٢) ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م : ص ١٤٦-١٥٨ .

(٢) بكري ، سعد الحاج . ((تكنولوجيا المعلومات في البحث العلمي)) في : عالم الكتب ، ٢ (١) ، رجب ١٤٠١هـ ، مايو ١٩٨١م . ص ٥٠-٥٤ .

(٣) خفاجي ، محمد توفيق . ((مراكز المعلومات في الوطن العربي وحاجتها الى استخدام التقنيات الحديثة ومواجهة النقص الموجود في الطاقة البشرية المدربة)) في : المجلة العربية للمعلومات ، ١ (٢) ، ١٩٧٨ ، س ٣١- ص٤٥ .

(٤) وسلي ، سيسل . ((اجهزة المعلومات : نشأتها ودورها في البحث والتنمية والاتجاهات الحديثة لتأدية رسالتها)) . في : المجلة العربية للمعلومات ٢ (٢) ، ١٩٨١ . ص٧٨-٩٢ .

(٥) خفاجي ، محمد توفيق . المصدر السابق . ص٣٤ .

(٦) بكري ، سعد الحاج ، المصدر السابق . ص٥٤ .

(7)- Barrentine, James K. ((The future of computer technology in library networking)). In: Markuson, Barbara Evans, and Woolls, Blanche. (eds.) *Networks for networkers: critical Issues in cooperative library development.*
Neal-Schuman, New York, 1979, P 139.

(8)- Ford, Joseph.((Network service centers and their expanding role)) In: *Information Technology and libraries*, I (I), March 1982(PP. 28-41.

(9)- Barrentine, James. Op. Cit., P. 140-141.

(10)- Pinder, Chris. and Storey, Colin. ((Green light for new technology?: The ergonomics of automation)) . In *Library Association Record* 88 (6), June 1986. PP. 282-283 .

(11)- Barrentine, James. Op. Cit., P. 142.

(12)- Ibid, P. 143 -144.

(١٣) ((الاسطوانة المدنية تهدد شريط الفيديو)) في : الوطن العربي ، ١٠ (٤٨٥) مايو — حزيران ١٩٨٦ ، ص ٧٠- ص٧١ .

(١٤) طومسون ، مارك . ((مكتبة الكونكرس تدخل عصر التكنولوجيا)) في : المجال ، ١٨٩ ، ١٩٨٦ ، ص ٧-١٠ .

(15)- Barrentine, James. Op. Cit., P. 149-150 .

(16)- Ford, Joseph. Op. Cit., P. 28-41

(١٧) النجداوي ، امين . ((مشاكل تطبيقات الحاسبات الالكترونية في المكتبات ومراكز المعلومات في الاقطار العربية)) في : المجلة العربية للمعلومات ٣ (١) ، ١٩٨٢ . ص ٧٥-٩١ .

(١٨) الخزيمي ، سعود عبدالله . ((وسائل الاتصال ودورها في خدمات المكتبات والمعلومات))
في : مكتبة الادارة ، ١٠ (٣) ، ١٩٨٣ . ص٢٢ — ٤١ .
(19) Barrentine, James. Op. Cit., P. 144 -145.
(20) Cortez, Edwin M. and Kazlauskas, Edward J. "Managing information systems & technologyies.". Neal-Schuman, New York 1986. P. 21-27.
(٢١) الخزيمي ، سعود عبدالله . المصدر السابق ص٣١ .
(22) Barrentine, James, Op. Cit., P. 148-149.
(٢٣) المشاط ، علي . ((معلومات أساسية حول الشبكة الفضائية العربية : الآفاق العربية للاتصالات الفضائية)) . في : الاعلام العربي ، ١ (١) ، كانون الثاني ١٩٨١ ، ص ١٥—٢٤ .
(٢٤) عبدالجبار ، ظافر . ((تقنية المعلومات وتأثيرها على تطور المكتبات)) في :آداب المستنصرية ١٢ ، ١٩٨٥ . ص ٣٤١—٣٥٩ .
(٢٥) الخزيمي ، سعود عبدالله . المصدر السابق . ص ٣٣—٣٤ .
(٢٦) المشاط ،علي المصدر السابق ص١٥ — ٢٤ . وانظر ايضاً قنديل ، حمدي . ((الاستخدامات الثقافية للشبكة الفضائية العربية الحل على الارض وليس على الفضاء)) . في الاعلام العربي ١ (١) كانون الثاني ١٩٨١ ص٤٣ — ٦٠
(27)Cortez, Edwin. Op. Cit., P. 66-67.
(28) Ibid, P. 68
(٢٩) خفاجي ، محمد توفيق . المصدر السابق . ص ٣٩ — ٤٠ .
(٣٠) شعبان ، مظفر صلاح الدين . ((ثورة المعلومات)) . في : الخفجي ، ٧(٤) يوليو ١٩٨٧م ، ذو القعدة — ذو الحجة ١٤٠٧هـ ، ص ٣ — ٥



منهج القفطي في كتابه «تاريخ الحكماء»

محمد حامد اسماعيل
جامعة الموصل / كلية الاداب

تقديم :

يتميز كتاب القفطي «تاريخ الحكماء» بكونه من المؤلفات التاريخية الاسلامية المهمة،ولعل أهميته تأتي من أنه ركز عنايته على تاريخ علم وعلماء الحضارة العربية الاسلامية،وبيّن الدور الذي لعبه هؤلاء في الحياة الاجتماعية. ان كتاب تاريخ الحكماء يعد أنموذجاً من نماذج الكتابة التاريخية ، فمؤلفه قد سعى الى وضع معجم يؤرخ فيه حركة العلم والمكانة التي شغلها العلماء في الحضارة الاسلامية . كما أنه سجل تأريخي حافل يصور الحوار العلمي بين العقل العلمي المسلم والعقل الأجنبي ، وذلك يتضح من خلال مؤلفات العقل الاجنبي التي تدارسها العقل المسلم ، وصور من الحوار العلمي بين السلف من العلماء المسلمين والخلف .ويلاحظ الدارس ان لهذا الكتاب ميزتين أساسيتين الأولى : قدّم صاحب الكتاب للباحث الحديث مادة علمية غزيرة عرّفته بالمصادر الأجنبية للثقافة العربية الاسلامية ، وذلك بجرده لأسماء العلماء (الحكماء) من ابناء الحضارات الأخرى الذين اتصل بهم العقل المسلم ،وكان هذا الاتصال من طريقين ، مباشر من خلال الكتب الغريبة التي تملكها

اواطلع عليها والرجال الذين أفادوه الأخبار مشافهة، حيث حصل على أخبار لاتتمكن الآن من الوصول اليها (١). وغير مباشر من خلال الترجمات التي تمت لها وكانت متداولة بين أيدي العرب المسلمين .

الثانية : انه قدّم جرداً بأسماء العلماء العرب المسلمين الذين أسهموا في دفع عجلة العلم والحضارة العربية الاسلامية الى أمام .

أهداف البحث وخطته :

يهدف هذا البحث الى وضع اجابة على الاسئلة الآتية :

من هو القفطي ؟ ماالمؤشرات المهمة في حياته ؟ ماأهم مؤلفاته ؟ لماذا اختار طريق الكتابة في تاريخ العلم والعلماء ؟ ماالمصادر التي اعتمدها في تأليف الكتاب ؟ ماطبيعة المنهج الذي اتبعه في تأليفه ؟ .

وبذلك تحددت خطة البحث في معالجة المحاور الآتية :

أولاً : القفطي : حياته ومؤلفاته :

ثانيا : الكتابة في تاريخ العلم والعلماء :

ثالثاً : مصادر تاريخ الحكماء :

رابعاً : منهج تأليف الكتاب ودلالته الحضارية :

أولاً : القفطي : حياته ومؤلفاته :

هو ابو الحسن علي بن يوسف (٢) بن ابراهيم (٣) ابن عبد الواحد (٤)

---

(١) نلينو ، السنيور كرلو : علم الفلك ، مطبعة روما ، ١٩١١م ، ص ٥٩ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، نقلها الى العربية : أحمد الشنتناوي ، ميتوخ ، ١٩٣٣ ، ١/٢٦٤.

(٣) الزركلي ، خيرالدين : الاعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ٥ /٢٠٢ . وكذلك انظر : روزنثال ، فرانز : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة : د. صالح احمد العلي ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص٥٦٦ .

(٤) القفطي ، جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف : أنباه الرواة على انباه النحاة ، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ ، ١/١٠

الشيباني (٥) ، ويلقب بجمال الدين (٦) ويعرف بالقاضي الأكرم (٧) .
وكانت ولادته سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م في قفط (*) من الصعيد الأعلى (٨) .
ولذلك نسب اليها وصار يعرف بالقفطي (٩).وهو عربي صريح النسب،وقد نزح قومه من الكوفة مع القبائل العربية التي توافدت على مصر بعد الفتح الاسلامي(١٠).

نشأ في القاهرة (١١) ، وكانت حين وفد القفطي اليها معمورة بالمدارس ، وتوفر على الدرس وطلب العلم ، ولقي عدداً كبيراً من العلماء وأخذ عنهم من أمثال محمد بن محمد بن بنان الأنباري (ت ٥٩٦هـ/١١٩٨م) الذى لزمه وأجازه في رواياته ، وسمع منه كتاب «الصحاح في اللغة» للجوهري . ثم ارتحل الى الأسكندرية للانتظام في حلقة ابي طاهر السلفي(ت ٥٧٦هـ/ ١١٧٨م)، وقد أفاد منه ، وتحدث عنه في كتاب «الانباه» (١٢) .

وتنقل بعد ذلك بين قفط والقاهرة والشام ، ثم استقر في حلب وهناك اتصل بميمون القصري (**) أحد الولاة . وفي تلك الأثناء اجتمع بالعلماء

(٥) الحموي ، ياقوت : معجم الأدباء ، دار المستشرق ، بيروت-لبنان ، ١٧٥/١٥ .
(٦) دائرة المعارف الاسلامية ، ٢٦٤/١ .
(٧) الحموي : المرجع السابق ، ١٧٥/١٥ .
(*) قفط : مدينة تقع بالصعيد الاعلى بمصر الى اسوان في المشرق وهي بمديرية قنا،وتنسب الى قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح . الحموي : معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي . بيروت – لبنان ٣٨٣/٤ .
(٨) الحلبي ، محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ط١ ، سنة ١٩٢٥ ، المطبعة العلمية ، حلب ٤١٦/٤ .
(٩) ابن العماد الحنبلي ، أبي الفلاح عبدالحي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ، ٢٣٦/٥ .
(١٠) القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة ، مقدمة المحقق ، ١٠/١ .
(١١) الحموي : المرجع السابق ، ١٧٩/١٥ .
(١٢) القفطي : المرجع السابق ، مقدمة المحقق ، ١١/١ .
(**) ميمون القصري : كان ميمون القصري والي القدس ونابلس وكان على علاقة طيبة مع والد القفطي،فالتحق ومعه القفطي بالملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي – بحلب : وصار له نصيب من قبل هذا السلطان .
انظر ياقوت: معجم الأدباء /١٨٩/١٥ .

المقيمين بحلب وتوافد عليه العلماء والأدباء ومنهم ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) صاحب «معجم الأدباء» [١٣] .

وكان ميالاً للمطالعة والتفكير وتأليف الكتب ومبتعداً عن الناس [١٤] ، ومحباً للتفرد والخلوة [١٥] . ولكن موت وزير ميمون القصري الزم القفطي ان يحل مكانه الى أن مات ميمون القصري ، حيث اعتزل القفطي العمل ولكنه ألزم مرة أخرى امور الديوان حتى مات الملك الظاهر بن صلاح الدين سنة ٦١٣هـ/١١٩٥م . ثم تولى أمر الديوان والوزارة مرة أخرى في عهد أبنائه وأحفاده ، وبقي مستمراً في تدبير امور المملكة حتى توفي سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ، ودفن بحلب [١٦] ويظهر من سير الأحداث انه قبل تلك المناصب كارها [١٧] .

أما صفات القفطي فقد ذكرها ياقوت بقوله : «جمّ الفضل ، كثير النبل عظيم القدر ، سمح الكف ، طلق الوجه حلو البشاشة» [١٨] ،وكان مجلسه

(١٣) الحموي : معجم الأدباء ، ١٥/١٨٨-١٨٩ .
(١٤) القفطي : المرجع السابق ، مقدمة المحقق ، ١/١٣ . والحلبي : اعلام النبلاء ٤/٤٢١-٤٢٢ .
(١٥) ابن العبري ، غريغور الملطي : تاريخ مختصر الدول ، بيروت (بلا تاريخ) ، المطبعة الكاثوليكية ، ص٢٧٢ .
(١٦) الحموي : المرجع نفسه ، ١٥/١٧٦ . وانظر : نوادر المخطوطات المجموعة الرابعة ،رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، لابن بطلان ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، الطبعة الثانية مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص٣٤٥ .
وكذلك : الدجيلي ، عبدالصاحب عمران : اعلام العرب في العلوم والفنون ، الطبعة الثانية ٢/٦٩-٧٠ .
(١٧) نلينو : علم الفلك ، ص٥٣ .
(١٨) الحموي : معجم ، ١٥/١٧٩ .وانظر : السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٦٥م ، ٢/٢١٢ .

محط أنظار العلماء . وقد وقف علمه على فنون عدة من العلم «كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل وجميع فنون العلم على الاطلاق» (١٩) .

أما أهم المؤلفات التي صنفها القفطي فمنها :

- أخبار العلماء بأخبار الحكماء .
- انباه الرواة على انباه النحاة .
- الدر الثمين في اخبار المتيمين .
- أخبار مصر .
- تاريخ اليمن .
- أخبار السلجوقية منذ ابتدائهم الى نهايته .
- الايناس في أخبار آل مرداس .
- اخبار المصنفين وما صنفوه .
- اصلاح خلل الصحاح للجوهري .
- نهزة الخاطر ونزهة الناضر في الأدب .
- كتاب المحمدون من الشعراء (٭) (٢٠) .

---

(١٩) الحموي : معجم ، ١٧٩/١٥ . وينظر كل من : الأدفوي ، جعفر بن ثعلب بن جعفر الطالع السعيد ، المطبعة الجمالية بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٩١٤م ، ص٢٣٧ . الكتبي ، محمد بن شاكر : فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق : د. احسان عباس ،دار الثقافة، بيروت ، ١٩٧٤ ، ١١٧/٣ .

(٢٠) القفطي : انباه الرواة ، ٢١/١–٢٣ . وقارن ذلك عند الحموي : معجم ، ١٨٧/١٥ . والكتبي : المرجع السابق ، ١١٨/٣ .

(٭) كتاب المحمدون من الشعراء : كتاب ألفه القفطي ، ويحتوي على تراجم الشعراء الذين سموا محمداً ، تبركاً باسم النبي (صلى الله عليه وسلم) ١/١–٩ ، مقدمة المصحح . القفطي: المحمدون من الشعراء : اعتنى بتصحيحه وعلق عليه : محمد عبدالستار خان ايم ، طبع باذن الجامعة العثمانية ، الطبعة الأولى ، بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن – الهند /١٣٨٥هـ–١٩٦٦م .

بلغت كتب القفطي (٢٦) كتاباً ، الا ان ماوصل الينا منها هو كتاب «انباه الرواة» و « مختصر أخبار العلماء بأخبار الحكماء » وقطعة من « أخبار المحمدون» أما بقيتها فقد أدركته الضياع » (٢١) .

ثانياً : الكتابة في تاريخ العلم والعلماء :

من خلال استعراض القاريء المتمعن لمؤلفات القفطي يجد أنه قد اهتم اهتماماً كبيراً بالبحث والتثقيف في الجانب الحضاري والثقافي وان قائمة كتب القفطي دليل واضح على ذلك ، مع أن بعض مؤلفاته الـ (٢٦) تعالج احداثاً سياسية ، الا أن الطابع الغالب على هذه المؤلفات هو الطابع الحضاري وخصوصاً الكتابة عن العلم والعلماء .

وتأسيساً على ماورد نستطيع القول ان القفطي مؤرخ علم وحضارة وثقافة قد أدرك الدور الذي يقوم به العلماء في الحياة الاجتماعية،وأثرهم في الحياة السياسية .ويبدو أن هذا الاهتمام بدور العلماء عند القفطي جاء من أنه عمل موظفاً في مناصب عدة في المؤسسة السياسية .

لقد تيقن من الدور الكبير الذي لعبه العلماء في تنمية عقائد قومهم حول الكون ومكوناته والانسان وطبيعته ، وللاستشهاد على هذا الدور نجده في مستهل تاريخه يناقش مسألة تصدرت كتب تاريخ الفكر ، وهي مسألة منشأ الحكمة (الفلسفة) ، ومن هو أول من تكلم بها من البشر .

والحقيقة ان للقفطي رأياً مهماً في تفسير حركة الفكر والمعرفة ، فهي وان كان منشؤها الشرق ، فقد كانت لها رحلة اي دورة انتقلت فيها من حضارة إلى اخرى ، فهو يرى ان منشأ الحكمة في الأصل شرقي ثم اخذتها دورتها

(٢١) القفطي : أنباه ، مقدمة المحقق ، ٢٣/١ .

إلى اليونان وعادت في دورتها إلى الشرق إلى الحضارة العربية الاسلامية .
يقول القفطي عن هذه المسألة: «اختلف علماء الأمم في اول من تكلم في الحكمة واركانها من الرياضة والمنطق والطبيعي والالهي وكل فرقة ذكرت الأول عندها وليس ذلك هو الأول على الحقيقة ولما انعم الناظرون النظر رأوا ان ذلك كان نبوة انزلت على ادريس وكل الأوائل المذكورة عند العالم نوعاً هم من قول تلاميذه او تلاميذ تلاميذه الأقرب فالأقرب ،وقد عزمت بتأييد الله على ذكر من اشتهر ذكره من الحكماء من كل قبيل وأمّة قديمها وحديثها إلى زماني وما حفظ عنه من قول انفرد به او كتاب صنّفه او حكمة عليه ابتدعها ونُسبت اليه» (٢٢) .

يعتقد القفطي ان ادريس (عليه السلام) كان المعلم الأول للانسانية . فادريس الحكيم كان رجل رياضيات ومنطق وطبيعيات والهيات . وكان خبيراً في ادارة المدن «وجمع له طالبي العلم بكل مدينة فعرّفهم السياسة المدنيّة وقرر لهم قواعدها فبنت كل فرقة من الأمم مُدُناً في ارضها فكانت عدة المدن التي أُنشئت في زمانه مائة مدينة وثماني وثمانين اصغرها الرها وعلّمهم العلوم وهو اول من استخرج الحكمة وعلم النجوم ...» (٢٣) .

لقد كان كتاب تاريخ الحكماء تصنيفاً حضارياً يسجل الدور الكبير الذي لعبه العلماء ، ولعل هذا الدور يتبين من خلال العدد الكبير من العلماء الذين ذكرهم .

ونرى من المهم هنا ان نذكر بصورة احصائية اعداد العلماء الذين ضمهم

---

(٢٢) القفطي : تاريخ الحكماء من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٠٣ ، ص٢ .
(٢٣) القفطي : المرجع السابق ، ص٣ .

هذا المصنف ، والعلوم التي مارسوها او اسهموا في نشرها .وان ذكر هذه الاحصائية دليل واضح على اهمية الكتابة في تاريخ العلم والعلماء .

ويلحظ قارىء كتاب «تاريخ الحكماء» انه قدّم سجلا بأسماء العلماء من الحضارات الأخرى . وهذا النهج في التأليف التاريخي دليل على ان العقل العربي لم يكن يوماً من الأيام عقلا منغلقاً ، بل على العكس كان عقلا متفتحاً متنامياً متجدداً، كما انه شاهد آخر على ان دائرة الحوار العلمي والحضاري ظلت مفتوحة بين العقل العربي المسلم والعقل الأجنبي .

ذكر القفطي (٢٨٣) علماً وحكيماً عربياً مسلماً . ان هذا العدد يدلل بشكل واضح على دور العلماء في حياة الأمة العربية الاسلامية .ومقدار فعلهم في بناء الحضارة العربية الاسلامية (٢٤) .

ان هذا العدد الكبير من العلماء لم يكن رقماً مجرداً بل جهد علمي محسوب في التغيير الحضاري العلمي . فقد كانت تخصصاتهم تشمل كل مجالات المعرفة العلمية والانسانية المهمة والخطيرة في حياة الأمم والشعوب .

من هنا نستطيع القول ان القفطي كان على حق عندما خصص واحداً من اهم مؤلفاته واشهرها في بيان دور العلم والعلماء في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بل في الحياة الحضارية للأمة العربية الاسلامية .

ثالثاً : مصادر تأليف الكتاب :

ما المصادر التي استقى منها القفطي مادته المعرفية في تأليف كتابه «تاريخ الحكماء» ان الاجابة عن هذا السؤال تقتضي منّا ان نقوم بدراسة داخلية لكتاب تاريخ الحكماء ، نستقري النصوص ونصنف العلماء ، ونعرف

(٢٤) انظر : القفطي : المرجع السابق ، الصفحات من ١–٣٣٣ .

بحسابات بسيطة عدد العلماء الذين ينتمون إلى حضارات انسانية وأقام العرب المسلمون معهم حواراً حضارياً كانت غايته الوقوف على ما انتهوا اليه من نتائج في حقول المعرفة العلمية المختلفة . ومن ثم احصاء عدد العلماء العرب المسلمين . ان الغرض من ذلك كله هو الاهتداء إلى المصادر التي اطلع عليها القفطي وزودته بمادته المعرفية بالعلماء .

من المفيد الاشارة إلى العلوم التي تلقاها في سني حياته المختلفة وهو طالب علم . فقد كانت هذه العلوم مصادر معرفية للقفطي في تأليف كتبه . فمن المعروف انه درس علوم القرآن والحديث والأدب ، ولذلك من الطبيعي ان يتناول في كتابه اسماء العلماء المبرزين فيها (٢٥) .

ويمكننا القول أيضاً ان كتاب القفطي كان معجماً تعريفياً متخصصاً في تاريخ العلم والعلماء.وكذلك نلحظ في هذا الكتاب وصفاً لشخصية كل عالم من العلماء الذين تناولهم الكتاب وتحديد تخصصاتهم ومجالات عملهم ونتاجهم. وكان الكتاب سجلاً للعلماء الذين لعبوا دوراً في حياة أممهم وشعوبهم (٢٦).

ولما كانت قائمة العلماء الذين ورد ذكرهم في كتاب القفطي تشمل تخصصات مختلفة ينتمي اصحابها إلى أمم وشعوب مختلفة، فلذلك يمكن القول انه استمد معلوماته من المصادر التي اعتنت بحياة هؤلاء العلماء سواء بشكل مباشر او بشكل غير مباشر عن طريق النقول والترجمات العربية لها اما العلماء العرب فان سجلات التاريخ العامة والعلمية منها على الخصوص تعرضت بصورة تفصيلية لسيرهم واعمالهم ونتاجاتهم .

ولعل الشاهد على كلامنا جرد الأسماء التي اوردها القفطي ، فهي اكثر من (٧٠٠) عالم اجنبي وعربي مسلم . واذا طرحنا من القائمة (٢٨٣) عالماً

(٢٥) انظر : القفطي : المرجع السابق ، الصفحات ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٣ .
(٢٦) انظر : القفطي : المرجع السابق ، الصفحات ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٧..

عربياً مسلماً ، ظهر لنا ان تاريخ القفطي سجل محاضر علمية ونتاجات العلماء الأجانب الذين شكلوا مصدراً للعلوم العربية بحدود (٤١٧) عالماً من حضارات اخرى .

وهذا دليل آخر على ان الحوار الحضاري العلمي العربي المسلم مع تراث الأمم والشعوب الأخرى يدلل على النظرة الانسانية للأمة العربية في تعاملها مع تراث الأمم والشعوب الأخرى .

رابعاً : منهج تأليف الكتاب ودلالته الحضارية :

اعتمد القفطي في تأليف كتابه على منهج فهرسة اسماء العلماء الذين تناولهم في كتابه « تأريخ الحكماء » . فالكتاب كما هو معروف كتاب معجمي مفهرس حسب حروف المعجم ، فهو يستهله بقائمة اسماء العلماء الذين يبدأ اسمهم بحرف الألف او كما سماه بحرف « الهمزة » (٢٧) . وينتهي بقائمة اسماء العلماء الذين يبدأ اسمهم بحرف الياء (٢٨)

الا ان القفطي اضاف إلى منهجه هذا في تأليف الكتاب منهجاً آخر في الصفحات الأخيرة منه . فمن الملاحظ عليه انه خرج على منهجه في فهرست العلماء حسب طريقته السابقة ، فقد قام بوضع فهرسة جديدة يعتمد كناهم (٢٩).

ان هذا المنهج في التأليف هو المنهج العام ، الأول حسب حروف المعجم وهو الأشمل ، ومنهج الكنى هو الأقل والأكثر محدودية ، الا انهما الميزتان الرئيستان لتأليف القفطي لكتابه «تاريخ الحكماء» .

---

(٢٧) انظر : القفطي : من ص١ — ٨٨ .
(٢٨) انظر : القفطي ، من ص٣٥٤–٣٩٥ .
(٢٩) انظر : القفطي ، من ص ٣٩٦–٤٤٤.

ان القراءة التفصيلية لهذا الكتاب تحملنا على وضع جداول للعلوم والعلماء الذين تناولهم القفطي في كتابه ، سعياً إلى تحديد منهجه بصورة اشمل في تأليف كتابه «تاريخ الحكماء» .

ومحاولتنا في تحديد منهج القفطي ستعتمد طريقة جدولة المادة العلمية لكتاب «تاريخ الحكماء» ، وسنبدأ بقائمة علماء حرف الألف .

جدول علماء حرف الألف كما وردت في كتاب تاريخ الحكماء (٣٠)

	الفلسفة	الفلك	الرياضيات	الطبيعيات	الطب	الشعر والنثر	الفراسة
العلماء العرب المسلمون	٧	٧	٣	١	٤	٢	/
العلماء اليونان	١٨	٢	١٠	٢	٤	٢	١

هذا الجدول لقائمة اسماء العلماء الذين وردوا في قائمة (آ) من كتاب القفطي يدلل على ان هناك اثراً ضاغطاً على القفطي وهو في لحظة تأليفه هذا الكتاب ، وهذا الضغط جاء من قائمة الأسماء المعروفة والتي كان لها تأثير في دائرة الفكر والمعرفة العلمية العربية الاسلامية .

لقد اعتمد القفطي في تأليف كتابه «تاريخ الحكماء» وبحدود اسماء العلماء في قائمة حرف الألف ، على مجموعة من العلماء اليونان والعرب المسلمين ، وكان مجموع علماء قائمة حرف الألف لوحدها هي (٦٣) عالماً توزعوا كما

(٣٠) انظر : القفطي ، من ص ١-٨٨ .

يبين الجدول بالشكل الآتي :

العلماء العرب المسلمون = ٢٤

العلمـاء اليونـان = ٣٩

واذا كان هذا هو العدد الاجمالي للعلماء اليونان والعرب المسلمين ، فـان من الملاحظ ان هناك ترجيحاً لقائمة العلماء اليونان عند القفطي . وفي العلـوم الآتية ، في الفلسفة فقد بلغ عددهم (١٨) مقابل (٧) من العرب المسلمين ؛ وفي الرياضيات بلغ عددهم (١٠) مقابل (٣) من العرب المسلمين . وكانت القائمة مرجحة في هذا الجدول للعلماء العرب المسلمين في الفلكيات وتكافـؤاً في علم الطب والشعر .

اما قائمة حرف الباء فهي تساعدنا في وضع الجدول الآتي :

جدول علماء حرف الباء كما وردت في كتاب تاريخ الحكماء (٣١)

	الفلسفة	الفلك	الرياضيات	الطبيعيات	الطب	السير	اخراج المياه
العـرب المسلمون					٤		
اليونان	٢	١	٢	٣	٢	١	
الهنـود							١

ان المعلومات التي يقدمها هذا الجدول تشير إلى مجموعة حقائق كان لها الأثر في كتابة قائمة العلماء في هذا الجزء من كتاب القفطي وهي :

(٣١) انظر : القفطي ، ص٨٩–١٠٤ .

اولا : ان مجموع اجمالي العلماء العرب وغير العرب بلغ (١٦) عالماً.
ثانياً : مجموع العلماء العرب بلغ (٤) علماء .
ثالثاً : مجموع العلماء اليونان بلغ (١١) عالماً .
رابعاً : ظهور اثر لعلماء من امم اخرى كان لهم اثـر في تشـكيل مصادر ثقافة العلماء العرب المسلمون ، والمقصود علماء الحضارة الهندية . فقد اشر الجدول ذكراً ودلالة لعالم هندي واحد في مبحث مهم سيكون له الأثر والدلالة في مباحث العرب المسلمين اللاحقة .

خامساً : ان المجموع الاجمالي للعلماء كان لصالح العلماء اليونان . الا انه من الملاحظ في الوقت نفسه ان هناك ترجيحاً له دلالةً للعلماء العرب في علم الطب وهي مسألة حضارية وعلمية بالغة الأهمية والدلالة .

سادساً : قدّم الجدول اشارة مهمة تدل على ان اليونان كان لهم اهتمام بالسير التأريخية ، فقد ذكروا واحداً من المهتمين بالسير التاريخية ومباحثها .
وتساعدنا قائمة حرف «التاء» في وضع الجدول الآتي :

جدول علماء حرف التاء كما وردت في كتاب تاريخ الحكماء (٣٢)

	الفلك	الرياضيات	الطب
العـرب المسلمون	١	١	٢

ان معلومات هذا الجدول تدل على حقيقة لصالح العلماء العرب المسلمين ، فقد بلغ عددهم (٤) . وكانت لصالح علماء الطب العرب المسلمين .
وتقدم لنا قائمة حرف الثاء معلومات تساعدنا في وضع الجدول الآتي :

(٣٢) انظر : القفطي ، من ص١٠٤-١٠٦ .

جدول علماء حرف الثاء كما وردت في كتاب تاريخ الحكماء (٣٣)

	الفلسفة	الرياضيات	الفلك	الطب	الخطابة	الشعر
العـــرب		١	٢	٢		
اليـــونان	٣	٢		١	١	١

ان معلومات هذا الجدول تشير إلى جملة حقائق منها ان مجموع اجمالي العلماء بلغ (١٣) عالماً . كانت حصة العرب (٥) وبلغ عدد علماء اليونان (٨) . الا ان العرب حققوا ترجيحاً في علوم الفلك والطب ، في حين انفرد اليونان بعلوم الفلسفة والخطابة والشعر .

وتقدم لنا قائمة حرف الجيم معلومات تحملنا على وضعها في الجدول الآتي :

جدول علماء حرف الجيم كما وردت في كتاب تاريخ الحكماء (٣٤)

	الفلسفة	الرياضيات	الطبيعيات	الفلك	الطب
العـــرب	٢		١	٢	٤
اليـــونان					١

يقدم لنا هذا الجدول المعلومات الآتية : ان المجموع الاجمالي لعلماء هذه القائمة بلغ (١٠) العرب منهم (٩) واليونان (١) . وبذلك كان الترجيح العالي للعلماء العرب ولصالح علم الطب كذلك .

(٣٣) انظر : القفطي ، من ص١٠٦–١٢٢ .
(٣٤) انظر : القفطي ، من ص١٢٢–١٦١ .

جدول علماء حرف الياء كما وردت في كتاب تاريخ الحكماء (٣٥)

	الفلسفة	الرياضيات	الفلك	الطب	الترجمة
العـــرب	٣	٢	٥	١٠	٢
اليـــونان				٢	

ان معلومات هذا الجدول تشير إلى ان مجموع الاجمالي لعلماء هذه القائمة بلغ عددهم (٢٤) عالماً العرب منهم (٢٢) عالماً ، وكان الترجيح لصالح علم الطب .

وتساعدنا المعلومات التي قدمها القفطي في الجزء الخاص بقائمة الكنى الى وضع الجدول الآتي :

جدول علماء قائمة الكنى كما وردت في كتاب تاريخ الحكماء (٣٦)

	الفلسفة	الرياضيات	الفلك	الطب	الترجمة
العرب	٥	٥	٩	٢٥	١

ان هذا الجدول يشير الى نهج جديد مختلف عن منهج القفطي الذي اتبعه في أغلب صفحات كتابه «تاريخ الحكماء» فقد خصص في هذا الجزء من كتابه حديثاً خاصاً بالعلماء العرب المسلمين ، ويبدو أنها تشكل مرحلة الابداع الحضاري والانتاج العلمي الأصيل بعيداً عن دائرة التأثر والنقل والمتابعة .

لقد بلغ علماء قائمة الكنى العرب (٤٥) عالماً والترجيح كان لعلم الطب ، ومن ثم الفلك والرياضيات والفلسفة .

(٣٥) انظر : القفطي ، من ص٣٥٤–٣٩٥ .
(٣٦) انظر : القفطي ، من ص٣٩٦–٤٣٦ .

ويقدم القفطي في الجزء الأخير من كتابه قائمة أخرى بالعلماء اسماها «الابناء في اسماء الحكماء» والمعلومات التي عرضها في هذه القائمة تحملنا على وضعها في الجدول الآتي :

جدول علماء قائمة الأبناء كما وردت في كتابه تاريخ الحكماء»[٣٧]

	الفلك	الطب
العرب	٨	٨

ان هذا الجدول يكشف عن تطبيق آخر للمنهج السابق الذي اتبعه القفطي عندما وضع قائمة بأسماء العلماء العرب معتمداً كناهم .

وقد بلغ علماء هذه القائمة (١٦) عالماً . والترجيح كان متكافئاً لصالح علمي الفلك والطب ، ان هذه القائمة تحملنا على التأكيد على أن القفطي سجل بكل دقة ماقدمه العلماء العرب المسلمون بعيداً عن دائرة التأثر بغيرهم .

ان كتاب القفطي شهادة كبيرة وتأكيد بعيد على عمق ابعاد الحضارة العربية الاسلامية ، ولعل ماقدمه في بعض جوانب هذه الحضارة وخاصة المتمثلة بالعلم وسير العلماء دلالة واضحة على مارأيناه .

* * *

(٣٧) انظر : القفطي ، من ص٤٣٦–٤٤٤

ثبت المصادر

١ ـ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، بيروت (بلا تاريخ) ، المطبعة الكاثوليكية .

٢ ـ ابن العماد الحنبلي ، ابي الفلاح عبدالحي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري ، بيروت .

٣ ـ الأدفوي ، جعفر بن ثعلب بن جعفر : الطالع السعيد ، المطبعة الجمالية بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩١٤م .

٤ ـ الحموي ، ياقوت :

أ ـ معجم الادباء ، دار المستشرق ، بيروت ـ لبنان ، ٢٠ جزء .

ب ـ معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان .

٥ ـ دائرة المعارف الاسلامية : نقلها الى العربية : احمد الشنتناوي وآخرون سنة ١٩٣٣ .

٦ ـ الدجيلي ، عبدالصاحب عمران : اعلام العرب في العلوم والفنون ، الطبعة الثانية .

٧ ـ روزنثال ، فرانز : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة : الدكتور صالح احمد العلي ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٣ .

٨ ـ الزركلي ، خيرالدين : الأعلام : قاموس تراجم ، دار العلم للملايين ، بيروت ـ لبنان .

٩ ـ القفطي ، جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف ابن القفطي : (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) :

أ ـ تاريخ الحكماء من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٠٣م .

ب- انباه الرواة على انباه النحاة ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠م.

جـ- المحمدون من الشعراء : اعتنى بتصحيحه وعلّق عليه : محمد عبدالستار خان ايم ، طبع باذن الجامعة العثمانية . الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م .

١٠ - الكتبي ، محمد بن شاكر : فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق د.احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٤ .

١١ - الحلبي ، محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م طبع في المطبعة العلمية في مدينة حلب .

١٢ - السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤هـ - ١٩٢٥م .

١٣ - نلينو ، السنيور كرلو :علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى مطبعة روما ، ١٩١١م .

١٤ - نوادر المخطوطات : المجموعة الرابعة ، رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، الطبعة الثانية ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

حركة المنافقين في مدينة يثرب
وموقف الرسول (ص) منها

رياض هاشم هادي
مدرس مساعد / مركز الدراسات التركية
جامعة الموصل

ماكادت الدولة التي انشأها الرسول (ص) في مدينة يثرب تقوم ، حتى بدا بينها وبين خصومها - الذين وجدوا في قيامها خطراً على وجودهم صراع عنيف استعمل فيه اللسان كما استخدم فيه السيف ، وقامت فيه الدبلوماسية بدورها الى جانب القوة العسكرية وظهرت فيه من جديد قوة الاحلاف القديمة بترابطها ومصالحها المشتركة ، كما ظهرت آثار الخصومة القديمة فيه بارزة واضحة ولعب تشابك المصالح او تعارضها دوراً هاماً في توجيه ذلك الصراع وتقرير مصيره .

ولقد ظهر لدولة المدينة خصوم في داخلها وفي خارجها ، ولم يمض وقت كبير حتى اتفقت مصالح الخصوم في الداخل والخارج وتضافرت جهودهم على سحق قوة المدينة والقضاء عليها وخنق الدين الذي قامت الدولة على اساسه وجرت محاولات عديدة للقضاء على الرسول (ص) محاولين بذلك اعادة الاوضاع الى ماكانت عليه في السابق .

ولم يكن خطر الداخليين بأقل شأناً من خطر الخصوم الخارجيين ، بل انه كان احياناً اشد خطراً ، لانه سوف يؤدي الى تفكك جبهتها الداخلية

ويجعلها عرضة للسقوط امام اي هجوم خارجي . وقد تمثل هذا الخطر في طائفتين من سكان يثرب اليهود والمنافقين من الاوس والخزرج .

وعليه سنحاول في هذا البحث التعرف على طبيعة هذه الحركة وموقف الرسول (ص) منها ولماذا لم يتخذ اي موقف حاسم منها .

مفهوم النفاق : المنافق هو الذي يستر كفره ويظهر ايمانه (١) وهم الذين كانو يظهرون غير مايسرون حتى اطلع الله نبيه عليه السلام على اخبارهم واسرارهم (٢) ويعرّف ابن منظور النفاق بمايلي : ان النفاق اسم مشتق من الذي يصنعه اليربوع لنفقه تحت الارض كي يهرب عن طريقه وقت الحاجة(٣).

ويرى آخرون بان كلمة منافق مصطلح مشتق من – نفقه – **ذلك ان المسلمين واليهود** كانوا قد تعاهدوا بعد هجرة الرسول (ص) الى المدينة بموجب بنود – الصحيفة – ان يؤدوا له نفقه تعينه على القيام بواجباته والدفاع عن المدينة ضد اعدائها الا ان طائفة من اهل المدينة كانت لاتدفع هذه النفقة الا عن كره وبتأثير اغلبية افراد الامة عليهم لذا سموا – منافقين – بسبب مماطلتهم في اداء ماعليهم من نفقه (٤) .

ان هذا المصطلح لو كان مشتقاً من كلمة – نفقه – لكان من الواجب تسمية من يدفعون النفقه بحماس وعن طيب خاطر – منفقين – واما الذين يتقاعسون عن دفعها فلا يوجد اي وجه من وجوه اللغة يجيز لنا تسميتهم بهذا

---

(١) الزبيدي : محمد مرتضى : تاج العروس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، جـ٧ ص٧٩.

(٢) القيرواني : زهرة الآداب وثمر الالباب ، ط٤ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٢م جـ٢ ص٣٩٩ .

(٣) ابن منظور : محمد بن مكرم : لسان العرب، د/ط ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م ، جـ١ ، ص٣٥٩ .

(4) Serjeaut; R.B: The cantitution of Madina Islamic J. Quarterty Vol, 8, P. 14.

الاسم — منافقين — لذا فليس بالامكان قبول مثل هذه الفرضية (١) . وهناك من يقول بان النفاق قسمان خاص وعام : —

فالخاص هو النفاق الذي يحاول صاحبه لقاء كل احد بما يرضيه عنه ويجيبه اليه وهو يظهر بذلك عكس مايبطن ويسمى — بالمنافق —

والعام : هو مايكون في الدين والدولة وهو خيانة للامة والملة (٢) .

ان المعنى الاسلامي لكلمة منافق هو تطور لمعناها العربي حيث ان كلمة منافق مشتقة من نافقاء اليربوع ولان المنافق كاليربوع يظهر خلاف مايبطن)(٣).

ولما كانت هذه الحركة اول ماظهرت في مدينة يثرب فلابد لنا من اعطاء فكرة عنها.وعن دورها السلبي في حركة الدعوة الاسلامية ابتداء من دخول الاسلام يثرب وحتى غزوة تبوك . وقد اقترنت هذه الحركة المناهضة للرسول(ص) والاسلام باسم احد زعماء الخزرج عبدالله بن ابي بن سلول .

ويبدو ان عبدالله بن ابي احد زعماء الخزرج كان من اشد المعارضين للاسلام منذ البداية فان اتباعه عندما بايعوا الرسول (ص) البيعة الثانية اخفوا عنه ذلك ولما علمت قريش بما حدث في العقبة جاؤا الى منازل الاوس والخزرج جميعاً وقالوا لهم((انه بلغنا انكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين اظهرنا وتبايعونه على حربنا ... فانبثق من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ماكان هذا شر وما علمناه)) (٤).ثم انهم اتوا عبدالله بن ابي إبن سلول...وقال لهم ان هذا الامر جسيم ماكان قومي ليتفوتوا علي بمثل

(١) للمزيد انظر الملاح هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول (مجلة الدراسات الاسلامية . العدد الخامس ، بغداد ، ١٣٩٣هـ—١٩٧٣م) ص٤٦٩ .
(٢) خلف الله محمد: محمد والقوة المضادة ،د/ط ،مكتبة انجلو المصرية ،القاهرة ١٩٧٣م ،١٢٥٧
(٣) المغربي : عبدالقادر : الاشتقاق والتعريب ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص٣٥ .
(٤) ابن هشام : ابو محمد عبدالله الحميري : سيرة النبي : تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد دار الفكر ، بيروت د/ط ، جـ٢ ، ص٥٧ .

هذا . وما علمته كان)) [١]ويبدو ان المبايعين كانوا يرغبون في حضور ابن ابي تلك البيعة بصفته احد الزعماء البارزين في المدينة ويكون الامر بذلك للرسول والمبايعين اقوى .

وبعد هجرة الرسول (ص) الى مدينة يثرب وإعلان ميثاقه المعروف بالصحيفة لتنظيم العلاقات بين السكان. قبل مشركوا الاوس والخزرج هذا التحالف مع الرسول (ص) لانهم وجدوا أغلب قومهم قد قبلوا الاسلام ورحبوا بزعامة الرسول (ص) لهم . لذا فلم يكن من المناسب الخروج على ارادة قومهم ومعارضتها على الاطلاق .

الا ان هذا لايعني ابداً انه لم يكن هناك من تضررت مصالحه بقدوم الرسول (ص)الى المدينة فهناك بعض زعماء الاوس والخزرج من الذين كانوا يتطلعون الى توحيد المدينة تحت زعامتهم فلا عجب ان يندفع هؤلاء الى مخاصمة الرسول (ص) والكيد لدعوته ظاهراً او باطناً وحسب مقتضيات الظروف وكان اول من عارض دعوة الرسول (ص) في مدينة يثرب ، وقبل ان يهاجر الرسول (ص) اليها : أبا قيس بن الاسلت ، وكان شاعراً وسيداً في قومه ، فوقف بهم عن الاسلام فلم يزل على ذلك حتى غزوة الاحزاب وفشل المشركون واليهود في دخول المدينة حيث اعلنوا بعدها اسلامهم [٢].

وكان ابو عامر الراهب من الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً في معارضة الرسول (ص) وهو من ابرز زعماء الاوس ، وكان شريفاً مطاعاً في قومه . وكان قد ترهب في الجاهلية وليس المسموح [٣] . وقيل انا ان عامر اتى

(١) ابن هشام : نفس المكان .
(٢) ابن هشام : ج٢ ، ص٤٦ .
(٣) البلاذري : احمد بن يحيى : انساب الاشراف : تحقيق : محمد حميدالله ، د/ط دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٩ . ج١ ، ص٢٨١ .

رسول الله (ص) حين قدم المدينة ....قال ماهذا الدين الذي جئت به ؟ فقال جئت بالحنيفية ، دين ابراهيم قال : فانا عليها . فقال له رسول الله (ص) انك لست عليها . قال بلى ... قال انك ادخلت يامحمد في الحنيفية ماليس منها [1] . وقد نادى ابو عامر الرسول (ص) عداء علنياً ، ولما وجد ان قوة الرسول (ص) في المدينة تتنامى تنامياً مستمراً وان اتباعه من الاوس والخزرج يزدادون قوة وكثرة ، ادرك ان لاقبل له بمعارضة الرسول (ص) على ارض مدينة يثرب . لذا قرر الهجرة الى مكة وتبعه قرابة خمسين من اتباعه . وقد ذكر الواقدي ان ابا عامر «قد خرج في خمسين رجلاً من ((اوس الله)) حتى قدم النبي (ص) المدينة. فاقام مع قريش وكان دعا قومه فقال لهم :ان محمداً ظاهر فاخرجوا بنا الى قوم نؤازرهم ، فخرج الى قريش يحرضها ويعلمها انها على الحق وما جاء به محمد باطل » [2] . وبسببها نعته رسول الله (ص) بابي عامر الفاسق . وشارك ابو عامر واتباعه في معركة احد بجانب مشركي قريش وكان يقول لقريش «اني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم اثنان» [3] . الا ان رد الانصار وخاصة قومه له قبل المعركة لم يكن يتوقعه. فقال لهم ((يامعشر الاوس : انا ابو عامر قالوا : فلا انعم الله بك عيناً يافاسق فلما سمع ردهم عليه قال : لقد اصاب قومي من بعدي شر ثم قاتلهم قتالاً شديداً ، ثم راضخهم بالحجارة [4] [5] .

---

(١) ابن هشام : ج٢ ، ص٢١٧ .

(٢) الواقدي : ابو عبدالله : محمد بن عمر بن واقد : المغازي : تحقيق : د. مارسدن جونس — د/ط عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ج١، ص٢٠٥–٢٠٧ .

(٣) ابن هشام : ج٣ ، ص١٢ . —
ان خروج ابي عامر الراهب من مدينة يثرب مع خمسين من اتباعه يمكن ان يعتبر هجرة معاكسة ولا سيما بعد ان وجد مشركو يثرب انه لا قبل لهم على مقاومة الدعوة الجديدة .

(٤) ابن هشام : نفس المكان .

(٥) للمزيد حول الموضوع (انظر) الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول .

ويبدو ان ابا عامر قد اصابه نوع من القنوط بعد ان ادرك حقيقة قومه منه كما ان قريشاً اهملته بعد ان ادركت ماانتهى اليه مركزه في قومه .الا انه لم ييأس وذهب الى خيبر واقام بها فترة من الوقت ، وتعاون مع يهود بني النضير بعد ان اجلاهم الرسول (ص)عن المدينة وكان من المحرضين على غزوة الاحزاب (١) .

ويبدو ان قسماً من اتباع ابي عامر قد استقروا اخيراً في المدينة وبنوا لانفسهم مسجداً عرف بمسجد ((ضرار)) من اجل ان يكونوا فيه ويجتمعون به بعيداً عن عيون المسلمين الا ممن هو على مثل رأيهم (٢) . وان بناء هذا المسجد انما جاء بناء على طلب ورغبة ابي عامر الراهب وقد ذكر الواقدي انا ابا عامر قد ارسل الى اتباعه يقول لهم ((لااقدر ان ادخل مربدكم هذا))(٣) يعني بذاك مسجد قباء المخصص لعموم المسلمين . وكان على مايبدو يخشى ان يراه المسلمون وينالوا منه مايكره ، فكان يقول لاتباعه ، نحن نبني مسجداً نتحدث فيه آمنين (٤) .

يفهم مما سبق عرضه ان ابا عامر قد استطاع ان يكسب له اعواناً في المدينة وهم من المنافقين الذين دخلوا في الاسلام ظاهرياً . ويفهم منه ايضاً ان ابا عامر قد ابدى استعداداً لان يحضر معهم في مسجدهم الذي لاينالـه فيه اذى من اصحاب محمد (ص) الا ان ابن هشام قد ذكر ان ابا عامر قد توجه الى الشام بعد فتح مكة ودخول الطائف الاسلام (٥) واخذ من هناك يراسل اتباعه المقيمين في المدينة وينسق معهم من اجل تحقيق اهدافهم . لذا

(١) الواقدي : جـ٢ ، ص٤٤١ .
(٢) الواقدي : جـ٣ ، ص١٠٤٩
(٣) الواقدي : نفس المكان .
(٤) الواقدي : نفس المكان .
(٥) ابن هشام : جـ٢ ، ص٢١٧ .

فمن الراجح ان يكون الحوار الذي اورده الواقدي، قد تم عن طريق المراسلة بين ابي عامر المقيم بلاد الشام واتباعه الموجودين في المدينة . وربما كان هذا جزءاً من مخطط كبير يهدف الى الاستعانة بالروم عسكرياً لاحتلال المدينة والقضاء على هذه القوة الجديدة في الحجاز ، وقد ذكر ابن القيم الجوزية ان ابا عامر الراهب قد ارسل الى اتباعه يقول لهم «ابنوا مسجدكم واستمدوا مااستطعتم من قوة ومن سلاح فاني ذاهب الى قيصر الروم فاتي بجند من الروم فاخرج محمداً واصحابه [1] مما دفع الرسول (ص) الى تجهيز حملة تبوك وفي موسم الصيف الشديد الحرارة وغير الملائم الحملات العسكرية في الجزيرة العربية للحيلولة دون قيام الروم او غيرهم من التحرك عسكرياً ضد المدينة، ولاشعار هذه القوى جميعاً مدى قوة المسلمين واستعدادهم للقتال في كل الظروف .

مما سبق عرضه يمكن القول ان حركة ابي عامر الراهب كانت اول حركة معارضة واجهت الدعوة الجديدة علناً، ولكنها بعد فترة من الزمن وعندما عجزت عن تحقيق اهدافها بصورة مباشرة اخذت تتستر بالاسلام وتتعاون مع منافقي المدينة من اجل تحقيق طموحاتها في القضاء على الاسلام وهذا مما حدا بنا الى اعتبار ابي عامر الراهب واتباعه ضمن حركة المنافقين لان اهدافهم كانت واحدة .

والشخصية البارزة التي اقترن اسمها بحركة النفاق في المدينة ووقفت ضد الاسلام ونبيه حتى النهاية هي شخصية عبدالله بن ابي بن سلول، كان عبدالله إبن ابي يتطلع للملك قبل ان يقدم الرسول (ص) المدينة ويقول عنه ابن هشام

(١) ابن القيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد : بعناية الشيخ حسن محمد المسعودي، ط٣ ، المطبعة المصرية ، ١٩٧٣ ، ج٣ ، ص١٠ .

«فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم فجاءهم الله تعالى برسول الله (ص) وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه الى الاسلام ضغن ورأى ان رسول الله (ص) قد استلبه ملكاً» [1] فكان بذلك من اشد الناقمين على الاسلام ورسوله . فلا غرابة ان يقف ضد الرسول (ص) بعد هجرته الى المدينة ويبقى على شركه مع عدد من اتباعه ويكيل للاسلام ورسوله ما استطاع .

ولقد حاول الرسول (ص) ان يؤلف قلبه الى الاسلام عن طريق الزيارة ولكن ابن ابي قابل هذه المحاولات بتجاهل فظ . ويروى لنا ابن هشام ان الرسول (ص) قد زار يوماً ابن ابي في مجلسه «فنزل فسلم ثم جلس قليلاً : فتلا القرآن ، ودعا الى الله عز وجل وذكر بالله وحذر وبشر وانذر قال : وهو زام لايتكلم ، حتى اذا فرغ رسول الله (ص) من مقالته قال : ياهذا انه لااحسن من حديثك هذا : ان كان حقاً فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه اياه ومن لم يأتك فلا تغته به ولا تأته في مجلسه بما يكره منه» [2] .

ولما يئس ابن سلول من القيام بأي عمل مباشر وعلني لمجابهة الرسول (ص) داخل المدينة اخذ هو وبقية معارضي الرسول (ص) من الاوس والخزرج وبعض اليهود يتجاوبون عاطفياً مع مشركي مكة ، ويتمنون لهم الظفر على المسلمين في اي اشتباك يقع . فما كادت معركة بدر تقع في السنة الثانية للهجرة بين المسلمين ومشركي مكة حتى اندفعوا يبثون الاشاعات في المدينة عن هزيمة الرسول (ص)والمسلمين في هذه المعركة [3].«فلما بعث رسول الله» (ص) عند الفتح عبدالله بن رواحة بشيراً الى اهل العالية بما فتح الله عز وجل

(١) ابن هشام : ج٢ ، ص٢١٦ .
(٢) ابن هشام : ج٢ ، ص٢١٨-٢١٩.
(٣) سالم : ابراهيم علي : النفاق والمنافقون ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص١٠٠ وما بعدها .
انظر كذلك الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول : ص٤٨٣ وما بعدها

على رسول الله (ص) وعلى المسلمين وبعث زيد بن حارثة الى أهل السافلة[1] انطلق هؤلاء المنافقون يشككون باقوال زيد بن حارثة ويقولون للمسلمين «تفرق اصحابكم تفرقاً لايجتمعون منه ابداً ، وقد قتل علية اصحابه وقتل محمد هذه ناقته نعرفها وهذا لايدري مايقول من الرعب» [2] .

الا ان قدوم الرسول (ص) ومعه المسلمون والاسرى مقرنين بالاغلال وعددهم سبعون أسيراً من علية قريش وزعمائها بددت اوهام المنافقين التي خلقتها الاماني والاحقاد على الاسلام ورسوله وقد ذكر الواقدي «فذلت رقاب المشركين والمنافقين واليهود ولم يبق بالمدينة يهودي ولا منافق الا خضع عنقه لواقعة بدر» [3] . عندها سارع اغلب مشركي الاوس والخزرج الى الدخول في الاسلام بعد ان ادركوا مدى قوة المسلمين وايقنوا ان المستقبل سيكون الى جانبهم . واما موقف ابن سلول فلقد وجد نفسه امام خيار صعب اما ان يبقى على شركه فيعزل نفسه عن قومه وتتحطم زعامته بينهم والتي كان يعقد عليها امالاً كبيرة ، او ان يدخل فيما دخل فيه اتباعه في الاسلام ولو ظاهرياً على الاقل [4] .

ولقد اختار اخيراً ان يدخل الاسلام منافقاً فيه فهو لم يسلم ولم يؤمن بالاسلام ابداً حتى وفاته . ولاشك ان عدداً كبيراً من مشركي الاوس والخزرج قد دخلوا في الاسلام لدوافع مشابهة الى حد كبير لدوافع ابن ابي سلول الذي اصبح لهم زعيماً فيما بعد ، ويقول ابن هشام عنه «فلما رأى قومه قد ابوا الا الاسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن (٥) . واسلام ابن

(١) ابن هشام : ج٢ ، ص٢٨٤-٢٨٥ ، الواقدي : ج١ ، ص١١٥.
(٢) الواقدي : نفس المكان .
(٣) الواقدي : ج١ ، ص١٢١ .
(٤) الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول ، ص٤٨٥-٤٨٧ .
(٥) ابن هشام : ج٢ ، ص٢١٦ .

سلول هذا مالبث ان تعرض لامتحان صعب عندما قرر الرسول (ص) اجلاء بني قينقاع من المدينة بسبب نكثهم العهد ولما اضطرهم الرسول (ص) الى النزول على حكمه تدخل ابن سلول قائلاً : يامحمد احسن في موالي وكانوا يومها حلفاء للخزرج (١) . والح في شفاعته لهم عند الرسول (ص) حتى قال له : هم لك (٢) خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم (٣) .

يتضح لنا مما سبق قوة المكانة التي كان عليها ابن سلول في المدينة وبين اتباعه ، من خلال موقفه الفظ الذي وقفه من الرسول (ص) ودفاعه المستميت عن حلفائه يهود بني قينقاع .

وقد نبه القرآن الكريم الى مدى خطورة هؤلاء الذين تظاهروا بقبول الاسلام في سورتي الحشر والمنافقون ، ولما كان هؤلاء المنافقون تربطهم روابط عشائرية متينة باتباع الرسول (ص) المخلصين من الاوس والخزرج وانهم بحكم هذه الروابط وبحكم اندماجهم في الامة الاسلامية الناشئة قادرون على اثارة الانشقاقات في صفوفها . مما قد يؤدي الى انهيار البناء الذي شيده الرسول (ص) بعد كفاح طويل فلابد اذن والحالة هذه ان يتولى القرآن الكريم فضح هؤلاء القوم وعزلهم عن المؤمنين الصادقين وقد اطلق القرآن على هؤلاء القوم اسم «المنافقين» وراح يبين صفاتهم ويفضح اعمالهم المناوئة للاسلام .
ولا تتوفر لدينا معلومات واضحة حولهم ولا عن طبيعة تجمعاتهم واعمالهم (٤) وهكذا اصبح المسلمون يتألفون من فئتين : فئة مؤمنة مخلصة للرسول (ص)

(١) ابن هشام : جـ٢ ، ص٤٢٨ .
(٢) ابن هشام : نفس المكان .
(٣) الواقدي : جـ١ ، ص١٧٨ .
(٤) الحديثي : نزار عبد اللطيف :محاضرات في التاريخ العربي ،/ط، مطبعة الجامعة . بغداد ١٩٧٩ ، ص٩٤ راجع حول الموضوع الملاح : هاشم يحيى ، المنافقون في مدينة الرسول.

مطيعة لاوامره وفئة منافقة تظهر الاسلام وتبطن الكفر . ولكن من هم افراد هذه الفئة ؟ لم يحاول القرآن تشخيص هؤلاء الافراد بأسمائهم وانما اكتفى ببيان صفاتهم وخصائصهم ، وترك لنباهة افراد الامة الاسلامية امر تشخيص افرادهم من اجل اتقاء خطرهم . وبذلك حافظ القرآن على وحدة الامة الاسلامية في الوقت الذي اشاع فيها روح اليقظة والحذر ضد دسائس المنافقين ووقفوا احياناً من الرسول (ص) مواقف علنية فيها كيد ودس وعليها طابع النفاق غير ان هذا كان منهم في بعض الظروف والازمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي والمؤمنين والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط ... ولم يكونوا على كل حال يعرفون بما هم عليه من كفر ونفاق، الا ان اساليبهم هذه لم تكن لتخفى على الرسول (ص) وكانت مواقفهم ومكائدهم هذه بعيدة المدى والاثر على ماتلهمه الآيات القرآنية والفصول المدنية حتى يبدو كانه صراع حاد يشابه إلى حد ما الصراع مابين النبي (ص) وزعماء مكة وان اختلفت الادوار والنتائج (١) .

وكانت حركة المنافقين في المدينة في بداية تكوين الدولة العربية الاسلامية تشكل خطراً كبيراً على الاسلام ورسوله ، وكان اتباعها اقوياء نسبياً بعصبياتهم التي كانت ماتزال قوية الاثر في نفوس سواد قبائلهم والتي لم تضعف الا بعد جهد وتنبيه وانذار متوال من القرآن والنبي ،رغم ذلك لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة . وهكذا يفسر لنا لماذا لم يتخذ الرسول (ص) في البداية موقفاً حازماً منهم والقضاء عليهم ونعتهم ، كما فعل مع اليهود على الرغم من ان وجودهم في الداخل بجانب اليهود ، وتعاونهم مع قريش والاعراب من الخارج قد يؤدي لا محالة إلى تهديد امن المدينة الا ان سياسة الرسول (ص) اقتضت للاسباب السابق عرضها ان يعامل هؤلاء المنافقين على قدم المساواة كما يعامل

المسلمين الصادقين . فقد ارسل بعد ان نزلت قوات قريش اطراف احد إلى ابن سلول يستشيره رأيه فيما يفعله لمواجهة قريش التي جاءت لتحارب المسلمين انتقاماً لهزيمة يوم بدر وكان رأي ابن سلول الا يخرج الرسول (ص) من المدينة وعليه القتال في داخلها «فقال عبدالله بن ابي ابن سلول : يا رسول الله اقم بالمدينة لا تخرج اليهم ،فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلاّ أصاب منا ، ولا دخلها علينا الا اصبنا منه فدعهم يا رسول الله ، فان اقاموا بشر محبس . وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤا» (١) وقال رجال من اهل النية ، منهم حمزة بن عبدالمطلب وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك بن ثعلبة ، وغيرهم من شباب الاوس والخزرج : انا نخشى يا رسول الله ان يظن عدونا انا كرهنا الخروج اليهم جبناً عن لقائهم (٢) .

وكان رأي الرسول (ص) على رأي بن سلول بعدم الخروج من المدينة «فان رأيتم ان تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فان اقاموا اقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوها علينا قاتلناهم فيها» (٣) الا ان رأى اغلبية المسلمين كان الخروج لقتال العدو ولاسيما اولئك الذين لم يشهدوا بدراً (٤) .

والسؤال هنا لماذا لم يقاتل الرسول (ص) داخل المدينة ؟ طالما كان هذا رأيه ورأي عبدالله بن ابي سلول والذي اكد له حصانتها ومناعتها وقدم له خطة واضحة في كيفية الدفاع عنها . ولماذا اصر الرسول (ص) بعد ذلك

(١) ابن هشام : ج٣ ، ص٧ .
(٢) الواقدي : ج١ ، ص٢١٠ .
(٣) ابن هشام : ج٣ ، ص٧ .
(٤) ابن هشام : نفس المكان .

على الخروج على الرغم من عدم توافق الاراء (١) . مما قد يحدث ثغرة في صفوف جيشه فيما بعد . وهذا ما حصل فعلا بعد ذلك من انخزال ابن سلول بثلث القوة قبل بداية المعركة ؟

والجواب على ذلك ان الرسول (ص) كان يشك في صحة نوايا ابن سلول واتباعه في امكانية الدفاع عن المدينة من جهة ، وكان إلى جانب ذلك لا يطمئن إلى موقف يهود بني النضير ويشك في مدى التزامهم بالعهد الذي بينه وبينهم من جهة ثانية ، فقد تأكد له ان يهود بني النضير قد ارسلت في تحريض قريش على غزو المدينة وقد ذكر موسى بن عقبة «وكانوا دسوا إلى قريش حين نزلوا باحد لقتال رسول الله (ص) فحرضهم على القتال ودلوهم على العورات» (٢) وهذا النص يفسر لنا لماذا اصر الرسول (ص) على الخروج من المدينة والقتال خارجها ، بالرغم من عدم تكافؤ القوتين . فهو اما ان يقاتل داخل المدينة ويعرضها للسقوط للاسباب السابقة ، واما ان يقاتل خارج المدينة ويضحي بعدد من المقاتلين ، وتبقى المدينة بعيدة عن ساحة المعركة ويضمن بذلك سلامتها وعدم سقوطها بايدي اليهود والمنافقين على الاقل .

الا ان ابن سلول قد تأثر كثيراً لعدم تبني الرسول (ص) لوجهة نظره وكان التردد مسيطراً عليه : هل يقاتل مع الرسول (ص) ام يرجع إلى المدينة انتقاماً لتجاهل ارائه وحاول اليهود الاستفادة من هذا الموقف الذي كان عليه ابن

(1) - CF; Glubb; John: The life and times of Muhammad. London. 1970-o PP. 205-206 .

(٢) اقتبس هذا النص من مقالة كستر

Kister; M. J;
Notes on the papyrus text About Muhammad's Campaigh Against the Banu Al-Nadir (J.Archiv orie halin. Jemsalem- (1964). Vol. 32. P. 235.

سلول فقالوا له «اشرت عليه الرأي ونصحته واخبرته ان هذا رأي من مضى من ابائه ... فابى ان يقبله واطاع هؤلاء الغلمان الذين معه» .

وقد صادف هذا الكلام هوى في نفس ابن سلول فانسحب مع ثلاثمائة شخص من اتباعه وهم يشكلون انذاك ثلث جيش الرسول تقريباً ولم يثنه عن ذلك تدخل احد الانصار وتذكيره بواجباته تجاه دينه ونبيه ، واصر على موقفه محتجاً بقوله : عصاني واطاع الولدان (١) ، وما ارى يكون بينهم قتالاً (٢) . الا يجوز لنا ان نفترض ان انسحاب ابن سلول المفاجيء هذا من جيش الرسول (ص) وقبل بداية المعركة جاء نتيجة لتواطؤ وتعاون بينه وبين مشركي مكة؟ .

ان هذه الفرضية مستبعدة امام ما اورده الواقدي من ان قريشاً لم تحاول الزحف على المدينة ، بعد تقهقر المسلمين ، لانهم قالوا : «لنا الغلبة فلو انصرفنا ، فانه بلغنا ان ابن ابي انصرف بثلث الناس ، وقد تخلف ناس من الاوس والخزرج ولا تأمن ان يكروا علينا وفينا جراح وخيلنا عامتهم قد عقرت من النبل» (٣) . فلو كان ابن ابي متواطأ مع قريش لواصلت قريش الزحف على المدينة ولما تخوفت من مقاومة ابن سلول لها في المدينة الا ان انسحاب ابن سلول بثلث القوة من جيش الرسول (ص) ليعطي لنا دليلا على مدى قوة زعامته في قومه حتى تلك الفترة .

ان مركز المنافقين وزعيمهم بعد معركة احد قد تغير ، فابن سلول لم يعد يواصل دوره كأحد زعماء الانصار في المدينة . ففي الوقت الذي كان له في قومه مكان ومقام شريف ومحمود اصبح الان لا يملك من ذلك شيئاً .

---

(١) ابن هشام : ج٣ ، ص٨ ، ابن سعد : محمد : الطبقات الكبرى ، د/ط دار صادر ،بيروت ٨٠-١٣٨٨هـ ٦٠-١٩٦٨ ، ج٢ ، ص٣١ .

(٢) الواقدي : ج١ ، ص٢١٩ .

(٣) الواقدي : ج١ ، ص٢٩٩ .

قام (ابن سلول) فقال : ايها الناس ، هذا رسول الله (ص) بين اظهركم ، اكرمكم الله واعزكم به ، فانصروه وعززوه ، اسمعوه واطيعوه ثم جلس حتى اذا صنع يوم احد ما صنع ، ورجع بالناس . قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فاخذ المسلمون بثيابه من نواصيه وقالوا : اجلس ، اي عدو الله لست بذلك اهل وقد صنعت ما صنعت . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا ، ان قمت اشدد امره» (١) ، ولم يكن هذا الموقف ليقتصر على ابن سلول زعيم المنافقين وحده بل امتد ليشمل غيره من المنافقين، وروى ابن هشام «ان هؤلاء المنافقين كانوا يحضرون المسجد فيسمعون احاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم ، وبينما هم مرة يتحدثون فيما بينهم خافضي اصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فامر بهم رسول الله(ص) فاخرجوا من المسجد اخراجاً عنيفاً» (٢) .

ولقد حاول المنافقون بعد ان وجدوا ان وضعهم قد تضعضع في المدينة بعد الاحداث الاخيرة في احد ، من التحالف مع يهود بني النضير ، عسى ان يكون هذا التحالف عاملا في تثبيت مركزهم والتغلب بعد ذلك على الرسول (ص) واصحابه الا ان الرسول (ص) قد فوت عليهم الفرصة بمحاصرة يهود بني النضير وارغامهم على الجلاء من المدينة (٣) . عز على ابن سلول أن يخرج حلفاؤه الجدد من المدينة بهذه السهولة . لذا فقد ارسل اليهم «ان لاتخرجوا من دياركم واموالكم ، واقيموا في حصونكم ، فان معي الفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن اخرهم

---

(١) ابن هشام : جـ٣ ، ص٥٧ .
(٢) ابن هشام : جـ٢ ، ص١٥٠ .
(٣) انظر ابن هشام : جـ٣ ، ص١٩٢ ، وانظر كذلك : الواقدي : جـ١ ، ص٣٦٧ .

قبل ان يوصل اليكم» (١) (٥) . الا ان ابن سلول لم يستطع ان يقوم باي عمل من شأنه ان يساعد يهود بني النضير الذين خدعوا به مما اضطرهم بالتالي الى التسليم بشروط النبي (ص) والخضوع لاوامره بالجلاء ومغادرة المدينة .
وقد صور القرآن ذلك « الم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احداً ابداً وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ، لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصروهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون» (٢) .
وفي غزوة بني المصطلق كان للنفاق دوره البارز في اثارة روح العصبية القبلية التي يحاول الاسلام ورسوله التغلب عليها ولكن ما ان وجدت لها ارض خصبة حتى ظهرت بسرعة كبيرة وكادت تؤدي إلى مشاكل داخلية بالغة الخطورة في صفوف المسلمين ، لولا معالجة الرسول (ص) لها واتخاذ الموقف المناسب منها والحيلولة دون شيوعها .

بعد ان حقق الرسول (ص) اهدافه المرجوة من غزوة بني المصطلق التي بذل فيها جهداً كبيراً . وبينما كان المسلمون يستعدون للعودة إلى المدينة حصل حادث طفيف في ذاته الا ان ابعاده واثاره كانت خطيرة جداً ، اذ تنازع اجير لعمر بن الخطاب يدعى جهجهاه بن مسعود واخر لاحد الانصار يدعى سنان بن وبر الجهني عندما كانوا يسقون خيلهم من عين ماء فاقتتلا فصرخ الجهني يامعشر الانصار وصرخ جهجهاه يا معشر المهاجرين (٣) فلما سمع ابن سلول هذا الصراخ — ويبدو انه كان يرغب في استعادة مكانته التي

---

(١) الواقدي : ج١ ، ص٣٦٨ .
(٥) يبدو من هذا الرقم ان ابن سلول قد استطاع ان يستقطب جميع العناصر المعارضة للاسلام ورسوله ولا سيما تلك التي هي خارج حدود المدينة .
(٢) الحشر : ١١-١٢ .
(٣) ابن هشام : ج٣ ، ص٢٣٤ .

فقدها يوم احد . فوجدوا ان الفرصة سانحة لاستغلالها ضد الرسول (ص) وصحبه من المهاجرين . فاظهر على وجهه علائم الغضب وقال مخاطباً جماعة من قومه : اوقد فعلوها ؟ نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه الا كما قال الاول : سمن كلبك ياكلك . اما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل . ثم اقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بانفسكم احللتموه بلادكم وقاسمتموه اموالكم اما والله لو امسكتم عنهم ما بايدكم لتحولوا إلى دار غيركم [1] . فسمع ذلك الغلام زيد بن ارقم احد الانصار فاخبر به الرسول (ص) [2] عندها اراد عمر بن الخطاب (رض) قتل ابن سلول فمنعه الرسول (ص) قائلا «فكيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمداً يقتل اصحابه لا ، ولكن اذن بالرحيل [3] فلا غرابة ان يكون لهذا الحديث وقع مثير في نفس رسول الله (ص) ومن حوله نظراً لما تثيره اقوال ابن سلول من مسائل في غاية الخطورة ، قد تهدد وحدة الأمة الاسلامية الناشئة وتعرضها للانهيار فعالج رسول الله (ص) هذا الموقف الحرج بالرحيل المفاجيء والمسير المتواصل حتى اذنهم الشمس . وما ان اذن لهم الرسول (ص) بالنزول ولامسوا وجه الارض حتى غلبهم النعاس فناموا ، وانما فعل ذلك رسول الله (ص) ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالامس [4] ولما بلغ ابن سلول خبر معرفة الرسول (ص) بما قال وايقن من فشل محاولته هذه لاثارة الفتنة جاء إلى الرسول (ص) منكراً ما حصل وقد ايده في ذلك جماعة من قومه اذ قالوا : « يا رسول الله عسى ان يكون الغلام قد اوهم في

(١) ابن هشام : ج٣ ؛ ص٣٣٤-٣٣٥ .
(٢) ابن هشام : نفس المكان .
(٣) ابن هشام : نفس المكان .
(٤) ابن هشام : : ج٣ ، ص٣٣٦ .

حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل حدباً على بن ابي ابن سلول ودفعاً عنه» (١) .
غير ان القرآن الكريم جاء ليدحض ذلك ويؤيد ما نقله الغلام إلى رسول الله (ص) من قوله ابن سلول « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون» (٢) . «وهم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون» (٣) .

ان نزول هذه الايات ادت إلى افتضاح امر ابن سلول وأتباعه من المنافقين وسقوط مكانتهم بين قبائلهم . ولما سمع عبدالله بن عبدالله بن ابي بن سلول برغبة الرسول (ص) في قتل ابيه قال «يا رسول الله انه قد بلغني انك تريد قتل عبدالله بن ابي فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا فمرني به فانا احمل اليك رأسه ... قال رسول الله (ص) : بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا» (٤) . وبلغ من سقوط مكانته في قومه انه «اذا احدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه» (٥) . قال عندها الرسول (ص) لعمر (رض) «ياعمر ، اما والله لو قتلته يوم قلت لي : اقتله ، لارعدت له انف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» (٦) . ولم يكتف المنافقون وزعيمهم ابن سلول بما حصل في غزوة بني المصطلق من احداث كادت تؤدي الى فتنة عمياء بين المسلمين (المهاجرين والانصار) وما كاد المسلمون يصلون المدينة

---

(١) ابن هشام : نفس المكان .
(٢) المنافقين : ١-٤ .
(٣) المنافقين : ٤-٨ .
(٤) ابن هشام : ج٣ ، ص٣٣٧ .
(٥) ابن هشام : نفس المكان .
(٦) ابن هشام : نفس المكان .

حتى وقع حادث آخر لايقل في خطورته عما حدث في غزوة بني المصطلق مما اتاح المنافقين المناخ المناسب ليستغلوه ابشع استغلال وحتى ان كان ذلك يتعلق بالرسول (ص) ذلك ان الرسول (ص) كان قد اعتاد ان يصحب معه في اسفاره احدى زوجاته وكانت معه في غزوة بني المصطلق عائشة (رض) والتي افتقدت قبل العودة الى المدينة عقداً لها . فخرجت تبحث عنه . فلما رجعت وجدت ان المسلمين قد تحركوا وتركوها من دون ان يشعر بغيابها احد . فبقيت في مكانها على امل افتقادها والرجوع للبحث عنها فبينما هي على هذه الحالة ، اقبل صحابي أسمه صفوان بن معطل السلمي (١) . كان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، فصحبها حتى لحق بها العسكر ، فلما رأى المنافقون زوجة رسول الله (ص) بصحبة صفوان اخذوا يطلقون الاقاويل طعناً بطهارة ذيل ام المؤمنين عائشة (رض) ، قال ابن هشام « وكل قد دخل حديثها جميعاً . يحدث بعضهم مالم يحدث صاحبه وكل كان عنها ثقة فكلهم حدث عنها بما سمع » (٢) مما دفع الرسول (ص) الى ان يقف خطيباً ليعالج الموقف فقال « ايها الناس ، مابال رجال يؤذنني في اهلي ، ويقولون عليهم غير الحق . والله ماعلمت منهم الا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله ماعلمت منه الا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي الا وهو معي» (٣) .

ويبدو من خلال توالي الاحداث بعد ذلك ان العصبية القبلية كانت لاتزال قوية بين سكان المدينة من الاوس والخزرج جميعاً (٤) ، على الرغم من محاولات الرسول (ص) العمل جاهداً على كبح جماحها ، فلما انتهى من

(١) ابن هشام : ج٣ ؛ ص٣٤٢-٣٤٣ .
(٢) ابن هشام : نفس المكان .
(٣) ابن هشام : ج٣ ، ص٣٤٥ .
(٤) للمزيد انظر ؛ الفلاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول .

خطبته هذه قال له اسيد بن حضير احد زعماء الاوس البارزين « ان يكونوا من الاوس نكفيكهم وان يكونوا من اخواننا من الخزرج فمر بأمرك فوالله انهم لأهل ان نضرب اعناقهم... فقام سعد بن عبادة ، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً كما تروي عائشة . فقال كذبت ، لعمر الله لاتضرب اعناقهم ، اما والله ماقلت هذه المقالة الا انك عرفت انهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ماقلت هذا فقال : اسيد : كذبت لعمرالله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ... وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الاوس والخزرج شر [1] واطلت ايام سمير وبعاث من جديد تريد ان تمزق المجتمع الاسلامي الجديد بعد ان نجح الرسول (ص) في توحيده ، ولكن نزول القرآن بتبرئة عائشة (رض) حسم الموقف واعاد الثقة الى نفوس المسلمين ، بعد ان كادت هذه الفتنة العمياء تعصف بهم الى درك الجاهلية وتمزق وحدة المجتمع الاسلامي الجديد واستقراره على الرغم من خطورة الاحداث التي وقعت في غزوة بني المصطلق وحديث الافك التي اثارها المنافقون وزعيمهم ابن سلول ، الا انها لم تحقق مقاصدهم التي كانوا يهدفون الى تحقيقها . لشق صفوف المسلمين والقضاء على دولة الاسلام في مدينة، مما دفعهم بالتالي الى محاولة الاندماج ضمن الموقف العام مع المسلمين ولا سيما بعد ان تعرضت المدينة لهجوم الاحزاب [2] ورغم محاولتهم الاندماج ضمن الموقف العام في الدفاع عن المدينة ، لم تولد في نفوسهم الحماس الكافي للأستبسال في القتال وتحمل مشاق الحصار . فسرعان مااخذوا يظهرون التذمر ويبحثون عن الاعذار للرجوع الى دورهم ، واندفع البعض منهم مشككاً بالرسول (ص)

---

(١) ابن هشام : ج٣ ، ص٣٤٥ .
(٢) راجع الملاح : هاشم يحيى : ص٤٩٧ .

هازئاً به وقد ذكر الواقدي : «وتكلم قوم بكلام قبيح، فقال معتب بن قشير : يعدنا محمد بكنوز كسرى وقيصر واحدنا لايأمن ان يذهب الى حاجته ، وما وعدنا الله ورسوله الا غرورا»[1] ويصور لنا القرآن مواقفهم هذه بقوله تعالى « واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا . واذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي ويقولون ان بيوتنا عورة ، وماهي بعورة ، ان يريدون الا فرارا» [2] .

ويظهر ان المنافقين عند محاصرة الاحزاب بزعامة قريش للمدينة كانوا يحاولون توحيد جهودهم وتنسيق تحركاتهم من جديد ، فقد اتسمت تصرفاتهم بأشاعة الخوف في نفوس المسلمين المدافعين عن المدينة بما يطلقونه من اشاعات محاولين فيها التشكيك بقدرة المسلمين في الدفاع عن مدينتهم ورسولهم .

ولربما يرجع ذلك ايضاً الى رغبتهم بأعادة الثقة بزعيمهم ابن سلول الذي فقد مصداقيته بعد غزوة بني المصطلق وهذا ماسنراه واضحاً في غزوة تبوك وعلى الرغم من الموقف السلبي الذي وقفه المنافقون في غزوة الاحزاب ، الا انه لم يرد مايؤكد تعاونهم مع يهود بني قريضة الذين نقضوا العهد مثلاً أو تواطأهم مع قوات قريش التي كانت تحاصر المدينة . مما كان له اثر بالغ في بقاء المدينة صامدة وعدم سقوطها بايدي المهاجمين .

---

(١) الواقدي : جـ٢ ، ص٤٥٩-٤٦٠ وانظر كذلك : ابن طرخان : سليمان التيمي : السيرة الصحيحة تحقيق : فون كريمر (منشور ضمن كتاب المغازي للواقدي ، ط١ ، كلكتا ، ١٨٥٦م) ص٣٦٢ - ٣٦٤ .

(٢) الاحزاب : ١٣-١٤ .

وكانت غزوة تبوك قد وضعت المنافقين وزعيمهم ابن سلول على المحك الصعب فمن المعلوم لدينا بأن الرسول (ص) قد تجهز لغزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة ، وامر المسلمين بالتهيؤ لغزو بلاد الروم (١) وأن ذلك في زمن عسرة من الناس وشدة الحر وجدب في البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم (٢) ففي هذه الظروف الحرجة التي تمر بها دولة المدينة دبت الحيوية في خصوم الاسلام ، فلقد اخذ ابن سلول وجماعته واتباع ابي عامر الراهب الذين بنوا لهم مسجد ضرار انتظاراً لعودته منتصراً ، وبقي يهود المدينة يعملون بجد وحماس كبيرين على بث الاشاعات في المدينة من أجل تثبيط همم الناس والحيلولة دون خروجهم للقتال مع الرسول (ص)وقد ذكر ابن هشام«ان ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي وكان بيته عند جاسوم يثبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك.فبعث اليهم النبي (ص) طلحة بن عبيدالله في نفر من اصحابه وامره ان يحرق بيت سويلم (٣). وقال بعض المنافقين لبعضهم لاتنفروا في الحر زهادة في الجهاد وشكاً في الحق وارجافا برسول الله (ص) (٤) وقال تعالى مخاطباً اياهم «وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم اشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا جزاء بما كانوا يكسبون» (٥) واخـذ المنافقون يعتذرون من الرسول (ص) عن الاشتراك في هذه الغزوة متذرعين باعذار عديدة وقد ذكر الواقدي انه «جاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول

(١) ابن هشام : جـ٤ ، ص١٦٩
(٢) ابن هشام : نفس المكان .
(٣) ابن هشام : جـ٤ ، ص١٧١ .
(٤) ابن هشام : جـ٤ ، ص١٧٠ .
(٥) التوبة : ٨١-٨٢ .

الله (ص) من غير علة . فاذن لهم» (١) وكان عدد المنافقين الذين استأذنوا رسول الله (ص) في عدم الخروج معه بضعة وثمانين رجلاً (٢) .

وبلغت اعذار البعض منهم حداً يثير السخرية . فقد ذكر ابن هشام ان الرسول (ص) قال للجد بن قيس : «ياجد هل لك العام في جلاد بني الاصفر فقال : يارسول الله : او تأذن لي ولا تفتني . فو الله لقد صرف قومي انه مامن رجل باشد عجباً بالنساء مني واني لاخشى ان رأيت نساء بني الاصفر ان لاأصبر» (٣) وقال تعالى فيه «ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ، الا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين» (٤) .

لم يحاول ابن سلول ان يعتذر في البداية كما اعتذر غيره من عموم المنافقين بل اظهر رغبة قوية في الخروج فجمع حوله من استطاع من اتباعه وحلفائه وفيهم قسم من يهود المدينة . ويؤكد ذلك ما ذكره الواقدي وكاتبه ابن سعد بقولهم «وعسكر بهم عند ثنية الوداع خارج المدينة» (٥) ، الا ان ابن سلول كان ينتظر الفرصة المناسبة ليتخلف عن الرسول (ص) هو واتباعه من المنافقين واخذ يردد ويقول «يغزو محمد بني الاصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى مالا قبل به . أيحسب محمد ان قتال بني الاصفر اللعب ؟! ونافق معه من هو على مثل رأيه . ثم قال : والله لكاني انظر إلى اصحابه غداً مقرنين في الحبال (٦) وكان هذا من وجهة نظر ابن سلول واتباعه سبباً كافياً ليتخلف عن الرسول (ص) ولم يكتفوا بذلك فقد راحو يبثون الاشاعات بين الناس

---

(١) الواقدي : ج٣ ، ص٩٩٥ .
(٢) الواقدي : نفس المكان ، ابن سعد : ج٢ ، ص١٦٥ .
(٣) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧٠ .
(٤) التوبة : ٥٠ .
(٥) الواقدي : ج٣ ، ص٩٩٥ ، ابن سعد : ج٢ ، ص١٦٥ .
(٦) الواقدي : ج٣ ، ص٩٩٥-٩٩٦ .

ويفسرون مواقف الرسول (ص) على غير حقيقتها فلما استخلف الرسول (ص) علي بن ابي طالب على اهله وبيته فسر المنافقون ذلك «فقالوا : ما خلفه الا استثقالا له وتخففاً منه . فلما قال ذلك المنافقون اخذ علي بن ابي طالب سلاحه ثم خرج حتى اتى رسول الله (ص) وهو نازل بالجرف» (١) .

ثم توجه رسول الله (ص) من الجرف إلى تبوك بمن معه ، واخذ يتخلف عنه المنافقون واحداً بعد الاخر (٢) الا ان قسماً منهم قرر مواصلة المسير مع الرسول (ص) لتنفيذ المهام الموكلة اليه ، وكان لابد من تنسيق مابين جماعة ابي عامر الراهب وجماعة ابن سلول حيث عاشت غزوة تبوك اكثر الاعمال التخريبية لهم ، وظهرت لهم بعض المواقف السلبية الخطيرة تجاه الرسول(ص) فلما صرح الرسول (ص) بما انزل الله بشأن المنافقين غضب لهم اخوانهم الذين معه .

فقالوا والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لاخواننا بعدنا ، وهم اشرافنا وخيارنا لنحن اذاً اشر من الحمر (٣) . وراحوا يرددون ما ردده ابن سلول من ان قتال بني الاصفر نهاية محمد وصحبه ، واخذوا يشككون بنبوة الرسول (ص) ويقولون اليس محمد يزعم انه نبي، يخبركم من خبر السماء ، وهو لا يدري اين ناقته التي ظلت منه في الطريق (٤) ، ولم يكتف المنافقون بهذا ، بل راحوا يعصون الاوامر التي يصدرها الرسول (ص) لهم . فقد ذكر ابن هشام «ان الرسول (ص) اخبر المسلمين انهم سيقبلون على واد فيه ماء ، وطلب منهم الا يستسقوا منه شيئاً حتى يصله ، فلما اتاه رسول الله (ص) وقف عليه

(١) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧٤ .
(٢) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧٨-١٧٩ .
(٣) الواقدي : ج٣ ، ص١٠٠٣-١٠٠٤ .
(٤) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧٩ .

فلم ير فيه شيئاً ، فقال : من سبقنا إلى هذا الماء ؟ فقيل له يا رسول فلان وفلان فقال : او لم انههم ان يستسقوا منه شيئاً حتى اتيه . ثم لعنهم رسول الله (ص) ودعا عليهم» .

ومن ابرز الاعمال الخطرة التي قام بها المنافقون ضد الرسول (ص) هي قيام نفر من ثلاثة عشر رجلا بمحاولة اغتيال الرسول (ص) (١) اثناء عودته من غزوة تبوك ، وقال تعالى يصف محاولتهم تلك «يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله» (٢) ، فلقد استغل هؤلاء النفر فرصة مرور الرسول (ص) ليلا بطريق يطل على واد، فاندفعوا على رواحلهم متلثمين ليزحموا دابة رسول الله (ص) فيسقطوه من عليها في الوادي ، الا ان الرسول (ص) احس بما يريد القوم فامر احد الصحابة المرافقين لهم بردهم فردهم وظن المنافقين ان الرسول (ص) قد اطلع على مكرهم فحاولوا التواري بين المسلمين (٣) . واخبر الرسول (ص) الصحابة بما هم به المنافقون ، فقال له اسيد بن حضير : يا رسول الله قد اجتمع الناس هنا ونزلوا فمر كل بطن ان يقتل الرجل الذي هم بهذا فيكون الرجل في عشيرته هو والذي قتله» (٤) الا ان الرسول (ص) رفض ذلك قائلا «اني اكره ان يقول الناس ان محمد لما انفضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل اصحابه» (٥) .

يبدو ان ماحدث في غزوة تبوك كان بتنسيق مسبق وتعاون مابين المنافقين واتباع ابي عامر الراهب لان ماحدث من اعمال يدل على ان تحركات المنافقين

---

(١) الواقدي : ج٣ ، ص١٠٤٤ .
(٢) التوبة : ٧٥ .
(٣) راجع الواقدي : ج٣ ، ص١٠٤٣ .
(٤) الواقدي : ج٣ ، ص١٠٤٢ .
(٥) الواقدي : ج٣ ، ص١٠٤٤ .

كانت تسير في عدة خطوط وبشكل منسق ومتقن ، مما يدل على حسن التخطيط والتدبير الذي يقف من ورائها ، وينفي «وات» وجود اية علاقة مابين ابن سلول وجماعته بجيش الرسول الذي خرج إلى تبوك معللا ذلك بسبب سوء صحته [1] وحسن علاقته مع الرسول (ص) منذ صلح الحديبية عندما رفض الطواف لوحده دون الرسول (ص) ولكن (وات) قد ترك ثغرة كبيرة في رأيه هذا عندما تجاهل مناقشة ما أورده ابن هشام والواقدي وابن سعد من ان ابن سلول كان قد خرج على رأس جيش من اتباعه مع الرسول (ص) ثم لم يلبث ان انسحب عائداً إلى المدينة مستنكراً خروج الرسول (ص) لهذه الغزوة كما مر بنا سابقاً مما يجعل رأي وات قائماً على اساس غير صحيح .

وعند وصول الرسول (ص) إلى المدينة امر باحراق وهدم مسجد ضرار الذي بناه جماعة ابي عامر الراهب واتخذوه مقراً لتحركاتهم وقد فضح القرآن حقيقة اهدافهم قال تعالى «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله» [2] .

وكان للقرآن اثره البارز في فضح وتعرية المنافقين وكشف اساليبهم وكانت في حوالي تسعين اية من سورة التوبة [3] ، وسورة المنافقين وسورة براءة والحشر ... الخ .

وكان القرآن يوضح للرسول (ص) اسلوب التعامل معهم ولاسيما في الفترة الاخيرة ، وهو الا يصحب احداً منهم لقتال مقبل ، وان لا يصلي على احد منهم اذا مات [4] . وكانت سياسة الرسول (ص) بعد غزوة تبوك متوجهة

---

(١) وات : مونتجمري : محمد في المدينة : ترجمة: شعبان بركات ، د/ط ، المكتبة العصرية ، صيدا ، د/ت ، ص٢٨٤ .
(٢) براءة : ١٠٧ .
(٣) التوبة : ٣٨-١٢٩ .
(٤) راجع التوبة : ٨٣-٨٤ .

إلى عزل المنافقين عن صفوف المؤمنين وتشديد الهجوم عليهم ، اخذوا بمرور الزمن يضعفون ويتلاشون ومما زاد في ذلك وفاة زعيمها ابن سلول بعد عودة الرسول (ص) من تبوك بفترة وجيزة ... ولم تعد حركة المنافقين بعد ذلك في المدينة حركة سياسية، وان بقي النفاق كظاهرة اجتماعية في المجتمع وبقي المنافقون منتشرين كأفراد في كل زمان ومكان وهي ظاهرة يصعب القضاء عليها لانها منوطة بالنفس البشرية (١) .

مما سبق عرضه نلاحظ ان حركة المنافقين في مدينة يثرب كانت حركة قوية ذات اهداف سياسية تسعى من اجل تحقيقها ، وجاز البعض ان يطلق عليها اسم حركة المعارضة في الاسلام (٢). وعلى الرغم من كون هذه الحركة كانت في جوهرها ظاهرة مرضية في المجتمع الاسلامي وفي حدودهاالنفسية والاجتماعية الا انها في اطار الدعوة الاسلامية ، تبدو ظاهرة جيدة لأنها عملت دائماً على ان يكون عموم المجتمع الاسلامي في حالة يقظة وحذر دائمين لمستجدات الاحداث من حوله (٣).

والان يمكننا ان نفسر موقف الرسول (ص) من هذه الحركة ولماذا لم يتخذ تجاه زعيمها ابن سلول واعوانه اي موقف حاسم من شأنه تصفيتهم والقضاء عليهم .

١ — ان القرآن لم يأذن للرسول (ص) بمحاسبتهم والاقتصاص منهم جراء نفاقهم ، بل اكتفى بكشف اساليبهم وفضحهم امام المسلمين على الرغم من خطورة الاعمال التي قاموا بها ضد الاسلام ورسوله .

---

(١) الملاح : هاشم يحيى : ص ٤٧٨ وما بعدها .
(٢) وات : ص٢٧٤ .
(٣) راجع : خليل : عماد الدين : دراسات في السيرة ، د/ط ، دار النفائس ، بيروت ١٩٧٤م ، ص٣٦٩ .

٢ – ان العصبية القبلية كانت لا تزال قوية بين صفوف سكان المدينة من الاوس والخزرج وما حدث في غزوة بني المصطلق وفي مسجد المدينة كاد يؤدي إلى حرب داخلية وتعود بعاث من جديد وبالتالي ينهار البناء الذي شيده الرسول (ص) في مدينة يثرب .

٣ – لم يشأ الرسول (ص) محاسبتهم مع علمه بخطورة اعمالهم لكي لايتخذ ذلك ذريعة لليهود والمشركين وغيرهم للتشنيع على الاسلام ورسوله وما حصل مع ابن سلول في غزوة بني المصطلق وعند محاولة المنافقين قتل الرسول عند عودته من تبوك إلاخير دليل على ذلك .



قائمة المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ ابن سعد : محمد : الطبقات الكبرى ، د / ط ، دار صادر ، بيروت ٨٠ ـ ١٣٨٨هـ ، ٦٠ ـ ١٩٦٨م .

٣ ـ ابن طرخان : ابو المعتمر سليمان التيمي : السيرة الصحيحة: تحقيق فون كريمر (منشور ضمن كتاب المغازي للواقدي) ، ط١ كلكتا، ١٨٥٦م ص .

٤ ـ ابن قيم الجوزية : ابو عبدالله بن القيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد : تحقيق : حسن محمد المسعودي ، ط ٣ ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

٥ ـ ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي ، وقيل رضوان بن احمد بن ابي القاسم بن حقبة بن منظور الانصاري ، ابو الفضل : لسان العرب ، د / ط ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

٦ ـ ابن هشام: ابو محمد عبدالله بن عبدالملك بن هشام بن ايوب الحميري : سيرة النبي : تحقيق : محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، د/ ط ، الجزء الاول ، منشور سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م .

٧ ـ البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر : انساب الاشراف : تحقيق محمد حميدالله ، د / ط ، دار المعارف ، مصر ١٩٥١م (ج ١) .

٨ ـ الزبيدي : محمد مرتضى : تاج العروس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م .

٩ — القيرواني : ابو اسحاق ابراهيم بن علي المصري : زهرة الاداب وثمر الالباب : شرح : د. زكي مبارك،ط ٤ ، دار الجليل ، بيروت ١٩٧٢م .

١٠ — الواقدي : ابو عبدالله : محمد بن عمر بن واقد : المغازي : تحقيق مارسون جونس ، د / ط ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٦٦م .

١١ — الحديثي : نزار عبداللطيف : محاضرات في التاريخ العربي ، د / ط ، مطبعة الجامعة / بغداد ، ١٩٧٩ .

١٢ — خلف‌الله : محمد : محمد والقوة المضادة ، د / ط ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

١٣ — خليل : عمادالدين : دراسات في السيرة، د / ط ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٧٤م .

١٤ — سالم : ابراهيم علي : النفاق والمنافقون ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

١٥ — الملاح : أ.د هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول (ص) مجلة الدراسات الاسلامية ، العدد الخامس ، بغداد ١٣٩٣هـ /١٩٧٣م .

١٦ — المغربي : عبدالقادر : الاشتقاق والتعريب ، القاهرة ١٩٧٧م .

١٧ — وات : مونتجمري :محمد في المدينة :ترجمة: شعبان بركات د/ط المكتبة العصرية ، صيدا ، د / ت .

18- Glubb: J.B.(pasha): The Life and times of Muhammad, Hoddep and stoughton Limited London 1970 .

19- Kister: M.J: Notes on the popyrus text About Muhammad's, Campaigh Against the Banu AL-Nadir. J Apohir oriendni vol - 32 . London 1964 .

20- Serjeaut :R.B The Contitution of madina. Journal Islamic Quarterty. vol. 8. London 1964.

الآثار العائلية والديمغرافية لحوادث المرور

عبدالله مرقس رابي
جامعة الموصل

المقدمة : —

ان ازدياد وسائط النقل في القطر وازدحام المدن بالسكان ، وخاصة بعد انبثاق ثورة السابع عشر من تموز التقدمية عام ١٩٦٨ ، جعل من الضروري اعادة النظر في كثير من الامور التي تعكس الجانب الوقائي من حوادث المرور فقد تجلت حملات وطرق الوقاية من حوادث المرور باهتمامات الرئيس القائد صدام حسين (حفظه الله) . تدعمه التوعية المرورية من اجل خلق طفرة نوعية في انتظام السير والمرور في كافة انحاء القطر وتقليل نسبة الحوادث فيه ، وعبر عن اهتمامه هذا في احاديثه بعدة مناسبات وخاصة عند التقائه برجال شرطة المرور .

وعلى الرغم من التوسع الذي حدث في انشاء الطرق السريعة وتزويدها بالوسائل الضرورية كالاشارات والعلامات الدولية ، وجهود شرطة المرور المكثفة نرى زيادة في عدد الحوادث على الطرق التي من جرائها تزداد نسبة الضحايا بين المواطنين . كما تترك هذه الحوادث المآسي والآلام على المجتمع بصورة عامة ، وعلى العائلة بصورة خاصة ، ولهذا كانت مشكلة بحثنا عن الاثار العائلية والديمغرافية لحوادث المرور .

المبحث الاول

مدخل نظري :

لقد تطورت صناعة المركبات بمختلف انواعها ، وازدادت اعدادها في العالم ، حيث تشير اخر احصائية عالمية إلى ان عدد المركبات الخصوصية فقط تصل في سنة (٢٠٠٠م) إلى ما يقارب (٥٢٤) مليون مركبة ، بالاضافة إلى الاعداد الاخرى لمركبات النقل والحافلات وتمثل زيادتها (ثلث هذا العدد) .
وبزيادة هذا العدد سنوياً يزداد عدد حوادث المرور ، ففي عام ١٩٧٧ بلغ مجموع الضحايا في العالم ما يزيد على (ربع مليون نسمة) وعدد الاصابات حوالي (١٠ ملايين) كان ثلثهم من الشباب [١] .

كذلك الحال في الوطن العربي اذ يوجد اطراد في تزايد عدد المركبات المسجلة سنوياً ، فقد بلغ عدد الحوادث الواقعة في الاردن مثلا لمدة احد عشر شهراً في عام ١٩٨٤ ، (٤٥٦٤) حادثاً ، نتج عنه (٤٧٧) قتيلاً و (٨١٢٣) جريحاً [٢] .

وفي قطرنا تشير الاحصاءات إلى ارتفاع مستمر باعداد المركبات سنوياً ، فارتفعت من (١١٦٤٢٧) مركبة عام ١٩٧١ إلى (٨١٩٢٩٠) مركبة عام ١٩٨٢ ، وقد بلغ عدد الحوادث المرتكبة عام ١٩٨٥ (٣٢٠٠٣) حادث ، ومن الطبيعي ان تؤدي هذه الحوادث إلى ظهور حالات الوفاة والعوق ، وهذا ما اشارت اليه سجلات دائرة الاحصاء في وزارة التخطيط ، حيث تبين ارتفاع عدد الوفيات في سنة ١٩٧٩ من (٢٢٣٦) حالة وفاة ، و(١٥٦٤٨) جريحاً إلى (٤٤٢٠) حالة وفاة و (٢٥٦٥٠) جريحاً سنة ١٩٨٥ [٣] . وقد كان من بين الضحايا لعام ١٩٨٥ (٣٤٩٧) حالة وفاة و (٢١٢٥٦) جريحاً من الذكور و (٩٢٣) حالة وفاة و (٤٣٩٤) جريحة من الاناث .

وفي محافظة نينوى بلغت حوادث المرور سنة ١٩٨٥ (٢٥٩١) حادثاً ، (٢٠٤) منها مميت و (٧٥) مميتاً مع جرحى (٤) و (١٢٠٢) جريح فقط و (١١١٠) لا توجد اصابات . وبهذا تكون نسبة الحوادث المرتكبة ٨٪ من مجموع حوادث القطر عموماً لسنة ١٩٨٥ .. بالنسبة إلى الضحايا التي تركتها على سكان المحافظة للسنة المذكورة فكانت (٣٤٨) وفيات ، منها (٢٥٩) ذكراً و (٨٩) انثى ، و (١٨٨٧) جريحاً منهم (٤٨٣) ذكراً و (٤٠٤) انثى (٥) ولفقدان هذه الاعداد الهائلة من السكان سنوياً : كانت منظمة الصحة العالمية صائبة عندما وصفت حوادث المرور (بوباء العصر) .

وعلى اثر ذلك اجريت كثير من الدراسات الميدانية للبحث في الأسباب المؤدية إلى ارتكاب حوادث المرور فكانت نتائج تلك الدراسات تشير إلى ان ابرز العوامل المؤدية إلى وقوع الحوادث هي :

١ ــ مستعملو الطريق من السواق والمشاة وبنسبة من ٧٤٠ ــ ٨٥٪ واسبابها ترجع إلى الظروف النفسية السيئة كالانفعالات والرعب والقلق والتعب الناجمة عن عدم الاستقرار الاجتماعي والعاطفي لهم . او بسبب الاصابة بامراض جسمية وضعف البصر والسمع اضافة إلى تناول المسكرات (٦) .

٢ ــ المركبة عندما يصيبها خلل مفاجيء .

٣ ــ سوء تصميم الطريق .

٤ ــ سوء الاحوال الجوية (٧) .

اهمية الدراسة : ــ

تبدو اهمية الدراسة واضحة من انها تشخص المآسي والآلام التي تتركها حوادث المرور على المجتمع بكافة مؤسساته وخصوصاً العائلية منها ، وتشخيص الآثار السكانية على المجتمع من جهة اخرى .

ولعل اهميتها تبرز ايضاً في الاستفادة من النتائج التي ستتوصل اليها في التوعية المرورية ليكون افراد المجتمع على بينة بضخامة وتفاقم واثار هذه المشكلة

اهداف الدراسة : —

تستهدف هذه الدراسة ما يأتي : —

١ — تشخيص الاثار العائلية لحوادث المرور على كل من عوائل مرتكبي الحوادث الذين دخلوا السجن وعوائل الضحايا .

٢ — تشخيص الآثار الديمغرافية (السكانية) التي تتركها حوادث المرور على المجتمع بما فيها الاعمار والجنس والمستويات التعليمية والمهن .



المبحث الثاني

اجراءات البحث

١ — تحديد المفاهيم :

وردت في البحث مفاهيم اساسية فيما يأتي تحديدها لاغراض هذا البحث :

أ — حادثة المرور Traffic Accident وهي واقعة غير متعمدة ينجم عنها وفاة او اصابة او تلف بسبب المركبة او حمولتها على الطريق العام (٨) .

ويعتبر قانون العقوبات العراقي ارتكاب حادث مروري يؤدي إلى موت شخص ما بأنه جريمة القتل بالخطأ ويحكم على الجاني بمقتضى المادة ٤١١ منه (٩) , وبدلالة المادة (٢٥) من قانون المرور العراقي رقم (٤٨) لسنة ١٩٧١ المعدل (١٠) .

ب ـ الاثار العائلية : Family effects: ويقصد بها الآثار الاجتماعية التي تتركها حوادث المرور على عوائل مرتكبيها وعوائل الضحايا ، كالمشكلات الزوجية والمادية وانحراف الاحداث وتشردهم .

جـ ـ الاثار الديمغرافية (السكانية) Demograph effects ويقصد بها الاثار التي تتركها حوادث المرور على الخصائص السكانية في المجتمع كالجنس والعمر والمهنة .

٢ ـ فرضيات البحث: ـ

وضعنا فرضيتين رئيسيتين على شكل اسئلة لغرض اختبارها وهي :

أ ـ هل تترك حوادث المرور آثاراً سلبية على عوائل السواق والضحايا ؟

ب ـ هل تترك حوادث المرور آثاراً سلبية على الخصائص الديمغرافية للمجتمع ؟

٣ـ عينة البحث : ـ

قام الباحث باجراء مسح شامل على مرتكبي حوادث المرور والمحكومين لمدد مختلفة في قسم الأصلاح الاجتماعي للكبار في نينوى والبالغ عددهم (٨٠) نزيلا .

٤ ـ حدود البحث : ـ

أ ـ كان السجناء في سجن نينوى من مرتكبي حوادث المرور مجالا بشرياً للبحث .

ب ـ كما كان سجن نينوى المجال المكاني للبحث .

جـ ـ وكانت الفترة من ١٩٨٧/٩/١ ولغاية ١٩٨٧/١٠/١ مجالا زمنياً للبحث .

٥ - اداة البحث : -

لغرض جمع البيانات المطلوبة للبحث ولاختبار الفرضيات صمم الباحث استبياناً مغلقاً يتكون من (٢٠) سؤالاً ، تتعلق بخصائص عوائل المبحوثين وبعض المعلومات عن ضحايا الحوادث المرتكبة كالجنس ومتوسط الاعمار والمهن ، في البداية عرض الاستبيان على الخبراء [١١]. وبعد الاطلاع على آرائهم استقر الاستبيان بشكله النهائي واجرينا اختباره على (٢٠) مبحوثاً كمحاولة اولى ، فكانت الاسئلة مناسبة لجمع البيانات . واستخدمنا النسبة والوسيط كوسائل احصائية لتحليلها .

٦ - منهج البحث : -

تعد هذه الدراسة وصفية تحليلية ، واتبعنا منهج المسح الاجتماعي عن طريق العينة .

المبحث الثالث

تحليل النتائج

يتبين من بيانات البحث الميداني ، ان الاثار التي تتركها حوادث المرور تتمثل في ما يأتي : -

١ - الاثار العائلية : -

لا تقتصر الاثار الناجمة عن حوادث المرور على الوفيات والعوق والتلف المادي فحسب ، وانما تمتد إلى الجانب الاجتماعي والنفسي للعائلة والمجتمع ، وتتمثل هذه الاثار بما يأتي : -

أ — فقدان الرعاية الأبوية للابناء : —

تتكون شخصية الانسان منذ ولادته ، حيث تعكس مايحيط بالفرد من الظروف الاجتماعية والحضارية الى السنة الخامسة من العمر ابرز مظاهر تكوين الشخصية لديه . وتكون العائلة مسؤولة مسؤولية اولى عن عمليات التنشئة الاجتماعية(١٢).

لاشك ان الطفل الذي ينمو في بيئة يعوزها الاشباع العاطفي،لن يكون شأنه كالطفل الذي تحوطه العاطفة الابوية ويشبّع حنان الام . فقد اجمع الباحثون على ان الحالة النفسية للطفل المحروم تؤدي الى الاضطرابات الشخصية ،وبالتالي تكون من عوامل الانحراف (١٣) ، فعندما يدخل اب الطفل الى السجن او يموت كضحية حادث مرور ، يؤدي إلى فقدان الطفل العواطف والرعاية الابوية التي هو بأمس الحاجة اليها ، فتبين ان اغلبية مرتكبي الحوادث من المسجونين متزوجون وبنسبة ٧٢,٥٪ ولابد ان هذه النسبة الكبيرة قد خلفت اطفالاً ، وهذا فعلاً ماظهر في نتائج البحث حيث تبين ان ٤٤,٨٪ منهم ذو ابناء تتراوح اعدادهم بين (٤ — ٦) ، و ٣٤,٥٪ منهم لديهم (١ — ٣) من الابناء .

وما يتعلق باعمار ابناء المبحوثين ، وقد تبين من نتائج البحث ان الأكثرية الغالبة من ابنائهم تتراوح اعمارهم من (١ — ٤) سنة وبنسبة ٦٠٪ . وبلغ متوسط اعمارهم (٧) سنوات .

يتضح مما سبق ان اكثرية ابناء السجناء المبحوثين هم صغار السن وهم في عمر الطفولة ، مما يدل على انهم بحاجة الى رعاية الوالدين بصورة كبيرة ، الا ان دخول الآباء الى السجن لفترات مختلفة يحرمهم من هذة الرعاية ، حيث اتضح بأن ٦٧,٥٪ من المبحوثين تتراوح مدة حكمهم بين (١ — ٣)

سنوات و ٣٢،٥٪ منهم مدة حكمهم اكثر من (٤) سنوات ، وبلغ متوسط فترة الحكم ٣،٢ سنة . ومن جهة أخرى تضطر الام احياناً اثناء فترة الحكم على الاب بالسجن ، الى الخروج من الدار للعمل ، وبهذا تقل ايضاً الرعاية والرقابة المباشرة على الاطفال — او يضطرون هم ايضاً الى العمل لكسب العيش ، فقد يسلكون طرق ملتوية فينحرفون سلوكياً (١٤) .

كذلك قد تؤدي هذه الحالة الى ترك الابناء المدرسة ولجوئهم الى العمل او التسكع في الطرقات لعدم وعيهم اهمية المدرسة ، وهذا مااتضح من نتائج البحث حيث ان نسبة ٢٢٪من المبحوثين ذكروا ان بعض ابنائهم او اخوتهم تركوا الدراسة على اثر وجودهم في السجن .

مما تقدم من آثار تخص السجناء من مرتكبي حوادث المرور ، اتضحت شدتها وقساوتها على ابنائهم . لكن كيف تكون الحالة عند ابناء الضحايا الذين وافاهم الاجل بسبب هذه الحوادث . لابد ان الحالة تكون على اشدها واكثر قساوة واثراً .

ب — مشكلة الاعالة : —

من المشكلات الرئيسية التي تتركها حوادث المرور ، هي مشكلة اعالة العوائل التي تفقد معيلها ، سواء بسبب الدخول للسجن او الوفاة .

لهذا وجهنا سؤالاً للمبحوثين يتعلق بمعيشة العائلة بعد دخولهم للسجن لمعرفة فيما اذا كانت تعيش لوحدها في الدار ، ام انها التجأت الى الاهل والاقرباء للعيش معهم . فكانت اجاباتهم ان ٦٠،٣٪ منهم تعيش عوائلهم لوحدها في الدار .

وتبين من اجابات المبحوثين ان ٥٠٪ منهم اشاروا الى عدم وجود من يعيل عوائلهم ، ومن جهة اخرى سألنا المبحوثين عن مصدر موارد عوائلهم ،

فأجاب ١,٤٣٪ بأنه لايوجد مصدر مورد لهم . وبهذا نستنتج ان آثار الحوادث تمتد الى اقرباء مرتكبيها . وقد تكون هذه الحالة لمدة حكمهم فقط ، الا انه كيف تكون الحالة عند عوائل الضحايا ؟ لابد انها تكون على اشدها واكثر قساوة .

ج — مشكلات عائلية اخرى : —

اضافة الى مشكلة الاعالة الرئيسة التي يعاني منها كثير من عوائل السجناء فهناك مشكلات اخرى تعيق مسيرة الحياة الاجتماعية للعائلة . حيث تبين من نتائج البحث ان ٣٩,٧٪ من المبحوثين يعانون مشكلات مختلفة واجاب ٨٢,٦٪ من الذين لهم مشكلات بانها ظهرت بعد سجنهم وقد كانت موزعة كالآتي :

٧٣,٩٪ مادية حيث تتمثل بصعوبة توفير الاحتياجات العائلية . و٣٤,٨٪ سكنية ، حيث كانت دورهم مؤجرة فعند فقدان المورد المالي بسبب السجن ، لم يتمكنوا من دفع بدل الايجار ، و ٣٠,٤٪ لهم مشكلات تتعلق بالعلاقات الزوجية نجمت عن دخول الزوج الى السجن وذلك ماتؤكد عليه كثير من الدراسات السابقة (٥) .

ومن المشكلات الاخرى مايتعلق بالسمعة العائلية التي تعكس آثارها على افراد العائلة وخصوصاً الاطفال ، حين دخول الاب الى السجن فالمعروف عن السجن انه مكان يرتاده المجرمون . وهذا ماأكده ٨٠٪ من المبحوثين . هناك مشكلة اخرى بعيدة المدى وخطيرة جداً يحتمل ظهورها حيث يؤثر على العائلة وعلى الشخص المسجون نفسه ، وهي مشكلة الاحتكاك مع المجرمين اثناء السجن ، حيث يقضي مدة(٨)ساعات يومياً يستطيع فيها الحركة الحرة بين جميع الردهات

فيحتمل عن طريق الصداقة والاحتكاك ان تسري الميول الاجرامية الى هؤلاء السجناء لبقائهم فترة طويلة معهم ، وهذا مايؤكده العلامة (تارد) بقوله (ان الجريمة تنتقل من شخص الى آخر عن طريق الاحتكاك والتقليد) (١٦) . وبالفعل تبين من بيانات البحث ان ٥,٥٧٪ منهم لهم اصدقاء في السجن .

٢ – الاثار الديمغرافية (السكانية) : –

تتمثل الآثار الديمغرافية التي تتركها حوادث المرور وذات بعد اعمق تمتد الى المجتمع بأكمله بما يأتي : –

أ – الوفيات والجرحى : –

يفقد المجتمع نسبة كبيرة من الاشخاص جراء الحوادث فضلاً عن اصابة بعض الاشخاص بالعوق الدائم ، فيصبحون عبئاً على المجتمع وقد بلغت نسبة المعوقين في عينة البحث ٦,٥٧٪ و ٤,٤٢٪ كانوا جرحى ، وكان معدل عدد الوفيات لكل حادث (شخصين) ومعدل الجرحى (١,٥) شخص .

ب – التركيب الجنسي للضحايا : –

التركيب الجنسي للسكان من الخصائص الديمغرافية المهمة ، وذلك بسبب تأثيره المباشر على وقائع الولادات والوفيات والزواج، كما أن التركيب المهني والتعليمي وكافة الصفات الديمغرافية تقريباً تتأثر قليلاً او كثيراً بالتركيب الجنسي للسكان (١٧) . فزيادة عدد الذكور من ضحايا الحوادث يخلق تفاوتاً في نسبتهم الى الاناث ويفقد المجتمع العنصر الفعال الذي يعتمد عليه في كثير من المجالات. وكانت نسبة الذكور في العينة ٥,٧٤٪ مقابل ٥,٢٥٪ اناث .

ج – التركيب العمري للضحايا : –

التركيب العمري للسكان مهم جداً ، حيث تتطلب كثير من انواع التخطيط وخصوصاً تخطيط مؤسسات وخدمات الجماعة بيانات عن التركيب العمري

للسكان ، وهو متغير مهم في قياس القوى العاملة ، حيث تعد الفئة العمرية بين (١٥ — ٦٤) سنة القسم الفعال والمنتج من افراد المجتمع (١٨) ، لذلك تؤدي حوادث المرور الى فقدان المجتمع للعناصر الشابة لدخول مرتكبي الحوادث للسجن اولاً ، والتعرض الى الوفاة او العوق ثانياً . فقد تبين من عينة البحث ان غالبية المبحوثين هم في اعمار الشباب فبلغت نسبة الذين تنحصر اعمارهم من (٢٠ — ٣٩) سنة ٧٧٫٥٪ وبلغ معدل اعمارهم (٣١) سنة ، وكانت نسبة الضحايا من الشباب تساوي ٤٥٫٣٪ .

د — التركيب المهني للضحايا : —

تعد مهن افراد المجتمع من الخصائص الديمغرافية المهمة ، فعن طريق حوادث المرور يفقد المجتمع كثيراً من افراده اصحاب المهن والتي يكون بعضها مهماً جداً لايمكن تعويضه بسهولة ، حيث تتطلب عملية اعدادهم فترة طويلة وتكاليف باهضة ، وكانت المهنة السائدة في عينة البحث من العسكريين بنسبة ٢٨٫١٪ من الضحايا و ٥١٫٣٪ من مرتكبي الحوادث الذين دخلوا السجن .

هـ — المستويات التعليمية للضحايا : —

التعليم متغير هام في تفسير السلوك الديمغرافي ، كما انه احد المميزات الاجتماعية للافراد الذين يدخلون في تعدادات السكان والمسوحات الديمغرافية ويؤثر التحصيل الدراسي للفرد الى حد كبير على مستوى حياته المعاشية ومركزه الاجتماعي ، كما انه يلعب دوراً هاماً في التأثير على صحة الفرد ومواقفه الفكرية ، ونظرته الكاملة للحياة ، ويؤثر على الرفاهية الاقتصادية والتطور الحضاري والاجتماعي للمجتمع (١٩). لهذه الاسباب مجتمعة حاولنا التعرف

على المستويات التعليمية لضحايا الحوادث ، ولعدم التمكن من معرفة هذه المستويات للضحايا ، فأكتفينا بالتعرف على المستويات التعليمية لمرتكبي الحوادث . فكان ٢٧,٥٪ من خريجي الابتدائية و١٠٪ من خريجي الاعدادية وكذلك ١٠٪ من خريجي الجامعة.

ملخص لاهم النتائج : ـ

اولاً : فيما يأتي اهم النتائج التي توصلت اليها الدراسة بشأن الآثار العائلية : ـ

١ ـ ٨٢,٥٪ من المبحوثين كانوا متزوجين ، الامر الذي يعكس اثر حوادث المرور اكثر مما لو كانوا غير متزوجين ، حيث تبين ان ٦٧,٥٪ منهم كان لهم اكثر من (٤) ابناء ، وتبين ان ٨٠,٥٪ من ابنائهم تتراوح اعمارهم من (١ ـ ٦) سنة ـ اي ان اغلبية ابنائهم في عمر الطفولة . لذا هم بأمس الحاجة الى الرعاية الابوية .

٢ ـ ذكر ٢٢,٥٪ من المبحوثين ان ابناءهم تركوا الدراسة بعد دخولهم للسجن وهذا مؤشر على فقدان الرعاية المباشرة من قبل الاب .

٣ ـ تبين ان ٦٠,٣٪ من عوائل المبحوثين يعيشون لوحدهم في دورهم ، و ٣٩,٧٪ يعيشون مع الاقرباء . وهذا يؤشر تقلص الامكانيات المالية لهم .

٤ ـ ظهر ان ٤٢٪ من عوائل المبحوثين بدون مصدر رزق و ٣٤٪ منهم يلقون المساعدات من الاقرباء .

٥ ـ تبين ان ٧٩,٧٪ من المبحوثين تعاني عوائلهم من المشكلات . وان ٨٢,٦٪ من هذه المشكلات ظهرت بعد دخول المبحوثين للسجن وكانت

٩, ٧٣٪ منها مشاكل مالية ، و ٨, ٣٤٪ سكنية ، ٤, ٣٠٪ مشاكل تتعلق بسوء العلاقة الزوجية .

٦ — اجاب ٨٠٪ من المبحوثين ان عملية سجنهم اثرت على مكانتهم الاجتماعية وسمعة عوائلهم .

٧ — تبين ان ٥, ٥٧٪ من المبحوثين من مرتكبي الحوادث لهم اصدقاء من المجرمين في السجن ، الامر الذي يؤدي الى احتكاك هؤلاء مع المجرمين الخطيرين فيحتمل اكتساب السلوك الاجرامي واللجوء الى الجريمة في المستقبل وهذه الظاهرة تكون على اشدها خطورة في تأثيرها على العائلة والمجتمع .

ثانياً : —

توصلت الدراسة بالنسبة للآثار الديمغرافية الى مايأتي : —

١ — تبين ان اعمار المبحوثين كانت من الفئات الشابة ، فقد بلغت نسبة من تتراوح اعمارهم من (٢٠ — ٣٩) سنة ، ٥, ٧٧٪ ، وبلغ معدل اعمارهم (٣١) سنة . كذلك بلغت نسبة الشباب من الضحايا ٣, ٤٥٪ .

٢ — كانت نتيجة (٨٠) حادثاً مرورياً ارتكب من قبل المبحوثين (١٦٠) حالة وفاة ، و (٢٧٨) حالة جرحى .

٣ — تبين ان ٥, ٧٤٪ من الضحايا كانوا من الذكور . وهذه الظاهرة تؤثر في التركيب الجنسي للسكان .

٤ — ظهر ان ١, ٢٨٪ من الضحايا كانوا عسكريين والباقي من مهن مختلفة ، اما المبحوثون من السجناء ، فكانوا ٣, ٥١٪ عسكريين والباقي من مهن مختلفة ايضاً .

٥ — تبين ان ٢٠٪ من المبحوثين كانت مستوياتهم التعليمية اقل من الاعدادية و١٠٪ خريجي الاعدادية و ١٠٪ خريجي الجامعة .

واخيراً في ضوء النتائج التي توصلت اليها الدراسة على مستوى الآثار العائلية والسكانية نقبل فرضيات البحث .

التوصيات : ـ

يوصي الباحث وفي ضوء نتائج البحث بما يأتي : ـ

١ ـ فرض عقوبة مالية على مرتكبي الحوادث وتكون ذات قيمة كبيرة لتكون رادعاً لحوادث المرور وذلك بدلاً من وضع مرتكب الحادث في السجن بسبب اول حادث له .

٢ ـ تخصيص ردهات خاصة للمسجونين من مرتكبي الحوادث وعدم السماح لهم بالاختلاط مع بقية المجرمين اطلاقاً .

٣ ـ من الضروري جداً عرض افلام سينمائية او تلفزيونية للمسجونين من مرتكبي الحوادث ، تشخص هذه الافلام ، الاخطاء التي يرتكبها السواق وتؤدي بهم للوقوع بالحادث .

٤ ـ من الضروري فتح دورات لتقوية وزيادة مهارة السياقة للمسجونين بسبب حوادث المرور داخل السجن ، بدلاً من تركهم مضطجعين على اسرتهم .

٥ ـ تكثيف عرض الافلام عبر الوسائل الاعلامية العامة ، والتي تبين آثار حوادث المرور بمختلف الجوانب ، وعدم الاقتصار على عرض اسباب وقوع الحادث .

٦ ـ الاخذ بمبدأ المصالحة بين مرتكب الحادث ، واهل المجني عليه ، بدلاً من وضع الجاني في السجن وخصوصاً عندما يكون اول حادث مروري له .

٧ ـ حجز مركبة السائق الذي يرتكب الحادث لفترة طويلة تحدد قانوناً ويحرم من ممارسة السياقة او تسحب اجازته ، بدلاً من وضعه في السجن وخصوصاً عندما يكون اول حادث له .

الهوامش والمصادر : —

(١) المركز العربي للدراسات الامنية والتدريب بالرياض ، دراسات في ادارة المرور في المدن الكبرى ، تقديم الدكتور عبد الجليل السيف ، ١٩٨١ ، ص١٠ .

(٢) العميد الحقوقي عبدالوهاب التحافي ، حوادث المرور مشكلة عالمية معاصرة ، مجلة نداء السلامة ، العدد السادس تصدرها الجمعية العراقية للسيارات والسياحة في العراق ، ١٩٨٨ ص٢٣ .

(٣) المجموعة الاحصائية لسنة ١٩٧٩ و ١٩٨٥ ، وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للاحصاء ص١٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص١٣ .

(٥) يقصد بحادث مميت ، ذلك الحادث الذي تنجم عنه حالة وفاة واحدة على الأقل .

(٥) المصدر السابق ص١٦ .

(٦) عبدالله مرقس رابي ، حوادث المرور ، اسبابها الاجتماعية والنفسية ، مطبعة اشبيلية بغداد ، ١٩٨٥ ، ص٣٢ .

(٧) د. حيدر كمونه مشكلات النقل والمرور في المدينة العراقية ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٨٦ ص٥٢ .

(8) United Nation, Statistical of rood, traffic accidents in Europe. Newyork 1980, P. 14.

(٩) وزارة العدل ، قانون العقوبات العراقي وتعديلاته ، الاعلام القانوني ، طبعة ٣ ، مطبعة وزارة العدل ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ١٧٣ .

(١٠) وزارة الداخلية ، قانون المرور المعدل ، مديرية المرور العامة ، ١٩٨١ ، ص٢١ .

(١١) عرض الاستبيان على سعد خضير معاون مدير عام دائرة الاصلاح الاجتماعي للكبار ، والدكتور عطام حمد خلف الجبوري رئيس قسم الخدمة الاجتماعية .

(١٢) د. محمد عاطف غيث ، المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص١٤٧ .

(١٣) طه ابو الخير ، منيرة العصرة ، انحراف الاحداث ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٦١ ص ٣٢٥ .

(١٤) مصطفى حجازي ، الاحداث الجانحون ، دار الطليعة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١ ، ص ٢٥.

(١٥) د. سناء الخولي ، الاسرة والحياة العائلية ، مركز الكتب الثقافية ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥٧

(١٦) عبدالجبار عريم ، نظريات علم الاجرام ، طبعة ٦ ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٣ ص٨٤ .

(٥) ظهر المجموع ٣٩ لان بعض المبحوثين ذكروا انهم يعانون اكثرمن مشكلة واحدة .

(١٧) . يونس حمادي علي ، مبادىء علم الديمقراطية ، جامعة بغداد ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٨٥ ، ص٢٨٣ .

(١٨) المصدر السابق ص٢٧١–٢٧٨ .

(١٩) المصدر السابق ، ص٣٣٩ .

اثر مناخ عصر البلايستوسين على العراق (١)

د.غسان طه ياسين

قسم التاريخ – كلية الأداب

جامعة الموصل

تكمن أهمية عصر البلايستوسين (عصر الزحرف الجليدية) في إنه عصر ظهور الأنسان العاقل وأشباه الأنسان (٢) ، وتطور البيئة الجغرافية واستقرارها

(١) تقدم بفكرة العصر الجليدي الجيولوجي السويدي جين لويـن أجازي (Jean Louis Agassiz) في عام ١٨٣٠ وقد اسماه يازيت (Eiszeit) اي العصر الجليدي (Ice Age) ،وفي عام ١٨٣٩ اقترح ليل (Lyell) تسميته بعصر البلايستوسين ووضعه حسب الترتيب الجيولوجي بعد عصر البالبوسين (Pliocene) ، ثم عدلت التسميتان من قبل فوربس (Forbes) وجعلهما فترة زمنية واحدة اطلق عليها اسم العصر الجليدي (Ice Age) (حول هذا الموضوع انظر المصادر الآتية :

Collins, D.
1976 The Human Revalution from Ape to Artist .
Phaid on: Oxford, PP. 34 ff.
Hadingham, E.
1980 Secrets of Ice Age. Great Britian. PP 17 ff.

(٢) سبق ظهور الإنسان العاقل (Homo Sapiens) مجاميع اطلق عليها اشباه الإنسان (Hominidae) وهي على التوالي : الإنسان القروي (الأوسترالوبيتكس) "Australopithecus" وإنسان الصين وجاوه (هومواير كتس) «Homo erectus» وانسان نياندرتال (Neandertals man) فقد إنقرضت هـذه المجاميع وظهر الإنسان العاقل سلفنا المباشر بحدود ٣٥ الف سنة ماضية (انظر المصادر الآتية :

Tuttle: R.H;
1985 "The Emergence of Homo Sapiens. Science 208: 868-869.

عبدالجليل جواد : «متى وكيف ظهر الإنسان العاقل» سومر ١٩٧٢ ، ٢٨ : ٣١ – ٥١

فكان عصراً بارداً في المناطق التي غطاها الجليد وعصراً ممطراً في مناطق أخرى [1] ، فقد حدث أن هبطت درجات الحرارة أربع مرات على الأقل في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، وتقدم الجليد نحو الجنوب ، وقد تخلل العصور الجليدية الإربعة (كونز « "Gunz" ») مندل «"Mindel" » ، ريس « "Riss" » وفيرم « "Wurm" » ثلاث فترات دفيئة Inter Glacial Period وهي كونز مندل ، ومندل رس ، ورس فيرم فضلاً عن حدوث فترات برودة ودفيئة كانت تحدث ضمن الزحف الجليدي يطلق عليها (Stadial, Interstadial).

إنّ بداية عصر الجليد قد تختلف من منطقة إلى أخرى ، ففي روسيا السوفيتية والصين أرخ بحدود ٩٥٠ ألف سنة وفي كندا بحدود ٢ مليون سنة ، كما وجدت مخلفات هذا العصر في الجزائر والصحراء الكبرى تعود إلى ٤٥٠ ألف سنة ، والدراسات الحديثة تشير إلى أنّ بداية إنخفاض درجات الحرارة ترجع إلى حدود ٣مليون سنة أو أكثر من ذلك وانتهت بحدود ١٠ الاف سنة ماضية (McCord 1974: 56; Hadingham 1980: 19).

تأثر العراق والمناطق المجاورة لهُ بتقلبات مناخ هذا العصر وكان تأثيره مباشراً على الإنسان والحيوان والنبات ، وترك بصماته على سطح الأرض وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال هذا البحث .

(١) غطت الصفائح الجليدية معظم الأجزاء الشمالية من الكرة الأرضية بما فيها المرتفعات الاسكندنافية وجبال الألب والبرانس والكربات والأورال وجبال الأبنين واواسط اوربا وشمالها وجبال هملايا وتيان شان ، ومرتفعات سيبريا ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية وصل إلى حدود ولاية تكساس وغطى شمال كندا والجزر البريطانية باستثناء جيب صغير في ويلز وكذلك جبال الأطلس في شمال افريقيا وجبال زاكروس وطوروس . اما المناطق التي تقع جنوب خط الثلج الدائم فقد عاشت عصوراً ممطرة (Pluvial Periods) هي : الصحراء الكبرى ، والشرق الأدنى القديم وجنوب آسيا والأجزاء الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية .

مناخ العراق في عصر الجليد :

إنّ إعطاء صورة واضحة عن المناخ القديم (Palaeoclimatology) للعراق خلال عصر الجليد لم يكن بالأمر السهل ولا اليسير ، فيتطلب منا الرجوع إلى عدة دراسات علمية يعول عليها الباحثون الآن وخاصة المتعلقة بتحليل غبار الطلع Pollen analysis (١) لمعرفة نوع النبات والمناخ السائدين Wright. H.et al, 1967; Solecki, R. 1981 فضلاً عن علوم الأرض (Geology) التي تدرس المؤثرات التي يتركها مناخ هذا العصر في الصخر والطين او التكوينات الأخرى ، وعلى علم الحيوان (Zoology) باعتبار الحيوان مؤشراً على علم الآثار (Archaeology) الذي يدرس لنا مخلفات الإنسان القديم وتأثير المناخ على نمط الإستيطان ؛ فهذه كلها مؤشرات مناخية (Climatic indicators) يمكن الإستفادة منها لتكوين صورة عن مناخ العراق القديم .

١ — تحليل غبار الطلع Pollen Analysis :

يمكن الإعتماد على تحليل غبار الطلع لمعرفة نوع النبات والمناخ السائدين لفترة او فترات زمنية اكثر من المصادر الاخرى وذلك لأن غبار الطلع غير قابل للتلف، كما يمكن التعرف على انواع متعددة من النباتات ومن مناطق مختلفة (Dyer 1980 ; 15-16) ولهذا سوف نستفيد من هذه الدراسة لمعرفة نوع المناخ والنبات في المناطق المجاورة للعراق (٢) .

---

(١) استعملت هذه الطريقة لأول مرة في السويد عام ١٩١٦ وشاع استعمالها مؤخراً حيث يستطيع المختص ان يكون صورة عن طبيعة المناخ والنبات السائدين ولفترات مختلفة .

(٢) درست عينات غبار الطلع في ايران في موقعين هما : ميراباد (Mirabad) وزازيبر (zeribar) وفي تركيا بحدود (١١) موقعاً ، وفي سوريا ثلاثة مواقع : الغاب (Gabb) وساحل اداره (Sahl – Aadra) وفي يبرود ،وفي فلسطين: موقع الحولة (Huleh) وكنيريت (Kinneret)

Van zeist, W. & Bottema 1982 "Vegetational History of the Eastern Mediteranean and the Near East during the last 20,000 years" B.A.R– International series Vol 133 (11)

درست عينات غبار الطلع التي اكتشفت في كهف شانيدر بالقرب من راوندوز في شمال العراق من قبل الباحثة الفرنسية ارليت كورهان (SolecKi , R & Leroi – Gourhan 1961 ; Leroi – Gourhan 1975) وفي كهف زرزي (في محافظة السليمانية) ، وفي قرية زاوي – جمي شانيدر (بالقرب من كهف شانيدر) (SolecKi, R. L 1981) ، فقد شخصت الباحثة الفرنسية اكثر من ٢٠٠٠ حبة غبار طلع في المقطع التنقيبي لكهف شانيدر وقدمت لنا صورة عن المناخ والنبات السائدين خلال العصور الحجرية والتي تتزامن مع الزحف الجليدي الأخير «فيرم» .

فقد التقطت اول عينة من كهف شانيدر على عمق ٨,٦م من الطبقة D المؤرخة إلى العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Palaeolithic) واكدت الباحثة الفرنسية أنّ هذه العينة تضم (١٢١) حبة غبار طلع تعود لمجموعة نباتية لمنطقة واسعة وقد أخذت طريقها داخل الكهف وهي تمثل نباتات البلوط (Oak) والدردار (elm) والصنوبر (Pine) والجوز (Walnut) والنبق (buck thorn) ، فضلاً عن وجود دليل لنباتات عشبية معظمها تعود إلى نباتات العائلة المركبة السيكوريوم (Cichoriuum) ومن العائلة الرمرامية (Chenopodiaceae) ، كما ذكرت ايضاً وجود غبار طلع النخيل مما يدل على انّ الظروف المناخية التي وجدت فيها كانت تختلف عما هو الآن ، ويعتقد إنّه كان ينمو في اسفل الوادي على عمق (١٠٠٠ قدم) في كهف شانيدر ، وهذا دليل واضح على ان المناخ كان حاراً وساد منطقة السهوب الجافة مما ساعد على إنبات النخيل بحدود (٤٥) الف سنة ماضية ، وقد نشر سولوكي هذا الخبر (Solecki, R – & Leroi – Gourhan 1961: 734, Solecki, R. 1963: 10)

كما نشر الخبر نفسه الباحثان العراقيان (ابو الصوف ١٩٨٨ : ١٤١) وقبله (محمد رشيد الفيل ١٩٦٨ : ٢٥٩)،واستمر العمل به حتى بداية عام (١٩٧٦) بعدما وصلت الينا رسالة من الباحثة الفرنسية أرليت كورهان تقول فيها أنَّ نتائج الفحص المختبري المكثف على عينات الغبار التي وجدت في كهف شانيدر لا تشير إلى وجود اي دليل لغبار طلع النخيل واضافت أنَّ رالف سولوكي قد نشر خبراً قبل التأكد من صحته واخذ مني كلاماً عفوياً ذكرته حول إحتمال وجود غبار طلع النخيل (١) .

التقطت عينة اخرى على عمق (٧,٥م) ومن نفس الطبقة (D) على ارضية الاستيطان اسفل بقايا انياندرتال رقم (٢) : وقد شخصت (٤) حبات من غبار طلع نبات التنوب (Fir) ذات الإبر الورقية الذي ينمو الآن في مناطق سايبريا في الاتحاد السوفيتي مشيراً إلى أنَّ المناخ اصبح بارداً وإنَّ اقساماً من المنحدرات الجبلية كانت مكتظة بالغابات والأعشاب . كما اخذت عينات اخرى من المنطقة المحيطة بانسان انياندرتال رقم (٤، ٦) وبعد التحليل المختبري تبين وجود ثمانية انواع من الأوراد والزهور ربما وضعت بتعمد على قبر انسان انياندرتال من قبل زملائه منها الأفيليا – او الحنزبيل ، والبابونج والقنطريون الزنبق(Leroi-Gourhan 1975: 563)، وتعتقد الباحثة آنفة الـذكر انَّ إنسان النيانـــدرتال رقم (٤) قد مـات قبل (٥٠) الف سنة وإن الأوراد والأزهار قد وضعت عليه إمّا في نهاية الشهر الخامس او بداية الشهر السابع لأنَّ الأزهار المشخصة تنمو عادة في شمال العراق خلال فترة الربيع (Ibid : 564) .

---

(١) تم الإتصال مع الباحثة الفرنسية ارليت كورهان بالتعاون مع الدكتور غانم وحيدة حول هذا الموضوع (ياسين ١٩٧٦ : ٥٣) .

وفي اعلى الطبقة (D) المستيرية التقطت ايضاً عينتان على عمق (٤,٢٥م) و(٤,٣٣م) تمثل مجموعة نباتية متماثلة تعكس الظروف البيئية السائدة في تلك الفترة ، وهو المناخ الرطب والرجوع إلى المناخ الدافيء بحدود (٤٤,٠٠٠) الف سنة ماضية ، وتضم هذه اشجار الصنوبر والعرعر والبلوط والكستناء التي تنمو عادة على المنحدرات الجبلية فضلاً عن السرو (Cypres) الذي ينمو في اسفل الوديان

(Solecki, R & Leroi-Gourhan 1961: 735; Solecki. R. 1963 : 8)

أمّا الطبقة (c) في كهف شانيدر والمؤرخة إلى العصر الحجري القديم الأعلى (البرادوستي) وجدت فيها ثغرة استيطانية بحدود (١٠,٠٠٠) آلاف سنة تمتد من الطبقة المستيرية إلى الطبقة البرادوستية بين (٤٤٠٠٠ – ٣٤٠٠٠) الف سنة ماضية ، وإنّ مخلفات هذه الطبقة تشير إلى تغير في ظروف المناخ من السهوب الجافة إلى المناخ الرطب والبارد ، فسادت نباتات مثل العلند – أفيدرا (Ephedra) والسنتوريا (Centaurea) والأراميرا (Armeria) ، وقد أرخت هذه بحدود (٣٤,٠٠٠) الف سنة حيث وجد ما يماثل هذا المناخ في اوربا وذلك طبقاً لتواريخ كاربون ١٤ (١) .

---

(١) كاربون ١٤ : مادة مشعة تستخدم في تقدير عمر المخلفات القديمة العضوية منها (النباتية والحيوانية) اكتشفت من قبل العالم الامريكي ليبي عام ١٩٤٩ ، إن فحوى هذه الطريقة تقوم على اساس ان الكربون ذا النشاط الاشعاعي (كربون ١٤) الذي ينطلق في الجو يتكون نتيجة لتفاعل بين الأشعة الكونية وبين النتروجين ويدخل في تركيب جميع الكائنات الحية . وعندما يموت الكائن يتوقف تمثيل الكاربون العادي (كربون ١٢) وكربون ١٤ ، وتبدأ ذرات كاربون ١٤ بالتحلل بمعدل ثابت قدره (١٥,٣) ذرة في الدقيقة عن كل غرام واحد من الكربون ، وتمكن العالم لبي وزملاؤه من جامعة شيكاغو من تأريخ المواد العضوية إلى حدود (٧٠) الف سنة ، وإن نصف عمر الكربون ٥٧٦٠±٣٠ عاماً .
وفي السنوات الأخيرة جرى تعديل وتحسين على هذه الطريقة لتصل تأرختها بحدود(١٠٠)-

أمّا العينة التي التقطت على عمق (٣م) فقد دلت أيضاً على سيادة المناخ الرطب والبارد ونمو الغابات فضلاً عن زيادة في نباتات العائلة الانجيليه (العشبية) ومن العائلة المركبة وذلك بحدود ٣٤ الف سنة إلى ٢٥ الف سنة . (Solecki 1963: 8)

كما وجدت هناك ثغرة أخرى في الإستيطان في كهف شانيدر بحدود (١٤) الف سنة وهذه تقع بين الطبقة البرادوستية والطبقة المؤرخة إلى العصر الحجري الوسيط تمتد من ٢٦,٠٠٠ — ١٢,٠٠٠ الف سنة من الوقت الحاضر وهذه الفترة توافق البرد القارص في اوربا من الزحف الجليدي الأخير ڤيرم ، ويرى سولوكي ان الظروف المناخية الباردة هي التي أجبرت على ترك الموقع خلال هذه الفترة ، بينما تعتقد الباحثة الفرنسية ارليت كورهان بأنّ هناك دليلاً على وجود مياه جارفة غمرت الكهف في نهاية هذا العصر ربما يعود ذلك إلى ذوبان الجليد (Solecki, R. & Leroi-Gourhan: 1961 : 735) وقد تأكد هذا المناخ ايضاً من خلال دراسات غبار الطلع في بحيرة زاريبر في شمال غرب ايران التي قام بها فان زست الذي ذكر أنّ نباتات الفترة الواقعة بين ٢٢ الف سنة إلى ١٤ الف سنة تشير إلى أنّ المناخ كان جافاً وبارداً اكثر من الوقت الحاضر Van zeist 1969 35-46 Van zeist and Bottema 1942:288 ولكن هناك ادله اخرى تشير إلى أنّ انسان هذا العصر استطاع العيش في

= الف سنة ونصف عمرها بحدود ٦ الاف سنة وذلك من قبل باحثين في جامعة اوكسفورد بانكلترا ، وبهذه الطريقة استطاع العلماء من تأرخة مخلفات انسان انياندرتال (انظر المصادر الآتية :

Chippindale, C 1983 "Radiocarbon comes of age at Oxford" New science vol 99, No 1367, PP. 181-187 .
Gillespie, R. Traffic Acdent
1984 Radiocarbon User's Hand book. Oxford University Great Britain. (Solecki 81 397:7)2

منطقة جبال زاكروس وفي نفس الظروف السابقة ، ففي كهف وارواسي (Warwasi) (١١ كم شمال غرب كرمنشاه) وموضع باسنكار (Pasangar) في وادي خرمباد في لورستان وجدت مخلفات إنسان هذا العصر ودلت الدراسات على تطور الثقافة الزرزية في هذه المنطقة وهذه الأخيرة متطورة من ناحية الثقافية البرادوستية السابقة لها (Wright, H 1968: 335) . كما عثر مورتيسن (Mortensen) خلال المسح الذي قام به عام ١٩٧٥ على مواد اثرية تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى في ٧ كهوف وفي ٨ مواقع مكشوفة في لورستان (Oates, J. 1982: 360) وهذا دليل آخر على انّ انسان هذا العصر استطاع العيش في هذه المنطقة رغم الظروف المناخية القاسية.فضلاً عن انّ استيطان الانسان في هذه الفترة لم يكن مقصوراً على الكهوف والملاجيء بل هناك أدلة كثيرة جاءت من مواقع في العراء تتداخل مع الفترة الزرزية او اقدم منها ، كما هو الشأن في موقعي توركاكا (Turkaka) وخوري خان (Kowri Khan) في سهل جمجمال بالقرب من قلعة جرمو (Briad wood and Howe 1960: 28, 55–57) امّا مناخ الفترة التالية والتي تمثل نهاية عصر البلاستوسين التي تقع بين (١٤٠٠٠ – ١٠٠٠٠) الاف سنة ماضية فيمكن دراستها من خلال الطبقة (B2) في كهف شانيدر وكهف زرزي وبالي كورة وفي زاوي جمي شانيدر والعائدة إلى العصر الحجري الوسيط Mesolithic والطبقة (B1) في كهف شانيدر والمؤرخة إلى الفترة الشبيه بالعصر الحجري الحديث (Proto Neolithic) .

ففي بالي كورا المؤرخ بواسطة كاربون ١٤ الى ١٤,٤٠٠ ± ٧٦٠ ق ـم شخصت ١٤ عينة من الفحم منها ١١ عينة تعود إلى اشجار البلوط

وواحدة للطرفاء (Tamarisk) وواحدة تعود إلى شجرة الحور (Poplar) واخرى لشجر الصنوبر (Conik) هذه النباتات تشير إلى انَّ المناخ كان شبه رطب او شبه جاف ولم يكن يختلف بصورة عامة عن مناخ الوقت الحاضر (Briadwood & Howe 1960: 54, Oates, J- 1982: 360) اما دراسات ارليت كورهان لعينات غبار الطلع في موقع زرزي والمؤرخة بحدود (١٢) الف سنة او ربما اكثر من ذلك بحدود (١٥) الف سنة ماضية التي توازي مخلفات الطبقة (B2) في كهف شانيدر فقد دلت على وجود منطقة سهوب ومناخ جاف وبارد وقد سادت المنطقة نباتات من العائلة المركبة والنباتات الحبية (Cerealla) من الفصيلة النجيلية وقد تأكد ذلك المناخ ايضاً من بحيرة زاريبر Solecki, R. 1981. 56, Oates, J- 1982: 360 كما فحصت ايضاً عينات من غبار الطلع في موقع زاوي جمي شانيدر من قبل الباحثة الفرنسية ارليت كورهان التي اكدت التقلبات المناخية السابقة . حيث سادت المنطقة نباتات السهوب الباردة والجافة وهذه توازي ايضاً نهاية فترة السهوب التي سادت منطقة بحيرة زاريبر (Leroi- Gourhan 1981: 78-9) .

فالمؤشرات المناخية بصورة عامة تدل على وجود تغيرات في الظروف البيئية بين ١٤ — ١٠ الاف سنة ماضية حيث اخذت درجات الحرارة السنوية تزداد تدريجياً ، وقد تأكدت تلك التغيرات من خلال الفحص المختبري لعينات غبار الطلع في بحيرة زاريبر الذي دل على سيادة غابات البلوط والفستق ، كما لاحظ فان زست أنَّ الفترة التي تلت انسحاب الجليد من ١٠ — ٨ الاف سنة ماضية في غربي ايران سادت منطقة جبال زاكروس سهوب أشجار البلوط (Van zeist 1969: 43) .

إنّ دراسات غبار الطلع في منطقة الشرق الأدنى القديم تشير بصورة عامة إلى أنّ المناخ في نهاية العصر الجليدي اصبح اكثر رطوبة ودفئاً في الالف التاسع قبل الميلاد ، حيث لوحظ ان هناك زيادة في غبار طلع الفصيلة الحبية التي يمكن العثور عليها في كلتا الحالتين البرية والمدجنة ؛ فالزيادة في نسبة غبار طلع الحبوب قد لا يعني تغيراً في الظروف المناخية فقط وانما رافق ذلك تغير في الجانب الفكري والتقنية الزراعية ، وإنّ كلا العاملين قد أثر احدهما في الآخر وأديا إلى ظهور مرحلة جديدة في حياة الانسان ؛ الا وهو الانتقال من مرحلة جمع القوت إلى انتاج القوت ، فربما مارس اناس قرية زاوي جمي شانيدر بعض الاساليب او الطرق الزراعية ، وهذه النتيجة ادعمتها الدراسات التي اجريت على نوع الأدوات المستعملة لأغراض متعددة لانتاج الغذاء مثل الهاونات وايادي الهاونات والمطاحن والمطارق والمجارش والسكاكين .

كما وجدت هذه في مواقع العصر الحجري الوسيط الاخرى مثل ملقعات ؛ وكريم شاهر وكردجاي (Briadwood and Howe 1960: 50-55) وقد أكد فان زست أنّ منطقة وادي شانيدر كانت ملجأ للاشجار والحبوب البرية واحتوت على انواع نباتية في بداية العصر الذي تلا انسحاب الزحف الجليدي حيث اصبح المناخ اكثر دفئاً وزاد سقوط المطر (Van zeist 1969: 43) وقد ساعد ذلك سكان قرية زاوي جمي شانيدر بفترة مبكرة من الاستفادة من النباتات السائدة والمتوفرة لغذائهم فكانت البداية الاولى في إقامة القرى البدائية (Solecki 1981: 59) ، وتم بعدها مرحلة الإنتاج الفعلية والكاملة في مناطق عديدة في الشرق الأدنى القديم وخاصة في العراق في العصر الحجري الحديث . ولكن المناخ لم يستقر بصورته الحالية الا بحدود ٦ الاف سنة الماضية (Wright,H . et.al 1967: 442; Oates 1982: 361) .

اثر مناخ العصر الجليدي على نمط الاستيطان :ـ

إنّ تقلبات المناخ في العصر الجليدي قد اجبرت الانسان العراقي القديم على تغيير مواضع سكناه بين الحين والآخر ، ولهذا فقد وجدت مخلفاته منتشرة في اماكن متعددة من الشمال إلى الجنوب ولم يكن مثلما هو متعارف عليه أنّ الانسان العراقي خلال العصر الجليدي كان يعيش في الملاجيء الصخرية والكهوف في شمال العراق ،وسوف نوضح ذلك اخذين بنظر الاعتبار التسلسل التاريخي في ذلك .

تشير مخلفات الانسان العراقي في العصر الحجري القديم الأسفل (Lower Palaeolithic) إلى إنه كان يجوب مناطق مكشوفة في العراء . فقد عثر على ادوات اشولية في مواضع عديدة منها : مدرجات نهر دجلة في بحيرة سد صدام في محافظة نينوى : حيث عثر على (٤٠) موضعاً موزعة على جانبي نهر دجلة منها (٢٢) موضعاً وجدت جنوب زمار في قرية رفان وتقع المخلفات الأخرى على امتداد المناطق العليا إلى مركز فايدة بمحافظة دهوك . (ابو الصوف ١٩٨٧ :٩ ,Mazurowski 1984 : 21; Inizan, M 1984: 244 45)

كما عثر ايضاً على احد مصاطب نهر الفرات في موضع مسنة بحوض سد القادسية في محافظة الأنبار على فاس اشولي يعود إلى العصر الحجري القديم الأسفل .(Koziowaski, 1986: 12) .

تمثل الثقافة الاشولية حسب تسلسل ثقافات العصر الحجري القديم المراحل الأخيرة وتتداخل مع ثقافات العصر الحجري القديم الأوسط (الليفالوازي المستيري) ومن الناحية البيئية فإن الثقافة الاشولية توازي فترة الدفن الثالثة (رس — فيرم) حيث كان المناخ دافئاً لا يختلف عن الوقت الحاضر ، ولهذا نرى انّ انسان هذا العصر على الرغم من عدم العثور على هياكله العظمية ،

ولكنه ترك لنا مخلفاته التي تدل على أنّ الانسان كان يجوب المناطق القريبة من الانهار وقد اتخذ له اماكن وقتية قريبة منها لكي يصطاد الحيوانات التي ترتاد شرب الماء ، فقد عثر على فأس اشولي في الترسبات الحصوية في الزاب الكبير بالقرب من اسكي كلك ، اما مخلفات برده بلكا ، فقد ذكر بردوود وجماعته انّ مخلفاتها مزيجة بالأدوات الآشولية واللافالوازي المستيري ولكن موضع بردة بلكا على اكثر احتمال يعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط
(Briadwood & Howe 1960: 61 – 62).

كما التقطت ادوات حجرية ربما تعود إلى العصر الحجري القديم الأسفل في بحيرة الرزازة (Vol 1957 : 135-146) .

ظهرت مخلفات ثقافية جديدة مع بداية الزحف الجليدي فيرم بحدود ٧٥ ــ ٧٠ الف سنة قبل الميلاد(Hammond 1979:455 Nutzel, w 1979:288;) عرفت بالثقافة الليفالوازية / المستيرية تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط ، وإنّ معلوماتنا عن هذه الفترة اكثر وضوحاً من العصر السابق ، فمعظم المواقع التي وجدت فيها مخلفات هذا العصر تدل دلالة واضحة على انّ نمط الاستيطان تغير واتخذ انسان هذا العصر الكهوف والملاجيء اماكن يسكن فيها ليحمي نفسه من قساوة البرد ، وإنّ افضل ما جاءنا في هذا العصر هو من كهف شانيدر بمحافظة اربيل حيث تم العثور على تسعة هياكل عظمية تعود إلى انسان النياندرتال (Solecki 1971 : 326) ، وهذا الموقع الوحيد الذي عثر فيه على مجموعة بشرية تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط ، وخلال المسح الذي قام به سولوكي للمنطقة المجاورة لكهف شانيدر عثر على عدد من الكهوف والملاجيء لا تقل عن(١٥) كهفاً وملجأ ويعتقد سولوكي انها استخدمت لسكنى الانسان القديم Solecki 1978 : 327

أما المواقع الأخرى فقد عثر على مخلفات انسان النياندرتال ولم يعثر على هياكله العظمية حيث اظهرت تشابهاً مع مخلفات كهف شانيدر او تحمل صفات عثر في كهف هزار مرد في محافظة السليمانية على ادوات مستيرية مماثلة مجلية . لادوات شانيدر (Garrod 1930: 12-14) وكذلك في كهف سبيلك وبيخال (Briadwood & How 1960: 60) .

اما في وسط العراق فقد عثر على ادوات تعود إلى الصناعة الليفالوازية المستيرية في كهف (طارجمل) في محافظة كربلاء من قبل البعثة اليابانية (Fujii, H. 1974 : 88, Ohnuma 1976 : 305) وعثر على مخلفات أخرى تعود إلى نفس الفترة ولكن توزيعها يختلف حيث ان معظم المخلفات وجدت في اماكن مكشوفة تدل على ان الإنسان استطاع الخروج من الكهوف والملاجيء عندما يكون المناخ دافئاً فترك لنا مخلفاته في مواضع عديدة منها المكتشفات الحديثة في بحيرة سد صدام وعلى مصاطب نهر دجلة بالقرب من قرية رفان عشر على (٦٠) موضعاً (Mazurowski 1987 : 21) وفي حوض حمرين عثر في موقع تل صنكور (B) على أدوات مستيرية وهذه منطقة مكشوفة أيضاً (Fujii,H 1981: 196) وعثرت البعثة الامريكية في جامعة شيكاغو على عدة مواضع مفتوحة مكشوفة منها موضع قريب من عمود تلغراف ٢٢/٢٦ غرب جمجمال وعلى الرابية المسماة سرندور على الضفة اليمنى من وادي باستورة حوالي ميل واحد غرب طريق أربيل شقلاوة، فضلاً عن موقع برده بلكا في وادي جمجمال ، كما عثرت كارود عام (١٩٢٨) على أدوات مستيرية في الحصى بالقرب من كركوك (Briadwood & Howe 1960: 60-61) . وفي أماكن اخرى في وسط وجنوب العراق وجدت مخلفات إنسان انياندرتال في مواضع مكشوفة أيضاً ، فقد

عثر هربرت رايت على أدوات حجرية صغيرة وكبيرة تعود الى العصر الحجري القديم الأوسط في موضع على حافة الهضبة الغربية على بعد(٢) كم من قلعة القصير في محافظة المثنى (Wright 1966: 101-106) .

وخلال المسح الذي قامت به البعثة اليابانية في المناطق القريبة من كهوف الطار عثرت في موضع حفنة على أدوات مستيرية أيضاً (Ohnuma1976: 305)

.٠. يبدو أن انسان انياندرتال قد عاش ظروفاً مناخية متقلبة من برودة وحرارة معتمدين بذلك على توزيع نمط الاستيطان وعلى الدراسة السابقة التي أشرنا لها في بداية هذا البحث والمتعلقة بغبار الطلع ، فضلاً عن ذلك أن الزحف الجليدي فيرم قد انخفضت فيه درجات الحرارة وارتفعت ثلاث مرات (Stadial, Interstandial) وهذا مما قادني إلى أن انسان انياندرتال لم يعش فترات برد قارص فقط التجأ فيها إلى الكهوف ولكنه خرج إلى الاماكن المكشوفة في العراء خلال فترات الدفء أيضاً ولم يعش فقط في منطقة واحدة بل كان يجوب مناطق عديدة بحثاً عن الغذاء .

لم يتغير نمط الاستيطان كثيراً في الفترة التالية من العصر الحجري القديم الاعلى (Upper Palaeolithic) ، ولكن ظهر سلفنا المباشر وهو الإنسان العاقل (Homo Sapiens) بحدود ٣٥ ألف سنة وعاش ظروفاً مناخية قاسية البرودة حيث أنّ جليد فيرم قد وصل أقصى درجات البرودة (١٨ — ١٦) الف سنة ماضية (Hammond 1976 : 455 Nutzel,w 1975: 101) وإن الثغرات الأستيطانية التي وجدت في كهف شانيدر تدل على أنّ الموقع هجر لفترة وعاد الاستيطان فيه ربما كان لهذا علاقة بالظروف المناخية وقد ناقشنا ذلك في بداية البحث . ووجدت مخلفات هذا العصر لأول مرة عام

١٩٢٨ في كهف زرزي (Garrod 1930: 12-14) وفي الطبقة الثالثة (c) من كهف شانيدر ويرجح أن تاريخها بحدود (٣٤,٠٠٠) ألف سنة ماضية (Solecki 1963: 8) فضلاً عن كهف بالي كورا في محافظة السليمانية وكهف بيخال في محافظة أربيل (Briadwood & Howe 1960: 28, 57, 60)

كما عثر على مخلفات هذا العصر في مواقع مكشوفة في العراء وفي مصاطب نهر دجلة في بحيرة سد صدام تم العثور على ٢٣ موضعاً في الوديان القريبة من قرية رفان (Mazurowski 1987: 21)، كما وجدت بقايا هذا العصر في باراك وحجية بين عقرة والزاب الاعلى في محافظة نينوى(Briadwood, et.al 1954 124-126,130+131)

ينتهي هذا العصر مع بداية تراجع الجليد في قمم الجبال بحدود ١٨ الف سنة ماضية حيث تبدأ التغيرات المناخية بصورة بطيئة في مناطق الشرق القديم وقد أوضحنا ذلك مسبقاً فحل عصر جديد هو العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) الذي يفصل بين عصر الصيد والجمع وبين عصر الزراعة وتربية الحيوان وقد يتزامن هذا مع نهاية الزحف الجليدي بحدود ١٠ آلاف سنة ماضية وعندها ظهر نمط جديد للاستيطان في المنطقة الجبلية والتلية في شمال العراق وفي مواقع مكشوفة في العراء مثل زاوي جمي شانيدر، وكريم شاهر، وكردجاي، وملفعات ففي هذه المواقع بدأت البوادر الاولى لعملية تدجين الحيوان والنبات والتي تحققت فعلاً في العصر الحجري الحديث وهنا تحقق اهم جانب من جوانب حياة الانسان وهو انتاج الغذاء وبدأ الاستقرار وظهرت البوادر الاولى للحضارة البشرية في هذا العصر .

آثار الجليد : —

إنّ أهم مؤشر حقيقي لمعرفة مناخ عصر الجليد في العراق يمكن أن يقوم على أساس دراسة مخلفات الجليد المتمثلة بالركامات والحلبات والمجروفات الحصوية والمدرجات التي وجدت في جبال العراق ؛ ويرجع ذلك الى أن دراسة الجيولوجي هربرت رايت من جامعة منسوتا الأمريكية الذي قام بمسح مناطق عديدة في جبال زاكروس في الجانب العراقي والتركي وبالتحديد في ثلاث مناطق هي : منطقة جبل هلكرد ، والسلاسل الجبلية في منطقة راوندوز المطلة على الزاب الأعلى حتى الحدود الايرانية ، والمنطقة الواقعة شمال جيلوداغ في جنوب شرقي تركيا على طول امتداد نهر الزاب الاعلى. ففي منطقة جبل هلكرد الذي يبلغ ارتفاعه مابين ٣٠٠٠ — ٣٥٠٠م فوق مستوى سطح البحر والذي يطل على اربع قرى هامة هي : بولا ؛ بركيم ؛ بني ، وسيدكه . فقد عثر في وادي بولا على بقايا ثلاجات على ارتفاعات مختلفة ١٧٠٠ — ٢٠٠٠ — ٢١٠٠ م ، كما تكسو قاع وادي بركيم مجروفات جليدية غير منتظمة ، ولم يعثر على ركامات جليدية واضحة المعالم ولكن عثر على مجموعة من الحصى المتخلف بفعل تراجع الثلاجات وذوبان نهايتها على ارتفاع ٢١٠٠ م ، أما في وادي بني الذي يقع على ارتفاع ١٥٠٠م فقد عثر على طبقة سميكة من المخلفات الجليدية ، فضلاً عن وجود حلبات (Cirques) فوق سفوح الجبال المحيطة بالوادي . وفي وادي سيدكه وجدت ركامات (boulders) يبلغ قطر الواحدة منها متر واحد وحلبات تشير الى هبوط الثلاجات . وفي منطقة راوندوز وجدت آثار الثلاجات ضمن الجبال العالية في شمال شرق العراق فقد عثر على حلبة في وادي كلالة على ارتفاع حوالي ١٩٠٠ م ضمن السلسلة الجبلية التي يبلغ ارتفاعها ٢٤٠٠— ٣٠٠٠ م ونفس المخلفات وجدت في وادي مارانه في الضفة اليسرى لنهر

راوندوز المتمثلة بسلسلة من الركامات تضم صخوراً وسفوحاً خشنة ووعرة تنحدر الى مستوى ٢٠٠٠م فضلاً عن وجود حلبة عميقة مع عدة بحيرات تشكل معالم واضحة على ارتفاع ١٨٠٠م. أما القطاعات الاخرى المطلة على وادي راوندوز فأن آثار التعرية الجليدية واضحة في وادي مارانة وكلالة ورازان حيث يظهر الحصى المتكدس أسفل الوادي بسبب ذوبان الجليد. إنّ آثار مخلفات الجليد تظهر واضحة في مضايق ووديان راوندوز أكثر من أي منطقة اخرى حيث تضم أغلب المدرجات في جبال شمال شرقي العـراق البلايستوسينية المقرونة بوجود ارسابات حصوية من خلال هذه المخلفات توصل رايت من أنّ خط الثلج في جبال شمال وشرقي العراق وخاصة في جبـــل هلكرد قد هبطت إلى ١٨٠٠م اكثر ممـــا كان محدداً من قبل بوبك بـ ٧٠٠م (رايت : ١٩٨٦هـ : ٥٦ — ٧٥ ؛ (Wright 9 H. 1960: 89, وبالمقارنة مع جبال الألب فأنّ انخفاض خط الثلج في جبال زاكروس وطوروس ربما يماثل انخفاض خط الثلج في جبال الألب أو كان له نفس التأثير وربما أكثر منه (Wright 1976: 385) ، أما المناخ الذي أعقب الفترة الجليدية فيمكن الاستدلال عليه من دراسات أخرى سبقت الاشارة اليها.

المدرجات النهرية : —

توصف المدرجات النهرية بأنها إحدى مظاهر الزحوف الجليدية فقد تأثر العراق بصورة خاصة في وديانه وأنهاره وفي أجزائه المختلفة الجبلية والسهلية على حد سواء. فقد درس هربرت رايت المدرجات النهرية في وادي نهر راوندوز فوجدها ترتفع بين ٤٠ — ٦٠ م فوق مستوى النهر الحالي ويعتقد إنها حدثت بسبب عمل الثلاجات أثناء تراجعها ، كما وجد مدرجاً قرب كلالة على ارتفاع ١٠٠٠ م وتسعة مدرجات أخرى بين كلالة وزازان وتمتد لمسافة ٢٠ كم وقد تكونت هذه من ترسبات حصوية بعد أن

عمق النهر مجراه السابق ، كما عثر على مدرج في رايات إرتفاعه ٣٠م وآخر في قرية سيدكه عرضه ٣٠م على ارتفاع ٩٥٠م فوق مستوى سطح البحر (رايت ١٩٨٦ : ٤٠) إنّ قسماً من هذه المدرجات يعود إلى أسباب تكتونية والقسم الآخر بسبب فعل المناخ الجليدي .

كما أشار جيولوجيو شركة النفط العراقية في كركوك شمال شرق الهاووق الى ان وجود خمسة مدرجات تتداخل مع بعضها البعض وارتفاعها كما يلي ، المدرج الأول ٢٨٩ قدماً ، والثاني ١٩٠ — ١٧٠ قدماً ، والثالث ١١٠ — ٩٠ قدماً ، والرابع ٦٥ — ٥٥ قدماً والمدرج الخامس ٣٣ — ٢٥ قدماً (الفيل ١٩٦٨ — ٢٥١) كما درست مدرجات نهر دجلة بالقرب من سامراء والعظيم وهي كالآتي : —

المدرج الأعلى (المتوكل) ، المدرج الاوسط (المعتصم) ، المدرج الاسفل (المهدي)(بصمه جي ١٩٦٠) كما وجدت أربع مصاطب نهرية على امتداد نهر الفرات من قبل الباحث بسمرد (Passemard) وكانت ارتفاعاتها كالآتي : المدرج الاول (١٠٠م) ، والثاني (٦٠م) ، الثالث (٣٠م) ، الرابع (١٥م) (طه باقر ١٩٥٥) .

كما شخصت ثلاثة مدرجات في أحد الوديان القريبة من الزاب الاسفل على بعد (٧٥كم) شمال دوكان من قبل رايت وبيورنغ وهي : مدرج قلعة دزة الاعلى ومدرج جمجمال ومدرج جرمو (تشايلد ١٩٦٦) .

معظم المدرجات التي عثر عليها في العراق هي بدون شك قد تكونت خلال تبدلات المناخ التي حصلت في عصر البلايستوسين أو نتيجة لاسباب تكتونية فالمدرجات الواقعة في أعالي وأواسط مجاري الانهار فسببها يعود إلى اسباب مناخية مباشرة ومحلية ، ماعدا بعض المدرجات المتكونة في الاودية الجبلية

في شمال العراق فمن الخطأ ربطها بتقلبات المناخ لانها تعود الى حركات تكتونية (حركات باطنية تؤدي الى ارتفاع وانخفاض الارض) ولكن يمكن ربط المدرجات الواقعة في المجاري السفلى الى ارتفاع وهبوط مستوى مياه البحر الذي تأثر هو الآخر بتقلبات مناخ عصر البلايستوسين (١) .

يمكن الاستفادة من المدرجات النهرية والبحرية لمعرفة نوع المناخ السائد ، فاذا عثر على بقايا حيوانية ونباتية محبة للبرد أو للدفيء فهي مؤشر لمعرفة المناخ فضلاً عن الاثار التي يتركها الانسان في تلك المدرجات عامل آخر يساعدنا عن معرفة الثقافة السائدة في تلك الفترة وربطها بالمناخ السائد .

مؤثرات أخرى للزحف الجليدي

تأثرت الاقسام السفلى من نهر دجلة والفرات خلال الزحف الجليدي فيرم والذي حدد من الفترة ٧٥,٠٠٠ — ١٤,٠٠٠ الف سنة قبل الميلاد ، وقد سبق ان ذكرنا عندما يحدث الزحف الجليدي فان كميات كبيرة من المياه تكون على قمم الجبال وبالعكس عندما ينتهي الزحف الجليدي تعود المياه إلى البحار والمحيطات وترتفع مرة اخرى ، فهذه العملية تركت آثارها على كل من نهري دجلة والفرات والخليج العربي ، لا بتكوين المصاطب او المدرجات

(١) عندما يحدث زحف جليدي فإن كميات من مياه البحار والمحيطات ستكون فوق قمم الجبال وذلك بسبب التبخر فيتكاثف قسم منه على شكل ثلج ويتحول الآخر إلى امطار ، فهذا يعني ان مستوى المياه في البحار والمحيطات سوف يتغير عندما يحدث زحف جليدي ويؤدي ان تغير مستوى الأنصاب ، فيجد النهر للوصول إلى المصب الجديد الذي هو ابعد من السابق بالطبع ، ومن ثم فهو يترك ضفافه القديمة على شكل شاطيء ، او مصطبة عليا ، وعندما ينتهي الزحف الجليدي فإن مياه البحر ستطغي على الساحل ويقترب من نقطة مصب النهر ، ومن ثم يلقي النهر برواسبه اي يصبح نشاطه في الارساب هي الظاهرة السائدة ، ويتفق معظم العلماء ان تكون هذه المدرجات إنما يعود إلى نتاج العصور الممطرة (عندما يكون هناك زحف جليدي) والعصور الجافة (عندما ينسحب الزحف الجليدي) انظر المصادر التالية : —

1- Zemner, F.E; The Pleistucene period, London 1959 .
2- Cornwall, I.w.; Ice Ages their Nature and Effects. London. 1970.

النهرية فحسب ، بل ان الدراسات الحديثة ترى ان الخليج كان وادياً جافاً وإن نهري دجلة والفرات قد حفرا لهما مجرى داخل الخليج خلال الزحف الجليدي فيرم ووصلا اقصى حد لهما عند خليج عمان وذلك بحدود ١٤,٠٠٠ الف سنة قبل الميلاد (١) حيث تمثل هذه الفترة اقصى درجات البرودة واقصى عمق وصل اليه دجلة والفرات وكانا متصلان بسلسلة من البحيرات داخل الخليج العربي (Nutzel, 1979: 289) (انظر الخارطة في نهاية البحث) .

وأشار كسلير Kassler عام ١٩٧٣ الى ان مياه الخليج إنخفضت خلال الزحف الجليدي فيرم إلى (١٢٠م) تقريباً (29— 27— Kassler 1973) وانحسرت المياه واصبح وادياً جافاً ووصل حدوده إلى خليج عمان واتصلت البحرين باليابسة . (Sanlaville & Paskoff 1986: 17) بعدها اخذ المناخ بالتبدل بحدود ١٤,٠٠٠ الف سنة قبل الميلاد وبدأت الثلاجات تتراجع وتنسحب إلى قمم الجبال وذاب الثلج تدريجياً وعادت المياه إلى البحار والمحيطات واخذت مياه الخليج بالارتفاع حتى وصلت إلى اقصى حد لها بحدود ٥,٥٠٠ الف سنة قبل الميلاد في موضعه الحالي (Nutzel 1976: 15, 23)

ان هذه المعلومات الجديدة حول الخليج العربي تأكد ماذهب اليه كل من

(١) وصف نوتزل نظام مجاري الانهار في العراق خلال (٧٠,٠٠٠) الف سنة قبل الميلاد وإلى الوقت الحاضر وقسمه إلى اربعة اقسام : —

١— نظام النهر المحفور (incised river system)من ٧٠,٠٠٠ — ٥,٥٠٠ الف سنة قبل الميلاد .

آ — خلال الزحف الجليدي ڤيرم من ٧٠,٠٠٠ — ١٤,٠٠٠ الف سنة قبل الميلاد .

ب — بعد تراجع الجليد من ١٤,٠٠٠ الف سنة قبل الميلاد إلى فترة الدفء المعروفة باسم اتلانتيكيوم (Atlanticum) بحدود ٥,٥٠٠ الاف سنة قبل الميلاد .

٢— نظام تغير المجاري (alteration Process) من حوالي ٥,٥٠٠ — ٣,٥٠٠ ق.م .

٣— نظام النهر المجدول (braided river system) حدث في الفترات المتأخرة إلى الوقت الحاضر .

٤— نظام النهر المتعرج (Meandering river system) (Nutzel ,W.1979:288)

ليس وفالكون عام ١٩٥٢ حول تكوين ساحل الخليج عندما ذكروا لا يوجد دليل تأريخي على انّ رأس الخليج كان يوماً ما بعيداً عن حده الحالي وان أنهر دجلة والفرات وكارون لم تعمل على بناء دلتا تتقدم إلى الامام ، بل كل ما في الامر إنها تقوم بتفريغ حمولتها من الراسبات الغرينية في منخفضات القسم الجنوبي من السهل الرسوبي ، المتأثرة هي الأخرى بحركات باطنيـة (تكتونية) . ويعتقدون ان هناك بقايا استيطان في الخليج العربي قد غمرته المياه وأن الخليج قد توسع على حساب السهل الرسوبي وليس السهل الرسوبي كان يتوسع على حساب الخليج العربي مثل ماذهب اليه دي موركين ومؤيدوه عند تفسيرهم لتكوين السهل الرسوبي (Less & Falcon 1952: 24-28, 39)

الدليل الحيواني

من المؤشرات الأخرى لدراسة المناخ في العصر الجليدي هي الحيوانات ولكن للأسف إنّ الدليل الحيواني في مواقع العراق في العصر الجليدي ضعيف ولا يشير إلى تغيرات كبيرة في نوع الحيوانات السائدة في تلك الفترة والوقت الحاضر .

ففي برده بلكا عثر على بقايا عظام الفيل الهندي والبقر الوحشي والأغنام والماعز ، ويرى هربرت رايت أنّ هذه الحيوانات دفنت أثناء العصور الغزيرة المطر ،بينما يعد كل من جارلس ريد وبريدوود أنّ برده بلكا كان مكاناً لتجمع الصيادين Reed, C & Braidwood, R 1960-164-165

أما البقايا الحيوانية التي وجدت في الكهوف والملاجيء الصخرية في شانيدر وزرزي وبالي كور فلا تزودنا إلا باشارة خفيفة لبيئة العصر الجليدي الأخير ، وقسم من الحيوانات التي عثر عليها في هذه المواقع موجودة اليوم ، فقـد

درس جارلس ريد حيوانات كهف شانيدر لثلاثة مواسم ، ولاحظ أن التتابع الزمني في شانيدر بكامله منذ بداية الاستقرار فيه وحتى نهايته ضمت مجموعة حيوانية لم تتغير بشكل كبير من تلك التي ترتاد المنطقة في الوقت الحاضر واكد أنّ مناخ عصر الجليد لم يتغير كثيراً (Solecki 1963 : 10) وهذا لا يتفق والدراسات التي قامت على غبار الطلع والتي اشارت إلى تغيرات كبيرة في مناخ عصر البلايستوسين في كهف شانيدر وقد سبقت مناقشة ذلك، وبصورة عامة فإن الحيوانات تكون اقل حساسية لتقلبات المناخ من النباتات.

من خلال البحث يتضح لنا أن العراق عاش فترة الزحوف الجليدية التي كان لها لاثر الكبير في حياة الانسان وعلى النباتات وترك لنا بصماته واضحة على قمم الجبال والوديان والانهار وكانت نهايته خطوة هامة في حياة الانسان العراقي الذي استطاع ان يحقق حياة الاستقرار بعد أنْ كان يجوب المناطق تبعاً لتغيرات المناخ ، وبدا بانتاج قوته ، فكانت اول ثورة زراعية في حياة الانسان والتي نقلته من مرحلة جمع القوت إلى انتاج القوت ، وكانت البوادر الاولى للحضارة البشرية .



وضعية الخليج العربي والسهل الرسوبي بحدود ١٤٠٠٠ ق ٠م (وضعت هذه الخارطة من قبل ويرنر نوتزل) (Nutzel, w. 1979)

مصادر البحث

أبو الصوف ، بهنام : تنقيبات انقاذية شاملة في حوض سد صدام .
١٩٨٧ بحوث آثار حوض سد صدام وبحوث اخرى ،
ص ٨ — ٩ دائرة الأثار والتراث ، بغداد .

١٩٨٨ : تخطيط المدن في العراق القديم ، المستوطنات الأولى / المدينة والحياة المدنية ،الجزء الأول .ص١١٥—١٢١بغداد. —

الفيل ، محمد رشيد : «تطور مناخ العراق منذ بداية البليستوسين حتى
١٩٦٨ الوقت الحاضر» . مجلة كلية الاداب ، جامعة بغداد .
العدد ١١ ، ص ٢٣١ — ٢٧ .

باقر ، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الأول .
١٩٥٥ بغداد

بصمة جي ، فرج : دليل الجمهورية العراقية ١٩٦٠ ، بغداد .

Briadwood, R et al.,
- 1954 "The Iraqi-Jarmo Project" Sumer, Vol. x, PP 124-126, 130, 131 .

Briadwood, R- and Howe, B-
- 1960 Prehistoric investigations in Iraqi Kurdistan.Studies in Oriental Civilization. No. 31. The University of Chicago Ancient Press. Chicago .

تشايلد ، جوردون : التطور الإجتماعي ، ترجمة لطفي فطيم . القاهرة .
١٩٦٦

Collins, D.,
- 1976 The Human Revolution from Ape to Artist.Phaidon : Oxford.

Dyer, J-

- 1980 Discovering Archaeology in England and Wales.Shire Publication Ltd: Great Britian .

Fujii, H.

- 1974 "AL Tar Cave, Hill (A1) Excavation in 1972-73, The Second Preliminary Report". Sumer, Vol xxx (Nos 1 & 2), PP. 75-100.

Fujii, H. (edited)

- 1981 Preliminary Report of Excavations at Gubba and Songor. Al-Rafidan II, Journal of Western Asiatic Studies. Kokushikan University-Tokyo, Japan.

Garrod, D.,

- 1930 "The Palaeolithic of souther Kurdistan: Excavations in the caves of Zarzi and Hazar Merd". American School of Prehistoric Research. Bulletin No. 6, PP. 8-43.

Hadingham, E.

- 1980 Secrets of Ice Age. Heinemann: London.

Hammond, A.L.

- 1976 "Paleoclimate: Ice Age Earth was Cool and Dry". Science 191: 455.

Iniza", M.L.

- 1984 "Acheulean of the left Bank of the Tigris in Northern Iraq". Sumer xxxx111, PP. 244-45

Kozlowaski, S.,

- 1986 "Preliminary Results of the Palaeolithic Survey at Al-Qadissya Dam Project". Sumer, Vol xxxx , p. 12.

Less, G-M and Falcon, N.L.

- 1952 "The Geographical History of the Mesopotamian plains". The Geography Journal, Vol CXvlll; PP. 24-39.

Leroi-Gourhan, A .

- 1975"The Flowers found with Shanidar IV a Neanderthal Burial in Iraq". Science 190,PP. 562-564.
- 1981 Analyse Pollinique de Zawi chemi.In an Early Village Site at Zawi Chemi Shanider. Undena Publications: Malibu

Mazurowski, R

- 1984 "Preliminary Report on two Seasons of Survey Investigations in the Raffean Microregion 1984-1985". Sumer xxxxiii,PP. 20-23 .

McGord, A.

- 1974 All about Early Man. London and New York.

Nutzel, W.

- 1975 "The Formation of the Arabian Gulf from (14,00 B.C". Sumer vol xxxi, (Nos 1 & 2), PP. 101-110 .
- 1976 " The Climate Changes of Mesopotamia and Bordering Areas 14,000 to 2000 B . C"sumer vol - xxxII, (Nos - 182) PP . 11 - 24
- 1979 "On the Geographical Position of as yet Unexplored Earlyc Mesopotamian Cultures : Contribution to the Theoretical Archaeology". Journal of the American Oriental Society. Vol 99, PP. 283-296.

Oates, J.

- 1982 "Archaeological Evidence for Settlement Patterns In Mesopotamia and Eastern Arabia in Relation to possible Environmental Conditions" B.A.R International Series 133 (ii): PP. 359- 396 .

Ohnuma, K.

- 1976 " Lithic Artifacts from Tar Janal and Hafna " in AI - Tar I. Excavations in Iraq 1971 - 1974: Edited by Hideo Fujii . Ohara Printing Co; Ltd Jaban .

Reed, C.A. and Briadwood, R.J

- 1960 Toward the Reconstruction of the Environmental Sequence of Northeastern Iraq . In Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan. Studies In Ancient Oriental Civilization-No. 1. The University of Chicago: Chicago.

Sanlaville, P. and Paskoff, R .

- 1986 Shoreline Changes in Bahrain Since the beginning of Human Occupation. In Bahrain through the Ages the Archaeology . Edited by Shaikha Haya Ali Al Khalifa and Michael Rice . KPI. London and New York.

Solecki, R.S.

- 1963 "Prehistroy in Shanidar Valley Northern Iraq". Science 139: PP. 179–193.
- 1971 "Neanderthal is not on Epithet but a Worthy Ancestor". Smithsonian. Vol. 1. PP. 20–27.
- 1979 "Contemporary Kurdish Winter-time Inhabitants of Shanidar Cave, Iraq". World Archaeology, Volume 10. No. 3. PP. 318–330.

Solecki, R.S. and Leroi-Gourhan, A.

- 1961"Palaeoclimatology and Archaeologygy in the Near East",Annals New York Academy of Science. PP. 729–739. United Stutes of America.

Solecki. R.L.

- 1981 An Early Village Site at Zawi Chemi Shanidar. Undena Publications. Malibu.

Van Zeist, W.

- 1967 "Late Quaternary vegetation History of Western Iran". Rev of Palaeobotany and Palynology. Vol 2. PP. 301–311.
- 1969 Reflection on Prehistoric Environment in the Near East". In P.J. Ucko and G.W. Dimbleby (eds.), The domestication and Exploitation of Plants and animals, 1969. PP. 35–46.

Van Zeist, W. and Bottema, S.

- 1982 "Vegetational History of the Eastern Mediterrananean and the Near East during the Last 20,000 Years". B.A.R. International Series. Vol 133(ii). PP. 277–323.

Vou, C.A.,

- 1957 "Palaedithic Find Near Razzaza". (Karbala Iiwa)Sumer. Vo.l Xiii, PP. 135–146.

Wright, H.E. (Jr).

- 1960 "Climate and Prehistoric man in the Eastern Mediterranean" In Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan. Studies in Ancient Oriental Civilization. No 31. The University of Chicago Press–Chicago.

1962 "Pleistocene Glcciation in Rurdista n

ترجم إلى اللغة العربية بعنوان (العصر الجليدي البلاستوسيني في كردستان

من قبل فؤاد حمه خورشيد ، بغداد ١٩٨٦ .

Wright, H.E (Jr)

1966 "A Note an a Palaeolithio Site in Southern Pesert". Sumer, Vol xxii, PP 101-106.

Wright, H.E. (Jr)

1968 "Natural Environment of Early Food Production North of Mesopotmia. 'Science 161 ,PP.334 – 339.

Wright, H.E (Jr) and et al,

1967 "Modern Pollem Rain in Eestern Iran, and its Relation to Plant Geography and Quaternary Vegtational History". Journal of Ecology. Vol 55, PP. 515–443 .

ياسين ، غسان طه : العصر الحجري القديم الأوسط في الشرق الأدنى .

١٩٧٦ رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد .

مفهوم الذات لدى طلبة جامعة القادسية



اعداد

عبدالعزيز حيدر حسين — مدرس

جمال حميد قاسم — مدرس مساعد

محمد سعود صغير — مدرس مساعد

كلية التربية / جامعة القادسية

المقدمة

لقد ظهرت فكرة الذات بشكل جديد في علم النفس على يد (وليام جيمس) عام ١٨٩٠ حيث عد الذات : (أنها مجموع ما يمتلكه الفرد او ما يستطيع ان يقول انه له : — جسمه ، سماته ، قدراته ، ممتلكاته المادية ، الاسرية ، اصدقاء ، اعداءه ، مهنته ،الخ ... وقد تطور مفهوم الذات في علم النفس المعاصر بحيث اصبحت تعني جانبين هما الذات كموضوع والذات كعملية ، كحركة ، وفعل ونشاط كمجموعة من النشاطات والعمليات كالتفكير والادراك والتذكر ... الخ

ولقد اشاع استخدام الأنا ليصف الذات كعملية بينما استخدام تعبير الذات ليصف نظام تصور الشخص لنفسه (القاضي وآخرون ١٩٨١ ص ٢٢٦)

وان السلوك والظواهر النفسية لا يمكن فهمها الا اذا نظرنا إلى الفرد على اعتبار انه كل موحد اما اذا جزأنا وحدته إلى عناصر فاننا لا نستطيع ان نصل إلى جميع العوامل التي يمكن ان تحدد سلوكه ، وان فهمنا لسلوك الفرد لا يتم الا في ضوء المجال الكلي الذي يحتوي ذلك السلوك كما اننا اذا اردنا ان نصل إلى العوامل التي تحدد السلوك فلابد من ان نبدأ بالموقف ككل اولا ثم نميز بعد ذلك العناصر المكونة لذلك الموقف وليس العكس فالمجال الذي تحدث فيه الظاهرة هو الذي يحدد معناها وهذا المعنى او هذا الادراك هو الذي يحدد سلوكنا ازاء الموقف كما أن ادراكاتنا للمواقف الخارجية هي التي تحدد استجاباتنا الخاصة ازاء هذه المواقف كذلك فإن فكرتنا عن ذاتنا او الطريقة التي ندرك بها ذاتنا هي التي تحدد نوع شخصيتنا وهي التي تحدد كيفية تصرفنا ازاء المواقف والأفراد والأحداث الخارجية وتتوقف قيمتها بالنسبة للشخص على الصورة التي يدرك بها نفسه. (السيد وآخرون ، ١٩٧٠ ،ص١٩٠ — ١٩١).

وان القدرة على ادراك الذات حسب رأي (لينجر) تزداد بزيادة الذكاء والتعليم والمستوى الاجتماعي ، الاقتصادي . فالوليد غير قادر على تكوين مفهوم عن ذاته الا انه وبنمو قدراته يبدأ تدريجياً بتكوين مفهوم مقبول اجتماعياً عن ذاته وسيبقى هذا المفهوم عن الذات لديه إلى مرحلة المراهقة ومع تزايد النضج يبدأ الفرد بتكوين مفهوم متمايز وواقعي عن ذاته (مليكة ، ١٩٧٧ ، ص ٥١٩) ويأخذ مفهوم الذات ثلاثة ابعاد هي : —

١ — الذات الواقعية: —

وهي عبارة عن ادراك الفرد لقدراته ومكانته وادواره في العالم الخارجي اي انها مفهوم الفرد لنوع الشخص الذي يعتقد انه عليه ، فقد تكون لديه

صورة عن ذاته كشخص له كيانه ذي قدرة على التعلم، وقوة جسمية اي انه شخص كفء قادر على النجاح ، وعلى العكس من ذلك قد تكون لديه صورة سلبية بأنه عاجز او فاشل او انه قليل الأهمية ، ضعيف القدرات ، وإنّ فرص النجاح امامه ضئيلة .

٢ ـ الذات الإجتماعية : ـ

وهي فكرة الفرد عن نفسه كما يعتقد ان الآخرين يرونها وهذا المفهوم قد لا يتفق وادراك الآخرين له ، الا انه يؤثر تأثيراً قوياً على السلوك . فإذا تكون لدى الفرد انطباع بان الآخرين يعتقدون بانه غير مقبول اجتماعياً يكون لديه اتجاه سلبي نحو ذاته ، اما اذا رأى ان للآخرين فكرة ايجابية عن شخصيته فانه سوف يتخذ اتجاهاً ايجابياً نحو ذاته، اي ان ادراك الفرد لذاته يتأثر للطريقة التي يشعر ان الآخرين ينظرون بها نحوه .

٣ ـ الذات المثالية : ـ

وهي نظرة الفرد إلى نفسه كما يجب ان تكون اي انها نوع الشخص الذي يأمل او يود ان يكون عليه وهذه النظرة قد تكون واقعية او قد تكون منخفضة . او قد تكون مرتفعة طبقاً لمستويات الطموح عند الأفراد وعلاقة ذلك بقدراتهم والفرص المتاحة لهم لتحقيق الذات . ان كل فرد يتجنب نفسه في اعماق ذاته فتكون له مثله العليا واتجاهاته وقيمه وتوقعاته واهدافه ومستويات طموحه التي يرغب في تحقيقها .

ان الذات المثالية عندما تبنى على تقدير واقعي لقدرات الشخص الحقيقية ونواحي قصوره فانها تستخدم كمرشد لتوجيه سلوك الفرد من هنا نجد انه كلما قل الاختلاف بين الذات الواقعية والذات المثالية ازداد نضج الفرد واصبح

من المحتمل لهذه الصورة المثالية ان تتحقق . وحينئذ يمكن القول بأنه متقبل لذاته كانسان ولديه الثقة بنفسه وبقدراته ويثق بمن يمدون له يد المساعدة كما تكون لديه الشجاعة على مواجهة امكانياته والعيش في نطاقها والنظر إلى مستقبله واهدافه نظرة واقعية (السيد ، ١٩٧٠ ، ص ٨١ — ٨٢) لمفهوم الذات الاثر الواضح في جوانب الصحة النفسية . والتوافق والنجاح في تنفيذ المسؤوليات في العمل على اختلاف انواعه وقد يتبين ان عدم تقبل الذات او رفضها يؤدي إلى الاضطراب النفسي والصراع والقلق (مليكة ، ص ٥٥ — ٧٥) .

وان الذات لدى غير المتوافق تتسم بعدم الانسجام وكذلك غير المتوافقين يتصـــورون ان انطبـــاع الآخـــرين عنهـــم سيء Gergen. 1971 - P - 41 .

ويتناول الجانب المزاجي — الانفعالي / الحالة الانفعاليـة التي يتصف ويتميز بها الفرد ، وليست الحالات الطارئة غير الاعتيادية وتشمل سلوكيات الاستقرار والثبات الانفعالي وتقبل ما يوجه من نقد إلى افكار الفرد وسلوكه العام ... الخ ، او سلوكيات تناقض ذلك .

ويتناول الجانب العقلي / قدرات الفرد العقلية والنواحي المعرفية والثقافية مثل التذكر والانتباه والتخيل والادراك والذكاء ، والاستيعاب ، والفهـم ، وحل المشكلات او الحصيلة العلمية ، والثقافية ، وسعة الاطلاع ... الخ ، او عكس هذه الخصائص .

ويتناول الجانب الجسمي ، الناحية الجسمية كالطول والقصر والسمنة او النحافة ، وشكل الجسم ، وطرازه والصحة والمرض (Gergen 1991. P. 39-38) .

وهكذا تظهر ان النظرة الايجابية إلى الذات تهيء لصاحبها القدرة على التعامل الناجح مع الحياة عكس النظرة السلبية ، ومن هنا تأتي اهمية الدراسة الحالية لمعرفة مستوى مفهوم الذات لدى طلبة جامعة القادسية ، لما يحتله طلبة الجامعة

بشكل عام من دور الطليعة المتعلمة والتي تضع الأمة املها فيهم لتحقيق اهدافها ، ولما ينتظرهم من تحمل مسؤوليات علمية واجتماعية ، وعليه لابد ان يكونوا في مستوى نفسي جيد ، وما يترتب عليه ليتقبلوا المادة العلمية بشكل جيد ايضاً ، ونكون بذلك قد اعددنا جيلاً في مستوى عال من الكفاءة والتوافق على المستوى العلمي ، والإجتماعي .

أهداف البحث :

سيُجيب البحث على الأسئلة الآتية : —

١ — هل هناك فرق ذو دلالة احصائية بين متوسط مفهوم الذات لدى طلبة الاقسام العلمية في جامعة القادسية ، وبين متوسطي مفهوم الذات العليا والدنيا ؟ .

٢ — هل هناك فرق ذو دلالة احصائية بين متوسط مفهوم الذات لدى طلبة الاقسام الانسانية في جامعة القادسية وبين متوسطي مفهوم الذات العليا والدنيا ؟ .

٣ — هل هناك فرق ذو دلالة أحصائية بين متوسط مفهوم الذات لدى الطلبة الذكور في جامعة القادسية وبين متوسطي مفهوم الذات العليا والدنيا؟ .

٤ — هل هناك فرق ذو دلالة أحصائية بين متوسط مفهوم الذات لدى الطالبات في جامعة القادسية وبين متوسطي مفهوم الذات العليا والدنيا ؟ .

٥ — هل هناك فرق ذو دلالة احصائية بين متوسط مفهوم الذات لدى طلبة الأقسام العلمية في جامعة القادسية وبين متوسط مفهوم الذات لدى طلبة الأقسام الأنسانية ؟ .

٦ — هل هناك فرق ذو دلالة أحصائية بين متوسط مفهوم الذات لدى الطلاب وبين متوسط مفهوم الذات لدى الطالبات في جامعة القادسية ؟ .

حدود البحث :

سيقتصر مجال الدراسة على طلبة المرحلة الثانية في كليتي التربية والادارة والاقتصاد وعلى الأقسام الآتية : —

اللغة العربية والرياضيات والادارة والأحصاء. للعام الدراسي ١٩٨٩/١٩٩٠ .

تحديد المصطلحات :

١ — مفهوم الذات : يعرفهُ (بروملي BROMLEY) بأنه يتضمن العبارات او الكلمات التي تشير الى الطريقة التي يلاحظ بها الشخص نفسه ، اي انطباعه او إتجاهه نحوها . (Bromley. 1977. P. 118)

ويعرفهُ أنكلش (English) : بأنهُ نظرةُ الانسان الى نفسه، الوصف الكامل الذي يستطيع تقديم نفسه في أي وقت يطلب منه ذلك (English. 1977 P. 118).

وكذلك يعرفهُ كانفيلد (Canfield) : بأنه تآلف من التصورات والاتجاهات التي يمتلكها الفرد عن نفسهُ.

أما سبيرز (Spears) فيعرف مفهوم الذات، بأنهُ مفهوم مرادف للشخصية، يسمح بالتنبؤ الدقيق بسلوك الفرد في مواقف متنوعة (Spears 1973 P.147) وأما بكر فيقصد بهِ خصائص الفرد وصفاتهِ الشخصيه الايجابية والسلبية كما يدركها هو في الجوانب الأجتماعية والمزاجية والانفعالية والعقلية والجسمية .

ويتناول الجانب الاجتماعي ، علاقات الفرد بالآخرين واسلوب تعاملهِ معهم ويتضمن سلوكيات ايجابية مثل القدرة على التعاطف والتعاون والأختلاط ويتضمن الثقة بالناس والاخلاق الحسنة ...الخ . أو سلوكيات تناقض ذلك .

التعريف الإجرائي :

هو استجابات أفراد البَحْث من طلبة الجامعة على فقرات مقياس مفهوم الذات.

الدراسات السابقة :

تطور مفهوم الذات لدى الأطفال

١ – دراسة (ماو وماو) Maw and Maw ١٩٧٠

(مفهوم الذات للصبيان ذوي حب الأستطلاع العالي والواطيء)

هدف الدراسة : التحقق من الفرضية التي تتضمن ان الصبيان الذين لديهم حب استطلاع عال يتفاعلون مع البيئة كما لديهم مفهوم ذات جيد .

العينة :

تم اختيار ٢٢٤ صبياً من الصفوف الخامسة من مدارس عامة، ومن طبقات اجتماعية متوسطة ، وكان معدل ذكائهم ١٢ ،١١٠ .

واستخدما معادلات الانحدار لتقديرات الزملاء والذكاء ، وتقديرات المعلمين،والذكاء، وبناء على هذه الأجراءآت تم الحصول على مجموعتين واستخدم الأختيار التائي لدلالة الفروق بين المجموعتين .

أما الادوات التي طبقت لقياس مفهوم الذات عن كل من المجموعتين العالية والواطئة فهي استخدام أجزاء من اختبار كليفورنيا للشخصية واجزاء من استبيان الشخصية : لبورتر وكاتل ١٩٦٠ لقياس قوة الأنا والجهد العالي وقوة عاطفة الذات .

ولغرض اختبار الفرضيات تم استخدام الاختبار التائي والنسبة الغائبة وقد اشارت النتائج الى ان الصبيان الذين يتحملون مفهوم ذات واطيء كان حبهم للاستطلاع واطئاً . والعكس صحيح .

وقسم الباحثان هذه النتيجة على ان الصبيان الذين لديهم مفهوم ذات واطيء قد يميلون الى عدم اظهار حبهم للاستطلاع لانهم يتوقعون الفشل. (١٠) ص١٢٣ – ١٢٩ .

٢ – دراسة هالفاس ١٩٧٧

(العلاقات بين البيئة التربوية والتحصيل والمواظبة والمكانة الاقتصادية والاجتماعية والمكانة بين الزملاء) .

هدف الدراسة : –

تحديد العلاقة بين التحصيل الدراسي ومتغيرات أخرى بضمنها مكانة الطالب بين زملائه (المكانة السيومترية) لعينة من طلاب المدارس الثانوية التجارية تألفت من (٥٠) طالباً ينتمون الى ٣٣ قسماً دراسياً .

ولتحديد مكانة الطالب بين زملائه فقد استخدم اسلوب القياس العلاقات الاجتماعية (سيومتري) طلب فيه من كل طالب ان يختار من يرغب من زملائه في الصف وفقاً لثلاثة معايير هي : –

(أ) الذهاب في رحلة .

(ب) العمل ضمن احد النماذج المكتبية في المدرسة .

(ج) العمل في احدى الوظائف .

وقد استخدم تحليل التباين والأختبارات التائية كوسائل أحصائية لهذه الدراسة بين التحصيل الدراسي ومكانته بين زملائه ووجود علاقة ذات دلالة احصائية بين المكانة الاقتصادية والاجتماعية للطالب ومكانته بين زملائه .

٣ – دراسة واشنطن ١٩٧٨

(العلاقة بين مفهوم الذات والمنزلة الاقتصادية والاجتماعية والاتجاه نحو المدرسة ومستوى التحصيل للطلبة المبتدئين في الجامعة السود وغير السود ... الخ .

هدف الدراسة : —

تهدف الى استقصاء العلاقة بين مفهوم الذات ومتغيرات أخرى من ضمنها التحصيل الدراسي لعينة من طلبة الجامعة بلغت (٢٥٠) طالباً وطالبة ،للمرحلة الاولى في جامعتين من جامعات المسيسيبي . ثم قياس مفهوم الذات باستخدام قائمة تقويم الذات لافراد العينة ثم جمعت المعلومات الاخرى المتعلقة بالتحصيل الدراسي والعمر والجنس والعرق ... الخ .

وقد استخدم الوسائل الأحصائية الآتية تحليل التباين والانحدار .

نتائج الدراسة : —

تم التوصل الى وجود علاقة ايجابية ذات دلالة احصائية في مفهوم الذات بين الطلاب والطالبات (١٢) ص٥٢٥٦

اجراءات البحث

١ — اداة البحث :

تتطلب مثل هذه الدراسة اداة لقياس مفهوم الذات لطلبة جامعة القادسية ونظراً لتوفر مثل هذا المقياس باللغة العربية ولطلبة الجامعة ، لذا فقد اعتمده الباحثون اداةً لبحثهما .

ان المقياس المستخدم في هذه الدراسة هو (قياس مفهوم الذات والاغتراب لدى طلبة الجامعة) (*) .

ولغرض التعرف على مستوى مفهوم الذات لدى طلبة جامعة القادسية فقد قام الباحثون بمقارنة المتوسط الحسابي الذي حصل عليه هؤلاء الطلبة على

(*) المعد من قبل محمد الياس بكر .

مقياس مفهوم الذات مع متوسط مفهوم الذات العالي الذي تم عن طريق استخراج ١٧٪ من درجات الطلبة على المقياس وكذلك ١٧٪ من المستوى المتدني لدرجاتهم على نفس المقياس .

صدق المقياس :

بما ان الباحثين قد استخدموا مقياساً جاهزاً ، وبالرغم من ان معد المقياس الذي استخرج صدقه بعدة وسائل (بكر ص ٨٦ — ٨٧) ، الا أن الباحثين استخرجوا صدق المقياس عن طريق الصدق التلازمي عن طريق ايجاد العلاقة بين تصور الفرد لنفسه وتصوره للآخرين (**)، لأن المبحوثين قدموا جانبين في آن واحد لتصبح كل اجابة تمثل معياراً خارجياً للآخرين وهذا ماأكده معد المقياس (محمد الياس بكر) حيث بلغ (٠,٧٢) .

ثبات المقياس :

استخدم الباحثون طريقة اعادة الاختبار لحساب ثبات المقياس (***) . حيث أعيد تطبيق المقياس بعد فترة (١٤) يوماً على عينة عشوائية من الطلبة عددها (٥٠) وقد بلغ (٠,٧٦)

العينة : —

لقد تأسست الجامعة حديثاً ولقلة عدد الطلبة فيها فقد شملت عينة البحث المجتمع الأصلي طلبة الصف الثاني لكليتي التربية والادارة والاقتصاد ، موزعين على اقسام اللغة العربية واللغة الانكليزية والرياضيات في كلية التربية . والاحصاء والادارة في كلية الادارة والاقتصاد . حيث بلغ عددهم

(**) استخدم الباحثان معامل ارتباط بيرسوب لاستخراج الصدق التلازمي .
(***) استخدم الباحثان معامل ارتباط بيرسوب لاستخراج ثبات المقياس .

(٢٩٢) طالباً وطالبة . وبلغ مجموع الذين أجابوا على المقياس (٢٨١) منهم (١٦١) طالباً و (١٢٠) طالبة -يث مثلت الاقسام الرياضيات والاحصاء مجموعة الاقسام العلمية في حين مثلت الاقسام اللغة العربية والادارة مجموعة الاقسام الانسانية .

الوسائل الاحصائية : —

١ — النسبة المئوية لاستخراج ٢٧٪ العليا لمفهوم الذات و٢٧٪ الدنيا لمفهوم الذات .

٢ — الاختبار التائي T. test

(البياتي ، ص٢٦٠)

٣ — **معامل** ارتباط بيرسون لاستخراج العلاقات بين المتغيرات .

(البياتي ص١٨١)

يستعرض الباحثون في هذا الفصل نتائج الدراسة التي تم **التوصل اليها** لتحقيق اهداف البحث وكما يأتي : —

١ — المقارنة بين متوسط مفهوم الذات لدى طلبة الاقسام العلمية وبين مفهوم الذات العليا والدنيا .

٢ — المقارنة بين متوسط مفهوم الذات لدى طلبة الاقسام الانسانية وبين مفهوم الذات العليا والدنيا .

٣ — المقارنة بين متوسط مفهوم الذات لدى الطلاب الذكور وبين مفهوم الذات العليا والدنيا .

٤ — المقارنة بين متوسط مفهوم الذات لدى الطالبات الاناث وبين مفهوم الذات العليا والدنيا .

٥ ـ المقارنة بين طلبة الاقسام العلمية وبين طلبة الاقسام الانسانية في متوسطي مفهوم الذات .

٦ ـ المقارنة بين الطلبة الذكور والاناث في مفهوم الذات .

علماً ان مجموعة الذات العليا (٨٤) طالباً وطالبة وكذلك مجموعة الذات الدنيا (٨٤) طالباً وطالبة وفيما يأتي عرض لهذه النتائج :

١ ـ المقارنة في مستوى مفهوم الذات بين طلبة الاقسام العلمية ومستوى الذات العليا وبين نفس الطلبة ومستوى الذات الدنيا .

علماً ان عينة طلبة الاقسام العلمية ١١٢ طالباً وطالبة .

تشير النتائج المعروضة في جدول رقم (١) إلى ان المتوسط الحسابي الذي حصل عليه طلبة الاقسام العلمية اقل من المتوسط الحسابي لمفهوم الذات العليا . وباستخدام الاختبار التائي اتضح ان الفرق بين المتوسطين ذو دلالة احصائية عند مستوى (٠,٠١) (*) .

جدول رقم (١)

يبين القيمة التائية المحسوبة لطلبة الأقسام العلمية مقارنة بمفهوم الذات العليا .

الذات	الوسط الحسابي	التباين ع ٢	الانحراف المعياري ع		t المحسوبة	t الجدولية
العليا	٤١٥,٨	١٢٣٦,٨٧	٣٥,١٦٩	درجة الحرية ٥	١٢,٣١٦	٤,٠٣٢
الاقسام العلمية	٣٣٧,٢٦	٢٩٠٥,٣٣	٥٣,٩	مستوى الدلالة ٠,٠١		

(*) القيمة التائية الجدولية عند مستوى (٠,٠١) هي (٢,٥٧٦) .

وهذا يعني ان طلبة الاقسام العلمية في جامعة القادسية لم يصلوا إلى مستوى مفهوم الذات العُليا جداً .

اما عند مقارنة المتوسط الحسابي لمفهوم الذات لدى طلبة الاقسام العلمية مع متوسط الذات الدنيا فقد اشارت النتيجة المعروضة في جدول رقم (٢) إلى ان المتوسط الحسابي لمستوى الذات الدنيا هو أقل من المتوسط الحسابي الذي حصل عليه طلبة الاقسام العلمية في جامعة القادسية ليس متدنياً ولكنه ايضاً ليس بالعالي جداً كما توضح ذلك في جدول رقم (١)

جدول رقم (٢)

يبين القيمة التائية المحسوبة لطلبة الأقسام العلمية مقارنة بمفهوم الذات الدنيا

	الوسط الحسابي	التباين ع ٢	الانحراف المعياري ع	t المحسوبة	درجة الحرية	مستوى الدلالة	t الجدولية
الذات الدنيا	٢٨٥,٥٧	١٥١٨,٨٥	٣٨,٩٧	٧,٧٩٠٦	١٩٤	٠,٠١	٢,٥٨
الاقسام العلمية	٢٣٧,٢٦	٢٩٠٥,٣٣	٥٣,٩				

٢ ـ المقارنة في مستوى مفهوم الذات بين طلبة الاقسام الانسانية ومستوى مفهوم الذات العليا والدنيا . علماً ان عينة طلبة الاقسام الانسانية (٩١) طالباً وطالبة .

تشير النتائج المعروضة في جدول رقم (٣) إلى ان متوسط مستوى مفهوم الذات لدى طلبة الاقسام الانسانية اقل من متوسط مستوى الذات العليا وهذا الفرق ذو دلالة احصائية عند مستوى (٠,٠١) وهذا يعني ان طلبة الاقسام الانسانية في جامعة القادسية لا يوجد لديهم مفهوم عال لذواتهم .

جدول رقم (٣)

يوضح القيمة التائية المحسوبة لطلبة الأقسام الانسانية مقارنة بمستوى مفهوم الذات العليا

	الوسط الحسابي	التباين ع ٢	الانحراف المعياري ع	t المحسوبة	t الجدولية
الذات العليا	٨, ٤١٥	٨٧, ١٢٣٦	١٦٩, ٣٥		درجة الحرية ١٥٧
				١٧, ٨	٢,٥٨
الاقسام الانسانية	١٩, ٣٦٠	٨٨, ٢٨٧٥	٦٣, ٥٣		مستوى الدلالة ٠,٠١

وعند مقارنة المتوسط الحسابي لمفهوم الذات لدى طلبة الاقسام العلمية مع المتوسط الحسابي لمستوى مفهوم الذات الدنيا ظهر وكما هو معروض في جدول رقم (٤) ان متوسط مفهوم الذات لدى هؤلاء الطلبة اعلى من مستوى مفهوم الذات الدنيا وبدلالة احصائية عند مستوى (٠,٠١) وهذا يعني ان طلبة الاقسام الانسانية في جامعة القادسية ليس لديهم مفهوم متدن لذواتهم ولكنه ايضاً ليس عالياً جداً كما هو موضح في جدول رقم (٣)

جدول رقم (٤)

يبين القيمة التائية المحسوبة لطلبة الأقسام الأنسانية مقارنة بمستوى الذات الدنيا

	الوسط الحسابي	التباين ع ٢	الانحراف المعياري ع	t المحسوبة	t الجدولية
الذات الدنيا	٥٧, ٢٨٥	٨٥, ١٥١٨	٩٧, ٣٨		درجة الحرية ١٦٤
				١٠,٥٨٦	٢,٥٨
الاقسام الانسانية	١٩, ٣٦٠	٨٨, ٢٨٧٥	٦٣, ٥٣		مستوى الدلالة ٠,٠١

٣ ــ المقارنة في مستوى مفهوم الذات بين الطلاب الذكور ومستوى مفهوم الذات العليا والدنيا . علماً ان عينة الذكور (١٦١) طالباً .

تشير النتائج المعروضة في جدول رقم (٥) إلى ان المتوسط الحسابي لمفهوم الذات لدى الطلاب الذكور اقل من المتوسط الحسابي لمستوى مفهوم الذات

العالي بدلالة احصائية عند مستوى (٠,٠١) وهذا يعني ان الطلاب الذكور في جامعة القادسية لديهم مفهوم عال عن ذواتهم .

جدول رقم (٥)

يبين القيمة التائية المحسوبة للطلبة الذكور مقارنة بمستوى الذات العليا .

	الوسط الحسابي	التباين ع٢	الانحراف المعياري ع	t المحسوبة		t الجدولية
الذات العليا	٤١٥,٨	١٢٣٦,٨٧	٣٥,١٦٩	١١,٢٧	درجة الحرية ٢٤٠	٢,٠٥٨
الذكور	٣٤٧,١٢	٣٦٠٨,٤١	٦٠,٠٧		مستوى الدلالة ٠,٠١	

اما عند مقارنة المتوسط الحسابي للطلاب الذكور مع المتوسط الحسابي لمستوى الدنيا في مفهوم الذات فقد اشارت النتائج المعروضة في جدول رقم (٦)إلى ان المتوسط الحسابي للذكور اعلى من متوسط مستوى مفهوم الذات بدلالة احصائية عند مستوى (٠,٠١)

جدول رقم (٦)

يوضح القيمة التائية المحسوبة للطلبة الذكور مقارنة بمستوى مفهوم الذات الدنيا.

	الوسط الحسابي	التباين ع٢	الانحراف المعياري ع	t المحسوبة		t الجدولية
الذات الدنيا	٢٨٥,٥٧	١٥١٨,٨٥	٣٨,٩٧	١٠	درجة الحرية ٤٣٦	٢,٥٨
الذكور	٣٤٧,١٢	٣٦٠٨,٤١	٦٠,٠٧		مستوى الدلالة ٠,٠١	

ايضاً الطلاب الذكور في جامعة القادسية لديهم مفهوم لذواتهم اعلى من المستوى المتدني ولكنه لم يصل إلى المستوى العالي جداً كما توضح في جدول رقم (٥)

٤ ــ المقارنة في مستوى مفهوم الذات بين الطالبات ومستوى مفهوم الذات العليا والدنيا . علماً ان عينة الاناث (١٢٠) طالبة .

توضح النتائج المعروضة في الجدول رقم (٧)ان المتوسط الحسابي لمستوى الذات العليا هو اعلى من متوسط مفهوم الذات لدى الطالبات وذو دلالة احصائية عند مستوى (٠,٠١)

جدول رقم (٧)

يشير الى استخراج القيمة التائية المحسوبة للطالبات مقارنة بمستوى مفهوم الذات العليا

	الوسط الحسابي	التباين ع٢	الانحراف المعياري ع	t المحسوبة	درجة الحرية / مستوى الدلالة	t الجدولية
الذات العليا	٤١٥,٨	١٢٣٦,٨٧	٣٥,١٦٩	٨,٨	درجة الحرية ٢٠٢	٢,٥٨
الأناث	٣٦١,٤٩	٢٧٨١,٣٦	٥٢,٧٤		مستوى الدلالة ٠,٠١	

وهذا يعني ان مفهوم الذات لدى طالبات جامعة القادسية هو دون المستوى العالي جداً . واما عند مقارنة مستوى مفهوم الذات لدى الطالبات مع مستوى مفهوم الذات الدنيا فقد ظهر ان متوسط مفهوم الذات لدى الطالبات اعلى من متوسط مفهوم الذات الدنيا ذو دلالة احصائية عند مستوى (٠,٠١) كما هو موضح في جدول رقم (٨)

جدول رقم (٨)

بين القيمة التائية المحسوبة للطالبات مقارنة بمفهوم الذات الدنيا

	الوسط الحسابي	التباين ع٢	الانحراف المعياري ع	t المحسوبة	درجة الحرية / مستوى الدلالة	t الجدولية
الذات الدنيا	٢٨٥,٥٧	١٥١٨,٨٥	٣٨,٩٧	١١,٨١٩	درجة الحرية ٢٥٢	٢,٥٨
الأناث	٣٦١,٤٩	٢٧٨١,٣٦	٥٢,٧٤		مستوى الدلالة ٠,٠١	

وهذا يعني من خلال هذه النتيجة نرى ان طالبات جامعة القادسية لديهن مستوى مفهوم الذات ليس عالياً ولكنه ايضاً ليس متدنياً. كما هو موضح في الجدولين (٧) و (٨) .

٥ ـ المقارنة بين طلبة الاقسام العلمية وبين طلبة الاقسام الانسانية في مستوى مفهوم الذات . علماً ان عينة طلبة الاقسام العلمية (١١٢) والانسانية (٩١) .

توضح النتائج المعروضة في جدول رقم (٩) ان المتوسط الحسابي لمفهوم الذات لدى طلبة الاقسام الانسانية هو اكبر من المتوسط الحسابي لمفهوم الذات لدى طلبة الاقسام العلمية في جامعة القادسية بدلالة احصائية عند مستوى (٠,٠١) .

جدول رقم (٩)

يبين القيمة التائية المحسوبة لمقارنة طلبة الأقسام العلمية والانسانية في مستوى مفهوم الذات الدنيا

	الوسط الحسابي	التباين ع٢	الانحراف المعياري ع	t المحسوبة	t الجدولية
الاقسام الانسانية	٣٦٠,١٩	٢٨٧٥,٨٨	٥٣,٦٣		درجة الحرية ١٩٣
				٣,٠٢٢٧	٢,٥٨
الاقسام العلمية	٣٣٧,٢٦	٢٩٠٥,٣٣	٥٣,٩٠		مستوى الدلالة ٠,٠١

جدول رقم (١٠)

يبين القيمة التائيه المحسوبة لمقارنة طلبة الاقسام العلمية في مستوى الذات

	الوسط الحسابي	التباين ع٢	الا نحراف المعياري ع	المحسوبة د	الجدولية
					درجة الحرية
الأناث	٣٦١,٤٩	٢٧٨١,٣٦	٥٢,٧٤		٢٧٦
				٢,١٢٨	٢,٥٨ مستوى الدلالة
الذكور	٣٤٧,١٢	٣٦٠٨,٤١	٦٠,٠٧		٠,٠١

٦ ــ المقارنة بين متوسط مفهوم الذات لدى الطلاب ومتوسط مفهوم الذات لدى الطالبات .

تشير النتائج المعروضة في جدول رقم (١٠) ان هناك نظرة لدى الذكور اكثر ايجابية من الاناث لمفهوم الذات لدى طلبة جامعة القادسية وقد كان الفرق ذا دلالة احصائية بين المتوسطين عند مستوى ٠,٠١ .



المقترحات :

١ — زيادة فعالية عملية الارشاد والتوجيه للطلبة .
٢ — الاكثار من اللقاءات بين عمادات الكليات ورئاسة الجامعة مع الطلبة للوقوف على مشكلات الطلبة ووضع الحلول لها .
٣ — اشعار الطلبة المتدنين في التحصيل بأي تقدم يحرزونه بهذا الجانب .
٤ — اعطاء فرص للطلبة للتعبير عن هواياتهم وقابلياتهم وتوفير المستلزمات لها .
٥ — انشاء صندوق مالي لمساعدة الطلبة مادياً على ان تسترد المبالغ منهم بعد التخرج اقساطاً .

المراجع :

١ — السيد ، محمد توفيق وآخرون ، بحوث في علم النفس ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٠ .
٢ — بكر ، محمد الياس ، قياس مفهوم الذات والاغتراب لدى طلبة الجامعة ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة بغداد ، ١٩٧٩ .
٣ — البياتي ، عبدالجبار توفيق ، وزكريا اثناسيوس ، الاحصاء الوصفي والاستدلالي في التربية وعلم النفس ، الجامعة المستنصرية ، بغداد .
٤ — القاضي ، يوسف مصطفى واخرون ، الارشاد والتوجيه التربوي ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ١٩٨١ .
٥ — مليكة ، لويس كامل ، علم النفس الاكلينكي ، جـ ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .
٦ — مليكة ،لويس كامل ، قراءات في علم النفس الاجتماعي في البلاد العربية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

7. Bromley, Dellnis, B. personality Descriptions in ordinary Language. London John Wiley 1977 .
8. English, Horce B. A Comprehensive Dictionary of Psychological and analytical Terms London Longman 1970 .
9. Gergen, Kenneths. The concept of Self Nowyork Holt Rinebarty & Winston 1971 .
10. Maw, Wallance, H.E. thel W. Maw. Self Concept of high and low Curiosity bays Child Devolopment Vol. 14 No. 1 March 1970 .
11. Spears, William and Deese M.E., Self Concept are acouse Eductional Thory Vol. 23 No 2 1973 .
12. Washington, carl E. Relationship between Self Concept, Sociometric status attitude to ward School and level of achievement of black and non-black sunior. College freshman Disseretion Abstracts International Vol. 39 No 9 March 1979.

